Fatma Mostafa

رواية

عشاق الحياة

ارميا قيصر

عشـــاق الحيـــــــا ة

(صراع الحياة والأحياء)

أرميا قيصر

دار النشر:

تدقيق لغوي: همزات للتدقيق والترجمة.

(د. أسامة خالد - د. عمر عطوة)

إهـــــداء...

مقدمة

أجلس وحيدًا في مقهًى على النيل، مكاني الدائم المفضل، يستدير من حولي الأفق، أشعر بألفة تغمر المكان، أعرف هذا الكون اللامتناهي، وحدي وأمامي الأبدية، رائحة الكون غريبة، مثل عطر امرأة أنام جوارها في خيالي، الأصوات لها وقع نظيف في أذني، مثل حفيف أجنحة الطير، صوت محمد منير ينادي:

آه يا عشاق الحياة...

هذا عالمي المُنظَّم، بيوته وحقوله وأشجاره مرسومة وَفقًا لِلَحظةٍ عبثية، أشعر أنّي لست طبيعيًّا، أنّي طيف يعيش على الأرض، زرت المدائن ودخلت الأوبرا والمسرح وحضرت حلقات الذكر الصوفي، أتذكر ما قاله لي القسِّيس يومًا:

"كلنا يا بني نسافر وحدنا في نهاية الأمر"

كانت يده تتحسس الصليب على صدره، وتضيء وجهَه ابتسامة كبيرة، وأردف:

"وأنت يا بني تسافر في صحبة روحك".

أتذكر هذا وأنا مستلقٍ على كرسيٍّ من الجريد، ممددًا ساقيَّ على السور المطل على النيل، شغوفًا بأهداب رقاق يطرب لها قلبي، طربًا قدسيًّا كأنما يزيِّن آذاني سجعُ ألحان إلهية، شاخص العينين في اللا شيء.. ولكنّي في الواقع مثبت حدقتَي عينيَّ على حركة الأمواج الهادئة وأسراب الحمام التي تظهر بين الحين والآخر.

ما زلت رغم غيابي واضعًا سماعتي الأذن، أُرهف السمع في استمتاع للموسيقى التي تنبعث من الهاتف، الموسيقى شيء بسيط يأتي بسعادة تثلج صدري، توقظ الطفل الرابض في الداخل.

كعادتي.. أسرح بأفكاري، تدور برأسي كثير من المتناقضات والخواطر وحتى الأمنيات، أولها أن أصبح كاتبًا ذات يوم، كل ما أتمناه أن تُخلَّد تجربتي وتنبض مشاعري حبرًا على ورق، هذا هو الحلم المنشود ورغبتي المتقدة في حنايا الروح..

فأنا لا أريد أن أذكرَ اسمي لكنِّي معجب بتجربتي وأتمنى أن يعيشـها الناس، وأنا رغم حداثتي يسكن بداخلي كهل يقارب الثمانين! أعيش في قمة العطاء والنشوة والألم، صافيَ المزاج، رائق البال، منبسط الأسارير في ديمومة وتَبَـتُّـل، أغوص دائمًا في عالم الأدب، تجذبني العبارات الروحانية الجذلة والتركيبات والمعاني الصوفية التي تتغلغل في داخلي، اقتحمت بكارة الكتب ومجاهلها، أغترف ولا أتوانى، قرات الشعر والتصوف والفقه والقانون والإنجيل والقرآن والتوراة.

أومن أَنَّ المعرفة فرض على الإنسان مثلما تكون الثورة فرضًا على الطغيان، وصلت إلى حالة من الوداعة لو عرفها البشر لما نشبت حرب في نواحي الأرض، أحسب العمر بالمتعة لا بالزمن، لأنني لا أحب الملل،

يجعلنا الحزن نبكي ونغني، نتكلم ونتألم، نشعر بمرور الزمن.. لكن الملل تتوقف عنده عقارب الساعة، تأبى الأرض غروبًا وشروقًا.

في لحظتي هذه وأنا مستلقٍ هادئ الروح، أفكر في قرارٍ لعله الأجرأ، أفكر أن أكتبٍ قصة حياتي، أدرك جيدًا أنّ الكتابة جرأة لا يملكها كثيرون، لكنّي اعتدت كوني جريئًا، أعيش اللحظة دون النظر إلى العاقبة، أريد أن أفرغ ما بجعبتي من كلمات وقصص وحياة، لعلها ضوء ينير القلوب، يرسم طريقًا لمن لم يعش التجربة، إلى الآن لا أعلم من أين تكون البداية، لكن الأهم أن في حياتي شيئًا يستحق الذكر...

لا أعرف ماذا أكتب إلا أنني أريد أن أفرغ مشاعري المشتعلة في قلبي، لذا أول ما سأكتب هو كلمة "إنسان".. مشروعي الأبدي وحلمه أن يعيش النعيم!

شر الحياة كامن في أناس عشقوا أنفسهم وظنوا الخلود، وشر ما يقلق الإنسان هو جوهر تمسكه بالحياة، كل إنسان يريد حياة الدَّعة والهدوء دون مشقة، وهذا عبث.

هؤلاء كمن يحرثون الماء، فالسكون لن يحدث إلا بالرضا..

السعادة قدرة، أبوابها لم تفتح إلا لمن يطرقها، تُفتح بمعرفة الذات، أن تجعل رحلتك الشاقة نزهة مشوقة.

كان أهل الغال أيام الإسكندر يتأملون النجوم على أنها نقوش في سقف، ونحن إلى الآن نتأمل الحياة على أنها ظواهر ونقوش، حدودها ما نلمسه ولا نحاول أن ننفذ إلى جوهرنا.

الحياة سيمفونية أنت عازفها، فإن لم تكن كذلك، اجلس رغمًا عنك بين الجماهير وانتظر ما يقدم إليك من موسيقار آخر وما عليك إلا الإشادة، فبئس المصير!

يخطئ الإنسان في حق نفسه عندما يكون مثل الماء؛ بلا طعم ولا لون، الطعم موجودة في دواخلنا، لكن من يتذوق؟! ابحث عن نفسك، اقرأ، استمع إلى موسيقاك، المال والشهرة ليسا إلا مُعوِّضَات لنواقص فينا، إذا وجدت نفسك أجحفت بهما، فستقبل النواقص عندما تعرف ذاتك، تصبح إنسانًا، ولكن ما أندر الإنسان!

كتبت شيئًا مما يحدث داخلي، ألقيت قلمي وقد أحسست راحة كبيرة، نشوة لا يمكن وصفها، استلقيت مجددًا وبسطت ذراعيَّ وأنا أتأمل دوران الناس من حولي، وضعت سماعة الأذن فانساب منها صوت عبد الوهاب يغنى طربًا: "عشق الروح مالوش آخر.. لكن عشق الجسد فاني"

لم تخلُ أوقات التأمل من لحظات كدر تعكر صفوها، فالحياة لا تعطينا السعادة مجانيًّا، مثل النائم وهو يتغاضى عن قدر خفيف من ألم الأسنان، لكنني اعتدت أن أرمي تلك المشاعر خلف ظهري بعد ما مررت به من تجارب، أصبحت أستقبل دفقاتِ الكآبة الغامقةَ مثلما يستقبل سطح الماء قطعة حجر، يمتصها بداخله، مثل موجة خفيفة لا تكاد تبدأ حتى تنتهي، تبتلع الحجر بداخلها وتعاود السكون.

بعدما أنقذت نفسي من ألم التجربة، تولدت بداخلي طاقة تريد أن تغير الكون، أرى نفسي في صورة أفضل مما كانت عليه، لقد ملأني الحب ثقةً وحبورًا..

أمضي وقتًا طويلًا أداعب لحيتي، أفكر في أمور الكون في هدوء، سعادتي ببلوغ شيء من الحقيقة تناطح السحاب، حقيقة الله والروح والإنسان والحياة، كما أنّي أدركت من التجربة حقيقة الألم، ألم الرضا بحكم قاسٍ حُكم عليه بعدم الأهلية، مثلما آمنت بألم الفراق والشك واليأس، ألم

يُحتمل وألم يُستلذ به، ألم لا يهدأ مهما قُدِّم له من قرابين ودموع.

آمنت أن وجه الألم الجميل شرارة نسير على ضوئها في طريقنا الوعرة، فالحياة تجري وهي جميلة بشكل خفي لكن الأشياء تُفسر تدريجيًا.

أبحث عن قيمة الروح و الحقيقة، قد لا أعلم أية حقيقة لكنني لا أكف عن السعي، فانزوائي على نفسى والغوص في عمق أفكاري شيء يروقـني، يجعلني سعيدًا ثملًا بالنشوة، لا تستطيع أن تعوضني عن تلك المشاعر سنون من الضحك.

أتساءل، لمَ يضحك هؤلاء البلهاء؟! أكُلُّ ضحكٍ سعادة؟!

يا له من ضحك جريح وقلوب تدمع وثغور تبتسم في كلاحة، كذب دميم وسخرية سوداء، كذب من نوع آخر، كذب على النفوس.

بمَ يفيد جمال المظهر إن كان الجوهر مظلمًا، أيشفعُ لنا ذلك عندما نجثو بين يدي الخالق؟

عندما اجتزت تلك النقطة الصلدة بسخريتها الموجعة سَمحْتُ لمشاعري بالعودة إلى حالة الارتياح.

سأكتب لكني لن أكتب إلا شيئًا يضيء بداخلي..

أعلم أنى حالة فريدة، عقيدتي الإيمان بالحرية التامة والتفكير المطلق دون قيود، وتأكيد تفرد الإنسان في اختياراته، أعتقد اعتقادًا تامًّـا أن المتعة هي القيمة الجوهرية للحياة، وأن للجميع الحقَّ في بذل كل ما في وسعهم لتحقيق أكبر قدر ممكن من المتعة، لكنّي أعيش مأساة المثقف الأزلية لرفضي الواقع، والواقع لا يتغير.

ورغم أني أعيش حالة من التصالح مع النفس والأشياء، مع الحزن والموت والناس، فأنا أظل متمردًا أبحث عن القيمة العليا، أحب الجنس البشري لكني ناقم على أفعاله التي تهيننا وتقتل الطبيعة.

أبحث فيما هو مُزمَعٌ أن أكتب محاولًا تلخيص صراع الإنسان في البحث عما يريد، أركز على قيمة الإنسان وكفاءته بجانب تفضيله للروح والاستدلال على الدين والعقيدة والجوهر، رفضه للنزعة العسكرية والقومية والتمييز بين الناس، والفقر والفساد، أسعى إلى تكريث اعتقادي بأن تقديم المنفعة والخير للناس وبقية الكائنات وتجنب الأذى هما أسمى القيم.

بعدما ازددت شفافية بفعل الحب وشعوري أنّي اقتربت من تحقيق أحلامي، أريد أن أسحر الجميع وأعلِّمَ الناس كل ما تعلمته من تجربة الثورة والحب والخذلان، هكذا أرى أن لحياتي قيمة، وأنتظر اللحظة القادمة التي تستهدف الثراء الأبدي خلقت لنفسي عالمًا ورديًّا؛ اللون الوردي يمتص روحي ذاتها، أعيش الآن وحيدًا أراقب الكون في ورع، أدرك أن مرارة تجربتي غيرت طبيعتي إلى الأبد. لم أكن أشعر بشعور كهذا وأنا أراقب النجوم ولم تكن الحياة تستطيع أن تحدث هذا الإعصار في روحي إلا بالتجربة والألم.

ولهذا قصدت أن أسجلها في رواية، لعلها تفيد من يأتي بعدي، أثر غنائي وحياة خليقة بالتأمل والحب والثورة والتمرد.

سأحكي عن تجربتي مع الثورة والحب، والمنحنى الذي مر به معظم شباب مصر من آمنوا بالثورة والتغيير، عن الأمل وضياع الأمل، قد لا تكون روايتي مثيرة لكنها قد تعبر عن تجربة مر بها جيل كامل، لكنّي سأتجرد من نفسي

وأظهرها وأظهر المواقف والمشاعر على حقيقتها كأنها حدثت لشخص آخر غيري، كل ذلك دون خجل أو مواراة، فما نخجل قوله للناس نقوله على الورق، وذاك سحر الورقة والقلم والكلمة.

البداية

بصفتي كاتب الرواية سأعتبر نفسي بمنزلة صانع للشخصيات والأحداث والأماكن، ورغم حقيقة القصة وواقعيتها فأنا سأذكر اسمًا غير اسمي ومدينة غير مدينتي لأني أخشى أن يُلقى بي في السجن مجددًا..

بدأت القصة في إحدى ليالي الشتاء القارس في غرفة كئيبة في إحدى منازل هذا الحي العتيق من مدينة من مدن الصعيدالمجهولة، مدينة تحمل طابعًا تاريخيًّا لكنه زال بزوال كل جمال من القُطر المصري، اختفى طابعها القديم الجميل وحل مكانه أجواء من الفوضى التي لم تكن موجودة في الماضي القريب، كانت تحفل هذه المدينة بجو من الألفة و"الونس "لا تعرفه أي من المدن المجاورة، يعمل معظم أهلها في أعمال يدوية تكاد تنقرض الآن بحُكم الحداثة.

يجلس جَوقة من الرجال يسكرون ويدخنون "النارجيلة" والسجائر المحشوة في نهم بالغ وسلطنة، تحيط جماعتهم طاولة قِمار مشتعلة بنار الحرب القائمة بين المكسب والخسارة...

مجموعة من الموظفين يجمعهم وحدة البؤس وشظف العيش فليس لهم سوى أن يقضوا سهراتهم في اللهو والسمر بعدما كبرت أرجلهم على التسكع في الشوارع، أصبحوا يخجلون من ارتياد المقاهي، لعل هذه الأسمار التي يزينها صخب ضحكاتهم المختلطة بدخان الحشيش و"لحسات" الأفيون التي تخبئها الألسن فتجعل أجسادهم مزهوة في خدر وانتشاء.

تمتد هذه الجلسة إلى أجداد أجدادهم، فمنذ الأزل وحي القسرية بمدينة
نقادة حافل بالسلطنة وليالي الأنس، يرجع ذلك إلى كثرة دكاكين العطارة التي لها أهميتها عند أهل الصعيد، ولأن الفقراء لا يسعدهم سوى الحشيش واللعب ولا يلهيهم عن متاعب الدنيا سوى الخمر ولا تطرب آذانهم سوى قرقرة الشيشة، فحفلوا طيلة القرن الماضي بهذه الجلسات التي امتدت إلى زماننا هذا في هذه المدينة، والتي زادت في أيامنا الاخيرة في عهد حسني مبارك.

الأيام التي عبس فيها وجه مصر أكثر مما سبق، وبالأحرى مدن الصعيد المنسية.

ضاق العيش فأصبح لا ملاذ للناس سوى الغياب، فالمحظوظون منهم هم من يطولهم الغياب الأخير!

كانوا يرددون كل مساء عندما تنتشي الأدمغة وتسطل وتخرج الروح من جواب المفروض؛ تبيح بالمكنونات فيتبادلون الأهازيج والحكايات كلٌّ على طريقته، أكثرهم تأثيرًا كان رفعت معجوب الذي لا يتكلم.. بل يغنى مربعاتٍ تراثيةً قديمة يشتهر بها أهل الصعيد فيرد عليه نسيم أبو جميل بنفس الطريقة لكن مربعاته تتخللها بذاءات فجة وسخرية وقحة إلى أن يتراشق الاثنان فيفصل بينهما هلال عبده المسيحي المحترم كما يرددون دائمًا ومحمود الشامي مدرس اللغة الإنجليزية وصديقُ هلالٍ المقرب.

كان هذا الأخير أكثرَهم مالًا وأيسرهم حالًا يتكلم في أنفة وفخر ولا يكثر من شرب الخمر كي لا تهتز صورته أمام الجوقة، فقد منَّ عليه الله بفطنة لامعة وذكاء ولاد البلد وحظ اليهود، فكان كثير المكسب على طاولة القِمار في هدوء ووقار ودون أن يحدث جلبة أو يثير حفيظة رفعت معجوب الذي كان أكثرهم ضجيجًا وصياحًا وغضبًا عند الخسارة.

ولكن هذه الليلة جاءت مختلفة الوجه عن سابقاتها، فمنذ بدايتها أتى السيد هلال مُكفَهِـر الوجه عابِسَـه، معكر المزاج لسبب لا يعلمه أحد سواه لكنهم قرؤوه بفطنتهم وروح ولاد البلد وبحكم طول العشرة، جمعوا نشارة الكلمات التي قالها وهو ثمل فاستوضحوا سبب ما هو عليه الآن.

أقبل على الخمر هذه الليلة في شراهة لكنه ظل على شروده وجموده الذي شغل عقل محمود الشامي، أخذ

ينظر إلى عين صديقه عله يقرأ ما يخبئ ولكنه لم ينجح، كانت نظرات الرجل غائمة مضطربة، والعين تحيط بها هالة سوداء دلالة على الإرهاق وانعدام النوم، لكنهم لم يجرؤوا على أن يفتحوا بابًا للسؤال لأنهم لم يعتادوا هذه الأمور من هلال عبده منذ أن تصادقوا وجمعهم الليل.

وما إن بدأ مفعول الخمر في رأسه أخذ يهذي بكلمات غير مفهومة وجمل غير مكتملة، فراح يقول: يبدو أن العمر قد وصل إلى محطته الأخيرة.

قالها وهو شارد لا ينظر إلى أحد، فردَّ عليه رفعت معجوب على طريقته لعلّـه يُضحكه ويُضحك نفسه، فقال:

على حظي أنا اللي اتلوى الزان
لما عملت سريري
لو يوزن القول وزان
قمحك ما يسوى شعيري.

ضحك إبراهيم أبو جميل الذي كان الكلام موجهًا إليه ثم خلدوا جميعًا إلى الصمت الذي فرضه فتور السيد هلال الذي راح يردد كـمَنْ يحدِّث نفسه:

لقد رقد الجمل!

اتضحت الصورة الآن، يبدو أن الرجل أخفق في واجباته الزوجية، ولعلَّ هذه الليلة تراكمت فيها ليالٍ سابقة حاول فيها ممارسة الحب ولم ينجح فلم يجد مهربًا مما هو فيه سوى الخمر الذي لم يدمنه كثيرًا.

يفكر في لذة الحياة (المفقودة) وهيبة السيد المحترم (الضائعة في بيته) وانكماشه في المخدع الذي حفل بصخب الليالي وسيول اللذة، كل ذلك تقوَّض في أقلَّ من

شهر وأصبح يسكن العراء، يرقد جوار زوجته لا حول له ولا قوة سوى بضع محاولات فاشلة إلى أن ضربه القنوط فاعتلت روحه عصبية مفرطة فأصبح يستشيط غضبًا ولأتفه الأسباب، تبدلت معاملته مع زوجته وابنه ولم يعد يطيق كلمة، تبدل حاله فأصبح يقضي معظم النهار خارج البيت.

الحقيقة أن الرجل هُزم أمام نفسه فظن أن الجميع ينظرون إليه مثلما ينظر هو إلى نفسه، وبمرور الليالي ساءت حالة الرجل الذي لم يترك طبيبًا ولا عطارًا إلا لجأ إليه، حتى أهل السحر والأعمال لجأ إليهم لعلّه مربوطٌ بفعل السحر.. لكن جميع المحاولات لاقت فشلًا حتى آمن الرجل بالحقيقة، حقيقة أنه انتهى.

أصبح يُقبل على الخمر والقِمـار إلى أن يخسر كل ما في جيبه ويقع مَغشيًّا عليه من فرط السُّـكْر.

يلعب دون تركيز، فيشرب كثيرًا ويخسر أكثر، وفي كل ليلة يأخذونه إلى زوجته مَغشيًّا عليه بفعل الخمر، إلى أن وصل الأمر إلى حد الاستدانة.
كأنه كان يدفن غيظه في الورق ويعلن سخطه على المال الذي لم يعد ذا قيمة بعد ما فقد رجولته وخفتـت فُحُولتـه.

مرت هذه الفترة ريحًا عاتيةً كنست أمامها عمامة الرجل وما تحويه من كبرياء وهيبـة بين نفسه وبين أترابه.

ساءت حالُـه فأهمل زوجته وأعماله؛ تضاعفت ديونـه أكثر فأكثر ومضت ريح الخسارة تكنس كل ما تلقاه في وجهها، فضاقت روحه بالحياة والعيش فركبه الغم وهو مريض بضغط الدم المرتفع، فأصيب بجلطة قلبية.

قيل في ذلك الفتى المعجباني ما قيل عن رزانته ووقاره واحترامه فأخذت الألسن تلوك أسباب هذه الوعكة المفاجئة؛ راحوا يقولون:

"إن هذا الرجل مأخوذ بفعل شيطاني. معمول له عمل ألقي على باب دكانه".

ويقول آخر:

"لقد ضربته عين كارهة حاسدة".

وبينما هو راقد في إحدى ليالي طوبة الباردة كان يزوره محمود الشامي كي يسليَ رقدته، كانت ليلة باردة طلب فيها السيد هلال من صديقه أن يحضر له "لحسة" أفيون، فأبَى الأخير أن ينصاع للطلب فاستشاط السيد هلال غضبًا، الأمر الذي جعل صديقه يخاف أن ينتكس أكثر من فرط العصبية فانصاع له محمود الشامي وجلب له قطعة أفيون ودسها في يده وهو يدعو الله أن تكون العواقب حميدة!

فكر أن يجرب حظه مع امرأة أخرى لعلها تُلهب ذكورته، كما أنه ظن أن الدم قد يَبـسَ في الشرايين، فراح يفكر أن الأفيون قد يعيد الدم إلى مجراه؛ أخذ لحسة الأفيون وتلاها بكوبين من الشاي، وهذا عكس ما نصح به الطبيب تمامًا! فزاد ضغط الرجل الذى لم يعد يحتمله جسده الواهن وقلبه المُرهَق؛ أخذ جسده ينتفض ويختلج بين يدى صديقه، طلب أن يرى ابنه وهو يصرخ وينادي باسمه، أدخلت الزوجة ابنها وهو يرتعد خوفًا، وما إن وصل إلى طرف السرير نظر إليه الأب نظرة عميقة تتخللها ابتسامة عريضة ثم ثَبَّـت عينيه على الولد.. ولم ينبس.

لقد فاضت روحه وذهبت إلى بارئها، وكان آخر ما قام به دمعة طفقت من عينه وهو يبتسم لوحيده الذي ضمته الأم وهي تكتم صرختها.

يتذكر محمود كلمات صديقه التي قالها في أزمته الأخيرة:

"إن الأحزان مثلُ الغيوم تعكر صفو السماء وتحجب وجه القمر لكنَّها سرعان ما تنبلج وتذهب بعيدًا وتخلف وراءها ذكرى جميلة لأنها زينت وجه السماء".

انعقد الظلام في وجه الزوجة وتكاثفت الهموم، تساقط رذاذ الحزن ثقيلًا يأبى أن ينبلج، اجتاحت أيامها عاصفة سوداء من تبدل حال الرجل إلى عربدته، تلاها مرضه ثم الموت الذي أتى سريعًا.. تاركًا خلفه فضيحةً لن يمحوها الزمان في مدينتنا التي لا تنسى ولا تغفر السقطات..

لقد مات الرجل مديونًا مقامرًا مخمورًا، مُخلفًا وراءه طفلًا يتيمًا وزوجة مكلومة ورصيدًا من الديون، أوشكت الكآبة والحزن أن تقتلا الزوجة التي تلقت الخبر بقلب أخضر يتأهب للحياة، فسقطت تحت أنقاض الصدمة حتى كادت أنفاسها تتوقف، تاهت في عوالم سحيقة من التيه والخوف فتجلت أمامها جثة زوجها المُسجَى في سلام وعلى وجهه شبح ابتسامة باهتة، وكأنه يودع الكون في عبث وسخرية.. ولكنها كانت تنتظر الفضيحة والشائعات التي سوف تنفتح كالمناطيد.

تراقص أمامها تمثال الطفل الذي لم يبلغ الثامنة من عمره فاغرًا فاه ولا يدري من الأمر شيئًا، احتشدت في صدرها مشاعر متضاربة بين الحزن والخوف والخجل من الفضيحة التي لحقت بهم، وهم أسرة عُرفت بطيب السمعة مثل شمعة مضيئة في ظلام مدينتنا الحالك!

يا لها من ضربات قاسية عنيفة، أقصاها تحمل مسئولية طفل أصبح يتيمًا بعدما نشأ في كنف زوجها الذي رباه على الدلال والترف، ظلت عيناها محتقنة بدموع ترفض النزول، لكنها أوشكت أن تُجن، سرعان ما تداركت مشاعرها في تريث وتظاهرت بالتماسك والرضا بقضاء الله وقدره وأبت في داخلها أن يشاركها أحد في نكبتها، حتى محمود الشامي شكرته مُبلِغة إياه ألا يعولهما، وما إن انفضَّ سرادق المَعزَى أغلقت بابها على نفسها وراحت تفكر في أمور حياتهما في تريث...

لم تخلُ الأيام التالية من قدوم بعض المُعزّيات الشامتات في قلوبهن، انهالوا عليها بكلمات التعزية والرثاء فقابلتهم في خشوع ومودة وقلب مؤمن ولكن بعضهن تتبادل الغمز واللمز عن أسباب الوفاة، فقالت إحداهن وفي صوتها نبرة حزن زائفة: "لا تحزني يا بنيتي فهذا قضاء الله الذي لا رادَّ فيه"، فأجابت الزوجة دون أن تُزيغ بصرَها وقالت في وقار: "نحمد الله على كل ما يأتي".

قالت أخرى: "لا تحزني فالحزن مرض قاتل وأنت ما زلتِ صغيرة والعمر أمامك"، فردت الزوجة في هدوء: "لا داعي للحزن؛ كل ما يجلبه الله لنا فهو بحكمة وسماح منه حتى وإن كان موتًا".

اللعنة! لا يبدو أن أحدًا يجهل الواقعة، الأخبار تعلن بعد الوفاة مخلفة رأسًا يطن بالفكر وصدر يفور بالألم.

ثم عاد النساء إلى ثرثرتهن سريعًا فاستقبلت الأم هذا بقلبٍ أضناه السخط ودعت إلى الله من قلبها أنْ تمر هذه الأيامُ سريعًا وتخلد في بيتها في دَعةٍ وهدوء.

مرت شهور أفاقت فيها الأم من سَكْرَةِ الحزن فبدت لها الحياة في ثوب رجلٍ قاس وبدأت تتلمس أولى صفعات ضِيق العيش؛ فزوجها لم يترك لها شيئًـا سوى دكانه الذى أُغلِـق طَوال الفترة الماضية، ففكرت كثيرًا ووثبت للنضال، وأجمعت على أنْ تُقابل الدنيا بقلب رجلٍ ذي عقلٍ رزين، فسحبت ما توفر من نصيب صغيرها وأزمعت أنْ تعاود فتح الدكان وتضيف إليه بعض الأغراض التي تزيد مِنْ دخله.

راحت المرأة تسأل أهل المهنة وتستشير ما تيسر أمامها مِنْ أصدقاء زوجها، فوقفت على بواطن الأمر ومداخل هذه التجارة.

مرت الأيام وعاد الدكان بقوة تضيء واجهته في قلب الحي وهي رابضة داخله، واستقبلت طريقًا شبه خالية وحياة جديدة، أخذت السَّكِينَة تتسرب إلى قلبها بعدما استقامت لها الحياة وسكنت وأملت أنْ تمضى الحياة هكذا هادئة بين العمل وتربية الطفل الذى سمته ناي لعشقها لهذه الآلة الحزينة وبالتالي سمت الأمُّ الدكانَ باسمه.

عطارة ناي

1

تَعَلَّق الصبى بالدكان أيَّما تَعَلُق، تعجبه رائحة البصل المطحون ورائحة القرفة والزنجبيل والمسك والعنبر...

أكثر ما يميز هذا الدكان أناقته التي كانت تضفي على روح الطفل ارتياحًا يهنأ له.

ثابرت الأم على الاهتمام بمصدر رزقها فأفـنـت أيامها بين الدكان والصبي الذى أخذ يترعرع في كنفها على قدر كبير من الراحة والتدليل، إلى أن حدث ذات يوم وهو يلعب مع الغلمان أنْ تشاجر مع أحدهم، كان الولد سليط اللسان فراح يكيل السباب لناي ويعايره بموت والده، الأمر الذي دعا الأم إلى أنْ تحكم الإغلاق على وحيدها لأعوام أثرت على روحه.

امتنع عن مصادقة أطفال الحي فتربَّـى في حِضـن والدته، تكونت شخصيته بمقربة منها فأخذ كلَّ خصالها وطباعها كما أن المَـلاحـة كانت بادية على وجهه لا تخفى، شعره المسترسل إلى الأمام يضفي إليه منظرًا أنثويًّا، وبدورها.. اهتمت الأم بمظهره كثيرًا لتثبت لأهل الحى في قرارة نفسها أنَّها ربت وحِيدَهـا أفضل تربية، لكن ذلك الاهتمام الزائد ترك أثرًا سيئـًا في نفس الصبى، فأصبح خجولًا يَحمَـرُّ وجهه لأتفه الأسبـاب، يلجأ لوالدته في كل كبيرة وصغيرة، غير أنَّه كان يخاف الاحتكاك بالناس...

ترسخ في نفس الصبى إحساس بانعدام الثقة وضعف الشخصية، هذه الأمور التي لم تلحظها الأم لضعف خبرتها، كما أنَّها استراحت إلى هدوئه وسكونه لأنَّه لم يجلب لها المتاعب، لم تكن تدرك أنَّ هذه الأمور قد تعيق حياة الابن حينما يشب، أو تجعله ينزوي على نفسه فيفقد الكثير من لذات الحياة النابعة من عمق التجربة، فشـبَّ وحيدها ضعيف الخبرة بالحياة والناس.

توالت السنون وشب الفتى دون أصدقاء أو معارف، مخافـة أنْ يصدمه أحدهم بالحقيقة، هذا الأمر لم يغضب الأم، خوفًا منها أنْ يجرح أحدُهم مشاعـرَه ويذكره بماضي

والده الذى ظل يلاحقه طَـوال أيام حياته إلى أن وصل إلى الجامعة.

مرت عشر سنوات على رحيل الأب لم تشعر بهم الأم إلا في لحظات تضربها سهام الوحدة فتتوق إليه، أتتها فرص كثيرة للزواج ولكنها كانت ترفض، لقد كرَّسـت حياتها لتربية ابنها الذي شب الآن وبلغ سن الجامعة، كانت فرحتها به لا توصف، فشكرت الله كثيـرًا ودعت لوحيدها أنْ يديم الله عليه نعمة الحياة الهادئة.

لقد شعرت بالخلاء يكتنفها لكنهـا أبت أن تستسلم لليأس واستدارت تقول: "ليس لنا من قريب نعتمد عليه وقد رحل العزيز الغالي دون أنْ يترك لنا شيئًا، الحياة تبدو كالحة لكن الله لا ينسى عباده، كم مِنْ أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها إلى بر الأمان، لا أحد يموت جوعًا في هذه الدنيا وسيأخذ الله بيدنا، أمَّـا المصيبة التي لا تبخل عن التعزية فهي موت سَنَـدي ومُعيني.

هكذا قالت لنفسها في بداية حياتها الجديدة لكنها عزمت أنْ توطِّـن نفسها على تحمُّل ما قُدِّرَ لها من حظٍ وصبر وكرامة، ورمت بهذه الأفكار إلى ناي.. الذي لم يكن يعي من الحياة شيئًـا فأصغى إليها ولم ينبس ببنت شفة.

هكذا مضت تدبِّـر أمورها إلى أنْ وثب الحال مِن الشُّحِ إلى الرفاهية، لقد أنعم الله على قلبها المؤمن بخير وفير ودارت عجلة دكانها فذاع صيته وجرت المادة في يدها، لم تسرف في حياتها لعلها تؤمِّـن حياة الصبى الذي بلغ الجامعة الآن والتي نجحت أنْ تضمَّـه إلى حِضنـها وتُربِّيَـه تحت عينيها، الأمر الذى أراحها كثيـرًا وأنزل من فوق كاهلها عبء تربية صبي وهي الأم الغرة الشابة.

مرت السنون... والتحق ناي بالجامعة، لم يكن من المتفوقين لكنه أرضى والدته على أي حال فالتحق بكلية

الآداب ليس عن رغبة منه، بل لأنها الأسهل دراسيًا ولا تتطلب منه حضورًا منتظمًا.

لَمْ تكن لديه أي رغبات، فقط كان يسير هكذا، لم يفرح ولم يحزن لدخوله هذه الكلية لكنه كان يستسيغ لفظ كلية والتي كانت كلمة ذاتَ شأن في خَلَـده، فلم يكن دخوله هذه الكلية سوى مصادفة عبثية.

يتذكر هذا الصباح القريب يوم ذهب إلى الجامعة لأول مرة مرغمًا يُطوَى بداخل خوف عتيد، لمَ يكن محبًّـا لضجيج الأماكن العامة ولا صخب الشباب، فهو لا يكثر الاختلاط بالناس ولا يجيده، فضلًا عن خجله الذى يحيل بينه وبين أمور كثيرة في الحياة، فاستقر في داخله على أن يترك نفسه لنفسه كعادته وحيدًا لا يأبه بما يدور حوله.

لمْ يكن انطوائيًّـا بالشكل المُعقَّد الدارج بل كان خجولًا هَيَّابا، لا يتحلى بثقة كبيرة بالنفس؛ كان يهاب التقرب إلى الناس خشية أنْ يقع في موقف قد يسبب له حرجًا يفضح ضعفه وجهله بأمور الدنيا، وكان من الذكاء في ذلك أنْ يعرف حدود نفسه فـلا يتعداها.

عاد بذاكرته إلى الخلف، تذكَّـر لوعة الخوف إِثْرَ دخوله أول يومٍ المدرسةَ الابتدائية، يوم تركته والدته على باب المدرسةِ وحيـدًا يشق طريقه بين أطياف من الأطفال الذين لا يكفُّـون عن اللعب، شعر بفراغٍ حوله، أول مرة يتحرك من دون والدته، منذ زمن بعيد كانت تصحبه في كل كبيرة وصغيرة، لكن الآن أمامه صبية يتلاعبون ويتراشقون بالأحجار وبقايا ثمرات الدوم كأنهم يعرفون بعضهم منذ الأزل.

لم يذكر كيف وجد نفسه داخل حُجـرة مزدحمة بالأطفال المُغبَّـرين ترابًا، يسمونها فصلًا. يجلس إلى جانبـه طفـل هادئ لا يعرفه، اقتادوهم بعد ذلك إلى حجرة أكثر نظافة

وأقل ازدحامًا، استراحت لها نفسه، لكنَّـه سرعان ما كرهها بعدما طلب منهم مدرس اللغة العربية أنْ يُعَرِّفُوا أنفسهم.

لقصر قامته أقعدوه في المقدمة وما إِنْ وقف لِيُعَرِّفَ نفسه شعر بحرارة الأنظار الموجهة إليه والتى تتأهب للضحك على أتفه الأسباب! لم تكن أحرفه مكتملة وهو ابن السادسة فما إِنْ نطق اسمه حتى ضج الفصل بالضحك والسخرية، حتى المعلم لم يستطع أنْ يمنع نفسه من الابتسام.. الأمر الذى خلف داخله إحساسًا مضاعفًـا بالخجل والخوف ظل داخله سنين عديدة.

لَمْ ينـسَ أول فسحة بأحداثها، حين أتـى إليه أحد زملاء الفصل وطلب منه أنْ يبدلا طعامهما، أعطاه الولد "رغيف بلدي" محشوًّا بالمشّ القديم المعتق وأخَذَ مِنْ ناي سندوتشات الجبن الرومي والـ"لانشون" والتهمهم سريعًا ثم ذهب. تملق ناي وأخذ منه رغيف الـمشّ القديم والتهمه أيضًا، حدث كل ذلك ولم يَعِ ناي أنَّه تَعَرَّضَ لعملية نصب كبيرة.

عندما جاء ميعاد حصة الألعاب أوقفوه حارسًا للمرمى، وهو الذي لم يلعب كرة أبدًا! باستثناء مداعبات بسيطة داخل المنزل، كان مبهوتًا بالصخب الذى يحدث من حوله ولم يركز عقله على ما يحدث في الملعب؛ توالت عليه الأهداف كثيرة وغزيرة مما عرضه للَّوم وتقريع أصدقائه في الفريق.

هذه الأمور قد زادت الأمر سوءًا فلم يعد يلعب الكرة مع أصدقائِه وقاطعها وقاطعهم إلى المنتهى، كان ذلك يزيد من انعدام الثقة بداخله فأخذ ينزوي أكثر فأكثر إلى أنْ بلغ الجامعة وهو بغير أصدقاء.

يتذكر كل ذلك وكأنَّه ينظر داخل أنبوبة ضيقة مظلمة يرى في نهايتها رسومًا مجسمة لذكرياته البعيدة التي لا تُنْسَى، تلك التي نقشت على أحجار ذاكرته ألمًا وحقدًا وغيظًا.

لم يمض يوم إلا عاد إلى والدته متذمِّرًا ممتعضًـا لا يريد الذهاب مُجـدَّدًا إلى المدرسة، فالتلاميذ يسخرون منه والمعلمون يعنفونه لكثرة سرحانه وقلة تركيزه، فلاحت من الأم نظرة إلى ابنها تطالع في وجهه حزنًا عميقـًا مؤثـرًا فيخفق قلبها وتشعر نحوه بالعطف، ربَّـتـت على كتفه قائلة:
- المدرسة جميلة، فيها ستتعلم وتخرج منها ضابطـًا بإذن الله، والأطفال السيئون يسخرون منك لأنك أفضل منهم جميعًا. فقال لها:

- لا، أنا طفل سيـئ، والأطفال شياطين.

فقالت الأم في حنان وهى تضمه إليها:
-لا حاجة إليك بهم فلا تقترب منهم ولا تشاركهم شغبهم وألعابهم. قال وهو يضرب الأرض بكعب حذائه:

- أنا لا أقترب منهم؛ هم الذين يأتون إليَّ ويسخرون مني.
خفق قلب الأم لرقة قلبه ولكنها راحت تشجعه قائلة:
- غدًا أذهب معـك وأجعل المدرسين يبعدون عنك هؤلاء المشاغبين.

نام ليلتها وهو يتخيل نفسه بطـلًا عظيمًا، يضرب هؤلاء الأطفال جميعًا بمفرده ويجذب انتباه معلميـه لمعرفته بجميع الأسئلة بطلاقة إلى أن غفا ونام.

في اليوم التالي ذهب إلى المدرسة وبداخله كثير من الثقة بأن والدته ستُنْهِي قصة معاناته في هذه المدرسة الكئيبة، وما إِنْ رآها تدخل الفصل بصحبة إحدى المدرسات.. وَثَبَـت في روحه حياة جديدة لم يعهدها في نفسه، امتلأ قلبُـه

حبورًا واعتلت وجهه ابتسامة وَضَّاءة، فسمع المدرس وهو يقول:
- إنَّ ابنك في أعيننا، وهو من أنجب تلاميذ الفصل.

نظرت إليه الأم نظرة فرحة مشجعة وأومأت له برأسها، ثم ودعت الفصل وذهبت.

مرت أيام الجامعة الأولى وهو لا يزال على وجومه ووحدته، لا يرومه الاختلاط بأحد وهو يرى مِنْ حوله صورةً لجماعات مختلفة من الشباب والشابات، باتـت مع الأيام صورةً مألـوفة لَكنَّ روحه تهفو إلى الحب، هذه الفكرة التي عندما يتذكرها ينفض قلبه الغبارعن جوهره، وتدب فيه حياة مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل، لكنه عندما يتمخـَّض عن واقع هو يعلمه يتولد بداخله شعور بالضيق لا يعي مصدره، لعل عقلـه الباطن كان يصارحه بحقيقته.

وهو الذي يريد أَنْ يشـارِك هؤلاء الشبان هزلهم وضحكهم وحبهم ومرحهم لكنه يخشـى ذلك ولا يعرف طريق إليه، كما أَنَّه لا أحد يأبه بوجوده، وهو الذي يودُّ دائما أَنْ يجذب الانتباه إليه بجلوسه وحيدًا لعل أحدًا يتجاسر وينجذب إلى ذاك الفتى العاقل الذى يختلي دائمًا بنفسه.

ظل حبيس هذه الأفكار كثيرًا وهو يتخبط في نظرته إلى نفسه.
لقد كشفت له الحياة الجامعية حقيقة لم يكن يعلمها: أَنَّه يعيش على حافة الحياة.

لكنَّـه ظل حائرًا لا يهدأ، يرى نفسه عظيمًـا يأبى الاختلاط بالشباب الساذَج التافه، وتارةً أخرى يرى نفسه غير مرغوب فيه ولا أحد يُعيـره اهتمامًا. وبتراكم هذه الأفكار آثر الابتعاد والانزواء وراء الصِّراع القائم في داخله، حتى دروسه كان يستذكرها على مضض... حياةٌ لا رغبة له بها وهو يضمر في روحه إحساسًـا يركن إلى المُكـوث وعدم

الحركة، فلا يريد أَنْ يعمل أو يفعل شيئًـا لا عن مفسدة أو عربدة.. بل إحساسًا بالتكاسل لا يستطيع التخلص منه.

لم يكن للغم الذى يعانيه سببًا ماديًّـا، فهو يعيش في بيته حياة كريمة في كنف أم رؤوم تعاملـه أفضل معاملة، لا يوجد في الجامعة ما يثير حفيظته سوى الالتزام لكنه كان يعلم في داخله أَنَّ هذه طبيعته منذ الصغر: يحزن بلا سبب معلوم. اشتد عليه الأمر في أيام مراهقته الأولى فكان يقضي الليل في مضجعه متألمًـا مَلُولًا لا يدري ماذا يفعل وليس لديه أحدٌ كي يشاركَـه ألمه حتى كاد يهتف:

"فلتسقط الأقدار!"

لم يكن يعلم أَنَّ من خصال انعدام الثقة بالنفس أَنْ يشعر المرء أَنَّهُ مسار اهتمام الجميع وأنَّ الكل ينظرون إليه ويتابعون حركته، هذا الإحساس الذى كان يجعله مقيدًا دائمًا حتى في وحدته؛ فهو يظن أَنَّ الجميع يراقبونه ويلتفتون لكل بادرة تصدر منه، ثم إِنَّ خجله كان عائِقًا أمامه أينما حل، ففي المواصلات يخشى أن يتحول إليه جمع الأجرة! ويخشى دائمًا أَنْ يُقابِل أحد المعارف ويجـب عليه الدفع، وكان ما يحدث في الغالب هو أَنْ يصمت خجلًا فيقوم الآخر بالدفع. وإِذَا ذهب إلى أحد المطاعم يأكل خجِـلًا مرتبـكًا ظنًّـا منه أَنَّ الجميع ينظر إليه.. وعندما تأتي لحظة الحساب يدفع في وجل من أن يطلب الباقي إذا تبقـى.

لقد كانت حياته رغم رفاهيتها مليئة بالتعاسة في باطنهـا، فلم يعـرِف قلبُـه موطنًا للراحة. تخيل للحظة طفلًا لم تتجاوز سِنُّـه ستة أعوام، يرى والده وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، بعد سنواتٍ عندما يستحضر صورة والده إذ تمتلئ كفاه بالرماد وتغيب ملامح وجه والده نهائيًّـا. كان عليه أن يهز ذاكرته بعنف لكي تعود الصور التي قتلتـها الخيبات

المتتالية، فيظل دائم التفكير يستعيض بما ينقصه بالحياة في خياله.

كان يعوض إخفاقه في كُرة القدم وهو يفكر في تعاسته، فيرى نفسه لاعبًا ماهرًا يجذب إليه الأنظار بمهارته التي لا تقاوم، ويسلي وحدته بتصور نفسه بين ثُلَّـة من الأصدقاء يتحدث حديثًا شائقًـا يَطرَبْ له الجميع ويشيدون بجمال روحه وطيب قلبه وحلو لسانه، لَكِنَّه فى الحقيقة كان يتلعثم خجلًا عندما يُسأل عن اسمه. لم يكن يعرف تسليةً حقيقية سوى التلفاز ومشاهدة كرة القدم (التي اهتم بها مؤخرًا) لقد كان التلفاز يتيح له مشاهدة أجساد الفتيات البضَّـة الرجراجة التي ما إن يشاهدها حتى تلتهب رغبته المكبوتة، والتي لم تجد طريقًا سوى عادة الشباب.. تطفئ لهيبها وتروي ظمأها للجنس الآخر.

حتى الحب لم يعرف طريقًا إلى قلبه؛ لم يحظَ قلبُـه إلا ببضع نظرات خائفة إلى زميلاته في الفصل أو معلمة الرسم ذات الرَّبلتيـن الملفوفتين اللـتين يبرزهما فستانها المنحسرعن ساقين نديَّيـن، لَكِنَّ الأمرَ لم يكن يتعـدَّى حدود النظرات الخاطفة.

لقد كان خجله يحول بينه وبين جميع ملذات النفس، وكان انعدام ثقته بنفسه يصور له فشله في كل ما هو مُزمِع عليه.

تمحورت حياته بطولها وعرضها حول هذين الشيئيـن اللذين تسببت فيهما رعاية والدته الزائدة، وحرصها الشديد عليه وحجبه عن الناس.. والسبب الأعمق من ذلك هو الفضيحة التي خلفها والده قبيـل رحيلِـه فعلقت في رأسه صورة سوداءُ لا تبرح مخيلته.

لقد كان يجذبه في التلفاز حياةُ العربـدة ويرى فيها الحياة الحقَّ فكان يقول لنفسه: هذه هي الحياة حيث تدب تحت

مهاوي الألسنة اللاذعة ودهاليز الغرز والسجائر المحشوة روحًا وحياة.

كم تمنى أَنْ يكون هناك وطنه ومراحه حيث تختلط آهات الدلال بعواء العربدة وأديج البخور، كان بوسعه أَنْ يقضى في كنف هذه الحياة عُمْرًا دون ملل، يأكل ويسكر ويحشش ويقابل النساء ذوات الصدور الممتلئة كي يطفئ لهيبه...

لقد سئم الهدوء والسكون والحياة المحافظة ولكن... ما باليد حيلة! كل هذه الأهواء والرغبات تنعدم مع أولى نسمات الصباح، وإثر اختلاطه بالناس تذوب هذه النار في ثلج الخجل وتموت.

يكره هذه الأيام التي كانت تنحدر فيها روحه إلى أعماق التَّردِّي، فهو يكره الفراغ الذى يرغمه على المكوث في بيته كثيرًا، الأمر الذي يجعله عرضة للتفكير والتقليب في ما فات وفي ما كان يجب أَنْ يفعل، فيضربه الكَدَر والوحدة أكثر مِنْ أي وقت آخر.

كان يتسلى كثيرًا بالتسكع في الطرقات ومتابعة أجساد الفتيات المهتزة وأردافهم المتكورة.. بحيث تطبع في رأسه صورًا يحتفظ بها إلى أَنْ يخلو بنفسه في غرفته. يترك بصره يتوغل عميقًا في الممرات الضيقة، سُكُونٌ مَا يعتري المدينة، وهواؤها يشبه حرائق الحروب والهزائم والانكسارات.

حتى والدته.. كان نادرَ الحديث إليها، تمضي أيام وهو هادئ مكتئب في صمت، لم يزعزع سكونَـه سوى صوت التلفاز أو الموسيقى التي تنبعث من جهاز الكمبيوتر الخاص به , لكن ما يميزه هو أذنه الطروب، فهو يهوَى الموسيقى عن والده منذ الصغر، فقـد سمعت أذناه معظم ألوان الغناء وتمرَّس هو فيه.

عندما يرخي الليل سدوله وتشمل الشقةَ كآبةٌ وصمتٌ، كانت تتوق نفسه إلى مصادقة فتاة، مثلَ طلاب الجامعة الذين يراهم يغدون ويروحون، لعلها تملأ عليه حياته. كانت القاطنة في البيت المقابل هي أكثر الوجوه العالقة بذاكرته؛ الوجه البريء ذو العينين الكحلاوَين، نظراتها الهادئة الرزينة التي توحى بثباتٍ لا مبالغة.

جَمَالٌ يبهر الناظرين، يجعل دَمَـه يفور حارًّا في عروقه وقلبَـه يخفـق بنشـوة النظرة إليها، ورأسُـه لا يتوقف عن خَلْقِ صورٍ وأحـلامٍ وأفـلامٍ كان يراها بين ذراعيه.. وضلوعه تداعب وجهه وتبتسم له وتقبِّـله ثم يذهبان معًا يمشيـان في الشوارع ويمرحان ..لا يأبهان بعيون الناظرين، ثم يفيق من سكرته يقول:

"يا ليت الحياة خيالٌ.. والخيالَ حياةٌ؛ فحينها سوف تكون حتمًا أسهل وأمتع".

هو بحاجة إلى فتاة مثل هذه الفاتنة، يفعل معها مثلما يفعل الطلاب، يتحدثان معًا، يغدوان ويروحان معًا، لكن خاطرًا قد هف على مخيلته، جعل روحه تخفق في نشوة فلم ينتبه إلا وهو يسأل نفسه:

"أين أنا من الحب؟".

كان قد استغرقه خياله حتى كاد يصطدم بالمارة ذاتَ أصيلٍ وهو يتسكع في مدينتنا الهادئة، كان يبحث عن الحب في العيون وعن الجنس في أجساد النساء. لم يحظ طَـوال حياتِـه بقلب يحبه ويعطـف عليـه ولم يجـد مِن مُتنفَّـس سوى أَنْ يسرح بخياله تارة، وأَنْ يطفئ ناره بالعـادة تارة.

لم يكن له حيلة في إحساسه الواقع بأنَّ غريزته الذكورية كانت الشيءَ الوحيد الذي قد سَلِـم من النقوص الذى يجتاح كِيانه الداخليّ، لقد استوى ناضجًا حارًّا فلم يَخْلُ صدره من عذابٍ سجين، لكن وقفت له تربيته ونفسه الضعيفة وروحه الخجلى بالمرصاد. لكن المنظر الذى كان يتكرر على ناظرَيه في الجامعة كان خليقًـا بأنْ يهزه هِـزَّة عنيفة قاسية فتهفو روحه إلى فعل ما يفعل من هم في عمره ممن هم أقبح منه شكلًا وأقلُّ منه شأنًـا، يراهم يتضاحكون ويتسامرون شبابًا وشاباتٍ، أمَّا هو فوحيدٌ في الذهاب.. وحيدٌ في المجيء.

كان عندما يبلغ أقصى غيظه يود بأن يلعن والدته التي ربته على الخجل والخوف والانزواء، يسأل نفسه:

"إنْ كانوا حقا ينظرون إليَّ كثيرًا ويبـدون لي اهتمامًـا، فلماذا لم تتقدم إحداهن كي تشاغلنى وتخطب وُدِّى وتتعارف عليّ؟! لماذا يجب علينا نحن -الذكور- دائمًا أنْ نبدأ؟".

حتى خياله كان يزيد من ألمه لأنه كان يرفض اليأس ويذهب به إلى قصص وأحلامٍ مُرْهِقَة لا تنتهي.

دائمًا هو البطل المحبوب المُنْتَصِر، لكنه في الحقيقة وحيد.. فيقيـم مقارنات بينه وبين أقرانه يرى فيها نفسه تعيسًا بلا جسد نضر ولا وجه جميل، وفي بعض الأحيان كان يضربه شيطان الغرور فيقنع نفسه أنَّه أفضل منهم جميعًا، وأنَّ النساء لا يحببن الرجال التافهين، وهو ليس بتافه.. إلا أنه صار يعشق الفنانـات ويقيم معهـنَّ قصص حبٍّ في مخيلته، فيعيش أسبوعًا كاملًا وقلبه يـدقُّ لرؤية فنانة بعينها تطالعـه في فِلم أو أغنية فيمتلئ قلبُه حبورًا ونشوة.. وتغيب روحه عن الملل واليأس اللـذين يخنقانه، لكن رتابة الحياة تجذبـه مجددًا إلى طبيعته فيجد نفسه وحيدًا.. ولا جديد تحت الشمس.

حزينٌ إلى درجة الانكسار، فهو منذ زمن يدور بشكل مغلَـق دون جدوى..

شيء ما فيه معطلٌ تمامًا، يشعر بفوضى عارمة تعتريه، تقعده وتفقده كل توازنه.. كلما أحسَّ شيئًـا ما في داخله دفع به إلى الأمام، سحبته يدٌ قوية ونزلت به إلى الأسفل لتطفئ كل الشعلة المتبقيـة فيه.

كانت الشمس قد توارت مخلفة وراءها هالة حمراء مترامية، أقصاها دامية تخف عند الوسَـط كأنها تُعطَّر من وردٍ مصفى، ثم تشحب عند أطرافها الدائبة حتى تبتلعهـا زرقة عميقة صافية من ورد مصفف.

ارتفع بصره إلى الأمام بعدما أفاق من جفوله، كان يقتعد درج الكلية حتى رآهم يقبلون عليه جماعتهم شباب خليق بأن يعيش الحياة الجامعية كيفما اتفق، يبدو كأنهم اختاروا بعضهم بعناية فائقة كي تتألف منهم جَوقة تحمل سمات المجتمع وطبقاته.

تقدمهم شابٌّ يحمل وجهه صورة طيبة وديعة، أقبل عليه مهللًا مكبِّـرًا وكان بينهما سابق معرفة؛ سأله دون مقدمات: "ما بك يا صديقي!؟ ما لك جالسًا وحدك دائمًا؟"

ارتبك ناي وتلعثم ولم يدرِ كيف يجيب، لكنَّ ابتسامة واهنة كللـت وجهـه ولم ينبس، لكنَّ الشاب لم يعطِـه فرصة للتروِّي والرد فقال له ضاحكًا مائلًا إلى الوراء من فرط الضحك: "سيضيع اليومُ إذا انتظرنا الإجابة"، فضجُّـوا جميعُهم بالضحك، كان من بينهم قاطنة البيت المقابل التي طالما تمنَّى نظرة من عينيها، وكانت عيناها لا تنزلان من عليه، جذبه الشاب من ذراعه جذبًـا، فذهب معهم مأخوذًا بفعل المفاجأة وهو يشعر في داخله أنْ الحياة اختارت له هؤلاء الرفاق كي يؤنسوا له وَحدته.

فتح عينيه من جديد فدخلهما شعاع حاد البياض ونظر إلى الفتاة ثانيةً..

وقف باستقامة واستعد كأنهـا المرة الأخيـرة، وفي لحظة هاربة بدا جسدها مستقيمًا كتمثـال يونانـي من مرمر صافي، مثل البلّـور الهشّ، لباسُها الأسود الذي كانت

ترتديه.. حزامها الأحمر الذي يلـف خَصرَها بعنف.. عُـمـق وجهها وصفاؤه.. براءة ملامحها التي تقاوم النظرات. كان يراها داخلَ الحافلة التي تنقلهم من نقادة إلى قنا حيث تكون الجامعة، لكنه لم يجرؤ على التحدث معها بل كان يغض الطرف عنها فكأنه لا يراها! وهو -كعادته- يلعن خجله.

أغمض ناي عينيـه متجاوزًا لحظة اليأس ثم انضم إليهم.

مرت الأيـامُ وتوثَّـق الوصل بينهم فصاروا لا يفترقون، يجمعهم النهار بالجامعة والعصر للعب الكرة والليل للتسامر ومشاهدة مباريات كرة القدم.

يقضون حياتهم في اللهو الحائل بينهم وبين الحياة الحقيقية.

شُبـان عاديون يقضون أعمارهم بين المِزاح واللعب ولا يشغلهم شيءٌ من أمور الحياة، أكبر أزماتهم حبٌّ ضائع وقلب مكلوم، منحشرين في ركن صغير من أركان الحياة، يعيشون في ركن الحياة التافه ولا يعيرون اهتمامًا -أيَّ اهتمام- لما يجري حولهم من أمور السياسة والمجتمع التي قد تؤثر في مستقبلهم الذى يزداد ظلمة وعَتَمـة يومًا بعد آخر كلما سار الوطن خطوةً في ظل حكم الرئيس مبارَك.

لم يكن ناي يختلفُ عنهم كثيرًا.. لكن حياءه ظـلَّ يحيط به فيجعل منه تمثالًا لا يُلقـي كلمةً ولا يشارك رأيًا، يذهب معهم أينما ذهبوا لكنه ظل قليل الكلام هادئ الحركة كعادته. يشعر بإنهاكٍ كبير في أعماقه، بخوفٍ من شيء غامض لم يكن قادرًا على لمسه.

أصبح يسير معهم في قطيع الشباب الذين لم يشغلهم في الحياة سوى لعب الكرة وارتباطهم بالحياة ارتباطًا سطحيًّا، ارتباطًا بألفاظ، ارتباطًا بأجسام، خبز وثرثرة

وعادات متوارثة وكلمات محفوظة وحياة تمر على طريقة قتل الوقت وقتل الحياة!
قزقزة لب.. إحراق سجائر.. إحراق أيام...

ماذا نأكل اليوم؟
كيف ننفق ملل هذا المساء؟
كيف نوقع هذه المرأة في حبـائـلـنـا؟

غرائزهم تسد عليهم أبواب إدراكهم، لايكاد الواحد منهم يرى أبعد من ساق صديقته.. لايكاد يرى أبعد من غرفة نومه وغرفة طعامه، توصد أنانيتهم عليهم البابَ أكثر، تسجـن أفكارهـم في حلقة مفرغـة من الحقد والحسد والغَيـرة والمصلحـة، نومٌ عميق وحياة أشبهُ بالطُّقـوس البُدائيـَّة.

شبان أراحوا أنفسهـم من التفكير ومن الأسئلة والأجوبة، شغلوا أنفسهم بما يأكلون وما يشربون، أهَمَّهم كيف يقتلون شهوتهم المشتعلة في أقرب وقت.
يرون مستقبلهم أسودَ لكنهم لا يأبهون لأنهم لا يدرون ما يفعلون وما سيفعلون، فالحياة تسير إلى الغلاء ويتعذر على الشباب الزواج، فما باليد حيلة!

استحالت مصر إلى طبقتيـن، الأولى: الأغنياء الذين يحتكرون الحياة بشتى صورها، والثانية: طبقةٌ فقيرة يُلقـى لها بما تبقَّـى من فتات السادة النبلاء، أما الطبقة المتوسطة التي تظهر في الأمم بظهور المشروعات الاقتصادية ورواج الصناعة والتجارة والتناسب في توزيع الأراضي الزراعية فقد ذابت وتحللـت بعدما أصبحت المشروعات تصـبُّ في جيوب أصحابها فقط؛ فيزداد الأغنياء ثراءً ويزداد الفقراءُ فاقةً.

شباب مغيبون عن طريقهم، والأدهى أنهم لا يعلمون أَنَّ لهم طريقًا يجب أَنْ يسيروا عليها، يصدقون ما تقوله الشاشات دون تفكير، يأخذون معلوماتهم مِن "قالوا" يعيشون حياة مظهرها جيد إلى حدٍّ ما، ولكنها في باطنها أشبهُ بحياة الحيوانات؛ لا عقل ولا تفكير، اختاروا لهم أسماءهم وعائلاتهم والآن يرضَـون ويضمخـون لمن يختار لهم طريقهم.

والحقُّ أَنَّ الجماهير على الغالب عنصر طيـبٌ محب للحرية ميال إلى الديمُـقراطية لكنهم مُرهَقون بسوء الحال وقلة فرص العمل، فينزع الطامعون منهم إلى الهجرة وارتيـاد الرزق في دول أخرى أو يدفنون أرواحهم في مقارعة الخمر والمخدِّرات إلى أَنْ تَحوَّلَ الوطن تدريجيًّـا إلى "مزرعة حيوانات".

لقد وافقوا بغير إرادتهم أَنْ يضعوا عِصابةً فوق أعينهم كي لا يروا حقيقة العالم من حولهم ولا يفهموا المعنى الحقيقي للعالم، لا يدركون المعنى الحقيقي للحياة التي خلقنا الله في أرضه الواسعة حتى نحياها، بل أغلبهم خافوا وانكمشوا رعبًـا من سَطوَة الحقيقة فآمنوا بالعِصابة التي تغلق أعينهم.

راحوا يبحثـون عن طرقٍ أخرى للراحة كالهروب.. سواء كانت هجرة خارج مصر على مراكب الموت أو الهجرة إلى ضباب المخدرات التي تقتل الحياة فيهم وهم ما زالوا أحياء، أو هجرة إلى حلم الجنة بالتعلق بمظاهر التدين الزائف التي لا سبيل لها إلا بأن تقضي على المرأة والصوفيين والمسيحيين وكل مختلِـف، يعلنون الحرب على قارَّات العالم ما عدا من هم في سُـدَّة الحكم.

هؤلاء الشباب يعلمون أنهم إذا رفعوا العِصابة التي توضع فوق أعينهم وآثروا اللامبالاةَ والتظاهر بالعمى مثلما ورِثوا من سابقيهم فإن أعينهم سوف تعمى حتمًـا بفعل الفساد

والجهل والمرض والفقر، لذلك فهم يستعملون مثلًا قديمًا استعمله سابقوهم: "ضربوا الأعور على عينه؛ قال خسرانة خسرانة".

ومن العجب إذا نظرت إلى من هم في أعمارهم في دول أخرى تجد هؤلاء الذين يقضون ليلـهم ونهارهم في الفراغ، وهم لا يعطون قـدْرًا للحرية في حياتهم مثلما يعطون اهتمامًا لنهائي كأس الأمم الإفريقية، ولا يعترضون في حياتهم على حكام سوى حكام كرة القدم، من العجيب أن العالم من حولهم يغرق في البحث عن معاني الحياة المختلفة.. وهم ما زالوا يدفنون رؤوسهم في أجسادهم وشهواتهم.

أضف إلى ذلك كونهم من أهل الصعيد المُهْمَل، فإذا كان المصريون يعيشون حياة القحط فإن أهل الصعيد يعيشون خارج الحياة تمامًا، فهم لا يدرون شيئًـا عن العِراك السياسى الذي يغلي الآن في العاصمة، ولا يسمعون شيئا عن قمع الشرطة ولا البطش الذي يتعرض له الصحفيون والإعلاميون وكلُّ صاحبِ رأي، وحتى إِنْ علموا ذلك أو قَرَؤوه في جريدة.. فهم لا يأبهون له لأن العمر لا يعنيهم ألبتة .

ثلاثون عامًا في ظل حكومة مركزية هُمِّشَ فيها الصعيدُ (قلبُ مصر!)، تُرِك في يد الفقر والجهل، وتُرِكت أطراف الدولة للإرهاب وتجار المخدرات فماذا تنتظر من شباب صعيدى يعيش في غياهب الضياع، سوى الغفلة عن الحقيقة، والحياة على هامش الحياة؟!

لم يكن عموم الشعب المصري بـبـعـيـدٍ عما يعتري ناي وأصدقاءه من تيه وسطحية وروح خاوية من الحياة، إِنَّ المصريين يعانون عامةً، كل فئة تعاني على طريقتها، ولعل أشدَّ الفئات بؤسًـا هي الفئة التي ينتمى إليهـا ناي، تلك

الفئة التي لا تدري كيف تعيش حاضرها وهي ترى مستقبل أولادها كاحلًا

لقد تَحَوَّل الشعب المصرى في ظل حكم الرئيس مبارك إلى الآتٍ. تعمل ولا تأمل في شيء ولا تبتغي غايةً، فقط يعيشون مطرقين يبحثون عن لقمة العيش التي تقيم الأوَد والتي تكفي قوت يومهم بالكاد، تأتي بعد كدٍّ وتعب لذلك فهم يسيرون مطرقين منحدرين إلى نهاية المدى لايرفعون رؤوسهم كي لا يروا الحقيقة؛ حقيقة ما يعيشون وحقيقة كيف يجب أن يعيشوا.

بمرور الأيام وبتراكم الظلم والفقر نسي المصريون أصلهم وتحولوا إلى أشباه مواطنين، فهُم اتكاليون ينتظرون مَنْ يرفق بهم ويحنو عليهم من نعمته وفضله، فقد نسُوا حقًّا عراقتهم وما يملكون من رأس فتى وروح مرحة لها القدرة على تغيير وجه الحياة.

لكن ما هو المنتظر من دولة فيها كلُّ ما يهم مسئولي البلاد وموظفيها وأغلب كُتَّابِها وإعلاميِّيها وفنانيها ورياضيِّيها هو أنْ يكون الرئيس بخير حتى لو لم يكن المواطن كذلك، فليس معقولًا أنْ يكون مصير البلاد بيد شخص واحد في دولة يقولون إنَّها دولة مؤسسات وإنَّها دولة متحضرة تعبر إلى المستقبل، أيُّ مستقبلٍ هذا الذى يضعُه رجل واحد؟!

إنَّ مصر قد عاشت في ظل حكم الرئيس مبارك كأنَّها عَبَّارة تسبح في بحر المجهول لا أحد فيها يدرى ماذا يحدث لها بعد لحظات، أليس مخجلًا ألَّا تملكَ بلدٌ عَلَّمَت العالم الحكمة والحضارة والتوحيد بالله- إجابةً "توحد بالله" عن مستقبلها؟! إلا أنَّها تسير بالبركة في ظل حكم الرئيس المبجل!

إنَّ التقدم لن يحدث إلا إذا شعر كل مواطن أَنّه شريك في الوطن لا أجير في العزبة أو أنَّه عالة على السيد الرئيس، أنْ يدرك أنَّه قوي لدرجة أنَّه يستطيع أنْ يحاسب أعلى رأس في الدولة ويحتـجَّ عليه ويحاكمه إذا أخطأ بل يزيحه من على منصبه عبر الصناديق، لكننا بصراحة ومع الأسف الشديد نشبه حكامنا؛ نحن مثلهم أصِـبـنـا بالعدوى فصرنا نفضل حكم الفرد على حرية الفرد ونعشق سحق الحرية الفردية التي جاءت كل الأديان لذكرها وسعت كل المذاهب الإنسانية النبيلة إلى إعلائها.

لذلك يقمع بعضُنا بعضًا ونتخلى عن فطرتنا التي فطرنا الله عليها من أجل أنْ تكون هناك حرية وحيدةٌ لفردٍ واحد يتصرف كما يشاء ونحن نضع أيديَـنـا على خدودنـا منتظرين ما يفعلـه لكـي يحدِّد مستقبلنا ومصيرنا. نغمض أعيننـا عما يجري ويدور في البلاد والعباد زعمًا أنَّنَا مواطنون صالحون شرفـاء نخـاف على مصلحـة الوطـن ونَظـنُّ أننا هكذا بشر مع أنَّ البشر من دون حريةٍ ليسوا أكثر من حيوانات مثلما قال أحد مؤسسي الولايات المتحدة:

"إنَّ مَنْ يفضل أمْنَه على حساب حريته لا يستحق الاثنين".

الأمة التي تربط مصيرها بشخص واحد أمَّة بائسة، وهذا لم يكن في طبيعتنا المصرية ولا البشرية.. لكن الأمرَّ يعود إلى الأيام السوداء التي يقضيها الشعب تحت حكـم يسلب الحياة، الحكومة التي تُصدِّر لنا فكرة أنَّنا شعب قاصر لا يعي مصلحته مع أنَّها حكومة تعيـث فسادًا ليلَ نهار، حكومة لا تتوانى في إفقار شعبها فكريًّا وجسديًّـا كي لا يقوى على رفع رأسه اعتراضًا على ممارساتهم وسياساتهم، وحتى ينشغلوا في "كيف نقضي يومنا في سلام؟".

لقد غابـت في الأعوام الأخيرة روحنا المصرية، وحلَّـت محلهـا روحٌ واهنـة ميتـة لا تحلـم ولا تتكلـم ولا تتعلَّـم، لقد عصرتهم قساوة الحياةِ فسارع إلينـا الهُزال!

إنَّ أبشع جرائم حسني مبارك في حق هذا الشعب أنه جعلنا أمة لا تحلم، أمةً متعايشة مع الخوف، يتركون أولادك الذين يحكمون ينهبون ويسرقون ويحبسون ويظلمون، يضللون العقول.. فتصدَّرت مصرُ دول العالم في ظل حكمهم فقرًا وبطالةً وعنوسةً، وفي مرضى "فيروس سي" والسرطانات، والعَصْـف بحرية الصحافة، لم يترك حسني مبارك شيئًـا للشعب كي يرقد عليه، لا سياسة ولا تعليم ولا صحة ولا رياضة ولا دين ولا دنيا، لقد تمَّ تدمير الحاضر والمستقبل ولم يبـقَ لمصر سوى مجموعة من المنتفعين في السياسة والتلفاز والرياضة.

تمضي الأيام.. ويتردد ناي بين دنيا الجد والهزل، لكنَّـه لم يُقَصِّر قط في واجبه نحو والدته ولم يُغفِـل أبـدًا ذَهابه إلى الدكان الذي يرتاده عندما تهفو نفسه لِلَحظاتِ الصفاء، و كانت الأم بدورها تحرص على أنْ يلم بتفاصيل العمل اليومي ولا يفوته شيء في دنيا التجارة ولا سيما العطارة.

منذ أنْ بلغ الجامعـة آثـر الاعتماد على نفسه بدرجة كبيرة، أُوكِـل إليه مَهمَّـة جلب البضائـع مِنْ أماكنها في القاهرة وأسوان، كانت تكلفه والدته بين الحين والآخر بالسفر لشراء ما ينقص المكانَ، بمرور الأيام على الرغم مما يتسم به من رقة وخجل أصبح متمرسًـا في اختبار أجود أنواع البضائع وأوفرِها سعرًا، وازداد نضجًـا في أمور التجارة بعد انتهائـه من الحياة الجامعية وتفرغه للدكان.

أخبرتـه وهما جالسـان في أصيل يوم شتائيٍّ بارد من أيام ينايرَ، أنه يجب عليه السفر إلى القاهرة لجلب طلبات الدكان، كانـا قد تـبـادلا الحديث في الوقت الذي يعمل فيه جهاز المذياع الذي يحتل أحد أرفف الدكان وهو يصدح بصوت الريس "حفني أحمد حسن" الذي يقص حكاية "شفيقة ومتولي".

لقد ربَّته والدته منذ الصغر على سماع هذه الفنون الشعبية خَلَفًـا لأبيه.

كان الجو يحمل أثير الشتاء المعبق بنفحات إلهية تحت قبة السماء التي تزينها نتف من غيوم شتائية متناثرة، بينما الشمس تلملم أهدابها مفسحة الكون للظلام الذى يهبط كثيفا باردًا، هذا الجو الذى يعشقه ناي.. ويحب أنْ يلعب فيه الكرة، كان قلب الأم غائمًا خائفًـا على ناي الموشك على السفر إلى "بلاد بحري" التي تهزها القلاقل هذه الأيام.

كان خبر تفجير كنيسة القديسين قد زلزل القُطْـر المِصريَّ وبلغ كل بيت وكل أذن، مناظرالدماء التي ملأت الشوارع قد وصلت إلى كل عين، الأمر الذي جعل الأم تفكر في تأجيل سفر ابنها إلى أَنْ تهدأ الأوضاع، إلى أَنْ عزمت على سفره أخيرًا بعدما هدأ الوضع بعض الشيء وقد أفتى لها من سألـتْـه من أهل الشارع بأَنَّ الانفجار قد حدث هنالك في الإسكندرية، بعيدًا عن القاهرة.

في الثالث والعشرين من يناير، أخـذا يهيئان أنفسهما لسفر ناي الذي استقلَّ القطار في مساء هذا اليوم المتجه من محافظة قنا إلى القاهرة بعد وداع الأم مصحوبًـا بالنصائح والدعوات.

كان يحب ناي ركوب القطار خصوصًا القطارَ المميَّـز المزدحم بأبنـاء الطبقـة الفقيـرة الذين يجذبون انتباهه بحركاتهم وضجيجهم وعجيجهم، حين بـدأت الليلة راح يبتسم وهو يرى الزحام المُطبِـق كأنه يوم الحشر! يخلف الزحام وراءه اضطرابًـا وزعزعة داخل العربة ينشـب عنهما معاركُ كلاميةٌ تصل إلى حد الاشتباك بالأيدى والأكُـفِّ، لكن سَـرعان ما ينقلب الاشتباك إلى مسامرة عن محبة الناس والأيام الخالية، حيث الإخاء بين الناس؛ لا فرق بين مواطن وأخيه، ولا بين مسيحي ومسلم.

إلى أَنْ يتجاذبوا أطراف الحديث الذى يتطرأ إلى حال البلد الذي مال، والعيشة التي استعصـت وتعسَّفـت، والغلاء الذي لا يُقْهَـر وهـو يعيـش في أجساد الناس جوعـًا ومرضـًا، ولُقمـة العيش التي تحتاج إلى معجزة، يمضون في الطريق هكذا بين الجد والهزار وهم ينفخون دخان سجائرهم في غضب وذهول إلى أَنْ تنتهـيَ الرحلـة.

لكـنَّ ناي بطبيعتـه لم يكن ينبس، لم يشارك، فقط يشاهد ويبتسم وينتشـي قلبه بسعادة رائقة ويضحـك في الخنـاق والاشتبـاك والصرخـات وتبـادل السِّـبـاب، يضحك عندما

يضحكون ويتسامرون ويضحك من حال البلد الذي حشرهم في عربة القطار "كالفئران".

كـان من بين الزحام تجلـس فتاةٌ حسنـاءُ غريبـة المظهر شعـرها قصيـر كما الأولادِ، تجلس في تحرر دون مبـالاة أو خـوف، يسترق ناي النظر إليها بين الحين والآخر.. وهو يشعر في داخله بأنَّها أيضًـا تنظر إليه.

وهذا الليل العليل، قد أتى مبكرًا.. يتطلـع ناي إلى المناظر على ضوء القمر، يتأملُـها، إلى أنْ بلغت روحُه أعلى عِلِّـيِّـيـن، وهو يرى الدنيا تفر بعيـدًا خلف القطار السريع وينتشي، تتجاوز روحُه البرازخ، يغيب عن الحياة فلا يرى البيوت ولا الترعة، لا الأرض ولا السماء، ولا ذلك الصياد الذي يضرب الماء الراكد كي يحـركَ السمك بعيـدًا وهو على زورق رفيع فيبدو عصفورًا وحيدًا.

يفيق فقط عندما يصل القطار إلى إحدى المحطات، ولكنـه سَـرعان ما يتركـز بصره في بُعد سحيق، تغمره النشوة فـيـنـخـطـف البصر، تصفو روحه وتلتحق بسر الأسرار، يستمتع بضوء القمر وهو ينسكب فوق صفحة النيل الذى يمر القطار جواره فيشتعل بالبريق وينعكس فوق نباتات الحلفاء فتبدو كرماح لامعة، إلى أنْ نشبـت مشاجرة بين امرأة وبائـع جائل في القطار.. أخرجته من الهيام.

كانت امرأة منتقبة معها طفلان، ينام أحدهما على حجرها ويفترش الثاني ورقة جرائد ينام عليها، أفسح مكانه لتجلس عليه تلك الفتاة التي سرقت عين ناي، طلبت المرأة أربع زجاجاتٍ؛ واحدةً لها واثـنـتـيـن لطفليها وواحدةً للفاتنـة التي تجلس جوارهـا، ينادي البائع:

"حاجة ساقعة بجنيه ونص"

مرددًا هذا النداء على الركاب، دعته المرأة وطلبت منه الزجاجات لكن بعدما فرَغوا من شرب الكوكاكولا جاء البائع الذي تـبـدَّل وحلَّ بديـلًا منه شابٌّ آخر، أخرجت المرأة ستَّـة جنيهـات فنظـر إليهـا البائـع شزْرًا وصاح:
- ما هذا؟

فقالت المرأة في أدب جمٍّ:
- هذا الحساب...

فـأعاد إليهـا الشابُّ النقودَ قائلًا:
- إنَّ الحساب اثنـا عشَـر جنيهًا.

تكلَّـمت الحسناءُ وبدا صوتُـها العذب غير ملائمٍ للموقف:
- إنَّ صديقك قال إن ثمن الزجاجة جنيهٌ ونصفٌ، وأنت تريد ثلاثة جنيهات.. فأيُّ نصب هذا؟!"

ثم تـلـوِّحُ بيدها صارخةً:
- أين الرجل الذي أخذنـا منه الزجاجات؟

نهرهما الشابُّ ثم وجه كلامه إلى المرأة: "ادفعي أيتها المرأة بالتي هي أحسن"، فوقفت المرأة مشمرة ساعديـها ثم رفعت النقاب عن وجهها ثم شخرت شِخرة عنيفة وأمسكت بالزجاجات وألقت بهم من نافذة العربة، مصحوبةً بنظـرات البائع المذهول الذي دفعها بدوره في كتفها لاعنًـا أباها، ممَّـا جعل غضبها يتصاعد فاحتقـن وجهـهـا؛ تـبـدَّت على بشرتها الخمرية آية في الجمال، فراح ناي يسأل نفسه:

"كيف لهذه الحسناء أن تحجب وجهها الجميل أسفل هذا النقاب؟!"

لكنَّ سيل الشتائم الذي هطـل من لسانها كالمطر أجبر ناي أن يفيـق من غفوته، وهي تمسك بتلابيـب البائـع الذي

بدا بين يديـها كالعصفور اهتزازًا.. وهـي تكيـل له الضربات وتقرعـه بأفظـع الشتائـم وأكثرها انحلالًا، تعجب ناي من كونها امرأة منتقبة تتلفَّـظ بهذه الألفـاظ، لكن لهجتها القاهرية جعلت الأمر عاديـًّا، ثم رآها تبصـق في وجه الشاب وهي ترغي وتزبد..

تدافع الركاب جميعًا لكي يحيلوا بينهما، وعينا ناي لا تغيبان عن الفتاة ذات الشعر القصير إلى أن انحشرت ساقه وهو واقف معطيًـا ظهره لجدار القطار الحديديِّ الذي تبرز منه قطع حديد بارزة ونتوءات فانغرست إحدى هذه البروزات في بنطاله فمزقته وكشفت عن لحمه، مما جعل ناي يستشيـط غضبًـا، لكن سرعان ما استحال غضبه ضحكًا هستيريًّـا لا يدري له علةً، جعل يضحك كلما تذكر هذه المهزلة التي وقعت أمامه وعزم في نفسه أن يقصها على أصدقائه عندما يعود، وكيف تحول الشاب مثل خرقة باليـة بين يدي المرأة التي استحالت وحشًا ضاريًا.

انجلى الليل عن نهار رائـق خلت فيه السماء من الغيوم، كانت هناك فقط سحب بيضـاء تتفـرق في خجـل على مسافـات واسـعـة، هبت نسمة خفيفة جعلت جسد ناي ينتعش، ارتفعت طيورٌ بيضاء تتوسطـها طيورٌ سوداء، يخرج المزارعون إلى الحقول في عافية، لم يغب عن ناي منظر الأراضي الخضراء الواسعة التي تحمل مصر وطبعها، ولا العـشـش المتناثرة في قلب الأرض المزروعة وعلى جانبي القضبـان.

أخذه المنظر الخلاب فَـتَـاه إلي أعماقـه وهـو يتأمَّـل روعة المنظر، يعرف أنه يحب الأسفار ويتمنى كثيـرًا لو زار بلادًا كثيرة ولا سيَّمـا "القاهرة..." التي يحبها.. التي أخـذت تلـوح في الأفـق.

اقترب القطار من محطته الأخيرة فظهر لعينه مظهر الحضر، روح القاهرة التي تشمها بمجرد أن يدخل القطار

أطرافها، بناياتها المرتفعة وواجهاتـها القديمة المتآكلـة، الكباري التي تحجب وجه السماء، صوت السيارات التي تسير عليها فيملأ طنينَها الآذانُ، شوارعـها الممتلئـة بأرتال من البشر يتزاحمون، يبـدو منظـرهم للوهلة الأولى لأبنـاء الصعيد أنهم يجرون جريًا، **الحياة مختلفة تمامًا بين الصعيد والقاهرة**، لا يطيق أهل الريف العيـشَ فيها، من أين لهم أن يحتملوا هذا الزحام وهذه الحياة الصاخبة التي تبدو لهم عبثًـا وهم أبناء السكون والدَّعة؟!

لكنَّ القاهرة وجوَّها الخاص تجذب ناي، تسرقه من نفسه، بمجرد وصوله إليها يشعر ناي بأنه رجل ناضج، لأنه تعلم منذ الصغر أن الحياة في القاهرة تتطلب رجالًا أشداء، "ولاد بلد" مصحصحـي الرؤوس منتبهي الأعين، تغمره سعادة طاغيـة عندما يجد نفسـه وحيـدًا وسْـط الزحام، تدفعه الحياة دفعًا لكي يتحرك معتمـدًا على نفسه، ما دام الجيب لم يخلُ من المال فلا خوف، هذا أمر لم يكن يجهلـُه في نفسـه، لذلك كان يطيب له السفر إلى القاهرة كثيرًا.

يعرف ناي مقصدَه فهو دائمًـا ما يرتـاد أحد فنادق "كلوت بك" المتواضعة، يحرص كثيـرًا على هذه الطقوس، وفي مسيرِه إلـى ميـدان رمسيس المؤدِّي إلى كلوت بك.. كلما نسي عاود الضحـك لتذكُّـرهِ المشاجرة التي نشبت جواره في عربة القطار بين بائع الكوكاكولا وأحد الركاب.

عندما وصل القطار إلى محطته الأخيرة، لَمـلَم ناي أغراضه ونزل إلى أرض المحطة يتمشى قاصـدًا لوكاندة (فندقًـا) عتيقـة في شارع كلوت بك يقصدها في كل مرة أتى فيها إلى القاهرة، فهو يهـوَى دائمًـا النزول في أماكن متواضعة، وليس ذلك من باب التوفيـر؛ وإنما يحب أن يُدرِّب ذاتـه على حياة الفقر.

وجد المدينة على غير عادتها، مُكفَهـرَّة الوجه، يتطـايـر في الجو نَـزْرُ شؤمٍ، تغلي العاصمة على غير عادتها، لم يكن يعلم أنهـا تتأهَّـب لمظـاهـرات حاشـدةٍ صبيحة الغد، لكنه قال لنفسه: "هي القاهرة، لم تتغير".

كانت الدُّنيـا فجـرًا عندما وصل إلى ميدان رمسيس، ولم يحِـن بعـدُ فتح باب اللوكاندة التي يرتادها.. فوجـب عليـه الانتظار حتى تفتح، انفرد لنفسـه بقضـاء الصباح الباكر قبل أن تزدحم المدينة بأنفاس الحركة الصاخبة لأبنـاء المدينة والغربـاء.

أجل، إن استيقظت مبكرًا وتجوَّلـت في شوارع القاهرة وأحاطتـك برودة الليل اللذيذ وهي تنسحب.. لشعـرت بالزوال الرابض في سقف العالم، وأكثرُ ما تحِـسُّ فجرًا لسعةُ برد يناير.

امتـلأت مثانتـه إلى أن آلمتـه؛ راح يبحث عن مكان منزوٍ يقضى فيه حاجته، توارى خلف غرزة شايٍ مغلقـةٍ أبوابـها، كانت ضخمـة مرتفعـة في هيئة عُشَّـة قديمـة، وما إن فك بنطـالَه.. واندفع الماء يجري مخلفًـا راحة وقُشَعْـريرة مسَّتـا بدنه، قطعهمـا شعورُه بحركة خفيفة جوارَه، لم يصدق ما قد حدث ولم يكن يتخيله.

شابٌّ لطيف ناصع البياض احمرت أوداجـُه من شدة البرد، تتجلى المَلاحـة على وجهه فكأنَّـه فتاة جميلـة.. أمسكه من يـده وهو يبتسم، يدعو ناي وهو يلهج من فرط الرغبـة كي يذهب معه لغرض ما، فُوجئ ناي ولم ينبس لكنَّ الفتى أبى تَرْكـه، فلم يملك سوى أن يدفعه عنه ثمَّ أطلـق ساقيـه للريـح وفـرَّ هاربًـا وهو يضحك ويسـب الفتى الذي ظل في مكانه لم يتحرك.

يتذكر ناي هذا ويضحك من قلبه وهو يقول:

"مجنونة يا مصر!".

قضى صباحه في غرفة ذات سريريـن ودولاب عتيق ومُشجَب، ومرآة مشوشـة من كثرة العيون التي نظرت إليها! استكان فوق أحد السريرين ووضع أغراضه على الثانـي.

نزل إلى الشارع في الظهيرة فوجده ساكنًـا على غير عادته، هادئًـا رائقًـا كاللبن الصافـي، جميع المحالِّ مغلقة ولا أحد في الشارع، كانت الشمس قد بلغت الضحى، أخذ يتساءل.. أين ذهب الخلق؟! أقامت القيامة أم أنَّ اليوم عيد؟! وحتى إن كان اليوم عيدًا، فلابد من وجود مصليـن مُعيِّديـن!

تقدم بعض الشيء إلى أن بلغ ميدان رمسيـس، وقف هُنيهـةً بمحـاذاة جامع الفتح، فُوجئ بنفس الهدوء والسكون، عاد أدراجَـه إلى شارع كلوت بك ليأخـذ طريقـه إلى العتبـة ثم إلى الموسكـي، وجد الأمـر كما هو؛ لا دكاكين مفتوحة .لا باعة ولا مشترين.

نظر إلى التاريـخ في هاتفه المحمول فـإذا هو "الخامس والعشرون من يناير"؛ لا عيد إذن سوى عيد الشرطة الذي لايحتفل به أحد من الأساس! لم يكن يتقن التجوُّل كثيرًا في شوارع القاهرة الواسعة التي لا يعرفها بما هو كافٍ؛ لم يكن يعرف سوى ميدان رمسيس القريب من شارع كلوت بك القريب من العتبة والموسكي، لكنه ترك قدمه للسير وهو لا يدري إلى أين المسير.

طال الصمت... صار في الجو برودة خفيفة وتعدَّى الوقت الظهر بكثير، وطريق العودة طويلة، ولا يجب أن ينزل الليـل عليه في أثناء عودتـه -إن أذن وقت العودة- وليس هنا من سيارة أجرة يمر فيأخـذَه إلى اللوكاندة مختصرًا عليه مشقة السيـر، إذن ليس أمامه من خيار إلا أن

يتمشَّـى ويسـأل المارة ليـدلُّوه على الطريق، لكنه كان يخشى أهل القاهرة، فهو يعرف عنهم أنهم يضللـون من يستعلـم عن أي مكان ولا سيما أبناء الصعيد.

جعل يسأل اكثر من مرة عن المكان نفسـه، لعله يتأكد من صحة الوصف إذا تكرر.. مر وقـت طويـل خلال سيـره إلى أن وجـد نفسه جوار جامع الفتح، فقعد على الرصيف متعبًـا من فرط السير، والأسئلة تدب في رأسه دبيبًـا.

نظر جواره فرأى صفًّـا من البطانيات الخشنة السوداء فوق الأرض، لا ترتفع إحداهـا عن الأخرى، حتى إنك تستطيـع أن تمشـي فوقها! بطانيات تغطي مَـنْ ضلّـوا الحياة وفقدوا عقولهم، أو من لا يجدون مكانًـا يأويهم في زحـام الحياة الغاضبـة، فكَّـر.. إن فقـد ما لديه من أموال فقـد يكون أحدهم، أزعجتـه الفكرة ولكنَّ ما أزعجه أكثر فأكثر رؤيتـه لفتاتـيـن صغيرتـيـن راقدتين في الهواء الطلق، لا يغطي أجسادهما سوى ثيابٍ باليـة مهترئـة، وغريب الأمر أنهما تبتسمـان.

وضع رأسه بيـن كفيه كي يستريـح قليـلًا أو بالأحـرى كـي يزيـح عن رأسِـه هذا المنظـرَ الذي آلمـه وهو يشعـر أن الكـون قد فـرَغ من البشر، لا يرى الدنيا .. لا يتخيل شيئًـا خلفها ولا شيئًـا عليها.. يقول لنفسـه بعد أن رأى مشهد الطفلتيـن النائمتين في العراء وهو يجلس وحيدًا:

"هل استرحت إلى أن أكون معلقًـا في الفضاء؟ لا أفكـر في شيء مضى أو شيء ستـأتـي به الأيـّام .. لا أعرف عن نفسي شيئًـا.. إني كرهت زحام الشوارع والآن تَحْـدُونِـي رغبةٌ في أن أصف حالي.. أبُقـعـةٌ من الضوء الأصفر الشاحب أنا؟ لا بد أن أرى نفسي فأحكُـمَ كيف أكون...".

كاد يـقـف ويبتعـد عن مكانه كي يرى نفسه جالسًا، لكن هذه القدرة لم يعطِـها اللهُ الإنسانَ، على الأقل حتى الآن.

للصمت عمُق بئـرٍ الآن، بينما الدنيـا شتاء فالغروب مقبل مثـلَ أم حانية يربت وجـه الكون، لم يقطع هذا الصمت الذي يجـوب الكون سوى جلبةٍ قادمة من جهة جريدة الجُمهوريـة، انتبه ناي إلى التجمع، نهض وأخذ يترجَّـل وهو يتساءل.. لماذا هذه الضجة؟! اقترب أكثر فوجد أن العدد اكثر مما تصور، سال شابًّـا قادمًـا ناحيته، ويبدو عليه أنه قد خرج من بين الناس لعلـة ما.

"ماذا يحدث هناك؟!"

أجاب الفتى وفى عينيه زهو ابتسامة عريضة لكنـه كان مبحـوح الصوت:
- هذه مظاهرة.

سألـه ناي مجـددًا:
- وماذا أتى بها إلى هذا المكان؟

ردَّ الفتى بامتعاض لجهل ناي بالمكان الذي يبدو أنه معـروف لدى الجميع:
- هذه جريدة الجمهورية.

ولما وجد هذا الفتى من ناي أنه لم يفطن لما يقول، أوضح له الأمر برمتـه دفعة واحدة، قال:
- هذه مظاهرة ضد نظام مبارك، وهذا مبنى جريدة الجمهورية رمز الفساد في مصر.

غـمـغـم ناي بعضِ الكلماتِ غير المفهومة ثم شكر الشابَّ الذي مشَى ضاحكًـا من ناي الذي لم يفهم شيئًـا.

اقترب أكثر فسمع صوت الهِـتاف، اهتزت روحُـه من الداخل وشعر بقُـشَـعْريرة لا يعرف لها سببًـا، وقـف مشدوهًـا لِلَحـظـة لكنَّـه تـرك الدهشـة خلفـه وتقدم إلى

الجمع وهو ينظر بعين حذرة، فهو لم يعتَـد رؤية المظـاهرات سوى في الأفلام الوطنيَّـة، فضلًا عن ذلك كان يتحاشى عن المواقف الخطرة كي لا يتـسبِّـب في قلق والدتـه، لذلك كان يتوخـى الحذر في كل خطواته.

لكنه اقترب هذه المرة وكأن أحدهم أمسكـه من طرف بعيد خفيٍّ يحركه من مكان إلى مكان في لعبة حقيقية، ذلك على الرغم من أن الزمن ساعتهـا لم يكن يمر، قرأ الكلمات المضيئة المعلقة على المبنى الذي يتظاهر الناس أمامـه "جريدة الجمهورية"؛ ابتهج وشعر بأنه اكتشـف شيئًـا مُهمًّـا يودُّ لو حكى عنه لأصدقائله.

ظل يتابع صخب المظاهرة الذي يملأ الفضاء صراخًا وهِتافًـا، هذه البهجة الشديدة التي تنتشـر في عيون الناس ولم يعهدها في أحد من قبل، كان من بين الوجوه التي ألقـت في قلبـه سعادة خفيَّـةً وجهٌ لم يكن يتوقعه، طال وقوفه وهو يحملق ويديم النظر إلى ذلك الوجه المألوف لديه، وهَـبَّ يتذكر أين رآه في السابق إلى ان هدتـه ذاكرته إلى حقيقة هذه الفتاة؛ إنها فتاة القطار صاحبة الشعر القصير! نظرت نحوه أكثر من مرة مُـبـتـسِـمـةً، يتألـَّق وجهها بصفاء غريب..

أدرك على الفور أنها تذكَّرتـه كذلـك، حـوَّل عينيـه عنها خجلًا لكنه شعر بحرارة نظراتها المثبتة عليه، تمنى في داخله لو أتـت إليـه بنفسـها، راح يسبح في بحـر خيالـه الذي يصوِّر له الفتاة كأنَّهـا معجبة به، فتـأتي وتعترف له بحبها، وظل هائمًـا في هذا الخيال لحظات... إلى أن أحسَّ طيـفَ جسـد يقترب منـه، أبصَر جانبًـا في تحفظ فوجدها! جميلـة القطـار التي شغلت عقـله طَوال الطريق، فقال في نفسه: "ما أصغر الدنيا!".

قالت له في حزم وهي تمـدُّ يدهـا كي تصافحَه:

"اسمي جميلة، طالبة في كلية الطب، تذكر جميلة بو حريد الثائرة الجزائرية العظيمة؟"

فُوجئ وارتسمت على وجهه ابتسامة لافتـة، فابتسمت ابتسامة أنثـويَّة تجعلك تـود لو قبَّلتـها! حملق في وجهها مليًّـا... لكنَّـه سـرعان ما استردَّ بصره لأن الأيسر عليه أن يحملق في قرص الشمس إبان اعتدالها.. من أن يحتمل وَقْـع نظرة عينيـها السوداوين الساحرتـيـن اللتين تلمعان بذكاء رائق، ورموشها الطويلة المكحلة.

ثم راح يسأل نفسه أي قوة دعتـه إلى الاقتـراب من المظاهـرة ليقابـل هذه الفتـاة التي جذبت لبَّـه، وهي التي تبدأ بنفسها الحديث، ثم قال لنفسه مجددًا:

"ما أجملها مصادفة!".

تحركت المظاهرة وما زالا يتبادلان الحديث، تحركت هي معهم لكنـه ظل في مكانه، نظرت إليـه وسألتـه:
- ألن تأتي معنا؟

فسـأل متلعثمًا:
- إلى أين؟

قالت مبتسـمة بين حيرة وتعجب:
- المظاهرة متجهة إلى ميدان التحرير.

قال وهو يخفض بصـره إلى الأرض خجـلًا:
- لا شأن لي بالمظاهرات

- إذن، فما الذي أتـى بـك إلى هنا؟!

- كنت أتمشى في الشوارع فاقتربت هنا حبًّـا في الاستطلاع.

ضحكت.. مرَّت لحظةُ صمتٍ وهي تنظر إليـه في تعجب...
- إذن فلتأتِ معنا، إن الحياة تدعوك إلى أن تشارك في هذه اللحظات التاريخية!

لكنه أبى أن يتحرَّك وأعاد كلامَه:
-لا شأن لي بالسياسة.

فردت ضاحكةً في حنو:
- هذه ليست سياسة، بل هي ثورة! واجبٌ وطنيٌّ لا يختلف كثيرًا عن واجبـك نحو أهل بيتـك.

سحبته من يده وسارَا خلف المظاهرة وهو لا يعي ما يفعل، لكنه رضخ لدعوتها لكونها فتاةً جميلة ليس إلا.

تقدمت المسيرة والهتاف يتصاعد ليسـد أذن السماء، تتتابع الهتافات في اندفاع يملأ الحناجر ويخرج من القلوب.. وعلى النقيض يسير هو صامتًـا مطرقًـا جـوار جميلةَ التي تهتف وتصرخ إلى أن بحَّ صوتُها، مرَّت لحظات ولم يدرك ما حدث.. فإذا بالجميع قد أخذ في الهرولة، تفرق الجمع وسمع صوت طلقات الرَّصاص، ورأى سحب الدخان كثيفـةً زرقاء تحجب الرؤية، أخذ يركض ولا يعرف إلى أين يتجه، لكنَّه وجد جميلة تسحـبُه ناحية أحد الأزقة الضيقة المظلمة، ظلا يركضان لكن الأفكار كانت تعبث في قلبه، شيء يريد أن يخرج من صدره، آهة.. صرخة.. دمعة

"أيُّ الرجال الضعفاء أنا.. وأيُّ النساء الأقوياء هي؟!"

توقفا عندما نظرا إلى بقعة مضيئـة على مقربة منهم، سارا يمشيان باتجاه هذا الضوء المغلف بالسكون إلى أن وصلا، كانت "غُـرزة شعبية"، نصبة شاي وعربة فول.

قعدا يلهثـان من فرط التعب، لم ينتبها إلى صاحب المقهى الذي يجلـس على مقربة منهما إلى أن جذبهما صوته الهادئ المستكين، نظرا نحوَ الصوت فرأيـا رجلًا مُسنًّـا في السبعين من عمره تقريبًـا، وقد أرسل لحيتـه البيضاء التي أكسبت وجهه النحيل وقارًا ملحوظًـا، فـبـدا وجهه الباسم (ذو الأسنـان المصفـرَّة من فرط التدخين) وديعًـا مريحًـا، ذكَّـره وجهُـه بوجه عمرَ المختار، سألهم:

"الإخوة ثوار.. أليس كذلك؟"

باغتتـهم كلمات الرجل، فهبطـت عليهم مثل قالب طوب يقع فوق رأس أحد المارَّة يفقـده وعيَه، لكنَّـه أعاد إليهم الحياة عندما أكمل بعد أن بدت سِيـمـاء الريبة على وجوههم...

لا تخافا"، ثم قام في تؤدة وجذب كرسيًّا وقعد أمامهما، كان يرتدي مِريلـةً متسخـة تحتها جلبابٌ أبيض فكرر:
- لا تخافـا؛ قد عرفتكما من أعينكما المرتاعتـيـن وملابسكما المُترَّبـة، منذ قليل جاء شباب مثلكما يلوذون بهذه العَطفـة هاربين من رصاص الشرطة، يبدو أن البلد متجه إلى حرب شوارع!

فنطقت جميلة لأول مرة منذ جلست:
- بل هي ثورة إن شاء الله.

ضحك الرجل ضحكـة واهنـة وقال:
- كم أود لو ذهبت مثلكما إلى المظاهرات، لكنَّ الصحة لا تسمح.

- حسنًـا، يمكنك أن تذهب فقط إلى ميدان التحرير وتعتصم هناك مع المعتصمين.

فتبسَّـم آسفًـا ثم قال:

-لا قوة لي بـهذا. سكت لحظة وأكمل بعدها: "لكنَّ الله لم يـرد أن يكسر خاطري، فهو يرسل إليَّ الثوار هنا كي يحتموا من بطش الشرطة؛ وأنا أقدم إليهم ما تيسر. فأنتم الثورة، هذا زمانكم وليس زمان أمثالي"، وبينما كان يتكلم صفَّق بكفَّيـه، فأتـى شابٌّ رثُّ الثيـاب في عينيه حَـوَلٌ.

قال المسِنُّ للشـاب:

- اذهب وهاتِ عشاءً يليـق بمقـام هذيـن الضيفيـن، ثم أتبِعْـهما بكوبين من القهـوة الخاصَّـة. ثم أدار رأسه جهـة الشاب والشابة قائلًا:

-لا تخجلا.. ولا ترفضا عَـزومتي؛ ليس بإمكانى شيءٌ أقدِّمـه للثورة أكثر من ذلك.

أتى الشاب رثُّ الثياب حاملًا صينية نحاسية مُحمَّلة بالأطباق المعمرة بكل ما لذ وطاب، رصت الأطباق فوق المنضدة أمامهما، كانا جائعين حقًّا، والرائحة تخرج كثيفة شهية تحرق أنوفهما، أحس الرجل خجلهم فبادرهما وأخذ رغيفًا.. وبدأ يأكل ثم حضَّهما على أن يمدا أيديهما، شعرا برغبة قوية في الأكل عندما رأيا منظر الطعام الشهي، كما أن البطون الجائعة ترى الفول لحمًا!

أخذت الأفواه تلوك والأضراس تطحن، والملاعقُ صاعدةٌ نازلةٌ بين الأفواه والأطباق...

سأل الرجل:

"أين كانت المظاهرة التي أتيتـما منها؟"

لم يدرِ ناي كيف يجيب، لكنه أومأ إلى جميلة بأن تصمت وتكفل هو بالرد لكونه رجلًا صعيديًّـا لا يسمح للنساء بأن يحادثن غرباء.

"كنا نسير في مظاهرة فداهمتنا الشرطة، هاجت الدنيا وماجت وجرى كلٌّ في اتجاه فلم ندرِ بأنفسنا إلا ونحن هنا.. في قهوتك"؛ ضحك الرجل وقال: "هذا فأل حسن؛ ما دامت الشرطة تلوش وتعبث، فالأمور لديها غير مستقرة، لكم النصر بإذن الله".

ثرثر الرجل كثيرًا ولم يدع لهما مجالًا للكلام، كصُنبـور ماء انفتح ولم يجد من يغلقه. كان يَظهَـر من كلامه أنه على دراية بأمور السياسة، وكانت جميلة تبادله الرأي والكلام، ظل ناي صامتًـا مشدوهًـا من قدرتهما على الاسترسال في أمور لم يسمع عن بعضها أبدًا، وبعضها الآخر لا يعلم منها إلا القشور.
قال الشيخ:

"عندما تلقي عليكم الشرطة قنابل الغاز المسيل للدموع لا تفروا مجددًا ولا تخافوا الاختناق، فقط اغسلوا وجوهكم بالخل والبصل؛ هذا يبطل مفعول الدخان الذي يحرق العيون".

ظل يتحدث وهما بدورهما صامتان، كانا مُتعبَيـن وليس لديهما القدرة على الكلام؛ راحا يُصيخـان إليـه وإلى حديثه الذي كان منمقًـا مؤثِّـرًا.
قال لهما بعدما عبث في لحيته قليلًا:

"أتريان هذه اللحية الصَّهباء الشائبة؟ سِنُّها أكبر من سنكما، أطلقتها تحررًا وزهدًا في الجسد، كنت دائمًـا في شبابى من زمرة الثائرين ضد عبد الناصر ومن بعده السادات، سجنت كثيرا وتعذبت أكثر، ولكني لم أمت، لم أخسر سوى بضع ساعات من الألم، بل إني ربحت نفسى، لكن الدنيا تلقي بنا وتصل البلد إلى أحضان حاكم ظالم فاسد آخر، ولن يخلصنا من براثنه سوى ثورتكم هذه.

فلا سبيل إلى نهضة أمة محمد إلا ثورتكم، ثورة تحت راية الإسلام تدعو لدولة الخلافة، لقد جربنا حكام العسكر كثيرًا.. فلنجرب حاكمًا ذا خلفية إسلامية، الثورة امرأة جسـور لعوب لا يردعكم عن هواها رادع، فقد ألهبَتْ قلوبَنا حبًّـا ووجدًا في السابق وجاء الآن دوركم، حبذا أن يكون هدفُها الحكمَ الإسلاميَّ وتطبيقَ الشريعة,، فلا خلاص لنا ولكم سوى الإسلام كي ننهـي تحكم الجبابرة الكفرة".

مضى يتكلم ووجهه يزداد احتقانًا وغضبًا، وهما لا يزالان ينصتان لكن الخوف بدأ يتسرب إلى قلوبهما، ودت جميلة لو دخلت معه في نقاش حول أفكاره التي يمليها عليهما لكنها آثرت السلامة، أما ناي فظل كعادته صامتًا إلى أن تركا الرجل مودِّعَـيـن وهو يلحقهما بالدعاء وكلمات الوداع.

كان الليل قد افترش صفحة السماء بحبات النجوم البللورية المضيئة في جلال وجمال وطفت على الجو لسعة برد خفيفة تجعل الأبدان تقشعر في متعة ولذة خصوصًا أنهما اثنان: شابٌّ وفتاةٌ لم يتعارفا بعدُ، فهما يشعران بدفء المشاعر المكبوتة في مكمنها.

وجدا أنفسهما يهيمـان على وجههما في شارع ساكن بعدما انتصف الليل، تضيئه أعمدة الإنارة الصفراء في خجل ووَحدة، سمعها تدندن كلماتِ أغنية لايعرفها، وهو من هو، فقد ظل يظن أنه لا تفوته أغنية.

"جيفارا مات جيفارا مات آخر خبر في الراديوهات"

كلمات جديدة تطرق أذنيـه، همَّ بسؤالها عن ماهية "جيفارا" التي تغني لها! لكنه استدرك نفسه قبل أن يسألها رغم فضوله الذي كاد يقتلـه، فقد منعه حياؤه.. صمت قليلًا، ثم وجد نفسه يسألهـا:

"من هذه جيفارا التي تغنين لها؟"؛ رمقته بنظرة ضاحكة ثم ضحكت ضحكة مكتومة، وما لبثت أن انقلبت صراخًا...

لم يكن يدري ما مبرر هذا الضحك وهذه السخرية، اكفَهـرَّ وجهه ونظر إليها شزْرًا، لعنها في داخله، كاد يقنع نفسه أن هذا الضحك بهذه الخلاعة لا يخرج إلا مِنْ لَعوب، لكنها سَرعان ما انتشلتـه من سوء ظنِّه فقالت له -ولا زالت تضحك ضحكات متقطعة خجولة- بعض كلمات عن جيفارا، لكنه لم يعبأ بما قالت، فأدركت أنها أغضبته وسرعان ما استدركت حماقتها فقالت له معتذرة:

"إني آسفة؛ ما قصدت إحراجك، لكن دعني أقل لك من (تشي جيفارا) حقًّـا"

صمت ولم يرد، فاسترسلت في كلام عميق وقور، تبدَّل صوتُها فأصبح عذبًا جميلًا كصوت أنثى تقص حكاية على طفلها، فبدت له كأنها غابت عن الحياة وأخذت تسبح في برزخ من الكلام في ذلك المجهول، تحولت جميلة إلى قيثارة تترنم بقصة جيفارا، نظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة كمن تذكر شيئًـا جميلًا يحنُّ إليـه، تملكتـه دهشةٌ غريبةٌ، فتبدت له امرأة حقيقية جلَّـت عن وجهها قناع الغبي الذي أغضبه وتكشف وجهها عن امرأة تملك الحياة بين يديها.

وجد نفسه ضئيلًا أمامها مما ضاعف شعوره بالقنوط، حيث إنه تصاغر في عين نفسه أمام هذه الفرسة الجامحة، كاد يلفت نظرها إلى غباء "تشي جيفارا" الذي جعله يترك رغد العيش الذى كان يحياه ويلقـي بروحه في غياهب الألم، لكنَّـه تراجع بعدما تفتحت أذناه على ألفاظ لم يعهدها، تذكر جهله بكثير من الأمور في مقدمتها السياسة.. فكاد يثور على نفسه ويلعنها لكنه لم يفعل، وَثـب في روحه إحساسٌ بالرضا والإعجاب والسعادة

لمسايرة هذه الفتاة التي عرفها مصادفة وتمنى لو جمعهما حب أبديٌّ أو صداقة حميمية.

رآها مسرورة، عيناها السوداوان لامعتان مزهوتان.. شفتاها الصغيرتان المكتنزتان لا تكفان عن الابتسام المبهج؛ لقد عاد إلى حال الفتى المراهق، يكاد ينكمش أمام جرأتها مع أنه لو وضعها في صدره لاختفت تمامًا كيمامة صغيرة وديعة، هي حقًّا في حجم اليمامة، وهذا البرد الذي يلفهما جعله يشتهيها بعمق، يكاد صدره ينفجر، يكاد ينحنى يقبلها قبلة خاطفة في الطريق.

لكن شعوره بالضآلة لم يفارقه، فثقل على نفسه أن يسير جوارها كالأبلَهِ أو الطفل الذي تجره والدته، خاف من أن يُفضَحَ جهلُه الذي أبى عليه أن يبادلها الحديث كي لا ينكشف أمام فتاة واعية مثلها، ظل صامتًا يفكر بعض الوقت، يلوم نفسه على صمته.. إلى أن تكلم: "لقد سمعت الأغاني كثيرًا لكن لم أسمع أبدًا بنجم وإمام هذين.

أدركت أنها أمام عنصر بُدائيٍّ من المصريين، تغلب عليه سطحية التفكير الذي ابتلى هذا الجيل الذي لم يشغله من أمور الحياة سوى الحب والزواج والبكاء على أطلال أرواحه حزنًا، فأبناؤه يعالجون حزنهم بالحشيش، لكنها رغم ذلك لامست فيه غرابة لم تعهدها من قبلُ وراقتها بساطته وصراحته وقوته وبالتأكيد وجهُه الذي جذبها كثيرًا، لمست فيه روحًا نقية راقدة تحت هذا الركام من العفن المجتمعي، انفتح قلبها واستراحت له رغم بساطته.

التجول في شوارع القاهرة يشمل مغامرات يومية لمن يعيش فيها، مدينة المتناقضات البديعة بكل تفاصيلها، تؤدي إلى النتائج وعكسها بالكلية، هنالك عالم أدبي كامل ينتظر عيونًا لاقطة تستطيع أن تنتزع شعريتها وثراءها.

مضت الساعات متواليةً والسكون مُطبِـقٌ وطالت فترة السكون... أخذ الترقب ينسَـلُّ إلى خَلَـد جميلةَ وهي تفكّـر في شاعرية القاهرة في هـدْأة الليل، بينما ينسَـل الوقت ولا يزال ناي كبرياؤه تتجرع غصص العذاب.

خطرت في عقله فكرة كنسمة طيبة وارتسمت على أساريره فأثلجـت صدره الفاتر بالحنق والغضب من صغر النفس، فهفـا وطاب وتهيأ لأنْ يفاتحها الحديث أخيرًا لكنه دارعلى عقبيه متوجسًا خجلًا، فهوَى من علو إلى بئر سحيقة، خيبة أمل بمصارحةٍ جميلةَ بمطيته، أكمل طريقه خالدًا إلى السكون ينفخ غيظًـا من نفسه.

خلت لهم الشوارع إلا من الصمت وهما يتسكعان في غير هدى، بدأت المآذن تصيح بأذان الفجر، نسائم الصباح قد بدأت تتسرب من أعلى قباب المساجد، شعر بضيق في صدره لاقتراب الصباح في الأفق، يروقه المشي في معية هذه الفاتنة والنظر في عينيها النجلاوين ذواتَي الصفاء والخفة، عينان تنطق نظراتهما بالتساؤل والاستنكار، خفتها تضفي عليها غلالة من الفطنة والجرأة، سألها والكلمات تخرج من فمه متلعثمة عَجِـلة تكاد لا تفهمها وتسمعها كالغمغمة...

"أين تذهبين في الصباح؟"

كانت منتظرة أن يفاتحها في أية موضوع حتى كادت تيأس، لكنه باغتها بسؤاله الذي وقع على سمعها، تخيلته سأل بلا داعٍ تقريبًا، لكنها غفرت له ذلك، ابتسمت من طرف فمها ثم قالت في اختصار:
- لا أدري!

قطب جبينه مستفهمًا، صمت ثم عاود السؤال:
- ألن تعودي إلى مسكنك؟

ضحكت مجددًا وأجابـت في فتور تعمدت إظهاره:
- لا، لن أعود.

- لماذا؟!

- سأذهب إلى الميدان.

سألته بدورها قاصدةً استفزازه بعدما فَطـنَت إلى تفكيره:
- ألن تذهب أنت أيضًا؟

أجاب ولم يفهم مبتغاها:
- لا لن أذهب

سألته في عصبية واضحة:
- لماذا؟

- يبدو أن الحالة غير مستقرة؛ سوف أعود إلى قنا.

بدا على وجهها شبح استنكار فردَّت:
- أتسافر؟

فقال لها مفكِّرًا فيما أصابها من وقع كلماته:
- أجل، الآن توقف البلد ولم أستطع شراء ما أتيت لشرائه، فماذا بقِي لي؟! لذا يجب أن أعود.

تساءلت وهي تحاول جاهدة أن تبدو هادئة كي تثيره أكثر فأكثر، أرادت أن تفهم وتتحقق كيف يفكر...

- ألن تأتيَ من أجل الثورة؟! ألن تستجيب لدعوات التظاهر التي انتشرت على الإنترنت؟!

ضحك ضحكة عالية قذفت بحنق الليل خارج صدره ثم سأل ساخرًا:
- أي ثورة؟! قلت إنه لا دخل لي بالسياسة!

صمت... قالت له متمادية في استفزازه:
- حسبتك ثائرًا أتيت للوقوف معنا تظاهرًا ضد النظام.

ظل صامتًا يستوضح كلماتها داخل عقله ثم قال:
- عذرًا، لست مهتمًّا بالسياسة، ثم من أنتم حتى تستطيعوا أن تعزلوا هذا النظام، البلد بلدهم؛ فضلًا عن أن السياسة ليست من اهتماماتي.

- فما اهتماماتك إذن؟!

كانت أعصابها أخذت في التوتر من برودة مشاعره تارةً ومن رغبتها الدفينة التي لم تعلنها حتى لنفسها ببقائه جوارها تارة أخرى، عضت على نواجذها من شدة التوتر وهي توجه إليه كلماتها، بدا الأمر مضحكًا، فتاة توجه شابًّا إلى الثورة وهو يتقاعس عن جهل ولا مبالاة، باغتها بصمته وعدم قدرته على إكمال الحديث فغفرت له مجددًا لبساطته، وصمتت بدورها لكنها عاودت الحديث بعد هُنيهَةٍ من التفكير في تأنٍّ...

- سوف ألعب معك لعبة مسلية نقتل بها الساعات المتبقية من الليل.

نظرت إليـه نظرة تفيض بأحاسيس الجد والرزانة، لقد هداها عقلُها إلى فكرة قد تفتح أبواب عقله الموصدة بالخجل تارة وبالجهل تارة أخرى، فجاد ثغرها بابتسامة نَشـوَى وحدثته:

- اذكر لي أقرب خمسة أشياء إلى قلبك، ولماذا.

هَمَّ أن يرفض الدخول معها في هذه اللعبة، لكنه أحس ثقله، أدرك أنه لو رفض فقد تفتر هذه الفتاة وتمقته؛ ابتسم وابتسمت له ابتسامة خفيفة براقة مشجعة مثل ابتسامة من يستقبل ضيفًـا، لعلها تفتح داخله طاقة التأمل.

أغمض عينيه لحظة كي يتيح لنفسه الفرصة للتفكير، يحب دائمًا أن يتمشى، إذا ما شغل فكره انشغل؛ لذلك راقته اللعبة واستراح لها، أخذ ينقب جاهدًا في ذاكرته وقلبه عما يحب، ضربه اليأس.. لم يجد! خاف أن يكسر خاطرها فلم يجد سوى شيء واحد قريب إلى قلبه فقال لها: "أمي"

همهمت قليلًا ثم قالت:

- تنقصك الثقافة. ثم أكملت: "بداخلك فِكَـر كثيرة لا تستطيع التعبير عنها".

- لا قدرة لي على مجالسة الكتب.

- الثقافة ليست كتبًـا فقط، فضلًا عن ذلك فإن كل شيء يأتي بالتعود.

كان الصمت يجـوب المكان. شيء غريب، لم يكن يفكر، كان هائمًـا في اللا شيء، النُّور الذي كلما اقترب منه ازداد توغلًا في الفراغ اللامتناهي وازداد يقينًا بالمُبهَـم، سألها وهو لا يزال على جموده:

"إذن فما الفائدة من القراءة؟!"

صمتت لحظةً، وما أكثر الصمت الذي يتخلل حديثهما الفاتر! لكنَّـها صمتت كي تعد له إجابة مقنعة...

"الكتب نافذة تطَّلع منها على العالم، عندما تقرأ سوف تنظر إلى الحياة بطريقة مختلفة، سترى الجمال داخلك وحولك، وتتقرب أكثر إلى ذاتك، فتجيب عن سؤالى عن أكثر الأشياء المحببة إلى قلبك! أيضًا قد تجعلك القراءة تتقبل عثراتِ الحياة وتستمتع بها وبجمالها وتناقضها.. تدرك مَن أنت وأيـن توجد على خريطة الكون..."

رغبة مُلِحَّـة داخله تكره الوعظ والتنظير فسألها مقاطعًا:
- هل جميع الذين يقرؤون.. يقرؤون لهذه الأسباب؟!"؛ ردت دون مواربة:

- الحياة أولويات، وكل من يقرأ فله سبب يخصه، ويوجد من هم يقرؤون دون سبب.. لكن الكتب تسحر أفكارهم فتسحبهم إلى طرق يحبونها كانوا لا يعلمون أنهم يحبونها"

باغتها:
- وأنتِ، ماذا عنكِ؟

ابتسمت...
- أنا لا أحب القراءة فقط؛ أنا أحب الحياة، والقراءة بالنسبة إلى الحياة كالعقل بالنسبة إلى الإنسان.

قفز إلى ذهنه سؤالٌ كان قد شغله فيما مضى:
"منذ بَدْءِ الخليقة هناك حرب بين العقل والقلب، فمن المنتصر إذن؟!"

- هذا سؤال تأخذ إجابته وقتًـا، قد أجيبك عنه فيما بعد.
...
أخذ يفكر أنها تمد حبال الوصل بينهما، وابتهج لهذه الخاطرة.. ثم أخذ ينصت لحديثها وهو يتأمل وجهها وأنفها

وشفتيها اللتين تدعوان إلى التقبيل.. وهو يعيد ترتيب الواقع في ذهنه، كلٌّ منهما يحمل همَّـه الخاصَّ.

يقارب بينهما البرد الذي جثم على المدينة، ما الذي أوصلها إلى هذه الدرجة من الحزن والرَّهافة؟! تتحدث كثيرًا فجأة ويهتز كتفها كأنها تبكي لكنَّها لا تلتفت نحوه، وهو يفكر في ما يمكن أن يفعل من دونها في هذه المدينة.

هل يعود إلى اللوكاندة فـينام؟ لكنه لا يعرف كيف السبيل.. حتى إن عرف، فهو لا يريد أن يبتعد عنها. ما زالت تتحرك، ما زال كلامُها مليئًـا بالتفاصيل، لا يسعى إليه ولا يهمه لكنه يعجبه، ينظر إلى وجهها الوسيم الذي ينظر إليه في كل مرة يمـر فيها أسفل عمود إنارة، لقد انجذب إليها لكنها عادتُه؛ ينجذب إلى كل النساء، لكن هذه الفتاة فيها شيء مختلف، ليست أنثى عادية، إنها حياة داخل الحياة!

أغمض عينيه لعل الظلام يمنحُـه فرصةً للتفكير في هدوء، سألها:

"أين نحن الآن؟"؛ ابتسمت.. لقد ضلَّا الطريق لكنهما لا يعبآن لذلك.

أخذت تعيد في داخلها الحوار الذي دار بينهما،

"ما الذي أتى بك إلى القاهرة؟"

ضحكت، ثم أطرقت إلى الأرض وهي تتذكر قولها:

"جئتَ من أجل ما نحن فيه الآن"

كانت تدرك في داخلها أنه لم يفهم ما تقصد، لم يفهم أنه القدر، كذبت، أخفت عنه أنها قاهرية ولكنها كررت له أنها

تدرس الطب هنا! تذكرت نبرتها الواثقة المتحدية وهي تقول:

"من أجل المظاهرات"

كانت تعلم في داخلها أنه لن يتقبل السبب الذي جاءت له، ظنت أيضًـا أنه يظنُّ بها سوءًا لكنها أرادت أن يعرف لماذا جاءت بعدما بدا جهله بحال البلاد وبدت لامبالاتُه، أثار حفيظتـها.. لكنها ظلت على هدوئها ومرحها، لقد اختلقت له الأعذار معترفة بأنه ليس الوحيد الذي يعيش الغياب.

لم يغب عن خاطرها أنها ودَّت قديمًا لو عاشت حياة التظاهُرِ بصحبة رجل، قرأتْ كثيرًا عن هذه القصص وتمنت لو عاشت قصة مثلها وبالأحرى في ليل القاهرة الساهر، يلفها البردُ والحبُّ رفقةَ رجل ما، صديقًا كان أو حبيبًـا، فهل هي المصادفة العشوائية التي جعلتها تقف أمام ناظريه أم أنها هي التي سعت إلى ذلك لأنها تحلم بأن تعيش تلك اللحظة برفقة رجل يفتح الدنيا أمامها، يخترقها، تتعلم بين يديه أسرار الحياة والليل والحب، يقودها، يحتويها؟!

لم تكن أبدًا تتوقَّـع أن القدر يلقي بين يديها ناي الصعيدي الذي لا يعي من الدنيا إلا القشور، لكنها تذكرت أن الحياة تعطينا دائمًا خِلاف ما نريد، وجدت نفسها تسأله:

"وما رأيك في السبب الذي دعاني إلى المجيء؟".

كان قد أغمض عينيه وهو يسير ليسلي نفسه، وما إن نظر إليها انبعثت من عينيه نظرة رطيبة توحي بالوداعة والخلو التام من الذكاء والحرارة، وقف صامتًا أمام أسئلتها، وجد نفسه مجددًا لم يدرِ ماذا يقول وهو مثقل بالفِكَـر المهلهلة، ينظر إلى نهديها النافرين مثل حبتي سفرجل ناضجتين ولم يعلق.

قالت لنفسها:

"على الرغم من صمته وشروده فإنـه حين يتحدث أشعر أنه يشاركها كثيرًا من الأشياء، كثيرًا من مشاعر الانبهار بكل ما حولنا، إلا أنه لا يعرف كيف يعبرعن مشاعره"

قد كانت مثله قبل أن تقرأ، تحبس روحها الطليقة اللطيفة في هذا الجسد، ثم أكملت تفكر... هل تفوِّت على نفسها فرصةَ علاقةٍ سوية مع مثل هذا الشاب؟ أما هي فتفـهم كيف تحب وكيف تعطي، وأما ناي، فهل يصلُحَـنَّ؟!

تبدو المدينة غريبةً بصحبته، تبدو مزيجًا من الأُنَـس والوحشة، تعرفها أكثر منه؛ تمشت كثيرًا وحدها أو مع صديقاتها لكنها تشعر في السويعات القليلة التي يقضيانها معًـا بأنها تعيد اكتشافها من خلاله، تعيد تركيب تفاصيلها الصغيرة من جديد أمام عينيه، ظلت حائرة من سأمها؛ إنه لا يستطيع مجاراتها في الحديث!

تمر لحظات تظن أنها لن تتكرر ثانيةً، لحظات ميلاد الثورة، وتتمنى في لحظات أخرى أن تستمر الرحلة في صحبته، يسكنها شعور بالشفقة والعشق.

لا تدري، هل ترثى له أو تتعاطف معه؟ وجدت نفسها تذهب إليـه وقد قالت في نفسها:

"إنني قد أقدم شيئًـا إلى مصر لو جعلتُ منه مثقفًـا ثائرًا، ولكننا نعرف أننا إن أردنا أن نغير شخصًـا فهذا يعني أننا لا نحبه، تبًّـا للفلسفة الآن!"

ثم أكملت:

"ليس بالضرورة أن يكون حبيبًـا، فلعله صديق أو ما شابه... تبًّـا أيضًـا للمسميات!"

هي تأبى أن تضيع الفرصة من يدها.

لقد كرهته عندما رأته في القطار، كان ينظر إليـها بعين وقحة حسبت أنه متحرش رخيص يغتصب جسدها بعينه، لكنها رغمًا عنها كانت منجذبة إليه، نظرات عينه مختلفة عن نظرات الآخرين، شرسةً تلهب غريزتها، وهي -على الرغم مما تبديه المرأة من تبرم إثر معاكستها- تنشرح في داخلها لشعور الرجال بأنوثتها، تعرف أن أنوثة المرأة هي أهم رصيدها في الحياة.

التصق ناي بذاكرتها حتي بعدما وصلا إلى القاهرة وافترقا، ظل ملازمًا ذاكرتها إلى أن رأته يقترب من المظاهرة أمام جريدة الجمهورية، الدنيا صغيرة! نرى الشاغلين عقولَنا، يبدو بريئًا أكثر من اللازم، تائهًـا؛ ذهبت إليه دون تفكير، أبت (للمرة الأولى) أن تفلت الفرصة من يدها، كان تصرفًا غير معقول، لا يهم؛ هي دائمًـا امرأة اللامعقول، وجدته خِلافَ ما توقعَت، وتلك من المرات القليلة التي يخونها تقديرها وتنجذب إلى أحد متحرشيها!

عندما تحاورا وجدته ذا قلبٍ أبيضَ ونفس سمحة ذاتِ بسمة مضيئة بريئة، ورغم ندرة حديثه فهو يخلِّف في رأسها الأثر نفسه الذي يخلفه الحشيش الطيب في رأس شقيّ!

قال لها بغتة بعدما أفاق من شروده وهما جالسان على أحد الأرصفة تعبًا:

"لماذا تأخرتِ هكذا؟ كان ممكنًا أن أرتبط بفتاة مثلك!".

ضَحِكـت جميلةُ من سذاجته لكنه أعجبها في قرارة نفسها، قالت له كلامًا من خارج قلبها، فقط لكي تغلق الباب أمام أفكاره، فعلى الرغم من انجذاب جزءٍ منها إليه.. فإنها ليست بهذه السهولة التي تجعلها تتعلق بشاب تعرفه فقط منذ ساعات قليلة.

لا يوجد شيء اسمه الحب؛ إنه وهم جميل ينفذ به الرجال إلى عقول النساء ليستولوا على أجسادهن..

صمت ناي وبدا شاردًا من نظرة عينيه ثم قال:

"ربما كنت خياليًّا، لكنني أومن بقوة الحب".

شعرَتْ بأن الحديث تطرق بهما إلى منطقة ترفضها، فقط في ظاهرها، لكنها تود الولوج بعُمقٍ في بحر هذا الشاب الغامض، تود لو أكملـت بكل أعماقها، لكنها أبت أن تغوص أكثر من ذلك، فأخذت تغلق أمامه أبواب الحديث لكنها كانت تشعر بأنها تسير معه في الأرض بثقـة من يملك كل شيء!

أخذت خيوطُ الفجر الزرقاء تنشب في الظلماء إلى أن أقبل الصباح بهيًّـا وضاحًـا على الرغم مما ينتشر من نتـف غيوم خفيفة هائمة على وجه السماء، أتى الصباح يحمل معه نسيم يناير الرقيق المعبق بالندى، هذه الأوقات التي طالما أحبها ناي والتي يحب أن يتمشَّـى في أثنائها، يمنعه عنها الكسل في أغلب الأحيان، تحرك سكون الشارع بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق، لقد بلغا مكانًا شعبيًّـا لا يعرفانه وأزمعا أن يعودا معًا من حيث جاءا.

في طريق عودتهما أنهكهما التعب فقعدا إلى بناية وأسندا ظهورهما إلى الحائط، غفت أعينهما لحظاتٍ ولكن سرعان ما أيقظهما صوت بائع الروبابيكيا الذي يصيح بصوت مرتفع، نهضا متكاسلين لا يقويان على الوقوف

ولكنه لم يكن من بدٍّ من العودة، شعرا بالجوع فأقبلا على عربة فول تحتل زاوية في ناصية أحد الشوارع، مزينة بنقوش أسماء الله الحسنى وبعض الأمثال الشعبية، أكلا بشراهة وصَمْـتٍ لكنه صمت لذيذ، ولم يستطع ناي أن يأكل جيدًا رغم ما به من جوع.

ظل خجِلًا يظن أن جميلة تنظر إليه وتضحك منه وهو يأكل، فأخذ يأكل وهو مرتبك متشبِّـثٌ بالصمت، يود لو أغمض عينيه متواريًـا عن العالم المحسوس كي يهيئ لروحه السكينة، قرأتْ جميلة ذلك في حركاته المرتبكة وأنفاسه المتقطعة فآثرت الصمت كي تحدَّ من خجله وتتركه إلى نفسه وهي تسأل نفسها:

"أيبلغ خجله هذا الحد؟!"

استكملا المشي معًا.. جميلةُ وفي إثرها ناي الذي لا يعي أين يسيران وإلى أين يتجهان، بينما جميلة كانت تنتقل بين الشوارع وتتسلل من شارع إلى حارة إلى زقاق ثم إلى شارع وكأنها من أهل هذه المدينة! فسألها ناي:

"كيف تعرفين كل هذه الشوارع والأماكن؟!"

ضحكت... ثم أجابت:

"قلت لك إني أدرس هنا، عندما أتيت حديثا إلى القاهرة كنت أنزل وحدي في الصباح إلى الشوارع وأتمشى كثيرًا كي أحفظ المدينة".

نظر إليها دهِشًا لا يدري ماذا يقول لكنَّ سؤالًا قد راح يطن في رأسه لكنه تراجع عن سؤالها، لكنه دفنه في عقله حتى يحين وقته، سأل:

"وإلى أين نحن متجهان حاليًّـا؟".

قطعا ميدان التحرير، ثم أزاحت بيدها خصلة شعر قد نزلت على جبهتها، خصلةً طويلة مفرودة لامعة.. لم تستطع أن تفرد وجه ناي الذي امتعض غضبًا وخجلًا، كان يبغي العودة أملًا في الراحة حتى يعاود الذهاب إلى العتبة كي يقضي ما جاء له لكنَّـه أبى أن يبوح لجميلةَ بما يجول في خاطره.

مشى جوارها صامتًا يفكر في طريقة مناسبة للتملُّـص منها ومن الذهاب إلى الميدان، لكنَّ شعورًا داخله كان يأبى أن يتركها خوفًا عليها ورغبةً في التقرب إليها أكثر، **وإن للنساء على الرجال لسحرًا**. إلى أن أفضى إليـها بما يدور في عقله فردَّت مبتسمةً:

"اذهب وابتَع ما أردت ثم التحق بي في الميدان إن أردت".

شعر ناي بنبرة صوتها المنفعلة فظل حائرًا لا يدري ما العمل، لكنه ذهب مشفقًـا عليها من ناحية، مُنهالًا على نفسه تعنيفًا وتقريعًا وازدراءً من ناحية أخرى؛ ذلك أنه قد شعر داخلَه بأنه أغضبها، ظن أنه قد يصغُـر في عينيها لكنه لم يكن هناك مناص من المهمة التي أتى بشكل خاصٍّ لأجلها.

وما إن وصل إلى مَقصِده فوجد الحوانيتَ كما هي مغلقةً والمحالَّ موصدةً أبوابها وميدانَ العتبة الذي اعتاد الاكتظاظ بالبشر يغلفه صمتٌ مُطبِق.

سأل نفسه: أين العتبة؟ أين الموسكي؟ أين الزحام الخانق؟... مر أمامه بائع عرق سوس عجوز فسأله ناي: "ماذا حدث اليومَ والبارحة؟ أين البائعون وأين الناس؟"

نظر إليـه الرجل في عجب دون توقُّـف ثم أجاب:

"الناس في ميدان التحرير يقولون إن هناك مظاهرة كبيرة تجتاح البلاد يا عمنا"، ثم عاد ومد إليـه يده كوبًـا من العرق سوس وهو يقول:

"اشرب هذا مني إليـك مقدمًا لو نزل مبارك عن الحكم بدلًا من أن أعود إلى البيت كما ذهبت"، ظن ناي أنه التمرالهندي الذي يحبه فأقبل عليه شَرِهًـا لكنه فجأة أبعد الكوب عن فِيـهِ وكاد يُخرِج ما في أحشائه، عندما تذوَّق أول رَشفة من العرق سوس وجد طعمه مرًّا غير مستساغ لكنه شرب رغمًا عنه كي لا يخجل الرجل، ثم سأله:

"هل سيبقى الحال على ما هو عليه كثيرًا؟"

رفع الرجل كفَّيـه ناظرًا إلى السماء وهو يقول:

" العلم عند صاحب العلم"، ثم أكمل: "دائمًا ما تحدث هذه المظاهرات وتأتي الشرطة لتقبض على بعض من المتظاهرين، ويلوذ آخرون بالفرار"، صمت ناي ولم يردَّ فسأل الرجل وهو يرفع القربة إلى كتفه:

"الأخ منين؟"

أجاب ناي وهو يعيد إليـه الكوب الذي لم يفرغ من نصفه:

"من قنا"؛ كرر الرجل تلك الجملة التقليدية: "أحسن ناس"، ثم أكمل طريقه وهو يطرق على الصاجات في سعادة.

راح ناي يقول لنفسه: "إذن يطولَ الوضع!"، أخذ يفكر...
هل يعود إلى الميدان كما قالت له جميلة أم يذهب إلى محطة القطار ويترك القاهرة عائدًا؟

عاد إلى كلوت بك عن طريق العتبة ومنه إلى اللوكاندة التي يقيم فيها، دخل غرفته طلبًـا للنوم دون أن يغير

ملابسه، قرر أن يستريح ساعتين من الزمان ثم يذهب إلى الميدان كي يقضي بقية النهار هناك، أو بالأحرى مع جميلة.. ثم يودعها ويأخذ القطار المتجه إلى الصعيد في المساء.

حاول جاهدًا أن ينام، لكنَّ النوم قد فرَّ من عينيه، شعر بطاقة بين ضلوعه تحثه على الذهاب إليها، وَثَبَ إلى رشده في هدوء ثم نهض وبدَّل ملابسه عازمًا على الذهاب إلى هناك.

نزل إلى الشارع، كان قد ذهب ذات مرة إلى ميدان التحرير لكنه لم يعد يذكر الطريق الصحيحة الآن، في الشوارع أقل القليل من البشر، ولا سيارات أجرة تمر أمامه؛ قرر أن يسترشد بأحدهم.

بعد أكثر من سؤال وأكثر من وصف وجد نفسه قرب ميدان التحرير، رأى عن بعد زحامًا شديدًا، صخبًا يملأ الفضاء ويصك الآذان، لكنهما صخب وزحام منظمان؛ وقد خشي ناي أن يقترب.

شعر بأنه أمام مشهد من يوم القيامة.. سأل نفسه:

"إن كان كل هؤلاء يكرهون مبارك، فمن يحبه إذن؟"

وعندما قرر الاقتراب جف حلقه من الاضطراب وتسارعت دقات قلبه، ألقى نظرة سريعة على الناس فلم يستدلَّ على أحد، أيُّ جنون ضرب المصريين وسلبهم رشدهم؟ بلع ريقه والتقط أنفاسه متأملًا هذا الحشد الغفير من الناس.

يقترب ناي مرغمًا، شعر بأنه ينجذب إلى القوة الخفية المنبعثة من المتظاهرين، داخله خوف ورغبة لم يعرف منبتهما لكنه ولج إلى المعمعة مقهورًا، شعر داخله بما

يربطه بهؤلاء الناس، إنما تملكته رغبة مباغتة في الرجوع القَهقَـرِيَّ، لكنها رغبة لا سبيل إلى تحقيقها.

بحث بعينيه عن جميلة، ظل يدور ويفتش عنها لكن شعورًا بالخجل قد تملكه، كيف له أن يبحث عن فتاة وحوله الملايين يبحثون عن الحياة، عن طوق نجاة قد يعيد إليهم الأمل في حياة أجمل؟!

شعر حوله بحياة عميقة، وكانت نفحة من روح جميلةَ الطليقةِ أُسكِنَت في ذاته، ظل حائرًا لا يدري ما هو فاعل، **وماذا يفعل من دونها؟!** بالطبع إذا سأل عنها بالاسم فلن يعرفها أحد.

أخذ يتسرب بين أرتال البشر الواقفة وعيناه لا تكفان عن البحث، إلى أن وجدها هنالك، على مسافةٍ منه؛ أشار إليها لكنها لم تلحظه، كانت مرفوعة على كتِفَي شابٍّ فارع الطول بشكل ملحوظ، شعر بنصل الغيرة ينغرز فيه، كيف تسمح لنفسها بأن تعتلي كتف شابٍّ لا تعرفه؟!

ازداد شعوره بالضيق وهو يقترب منها، ظن للحظة أنها لن تتذكره، قد لا تعرفه في خِضَمِّ الأحداث التي تباشرها، لكنه اقترب.

ولما وقع بصرها عليه بادرته مبتسمة ثم أشارت إليه بأن يقترب وإلى حاملها بأن ينزلها.

أتته مهللة بوجهها الباسم يكسو شعرَها ترابُ الركض، بُـحَّ صوتها لكنه لم يفقد أنوثته؛ ثم سحبته من ذراعه وهو يتبعها دون كلام.. تكالبت عليه الأفكار ودار في رأسه تناقضات داخلية بين فرحِه بأنه عثر على ضالته، وشعور الضآلة والافتضاح أمامها يعود ويساوره.

طيلة حياته يقف عاجزًا أمام لحظة الحسم فلم يجد من متنفس لأفكاره سوى الأحلام، يمكث غائبًـا عما حوله وخيالُه ينسج المعجزات، يتحول عقله إلى سينما أو مسرح. يحارب ويقتل ويقهر، يلعب الكرة ويستأثر بقلوب الحسناوات لنفسه، يضاجع نساء الحي في فُحولة، إلى أن استفاق من غفوته على صخب الهِتاف الذي أخذ يرتفع بعد هدوء.

الشعب يريد إسقاط النظام...
الشعب يريد إسقاط النظام!

تملكه فزعٌ ورهبة وازداد فزعًا لما يرى حوله من كر وفر، ظلَّ يتابع ما يدور حوله بقلب مشتت، يستمع إلى مناقشات وأحاديث لكنه لم تكن لديه القدرة علي الكلام وليس له قلب يواجه به قوات الشرطة التي تحيط بالميدان.

ظل يفكر، تملَّـكَـه الحنق وأورده مهالك القنوط مجددًا! وجد نفسه للمرة الأولى يلقي على نفسه نظرة ساخطة، لم يختلق لنفسه الأعذار كما في السابق، حتى إنه واتتـه لحظة تمنى فيها الهروب، فهو السبيل الوحيد إلى الراحة ومنقذه الوحيد لأنه أينما خطا تعثر في خجله وضعف معرفته.

ازدحمت برأسه ذكريات مؤلمة عن الحياة التي يحياها، الهروب والاختفاء والانزواء ..لا يعلم ما يمنعه عن مواجهة أتفه الأمور، لكن الحال هنا لم تمهله كثيرًا لتعذيب روحه؛ سرعان ما لمست آذانَه أصواتُ أذكياء النفوس، تعليقاتهم ونكتهم وهزلُهم ومزاحهم، رجالًا ونساءً وأطفالًا وكهولًا، تبدو على أشكالهم البساطة، منهم الباعة والنجارون والسباكون.

ظل المشهد حوله أشبه بفِلم منتظم، حديقة كبيرة تأخذ الناظر إليها ضخامةُ أشجارها، ما بين نخيل وتوت وليمون، يزدحم جوها بالفروع والأغصان، شَعَـر باستمالة روحه نحو هذه الوجوه، دبت بداخله قوة كامنة أراد أن يعبِّـر عنها بالكلمات، هبت مسحةُ حزنٍ وكآبة قد تسربت إلى روحه من غيرما إبطاء، لكنه لا يملكُ حيال اللحظة إلا الابتسام.

اعتاد الأجواء بعد لحظات، تملكه شعور جامِحٌ فهـفـا فؤاده إلى التجدد والانطلاق، شعر بأنه لم يعد غلامًا يقاد من أنفه، وأن الحياة تستفز دواخله للتمرد، ولكن أي تمرد؟! لم يجد جوابًا واضحًا، والحق أنه لم يكن يفكر، لم يكن هياجًا فكريًّا؛ إنما هي ثورة شُعورية تنبعث من أعماق روحه التي تروم الانطلاق والتغيير وتتـوق إلى المجهول، كأنه لم يتبين هداه تحديدًا، فهو يعانى حنينًا مؤلمًا غامضًا.

تحرك بصدره فشملته كآبة ووحشة واستولت عليه هذه الأحاسيس المهلكة حتى وقع فريسةً ليد الغضب الحمراء؛ ثار به الغضب من نفسه لأتفه الأسباب، إلى جانب ذلك كان ثمَّةَ نورٌ ينبض داخله فيزيح عن قلبه هذه الأفكار السوداء التي ظلت تتكرر في سنواته الماضية، لكنه (كعادته)لا يعرف كيف يعبر عنها كلاميًّا.

ظل هكذا طَوال ساعاته الأولى في الميدان في حرب بين داخله وخارجه...
عزم على أن يفضي بمكنونه لجميلة، لعلها هي الوحيدة الآن القادرة على استخراج ما تهفو إليه روحه، وهي على النقيض وسيلة جيدة إلى التقرب إليها وإيجاد سبيل إلى الكلام بديلًا من صمته المرهق، ظل يتحين اللحظة التي يختلي بها كي يحكيَ لها، لكن هيهات!

الساعات تتوالى والميدان لا يزال على هياجه وصخبه، لقد سكن الميدانَ روحٌ عاتية جعلت الجميع يتشبثون بهذه النشوة كأنها لحظاتُهم الأخيرة.

ظلت جميلةُ نشيطةً إلى حد تحسد عليه، لم تزايلها روحها اللطيفة ودعاباتها الولعة، ترنو بين الحين والحين لترى هل ضربه الملل أو لا يزال على تعلقه بما يحدث، وبدوره كان يبتسـم لهـا ابتسامة ودودة إلى أن تكلم.

"أريدك في أمر ما"

أدركت أنه لا يستطيع الكلام هنا وسْط هذه الجلبة لكنه هو الذي بادر هذه المرة، أخذها من ذراعها وانطلقا مبتعدَين عن الزحام، استغرقا وقتًـا طويلًا لكي يجدا مكانًا خاليًـا، فالجموع محتشدة في كل ثَـقب يحيط بالميدان، إلى أن وصلا أخيرًا إلى نهاية كوبري قصر النيل، اتجها إلى نادي الجزيرة، هنا بلغا الهدوء نسبيًّا.

طَوال الطريق لم تكفَّ جميلـة عن تبادل الكلمات والهتاف والضحك مع من يمرون جوارها، ملقية عليهم كلماتها المحمسة المتفائلة وهم ينظرون إليهما في إعجاب، يعجبهم صغر سنها وحماستها وحلو كلامها وصِدقُه، حتى سألت نفسها بصوت سمعه ناي:

"متى اشتعلت نار الثورة في قلوب المصريين؟!"

قالتها مولِّيةً وجهها شَطـَر ناي الذي كانت الكلمات تقف متأهبة على طرف لسانه فقال:

"أشعر داخلي بتـلك الرُّوح التي تتحدثين عنها، أشعر أنه ثمة شيءٌ بدأ يتبدل في داخلي لكني لا أعرف ماهيته.. كيف كان لي أن أعرف أن روحي تفتقد كل هذا الكم الهائل من الحيوية؟! لم أكن أدري أن الحماس له سبيل داخل نفسي بعدما كدت أتعثر في المنغصات القديمة قاطبةً".

رنَا بعينه جهة الحديقة التي يمران جوارها، شعر بدوار مستحبٍّ وهو يستنشق العطور المنبعثة من مساحات الزهور، وأكمل ما بدأ...

"نحن نشبه هذه الزهور؛ إننا واهنون، لكننا لا نزال نعرف معنى البراءة، نترك أنفسنا لحياة تعبث بنا متى شاءت، نحن زهور لم تعرف قيمتها إلا عندما أتى شخص ليستنشق عطرنا مصادفة".

ابتسمت جميلة؛ يبدو أنها ظلت منتظرة هذه اللحظة كثيرًا ثم هتفت:

"أخيرًا!"

نظر إليهـا ناي مبهوتًـا لا يعي مقصدها ثم أكملت:
- ظننتك جمادًا لا تُـحِسُّ!".

- لماذا؟

- يغلي الكون من حولك وأنت تكتفي بالمشاهدة، كأنك تشاهد فِلما لا يخصك.. فأنت لا تلقي رأيًـا ولو تافهًا!

- حقيقة.. هذا فِلم؛ لم أعتَد رؤية ذلك في بلدي (قالها في هدوء وهو ينظر حوله).

ثم أكمل في برود أحنقها:
- لكنني قلت لك إنه لا شان لي بالسياسة"؛ صاحت في غضب: "هذه ليست سياسة، هذه ثورة!

- وما الفرق؟

- إن السياسة لعبة، وهي ملك للسياسيين، أما الثورة فهي لحظةُ ملكٍ للشعب، كالشرارة التي تبرق عندما يحتك حجران، لحظةٌ غير منطقية في عالمٍ رَتيب.

صمت هُنيهةً، ثم تابع:
- إني أشعر بما تقولين في داخلي، أشعر بأن شيئًا يتحرك في الأعماق، ولكنني أشعر أيضًا بأن كثيرًا من أمور السياسة والثورة قد فاتني.

قالت ضاحكةً:
- ناي، انظر إلى الملايين في الميدان، معظمهم أبعد عن السياسة منك، لكن الثورة الآن تنبض في قلوبهم، إنهم يدافعون عن الثورة بحياتهم لأنهم يشعرون الآن بأن الثورة حياة.

رنا إليها بطرف حائر قائلًا:
- عندما أقارن نفسي بمن هم مثلك لن تكون لي قيمة.

جرت على شفتها ابتسامة خفيفة ثم قالت:
- في الحقيقة كلنا واحد، أنا أيضًا لا أعرف كثيرًا من أمور السياسة، لكني أعرف كيف أعبر عما بداخلي، بإمكانك أن تصير مثلي ومثلهم، وأكثر

- فـكـيـف؟

- بالثورة على ذاتك (قالتها في ودٍّ)، ثم ابتسمت له ابتسامتها الهادئة كي تهدئ من صوتها الملفوف بالحنق وتابعت:
- أنت خجول جدًّا، منطوٍ على ذاتك، وأخشى أن يُظنَّ ما بك نفورًا من الناس فيبادلونك نفورًا بنفور، انفض عنك الجمود ولاقِـه بالتودُّد والرقة، ألم تلحظ أنك لا تبتسم أبدًا؟
...

كانا يسيران ببطء في أثناء حديثهما إلى أن استوقفته جميلة أمام سور يحيط منزلًا من طابقين، مبنيًّا على طراز أوروبِّيٍّ، راحا يتأملانه بطرف نهم ثم قالت له:

"انظر كيف كانت مصر! وكيف أحالها مبارك إلى (غية حمام)، لقد شوَّه وجه القاهرة بالكباري المتداخلة والزحام الخانق، جعلها مركز الدولة وأهمل سائر المحافظات، أهمل الصعيد والنوبة وسيناء وجعل كل شيء في القاهرة. ...
لقد تحول المصريون جميعًا في الثلاثين سنة الأخيرة إلى أشباه بشر، لذلك عندما برقت لهم الحياة من خلال الثورة تَراهُم الآن يتشبثون بها، منهم من يضيع عمره في سبيل حرية لم يذقها، فنحن أمة على مر التاريخ لا تثور لأجل الغلاء ولا ضيق العيش، نثور فقط لأجل حريتنا وكرامتنا".

شعر ناي رغمًا عنه بما يربطه بهذه الثورة، تذكر كم مرةٍ أغضبه الانتظار في طوابير الحكومة وفي الوقت نفسه يجلس ابن "فلان الفلاني" على كرسيِّه مستريحًا، كم مرةٍ أغضبه التمييز بين الناس لأنهم يخصون أحد الأكابر!

تملكته رغبة عارمة في الركض والصراخ، هذه هي طريقته عندما يعثر على حقيقة داخله.. فدائمًا عندما ينتشي يود أن يركُضَ، أن يملأ الدنيا بالحياة التي بداخله، ثم قال لها بعد كثير من التفكير والتردد:

"لكنني ما زلت حائرًا"

نظرت إليه جميلة في اهتمام ثم سألته:

"فيمَ أنت حائر؟!"

صمت؛ لا يدري ماذا يقول!

ثم رد في هدوء:

"بداخلي رغبة في البقاء هنا معكِ"

راجع نفسه بهدوء ثم قال:
- **هنا معكم**، ولكني أود أيضًا العودة إلى أمي؛ من المؤكد أنها قلقة عليَّ الآن.

لا شك أن جميلة كانت تتحفز للمعارضة، فلما سمعت الشطر الأخير فتر تحفُّـزها ولم تعلق.

جلسا صامتين عندما أنهكهما التعب إلى أن قالت:
- أقدِّر خوف والدتك عليك، ولكنَّ كلَّ من هُم في الميدان لهم أمهات يخَفـْن عليهم.

- لي ظروف خاصة، أنا وحيد والدتي، وهي لا تعلم شيئًا مما يحدث هنا.

- جميعنا ذوو ظروفٍ خاصة، لست وحدك.
إن كنت تود حقًّا أن تثور على نفسك فابدأ الآن، غامر.. ابقَ هنا معنا ودع الأيام تفعل ما تشاء، قل لها إنك بخير لكنك ستبقي هنا لأيام، اتصل بها من هاتفك المحمول.

قال لها دون أن يرفع رأسه وهو يشاهد نملتين تحملان قشرة لب صغيرة:

"حاولت الاتصال بها ولا توجد شبكة، حاولت الاتصال بها فلم أستطع"

أخرجت هاتفها المحمول، عبثت به وحاولت إجراء أي مكالمة ثم قالت:

"يبدو أنهم قطعوا الاتصال مثلما أشاعوا، شبكات الاتصال والإنترنت كلها مقطوعة، يريدون قطع الاتصال بين الثوار ومن هم في البيوت، محاولة ليعود الناس ويتركوا المَيدان".

قطبت جميلة في استياء، هالَ ناي تعبيراتُ وجهها القاسي في تلك اللحظة، ثم قالت:

"ملعون أبو الغباء! يظنون أنهم يقطعون الاتصال بين الناس، يحاولون إرباكـهم، أغبياء، لم يجيدوا قراءة الشعب بعد؛ لا يفهمون أن الثورة كامنة في قلوبهم"

ثم راحت تكتب في مفكرتها التي أخرجتها من حقيبتها بضعَ كلمات، وناي يتابعها بنظراته.. إلى أن سألها:
- ماذا تكتبين؟!

- أكتب ما يحدث لحظة بلحظة، أعلم أنها **أيامٌ مجيدةٌ سوف تُروى**.

أما ناي فأحسَّ أنه هشٌّ للغاية، تمامًا مثل الفراشات التي تحوم حول بساتين الورد في الحدائق، كومضات من ذكريات مؤجلة تأبى مفارقة الخَاطِرِ رغم أنه لا يستسيغها، تنهَّـد ومضى عقله ينبش في التداعيات، انصرف بسرعة إلى نفسه فكأنَّ الوجعَ واحد، جعل يتساءل:

"ما الذي ينقصني بالفعل؟ ما جدوى الحياة نفسها إن كانت لا تعيرنا فرحةً؟ وما علاقة هذه التساؤلات بمنظر جميلة وهي تكتب في مفكرتها؟!"

تأمَّـل نفسَـه كثيرًا في احتباس الألم داخل حَلْـقِهِ فهمس لها:

"أود لو غادرنا إلى حياةٍ غير هذه، حياةٍ ذات جدوى، أقف أمامها مرفوع الرأس دون خجل!"

قفَلا وقد اقترب المغيب؛ أضيئـت مصابيح الشوارع الصفراء وانتشرت في الجو برودة خفيفة، ظلَّا يتسكعان في الطريق إلى أن وصلا إلى الميدان، تناقصت الأعداد بعض الشيء، وتجمَّعت كل جماعة في مكانها يتسامرون ويغنون، والبعض نيام.

ظل صامتًا والجو يغلي حوله، وجميلة أيضًا لا تكف عن الضجيج، رغم صغر حجمها وصغر سنِّها فهي تلهب حماسة الجميع وتخبئ في قلبها مقتًا رهيبًا للنظام والحكومة، تذكَّر وهو يشاهدهم دروس القراءة المشحونة بالوطنية، وجد داخله حماسة لكنه لا يعرف كيف يخرجها هتافًا، لذلك سُعِد عندما وجد الجميع يلتفون حول فكرة واحدة وهي سب النظام، شعر بأنهم يعبرون عما بداخله، فاستراح من شغف الذاكرة وراح يتابع ما يحدث حوله في حبور.

أقبل الليل بسحره لكنه ظل يشاهد هذا العالم الغريب، عالمًا يتنفس.. يأكل السياسة ويشربها، شعر بسَعة الكون من حوله، رأى على مقربة منه مجموعة شباب يلتفون حول رجل ذي بِـذلة بسيطة المظهر، لا يكف عن الابتسام وإلقاء التحية، سحبته جميلة من ذراعه نحوها وهي تقول:

"عم جلال عامر وصل"

فُوجئ ناي لأول وهلة، تذكَّر أنه يعرف الاسم جيدًا، قرأ بعض المقالات لهذا الرجل في أوقات متفاوتة، كانت تضحكه لكنه لم يكن يفهم منها شيئًا، سار تجاهه مبهوتًا، سلم عليه كما سلمت جميلة، ظلت تكلم الرجل في حماسة ورهبة، تلقي أمامه ما في قلبها من أمل ورغبة في إنهاء هذا الحكم بحيث تقول إنه قد "خنق الشعب"، بينما ظل عم جلال بوجه ساهِم وصوت منهك يقول:

"الأمل فيكم، الأمل في الشباب...".

مضت الساعات على حالها وهو لا يزال ذاهلًا عما يجري حوله بين ذكرياته عن الوطن والصورة التي كان يرسمها في عقله، وبين وما يراه الآن، مصر غيرُ المعهودة.. شعب غير المعهود.. وكلامٌ أغرب منهما!

جميعهم يكرهون النظام ويحبون الوطن، سمع عم جلال وهو يقول:

"نحن لا نسخر من الوطن، نحن نسخر ممن جعلوا الوطن مسخرة".

أقبل الفجر وأخذت برودة الجو تزداد رويدًا رويدًا، مما جعل المتظاهرين ينكمشون حول أنفسهم بعدما هدَّهـم المجهود، جلسوا جماعاتٍ في هيئة دوائر، وجلس ناي إلى جوار جميلة التي اختارت الجَوقة التي تتحلّق حول عم جلال، جلست قُبالتـه كي يصير أوضح وأقرب؛ فلطالما تمنت رؤيته لذلك لن تضيع فرصة اللقاء.

وطيلة الأيام التالية ظل يتوافد على الميدان مشاهيرالسياسة الذين لم تغفلهم العامة، يعرف ناي بالكاد وجوههم، يتذكرهم عندما يسمع الناس تردد أسمائهم، هذا القصير ذو الشارب الكَثّ هو إبراهيم عيسى، يراه كثيرًا ويعرف أنه صحَفي مشاكسٌ وقد زج به من يده في السجن لأنه أشاع خبر وفاة حسني مبارك، وذاك الشاب البدين ذو اللحية الخفيفة هو بلال فضل، وهذا الأصلع القصير ذو النظارة السميكة هو عبد الحليم قنديل، يقف على المنصة يصرخ ويخطب، فقد قيل إنه ألقي في الطريق عاريًا؛ جرده رجال أمن الدولة وضربوه بعدما اختطفوه بوشاية من سوزان مبارك.

وهذا الكهل المتهالك الذي بقدومه تحول الميدان إلى سيمفونية متناسقة بكلمات يغنيها الجميع في وَجد ومحبة، أحمد فؤاد نجم، أيقونة الثورة والتمرد في كل العصور.

توثقت أسباب الصداقة بين ناي وجميلة، أصبحا لا يفترقان، تتسع دائرتهما فتشمل عم جلال وشبابًا آخرين، تكونت دائرتهم دون ترتيب، انضم إليهم الشيخ محمود أحد أعضاء الدعوة السلفية، وشاب أسمر نحيل يدعى أمير، وشابان متلازمان في سن المراهقة انضما إلى مجلسهم على سبيل المسامرة.

يرتاب ناي في الشيخ محمود الذي ظل على الدوام محملقًا في جميلة، ترتسم على وجهه آيُ الغضب، يجلس جواره عم جلال قُبالة ناي وجميلة، يتعجب ناي من لحيته الحمراء بلون الحناء وشاربه الحليق ونظرته المُكفهرَّة ووجهه المتجهم دومًا، لكنه كلما ضحك ارتفعت ضحكته مثل الأطفال الذين لا يسيطرون على أنفسهم.

ينظر إليه ناي من حين إلى آخر في ريبة وقلق، يعود ذلك القلق إلى نظرات عينيه التي تنطق شررًا أسفل حاجبين كَثَّين مثل مكنسة ممتلئة، فهو في الستين من عمره، رَبعَةٌ مائل إلى القِصَر، بدا في جلبابه الأبيض الفضفاض أبيض البشرة محمر الوجه منتفخ الأوداج، محتقن الوجه بالدم، وأما قَسَمات وجهه فكبيرة واضحة في غير تنافر، أصلع الرأس وأسود العينين جحظت مقلاته في وضوح، تمتلئ عيناه بنظرة زائغة شاردة خاملة، لكنها تتبدل عندما تتكلم جميلة، تجعل مظهره خليق بأن يبعث في النفس رهبة.

ظل يخامر ناي شعور بالغرابة والإنكار والنفور تجاهه لأنه ينظر إلى جميلة في غضب وحنق، وهذا ما يشعل نار الخوف والغيرة في قلب ناي، ظل هو أيضًا يبادله النظرات نفسها غير مُتحاشٍ نظراتِ الرجل الملحوظة.

قرأت هذه الجملة فنظرت إلى عم جلال الذي تفهَّم الأمر، فأخذ ناي جانبًا على حدة وهمس له قائلًا

لا عليك منه؛ نحن نعلم أنه يجلس معنا ولا يحبني، يكرهني لأني كاتب علماني ويكره جميلة لأنها امرأة سافِـرٌ تجالس الرجال ويكرهُك لأنك غير ملتحٍ، هم في الحقيقة يكرهون الحياة، يعلنون الحرب علي الناس والنجوم والكواكب!

هؤلاء هم السلفيون وهذه هي طباعهم وأفكارهم، لكنه واحد مننا ما لم يعتدِ على أيٍّ منَّا، لا تلتفت إليه.

يجب أن تظل جوار صديقتك، هذه لحظات يجب ألا نختلف فيها".
فَـرِح ناي بكلمته الأخيرة ثم عادا والأعين تتعلق بهما في اهتمام.

لاحظ عم جلال الارتباك الذي بدا في الجو، فحاول أن يشغلهم بأحاديثه الطريفة وهم يضحكون ملء قلوبهم؛ أحاديثه لطيفة مليئة مودة وحرارة، تفوح منها خفة الدم الإسكندرانية المرحة.

وأما الشابان الصغيران، فأحدهما فتى صغير لم تنبت لحيته بعد، منظره يعبر عن غباوة كبيرة، ملابسه أنيقة لكنها مضحكة فكأنه يرتدي ملابس شخص آخر، تحفل معظمها بألوان زاهية مضيئة، يزين أصابعه بخواتم جميلة تبرق على بشرته الداكنة، يسرح شعره على هيئة دوائر ملتفة متداخلة، يبتسم ويضحك طَوال الوقت هو وصاحبه اللذان يبدو من هيئتهما الشعبية أنهما يودان دائمًا أن يُصدِّرا للجالسِين أنهم "شبيحة" و"سرسجية" الأماكن الشعبية، مثل هؤلاء المنتشرين في حارات القاهرة "شباب المهرجانات"، وجوههما تعبر عن السوء والشهوانية لكنهما

منجذبان إلى الحديث بطريقة واضحة، وكان أيضًا عم جلال يحنو عليهما بوضوح.

تآلفت جماعتهم سريعًا، انصهر الجميع في بوتقة الميدان، أصبحوا كتلة واحدة، يثرثرون بين الجد والهزل، يضحكون ويتبادلون النُّكت، قال لهم عم جلال مقترحًا:

"فليحِكِ كلٌّ منا حكاية من الذاكرة، وسوف أبدأ بنفسي مشجعًا، سوف أحكي لكم ذكرياتي مع الكتابة...

فالحقيقة أني لم أختر الكتابة؛ إنما اختارتني هي؛ لم تحظ حياتي بالأصدقاء نظرًا إلى عملي كرجل عسكري"، فقاطعته جميلة وقالت:

"على فكرة يا جماعة.. عم جلال من أبطال حرب أكتوبر"؛ نظر الجميع إلى عم جلال في انبهار، إذ وجدوا أن بساطته لا تنمُّ أبدًا عن شخصية محارب، بجانب احترام المصريين لكل ما يخص حرب أكتوبر رغم مرور السنين.

أكمل عم جلال:
"ظلت روحي دائمًا مليئة بالشغف والنشوة، دائمًا تتوق نفسي إلى أن يشاركني إحدى لحظات السعادة والألم، لم أجد أفضل من القلم والقارئ ليشاركاني اللحظات التي أرفض أن أكون فيها وحيدًا، ظلا هما صديقَيَّ إلى الآن، في لحظات الراحة، في أثناء الحرب وما بعدها.

أكتب لحظات الحسرة والانتصار، أدوِّن كل ما يدور في عقلي، طالما وجدت اللذة الحقيقية في ذلك.. لذة تضاهي لذةَ الانتصار! الورقة والقلم صديقان مطيعان يسمعان ما في عقلى دون اعتراض".

"يحتاج الإنسان إلى جواره نصف رفيق"

ثم نظر إلى أحد الشابَّين ضاحكًا:

"لا تتعجب هكذا، هذا اسم كاتب وليس اسم ساندوتش!"

ضج الجلوس ضحكًا وفي داخلهم تأثر بكلام عم جلال الرائق الثريّ، ظلوا يضحكون إلى أن خرج من خلفهم صوت يغني مجلجلًا. يرفع "الموال" من حنجرة منطلقة، يكمن جمالها في خشونة نبرتها وفي مصريتها (خشونة انفعال صادق وليس نشاذًا في النغم!):

قمري على ورق اللمون عطشان أنا
سقوني والله بدمع العيون عطشان أنا

نظروا خلفهم فرأوا صاحب الصوت الحاج منصور صاحب نصبة الشاي، صعيدي أسمر الوجه ذو قَسَمات بارزة وشارب كثٍّ ملفوف أجدَب، تعتمر رأسَه عِمامة عالية مائلة قليلًا إلى الخلف، ممسك بإحدى اليدين قدحَ شاي يتصاعد بخاره أمام عينيه، شعر الرجل بنظراتهم إليه فابتسم محييًا ملقيًا سلامًا على "الجدعان".

تبادلوا السلام ودعاه عم جلال إلى مجلسهم فقدِم إليهم بغير تردد، وعندما قعد الرجل ابتسم ناي وقال -وقلما يتكلم-:

"هذه أغنياتنا في الصعيد، قنا وسوهاج وأسوان والنواحي"

نظر إليه عم جلال مبتسمًا مشجعًا ثم قال:

"أسمِعنا إذن شيئًا من أغنياتكم"

نظر ناي إلى الأرض خجِلًا ثم رد:

"فليغنِّ بلدينا؛ صوته أفضل من صوتي"

هكذا تهرب من الموقف لكن جميلة ظلت تنظر إليه مشجعة، وظل هو على خجله، نظر عم جلال إلى الرجل الذي كان قد تربع بينهم ورائحة التبغ تفوح منه، ثم غنَّى ملحنًا على سجيته:

دا اللي زرعه انأناس حاسد اللي زرعه تفاح

ظل كلامه علي هذا المنوال؛ أغنيات ومواويل يرتجلها، وهي دائمًا مناسبة للموقف، عبارات ملحنة ممطوطة باللهجة الصعيدية ومربعات تراثية قديمة تتناقلها الأجيال، ثم قال بلهجته الصعيدية الأصيلة التي أضحكتهم:

"هذه مواويل لا تعرفها كتب المدارس، مواويل تشعل في القلب نيران الأسى والبهجة معًا"، ثم أخذ رشفة من الكوب الذي في يده فقال عم جلال:

"آه من حلاوة لحن صعيدي يخرج من شغاف القلب يهدر بالشوق العارم مناديًا في لهفة حارَّة بكلمات موَّال يعبر عما يعتمل في الصدر"، ثم دعاه ليغني من جديد مبرهنًا على كلامه فتنهَّد قليلًا وغنَّى:

إن قل مالي فلا خل يصاحبني
وإن زاد مالي فكل الناس خلاني

علق عم جلال:

"الله على روعة الميدان! أصبح له قدرة فذة على استقطاب نفوس المصريين، جعلهم فنانين يأتون من كل مكان، قلوبهم ممتلئة بالشجن والفن، مدفونة عقودًا تحت ركام الفقر والمرض والمعاناة.

بالمناسبة، أغنية مقدمة فِلم الهروب لأحمد زكي أغنية صعيدية مجهولة اسمها (صياد الصقور)، سُجِّلت في الصعيد على يد رحالة فَرنسيّ، حصل عليها المخرج المبدع عاطف الطيب من وِزارة الثقافة الفَرنسية، وجعلها مقطوعة رائعة لا تقل روعةً عن أحمد زكي، نجم كل العصور".

هكذا أخذت جماعتهم تتألف واحدًا تلو الآخر مصادفة، فكان من بينهم أمير، ذاك الشاب النحيل الذي يحمل بين يديه آلة الناي التي إذا وضعها على شفتيه صارت شيئًا باهرًا، هذا العود الصغير.. كيف يتحول بين يديه إلى عالم الأنغام؟

لا تحده حدود، أنغامٌ تطوف بالسامعين في رحلات ساحرة لا تنتهي، كل نغمة تخرج منه تستقر في أذني ناي، كل دمعة تسقط من عيون ذلك الساحر تحفر مكانها في قلبه.

عيونُ ناي النهمة تتابع حركات الأصابع في ارتفاعها وانخفاضها فتتفجر الحياة في أنغام، يظل ناي ينتظر اللحظة التي يمسك فيها أمير الناي ويبدأ في العزف، كان جسده يظل بينهم، أما روحه فتهيم عاليًا!

عندما رأى ناي ذلك الشاب يعزف على آلته فَهِم سبب تسميته بهذا الاسم؛ شعر لأول مرة بأنه يحب اسمه ويهوى غرابته، يسمع الأنغام وهي تخرج من قصبة الناي، هُيام العازِفِ يجعلك توقن أنها كامنة في صدره، أن هذه القصبة تبوح بأسرارها فقط لهذا الشاب، عاشق ومعشوقة يتطارحان الغرام في لحظة الأثير، أما ناي فهو يشعر في لحظتها بأن قلبه بركانٌ من الانفعالات توشك أن تزلزل الكون!

ينتظر ناي حلول المساء بفارغ الصبر، حيث يهدأ الجو وتبدأ لحظات الفنون، تجتمع الجَوقة من شباب وشيوخ

معممين وأفنديَّـة، ونساء وفتيات، وآلات موسيقية وأغنيات؛ تمامًا كأنهم في حفل لا اعتصام!

حفل كبير يُلعَب فيه دور الفنانين ودور الجمهور، تتتابع الفقرات طوال السَّهرة، سخاء يفيض بالتجليات الحميمية بين جمهورٍ كلُّه في حالة عشق للوطن، فاصِلٌ من العزف على العود، تقسيمات قصيرة على القانون، أنغام الكمان والناي، توشيحـات الشيخ فلان، "طقاطيق" وموشحات أندلسية وشرقية وغربية، مواويل وغناء بلدي، أغنيات الشيخ إمام وأشعار الأبنودي...

تصل السهرة إلى وجد مشبوب يحيي العظام وهي رميم، تصدح الأصوات في انطلاقة وجدية تكاد تصل إلى حد الجنون، أغنيات الشيخ إمام الذي يبعث من جديد كأنها كتبت للحظة، يغنيها الجميع في رقة وعذوبة، كلمات تلهب القلب وتدفئ الصدر بصحبة جذوة النار المشتعلة في الوسط.

لا يشغلهم وجود مخبري أمن الدولة الذين يحاولون نشر الوشاية بين الناس، حتى السلفيون الذين لا يحبون الفن يندمجون في النغم! فقد انصهروا أيضًا في الحياة يشاركون الشباب في غنائهم وموسيقاهم، ويَؤمُّون المصلين حينَ الصلاة.

من ذا الذي يستطيع إيقاف تدفق الإلهام إذا انبرى واتسق مع لحظته العبقرية المجهولة التي لا يعرف أحد من أين تجيء ولا كيف تجيء وهي ترسم حدوتة مصرية؟!

وكان ختام السهرة دائمًا مسكًا، يتبارز الشباب أولادًا وبناتٍ في إلقاء أشعارهم التي تهيم عشقًا لتراب الوطن، ثم تعقبهم شبه حفلة صغيرة تقيمها فرقة ما من الفرق الموسيقية الشبابية "أندر جراوند"، تتجلى عبقريتهم عندما يخلطون الشرقي بالغربي وينسجون كلامًا طازَجًا عن

الثورة يعرف طريقه جيدًا، وقد أصبح يتنسم شذا الوطن المشبع بالحرارة في أي لحظة.

يعزفون الأناشيد الحماسية والأغنيات الوطنية من تأليفهم وتلحينهم، منهم العازفون والمغنون والشعراء في مثل عُمْـرِ ناي، تشكيلة تجمع بين الشباب والصبا والطفولة، يشعر نحوهم بتعاطف كبير، يسأل نفسه:

"لماذا لا أكون مثلهم؟"

أجمل ما يدهش في هذه الليالي هذه اللحظة التي يندمج فيها الجميع، يختلط الكاتب بالملحن وبالمغني وبالغني والفقير، لحظات لو دامت لأصبحت مصر بلدًا آخر.

لم يبتعد ناي عن هذا العالم الروحاني وإنما انغمس فيه حتى النخاع، وجعله ذلك أقرب إلى ما يدور حوله هو وجميلة التي كانت تشعر معه الشعور الحارق نفسه الذي يضرب ثنايا القلوب، فعندما تحكي عن شعورها كأنها تسرد بالضبط ما يعتمل في قلبه، تتحول جميلة الثائرة إلى آلة حزينة هادئة في بعض الأحيان وتطفِـر دموعُها رغمًا عنها من شدة التأثر، يقشعر بدنه من فرط السعادة إذ يكتشف أن الموسيقى جمعت بينهما فعوضت ما فاته من السياسة!

"في البداية تبادلنا الموسيقى، بعد ذلك تبادلنا كل شيء"

علق عم جلال ذات صباح على هذا من خلال سحائب الدخان الكثيفة المتدفقة من منخريه الكبيرين:

"تلك مكاسب الثورة الحقيقية؛ أن يعيد الشعب اكتشاف نفسه، أن يعثر على الفنان الذي يسكنه، فالفنون قاطبةً غذاءُ الرُّوح، لذا يجب أن يتنفسها الناس مع الهواء النقي، فلحظات اندماج الفن هي لحظات التقرب إلى الذات"

لا يغيب عن ذهن ناي أنه كلما رأى أحد المؤثرين أحس تشابهًا بينهم رغم اختلاف ما اعترض أمامه من بشر، إلا أنه يود لو قلد ذلك الرجل وبدا مثله، أن يفعل مثله عندما يعود إلى أصدقائه، إلى أن سمع كلمات عم جلال هذه التي جعلته يتوقف لحظة أمام روحه، ويسأل نفسه:

"من أنا؟! وماذا أحب أن أكون؟! أي فن يسكن في داخلي وأي فنان؟!"

ظل يفكر لكنه استراح عندما أيقن أنه يحب الموسيقى العربية وآلاتها ولا يستسيغ كثيرًا آلة الجيتار والبيانو.

انخرط الجميع دون دراية في موجات التظاهر اليومية نهارًا، يأكلون ويشربون ويبيتون هناك، حتى إنَّ ناي قال لنفسه ذات لحظة:

"لولا ميدان التحرير لما كان هناك تظاهرات"، وكررعبارة يقولها عم جلال دومًا:

"وما الدنيا إلا ميدان التحرير"

انضمت إليهم مجموعات جديدة من العمال والصنايعية الأرزقية الذين يكسبون رزقهم يومًا بيوم، فجأة خبت نظرة عم جلال وسرح بطرفه بعيدًا واعتلت عينيه مسحةٌ بيضاء شفافة واختفت البسمة من صفحة وجهه، هزته جميلة كي تعيده إلى الحياة ولكزته في كتفه قائلة:

"أستاذ، ماذا هنالك؟!"

ابتسم كأنه يقول لها إنه موجود.. ثم نهض عم جلال وسحب ناي والمعلم منصور الصعيدي وانتحى بهما جانبًـا، ظل صامتًا على غير العادة، جادًّا مُكفهِـرًّا، تخرج أنفاسه

المُحشرَجة ساخنة غير منتظمة، ابتعدا قليلًا عن الجَوقة ثم نظر إليهما قائلًا في نبرات هادئة رصينة بعد أن تنهَّـد:

"ألم نلحظ أن كثِيرًا من الجالسين معنا من العمال؟ لعلهم يعيشون حياة الكَفاف!"

سأل ناي بنبرة استفسار رذيلة:

"وما الضرر في ذلك؟"

ابتسم الرجل من طَرفِ فِيـهِ ثم أخرج سيجارة وأشعلها وسحب منها نَفَـسًا عميقًا معبقًا ثم أخرج دخانها الرمادي بكثرة وفتور، نظر إليهما مليًّـا ثم قال:

"كثيرون من المشاركين في هذه الملحمة الشعبية فقراء، يتركون أولادهم وبيوتهم وينقطعون عن أشغالهم"، ثم أكمل دون أن يهيِّـئ لهما فرصة لِاستفسار: "يجب أن نجمع لهم ما تيسر من المال، نعطيهم إياه عوضًا عن بطالتهم"، ظل المعلم منصور على صمته في حين أن ناي جعل يلعب في خديه عَلامةً على التفكير، ثم قال دون مواربة:

"أصبت الرأي ياعم جلال"، ثم تكلم المعلم منصور أخيرًا:

"فلنبدأ الآن، يجب أن ننتخب ثلة من كبار السن ليقوموا بذلك".

تحدث عم جلال (لأنه كاتب كبير) إلى عدد من الرجال بينهم قسيسٌ؛
فاستقبلوا فكرته بالترحيب وأخذوا يترددون على الجالسين والوافدين والمعتصمين في خيامهم.

تحلق الرجال في ركن قصيٍّ بعيدٍ عن الجالسين وبعيدٍ عن الضوضاء، كان ناي في صحبتهم فجمعوا ملبغًا كبيرًا لم يكونوا يتوقعونه!
واتفقوا على أن يوزعوا ما جمعوه علي العمال فقط.

عاد ناي إلى جميلة على حينَ ذهب الرجال كي ينفذوا ما اتفقوا عليه.

مر الوقت سريعًا كثيفًا كعادته، وسط هؤلاء السحرة العرافين الذين يسحرون الدقائق ويحولونها إلى ابتسامات واقشعرار للأبدان!

أتى عم جلال هادئًا هائمًا كمن يحدث نفسه، كأنه أصيب بلُوثَة (جنون)، قعد جوار ناي صامتًا غائبًا، انتبهت إليه جميلة وأمعنت النظر فيه وهو غير واعٍ لما ألمَّ به، سأله المعلم منصور:

"ماذا فعلتم؟"؛ لم يجب وإنما ظل ساكنًا مفكرًا يهز حاجبيه في عَجَب، ثم أجاب بعد فترة من التروي كمن يلقي حجرًا في بركة ماء آسن كي يثير فيها زوبعة، مصمص شفتيه مشدوهًا وهو يقول:

"رفض الجميع أن يأخذوا مليمًا!"

اشرأبَّت الأعناق وزاغت العيون، تاهت عينا ناي إلى أن استقرت على أحد الرجال، بسيط المظهر يضحك ويحكي أسماره ويُضحِك الآخرين، يلوح بيده الطويلة المشدودة ونظرته الصبيانية البريئة وضحكته الهَتْماء المرحة، تتلألأ عيناه وهو يقول:

"والله لو رأيت حسني مبارك هذا لفعلت معه الدنيئة!"، يغمز بعينيه وهو يلفظ كلمة "الدنيئة" إشارة إلى معنًى ما، نظر ناي جواره فوجد عم جلال يهتز من الضحك العميق،

يمسح عينيه بمنديل يخبئه في جيب سترته كأنه نسي الأمر برمته.

يرنو ناي إلى غدٍ ليس مكشوفًا ولا مؤتمنًا، لم تزل المشاهد التي صادفت أيامه في ذهنه، وجوه الثوار وأعينهم المحدقة كأنها تحدق في عمق ذاكرته.

في هذا العالم ..لا الأحداث المتشابهة ولا الأحداث الآمنة ذات جدوى، بل إنَّ المتناقضات الصارخة هي ما يجعلنا نتقدم خطوة إلى الأمام.

رُفِع أذان المسجد القريب، الصلاة تزين الميدان في مشهد مهيب ظل يتكرر طيلة الأيام التالية، جماعة المصلين الذين يجلسون راكعين يؤدون صلواتهم في هيام وحبور، يحيط بهم على شكل مربع متفرع كـدِرعِ حمايةٍ شبابٌ مسيحيٌّ خوفًا عليهم من هجوم رجالاتِ الأمن. مشهد لم يخطر بـعقل أعتى الكتاب والمخرجين!

وما إن تنفض الصلاة يعود الميدان إلى حالته الطبيعية، صخب وهياج وثورة وغناء ورقص وشتى الفنون.

جذبت عينَ ناي في هذه الليلة إحدى الفرق الصوفية العاشقة لرحاب السيد البدوي من حب الموسيقى.

إن الثورية عمود رئيسيٌّ في نشاط الفرق الصوفية، الثورة على الذات بالموسيقى والحب حتى الوصول إلى حالة الوجد الصوفية.

بـ"مَعلَمة" واحترافية راحت الفرقة تنشد غناءً وتواشيح، غنت الحناجر فـجَرَتْ في قلوب الحاضرين براكينُ النغمِ الذي راح يتدفق، بكاءً يرسم على صفحة الأثير أشكالًا جمالية مجسدة تكاد عين الخيال تراها ملونة بأزهى الألوان، موسيقاهم تتلفظ كلماتٍ منطوقة، على أن الفرقة اختفت من ناظرَي ناي وبقيت كتلةً ملتهبة بين سحائب من الأنغام تحتوي علي تقسيمات غضة طازَجة مفعمة بروح الفتوة والحب، فلما أنهت الفرقة الإنشاد بقي الحاضرون غير منتبهين إلى أن العزف قد انتهى، فالأصداء ما زالت تتردد لتوقظ في قلوبهم أبهى الذكريات من دفاتر الأحلام.

ظلت هذه هي الحالة المسيطرة على الجميع ممن انخرطوا في موجات المظاهرات اليومية المتدفقة إلى الميدان، بيت الثوار وكعبتهم المقدسة! يأكلون ويشربون ويبيتون هناك، الأعداد تزداد يومًا بعد يوم، وزاد الوضعَ اشتعالًا ما حدث في اليوم التالي.

استطلع الميدان صبيحة من صبائح مصر المحروسة، الشمس تلفع الأعناق مهدهدة نسمة هواء باردة بطيئة الخطى لتلحق بالليل الذي آثر الرحيل، استيقظت جماعات الشباب وأخذوا يتثاءبون في إرهاق ملحوظ من صعوبة النَّومة وتأخُّرِ ساعات السهر، وما لبثوا أن نهضوا ليغتسلو بما تيسر من ماء دوَّى طشيش وابور الجاز الذي يون في غرزة مقامة على طرف الميدان.

أخذ المعلم منصور في إعداد شايِهِ الخاص وهو لا يكف عن الغناء، ثم أيقظ ناي الذي نهض بدوره في تكاسل، جلس نصف جِلسة وأخذ يرمق المشهد، وجد حوله عيونًا حالمة كأنما درتها الروائح العطرية وذرات البَخور الهائمة في الفضاء من بقايا ليلة أمس.

نظر خلف كتفه فوجد عم جلال يدخن سيجارة الصباح في شراهة، تلوح في عينه نظرة هدوء وسلام، أفترَت شفتاه عن ابتسامة ثم ألقى الصباح على ناي الذي بادله الصباح وهو يتثاءب، ثم ألقى نظرة سريعة على رقعة الميدان فوجدها قد وسعت إلى أعداد من كتل اللحم البشري فشعر بالطمأنينة وتذكر ليلة البارحة التي حفلت بصخب وغناء ومذاق مصري لذيذ.

مضى يُسرِّح الطرف في مشاهد غريبة، رأى من كثَب عددًا هائلًا من جنود الأمن المركزي يشغلون محيط الميدان في تأهب مستمر؛ خفق قلبه وتاهت عيناه اللتان لم تعتادا هذه المناظر في بلدته الهادئة، نظر إلى عم جلال فوجده ناظرًا إليها نظرة ذات معنىً، لَكَزَه المعلم منصور

ثم ألقى إليه برغيف بلدي محشوٍّ بفلافل؛ أكل ناي في شراهة ونهم.

لكنه سرعان ما عاد وثبت بصره على الجنود في عَجَب وذعر وقال في نفسه:

"خِير، اللهم اجعله خِير"

ذهب ناي ليبتاع مزيدًا من الفلافل من المكان الذي وصفه له المعلم منصور، فلما مرق بين الدروع البشرية المتراصة مثل التماثيل الصماء أحسَّ دبيبًا غامضًا يقتفيه؛ نظر حوله فوجد رجالَ شرطة ملثمين مُشحَّـمـيـن سوادًا ونظرات الغضب تفر من عيونهم، شعر بأنهم هموا بالإمساك به فركض سريعًا وهو لا يعرف وجهته.

ظل يمشي ناويًا العودة إلى الميدان، يعلم أن ملاذه في أصدقائه، تسلل وسط جميع كبير إلى أن عاد إليهم، لكنه فُوجئ لِمَا رأى من كر وفر، ارتمى بجانب عم جلال ثم سأله عما يجري فقال له عم جلال في هدوء ملحوظ محاولًا أن يلقي في قلبه الطمـأنينة:

لا تقلق"

وفي أثناء تفكيره بصوت خفيض كأنه يقول:

"يبدو أن هناك حملةَ اعتقالات ممنهجة تقصد شبابًا بعينهم"؛ سمعه ناي؛ أُسقِط في يده لكنه لا يدري ماذا يفعل؛ التصق بعم جلال الذي أخذ يشحذ الهدوء كي يطفئ جذوة الخوف في قلب من حوله.

لا تقلقوا؛ هم يعرفون من يقصدون"، لكن ناي اجتاحته انقباضة عنيفة جنونية حطمت كِيانه فامتلأت نفسه مرارة

وكمدًا تجاه هؤلاء الرجال الذين يبغون افتراس الناس، ثم تذكر ما حدث يوم موقعة الجمل.

كان ممكنًا أن يكون هذا هو اليوم الأول الذي يتفرق فيه شتات الجَوقة التي تألفت وتآلفت حتى أصبحت نسيجًا واحدًا يعزف نغمًا من تخت يرأسه عم جلال، إلا أن اليوم الذي أسماه الثوار "موقعة الجمل" ظل هو اليوم الذي ستخلد ذكراه في تاريخ النضال المصري، دليلًا على جهالة من يحكمون البلاد ومن يوالونهم.

في الثاني من فبرايرَ حدث أن هاجمت جماعة من الـ"بلطجية" المعتصمين والمتظاهرين في الميدان، ضربوهم بالحجارة والعِصِيِّ والسكاكين وقنابل المولوتوف، وامتطى آخرون جِمالًا وبغالًا وخيولًا وهاجموا بها الناس وهم يلوحون بسيوفهم وبالعصي وبالسياط!

دائمًا ما يتوقع المتظاهرون هجوم قوات الأمن عليهم لفَضِّ اعتصامهم السلمي بالقوة، كان يوم موقعة الجمل يختلف تمامًا عمَّا رسمه المتظاهرون في خيالهم، هرج ومرج وكر وفر؛ فتفرق الناس ومن بينهم المجموعة، لكن الجميع قد أظهر براعة في التصدي لهذه الهجمات الطائشة.

بين الناس يتحول المرءُ أسدًا، ويتقوى بمن حوله وتنبض داخله دقات الحياة التي ترفض التنازل عن الحلم حتى لو كان الثمن الموت!

تأتي الشجاعة نفحةً إلهيةً لمن يبتغيها، يخلق الحبُّ من الوردة سيفًا يدافع به ضد كل باغٍ.

أخذ ناي يقتلع قطع البلاط ويكسرها قطعًا صغيرة في همة وسرعة ليقذف بها نحو المهاجمين فتصيب رؤوسهم وأجسادهم.

وبين هذا الصخب اعتصرت روحه حزنًا عندما ألقى حجرا فأصاب عينَ حصانٍ كان يمتطيه أحد البلطجية؛ توقف ناي لحظة حينئذٍ ليسأل نفسه:

"لماذا يقتل الإنسان أخاه الإنسان؟!"

تَـذوَّق الألم وتذكر جميلة التي غابت عن عينه، ظل يفكر فيها وتمنَّى لو رأته وهو يؤدِّي هذا العمل العظيم، لكنه لعن نفسه التي تفكر في ذلك الآن!
إن الحب دائمًا يطغى على اللحظة حتى إن كان الموت يحاصرنا، تُعمِـي شمسه العيون عن أي شيء سواه.

سقط كثير من الجرحى ومن بينهم بعض القتلى، ولكن المتظاهرين قد انتصروا وحافظوا على ميدانهم إذ انكسرت شوكة الخوف، وتعاطفت معهم طوائف الشعب عُقيبَ رؤيتهم تلك المشاهدَ عل شاشات التلفاز وارتفع الهِتاف من القلوب هذه المرةَ بلا رجعة.

الشعب يريد إسقاط النظام!

الجهلاء دائمًا هم من يقلبون المواقف إلى ضدهم، وما حدث ليس إلا إرهابًا ينم عن حقيقة جهل النظام.

كان الإعلام المصري محايدًا حتى ذلك اليوم، لا يقول إنها ثورة وإنما يذيع ما أمكن من المشاهد فما زالت عصا الحُكمِ مرفوعةً فوق الأعناق، باستثناء يسري فودة الذي نطق حقًّـا وصرخ فخرًا:

"هذه ثورة من أول أيامها"، وأما الإعلام المصري فقد ظل ينشر الأكاذيب والافتراءات وتزييف الحقائق كعادته.

في الأيام التالية زاد الميدان حميمية واقترب المتظاهرون رُوحيًّـا، سارت الألسنة تغني والقلوب تشع وهجَ الحب،

لكن العقول والأبدان ظلت يقظة مستعدة لأي هجوم قد يقع بغتة.

اقترب ناي من الثورة خطوة أخرى، بعدما عَدَّ نفسه متظاهرًا ممن أسهموا فعلًا لا قولًا، لقد خلبته روح الثورة عندما تصدى بروحه وعقله إلى هذه الأزمة، لم يكن يختلف عن البقية التي يحرك قلبَهم حبٌّ نحو الملايين الرابضة في قلب الميدان، لكنه (لحسن حظه) كان يسكن قلب المعمعة، يتنفس رائحة الميدان، يمضغ قضمة من الكعكة الحجرية.

إلا أن ذلك اليوم كان مختلفًا عن موقعة الجمل؛ قد كان أثقل وطأة وأكثر شراسةً وعنفًا واستهتارًا بأرواح المتظاهرين.

لقد هاجمت قوات الشرطة الميدان في غدر وقسوة كأنهم يقاتلون جيوش الأعداء، قد أطلقوا العَنان لبندقيات الخرطوش والرصاص الحي بعدما غلفوا السماء بسحائب الدخان والغاز المسيل للدموع، قوات مضججة بالأسلحة تهاجم متظاهرين عُزَّلًا، فماذا تكون النتيجة سوى مئات من القتلى والجرحى؟!

دماء صبغت تراب الطرق والأرصفة، وجوه مشوهة، سيقان مبتورة، أذرع متدلية على الصدور، مشهد أشبه بحرب شوارع في إحدى حارات أمريكا الجنوبية!

كان من بينهم ناي الذي اصطبغ وجهُه بالدماء الساخنة! لم يكن يصرخ وإنما ظل ساكنًا كعادته لا يتكلم ولا يتألم، ظلَّ على ذهوله مرفوعًا على أذرع شبان يفرون به إلى أن أدخلوه ساحة كنيسة قصر الدوبارة.

في الكنيسة خلية مثل خلايا النحل، تتألف من أطباء وممرضين ومسعفين ومتطوعين، ما يميز المصريين أنك

تجدهم عندما تحتاج إليهم، متبرعين بالدم ومساعدين، فالجو مشحون بالجدعنة المصرية!

"واحنا بنموت من الخوف والضحك"

الأبنودي.

عندما تحين اللحظة يتألق الإبداع الإنساني وتنطق روح الله الساكنة في القلوب وتنقلب الدمعة إلى ضحكة، تمامًا كما أن الحزن وسْط أولاد العم فرحة!

فحص طبيبٌ شابٌّ عين ناي ورأسه؛ مصمص شفتيه ثم أغلقهما متأثرًا وقال في صوت خفيض:

"الدماء غزيرة، لكن الجرح بسيط. قد تطول فترة العلاج لكن الإصابة غير مقلقة، ولا يمكننا الإقرار بحجم الإصابة إلا بعد فحص دقيق"؛ صرخ الشباب حمدًا لله وتلفظت الأفواه بكلمات آسفة مؤاسية يتخللها قسم وحلفان بألا يضيع حق هؤلاء الشباب.

لحظة بين الحلم واليقظة، تهيم الروح بين نشوة الأحلام ودناءة الواقع وتنسل الضحكة من الفم العليل، لحظة من التيه لا يدرك صاحبها أين هو بين الصحو والمنام.

تحركت بداخل ناي روح غريبة، مزيج من الحزن والخوف والدهشة والجنون والفرح والرهبة، كمن يرغب في البكاء وفي الوقت نفسه يمارس الرقص طربًا، شعر بأنه قد أصبح له نصيب حقيقي في هذا المهرجان الإنساني، لكنه قد عزم في داخله على أن يأخذ حقه بيده.

مر الوقت بعدما ضمدت جراحه التي كانت أقل بكثير مما رآه على أجساد المصابين الذين ظلوا يتوافدون إلى المساء، بعد كثير من الأخذ والرد أقنعه كثير من المحيطين

به بالعودة إلى منزله ليستريح، مُطَمْئِنِين إياه بأن حقه لن يضيع حتى إن كان فداؤه أرواحَهم، الجميع يقسم ويتكلم في صدق وإخلاص، لقد صارت القضية عامة، وأصبح المطلب الأول هو إسقاط النظام.

عندما يهب المطر.. فهل من مانع؟ هل من سدٍّ منيع يحجب السماء عن الأرض؟ عندما تتدفق الألحان الداخلية للإنسان فهل هناك من يوقفها؟ ذلك السحر الذي يتسرب إلى النفوس دون علم، مثل الموت الذي يأتينا دون اختيار ولا رأي، فهكذا غنى حمزة نمرة ومن خلفه المتظاهرون:

هيلا هيلا يا مطر
اغسلي اوراق الشجر
الحُلم مثل الورد يكبر
والهلال يصبح قمر

عاد ناي إلى اللوكاندة بشارع كلوت بك، أخذ يجمع أغراضه عازمًا على العودة إلى قنا في هذه الليلة، نظر إلى المرآة؛ شعر بأنه لا يعرف هذا الوجه الذي يراه، لقد أظلم نصفُ الكون في وجهه، يعرف أنه مجرد جرح بسيط مثلما قال الطبيب لكنه أخذ يتأمل ذاك المنظر الذي لم يعتده.

دبت بداخله روح الكآبة عندما تخيل أنه قد يكمل بقية أيام حياته هكذا، نصف مبصر ونصف أعمى! أجهش للبكاء واتصل بوالدته وهم بأن يحكي لها ما ألم به لكنه تراجع عن ذلك؛ فقد خاف حزن والدته التي لم تحتمل فيه شكة إبرة.

أطلق زمام دموعه فانفجر بركان يسيل من مقلتيه دموعًا حارقة، لم يبخل على روحه بالدموع فرواها بدموع سنينَ مضت من العمر الجاف؛ فالبكاء يريح الروح.

تذكرت الروح أنيسها فقد شعر بأنه يريد جميلة الآن، يريدهم جميعًا وينتظر شخصًا يشاركه ألم اللحظة، حِضنًا يتلقى دقات القلب المتسارعة فيطفئ لهيب الخوف والحيرة.

غسل الجزء المكشوف من وجهه ثم رفع الضمادة عن عينه المصابة ودقق النظر، كان الضوء خابيًا لكنه ظل يتضح رويدًا رويدًا، عبث فيها بأصابعه فانقشعت الغشاوة لكن الألم ظل يضرب موقع الإصابة؛ غسل وجهه مجددًا وبلل شعره، شعر بدفق من الراحة يتسلل إلى داخله، عاد إلى الغرفة وأدار التلفاز الذي أصبح لا حديث له سوى الثورة، أخذ يتأمل الغرفة كأنه يراها للمرة الأولى!

في الحجرة سرير سَـفَـرِيٌّ نظيف فوقه ملاءة مربعات كالمنديل المَحَلّاوي، بجواره دولاب طويل برَفَّين من دواليب اللوكاندات ومنضدة مستديرة من الجريد

وكرسيَّان من الخَيزُران، وتوجد في ناحية الحائط المواجه لسريره منضدة كبيرة منخفضة على شكل بيضة، وعلى الأرض سجاد قديم مرسوم مصنوع يدويًّا، وعلى درج المنضدة مذياع عتيق إلى جواره تلفاز لا يقل عنه عراقة، فتحه ناي أول مرة وكان به تشويش، أخذ يتقلب في عبثٍ بين مختلِف القنوات إلى أن استوقفه لقاء لأحد الفنانين الذين يحبهم.

هناك مواقف يتوقف عندها عقل الإنسان، تتبدل حياته ونظرته إلى الكون عندها، لعل هذه اللحظة من اللحظات المؤثرة في علاقة ناي (المشاهد) بكثيرين من الذين يشغلون حياة المشاهير من المصريين؛ فنانين ومطربين ونجوم كرة قدامى، فهم أناس قد أسهموا كثيرًا في تكوين الوعي الجمعي لدى العقل المصري الهزيل.

لم يتمالك نفسه عندما سمع ذلك الممثل يقول:

"هذه ليست ثورة؛ هذا تجمع للدّعارة!"

ثم أكمل وهو يقسم على أن في الميدان علاقاتٍ جنسيةً كاملة داخل خيام المتظاهرين والمتظاهرات واتهم المتظاهرين بالخيانة والعمالة، هؤلاء الذين يعلم ناي حقيقتهم ويدرك أن ما يقوله الرجل ليس إلا كذبًا وافتراءً، فلقد منحته الصدفة فرصة أن يعيش وسط هؤلاء الثوار الحقيقيين ويرى بأم عينه كيف يعيشون، وهنا أدرك مدى تزييف الحقيقة ومدى الكذب الذي يعاصره المصريون منذ عقود.

منذ هذه اللحظة أصبح تقييم ناي لهؤلاء المشاهير على أساس حبهم للثورة، فهو شاهد على الحقيقة ولن يقبل المساس باللحظات التي ستظل شاهدة على أنه عاش يومًا!

أدرك أن الفنون في كل دول العالم هدفها تشكيل وعي الإنسان، إلا مصر! فالفنون فيها أداة لتغييب الشعب وتجهيله، وسيلة لزرع الفراغ واللا شيء في عقول من المفترض أن تولد لتنتج وطنًا وشعبًا من أعظم الشعوب.

قيمة الإنسان بوعيه، ووعي المصريين لا يحوي سوى الفراغ والجهل والجريمة وكل التفاهات التي يعيش فيها بفضل الإعلام الممنهج ضد الوعي الحر والإرادة الحرة!

لقد تبدل رأيه وحُـبُّـه تجاه كثيرين بعدما سمعهم يلقون التهم جُزافًـا على الثورة والثوار، هم أنفسهم الذين كانو يمتدحون الرئيس مبارك ويصفونه بالأب والقائد والمعلم، لقد رأى الوجه الحقيقي لكثير من مقدمي البرامج وخصوصًا الرياضيين الذين يحبهم، فقد شعر بأنه أمسك جزءًا من الحقيقة، فأراحه هذا الإحساس الذي أنساه قليلًا من حزنه على ما أصاب عينه، لكنه لم يكن يدرك أن هناك كثيرين ممن سيُظهِرون ولاءهم للثورة وفي دواخلهم يبطنون المقت الرهيب لها.

حمل حقيبته وهبط إلى الشارع، مُوزَّعَ المشاعِرِ بين قلبه الذي أعيد خلقه هنا، في القاهرة، وعقله الذي يصور له ضرورة الرحيل، وأخيرًا وصل إلى محطة مصر وظل منتظرًا قدوم القطار المتجه إلى الصعيد.

ضج القطار بالركاب حتى استحال على ناي الدخول إلى إحدى العربات فارتقى سطح إحداها مع كثيرين ممن فعلوا مثله، ظل القطار يسير الهوينـى والصخبُ يزحم الكون من حوله ويملأ رأسه الذي يعج بالأفكار، يسير القطار على مهل كأنه يدعو ناي لرؤية حياة القاهرة الصاخبة من كثب.

تجذب بصرَه أكوامٌ من الديار ذوات الطابق الواحد والطابقين، بحيث يستطيع المرء أن يسلِّم وهو في الشارع على من يقف في نافذة الطابق الثاني، أما الجدران

فمائلة وغائصة في الأرض الموحلة الرطبة المليئة بالحفر ومجاري الصرف الصحي الضاربةِ بحارًا وقنواتٍ وبرَكًا تلتحق بعتبات البيوت.

أكوام البيوت يقسمها شريط القطار إلى مجموعتين من الهديم والركام تتضح فيها نوافذ وأبواب بحيث إنه من الصعب على العين أن تميز بين الجدران وأكوام الهديم؛ فكلها متضافرة متشابهة يختفي معظمها في أكوام الزبالة التي تملأ الأماكن والشوارع ريحًا نجسة خبيثة، تظهر هذه البيوت مثل المرأة التي تجلس القرفصاء وتسند ظهرها إلى الأبراج الحديثة المرتفعة والعمارات العالية الملونة في بهاء ورقيّ.

لم يكن في السابق ينظر إلى الأشياء هذه النظرة المتأملة، والآن كل شيء قد صار ذا مذاق مختلف، فكأنه يعيد اكتشاف الأشياء تحت ضوء الثورة الوهاج.

ظل ناي ينظر حوله وهو يتأمل وجوه المسافرين الكالحة، يغسل بعينيه الصدأ الذي يصبغ الوجوه ويحاول قراءة ما تقوله العيون، إلى أن سمع صوت ارتطام خلفه؛ ارتفعت أصوات الركاب التي تصيح وهي تشير إلى شاب سقط من فوق العربة فارتطمت رأسه بإحدى الكباري التي يمر القطار أسفلها.

بسرعة ومن دون تفكير نهض ناي وسحب حقيبته وألقاها على الأرض ثم انسحب إلى أسفل العربة حيث اقترب من الأرض وقفز بعيدًا عن القضبان، كادت رأسه تصطدم بالأرض إلا أنه كان حذرًا، تقدم ناحية الحقيبة ثم ركض ناحية الشاب الذي تمرَّغ جسده في الأرض؛ وصل إليه فإذا هو غائب عن الوعي؛ أخذ يهزه ويحدثه ولكنه لم يستجب فسمع إلى صوت صدره فوجده ما زال على قيد الحياة لكنَّ وجهه ملطخ بالدماء مغمور بالتراب.

نظر إلى القطار لعل أحدهم يأتي ليساعده لكنه لم يجد في المكان سواه، نظر إلى حقيبته ثم إلى الشاب ففكر أن يترك أحدهما.. تحيَّر للحظة إلا أنه رفع الشاب على كتفه وبيده الأخرى سحب حقيبته وراءه، مشى قليلًا وهو لا يدرى أين هو ولا ماذا يفعل، ظل يركض كالمجنون خوفًا على حياة هذا الشاب ومشى كثيرًا بجوار شريط القطار باحثًا عن أي شرخ في سور يعبر خلاله.

دخل في حارة من الحارات التي تتسع بالكاد لمرور شخص واحد.. لحظتها كان لون المساء يتسلق إلى أكوام القُمامة ويختلط بألوانها وينشر في الحارات رائحة نفاذة تطغى على رائحة هذه القمامة!

مزيج من رائحة مياه الحموم ورائحة الفول المدمس مع رائحة دخان مخزون في هذه البيوت التي تشبه الكهوف.

الغريب دائمًا يضل الطريق، إذ تتساوى أمامه السبل لأن جميعها يؤدي إلى الضلال، فـظَـلَّ يركض خلال الطرق مثل الجُرَذِ الهارِب ولا يعرف أين المفر.

رأى بعيدًا عنه مجموعة من الشباب يجلسون في أحد المقاهي، تقدم إليهم وهو يلهث بعدما أقْعَدَ الشاب على الطّوار، تقدم أكثر فوجدهم ينهضون في تأهب ويتقدمون نحوه، الوجوم يغطي الوجوه والعيون تنطق غضبًا؛ أشار أحدهم -وهو أكثرهم تجهمًا وطولًا وعرضًا- أن يتوقفوا، ممسكًا بإحدى يديه عصًا غليظة وباليد الأخرى سكينًا طويلًا مسنونًا متأهبًا، ثم أشار الفتى إلى ناي بأن يتوقف فسأله:

"ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

بمجرد أن نطق ناي، لكمه الفتى لكمة كادت تسقطه أرضًا فضاق صدر ناي حزنا وألمًـا وأشار إلى الفتى بأن

يتوقف؛ لم يكن له القدرة على التقاط أنفاسه من فرط التعب!

تقدم سائر المجموعة حينما كان الفتى يصيح في ناي:

"انطق، ما الذي أتى بك إلى هنا؟!"

كان من بينهم رجل يبدو عليه الهيبة والوقار، تظهر على هيئته سمات البساطة والرقة، قص ناي عليهم قصته وطلب منهم المساعدة فتفهموا الأمر سريعًا وأرسل الرجل أحدهم لكي يأخذ ناي والشاب المصاب إلى أقرب مستشفى.

حملِ شباب الحارة الفتى المصاب وتقدم ناي الذي تبعه في كَبَد وإرهاق، كان منظر الفتى المصاب مثيرٌ للشفقة حقًّا!

في حينَ ظل ناي ينظر إليه دهِشًا من سرعة الأحداث وتبدلها.

وصلا إلى المستشفى سريعًا ومرَّا بقسم الطوارئ، وبعد شد وجذب أجريت الفحوص الطبية.

حاول الأطباء إيقاظه فتحرك ببطـء ثم رفع رأسه وهو يصرخ ألمًـا وقد أخذ ينظر حوله في ذهول:

"أين أنا؟ ومن أنتم؟!"

سأله الطبيب بعض الأسئلة فلم يجب وإنما ظل يهذي بكلمات غير مفهومة، قال الطبيب في أسف:

"هذا اشتباه في ارتجاج بالمخ، يبدو عليه أنه تائه لا يتذكر شيئًـا حتى اسمه، فيجب أن يظل تحت الملاحظة عدة أيام

مع إجراء بعض الأشعة المقطعية للتحقق من سلامة المخ".

ظل ناي وفتى الحارة الذي اعتذر إلى ناي عما فعله صديقه- منتظرين خارجًا، وبرر الفتى ما حدث بأن قال:

"نحن مجموعة من أهل الحي، نزلنا إلى الشارع لحماية الناس والبيوت من غارات البلطجية"؛ سأله ناي مباشرة: "أي بلطجية؟"

تبسم الشاب من لهجة ناي الصعيدية وراح يشرح له الأمر:

"قيل إن السجون فتحت وهَرَب منها المجرمون والبلطجية، وهم الآن يملؤون الشوارع يعيثون في الحارات والبيوت فسادًا ويهاجمون المَحالَّ وينهبونها؛ قمنا بتشكيل لجان شعبية لحماية منطقتنا والتصدي لكل وجه غريب يطرق باب المنطقة، ولسوء الحظ.. أنت غريب، لذلك تصدينا لك بعَدِّك بلطجيًّا، وليس في هذا افتراء لا سمح الله".

كانت الشرطة قد اختفت من الشوارع، وأذيع في التلفاز أن البلطجية يقتحمون بيوت الناس وينهبونها، فنزل أهل الحارات لحماية دورهم بأنفسهم فكانت اللجان الشعبية.

تبادلا الحديث قليلًا لكن ناي ظل على ذهوله وتذكر الألم الذي يضرب عينه المصابة.

قال له الشاب:

"اذهب أنت وسأتولى أنا متابعة ذلك المسكين، يبدو أنك كنت على سفر"

انطلق ناي هائمًا في الشوارع، لا يعرف هل يعود إلى الميدان أو يعود إلى اللوكاندة أو يذهب إلى المحطة! أعتمت الدنيا وحار فيها فقد انفصل عن الكون وهو يتسكع في حارات ضيقة ولا يعلم أين المبتغى.

أمطرت السماء قطرات صغيرة خفيفة ترسم بقعًا من الأثير تلسع رأسَه وأضلُعَه، وقد اختلطت قطرات المطر بسيل الدموع الذي هبَّ دون ميعاد!

ظل يفكر كيف سيعود إلى أمه على عينه عِصابٌ، يخشى ألا يحتمل قلبُها ما ألم به، ظل يمشي ويفكر إلى أن تلبسته رُوحٌ خفيفة خفية؛ تذكر أيامًا يشبه جوُّها اللحظة التي يعيشها الآن، فعندما يحين الأصيل تسحبه أمه إلى ركنٍ مظلم وتحممه وعندما يأتي المساء ترتقي به سطح المنزل، يظل يرقب السماء المفتوحة وعندما يشكو إليها عدم استطاعته النوم في الظلام لأنه تذكر وجه جارهم الذي تُوفِّيَ قريبًا وكان يحبه فتهدهده والدته وهي تقول له:

"تذكُّر الموتى ليلًا يعذبهم"

ثم تغني له حتى ينام كأنها تبكي، فإذا طار الكروان ليلًا وذاع غناؤه الذي يشبه الصلاة ترفع رأسها إلى أعلى وتصغي في شغف ولذة وحبور وهي تردد ترتيلاتها الحزينة...

استقر تفكيره على العودة إلى الميدان، ففي لحظات الألم والتَّيَهان نبحث عمَّن نقصُّ عليهم أكثر من محاولتنا إيجاد الحل، نبحث عمن يشاركنا الألم ويشعرنا بأنا لسنا وحيدين، صوت جميلة يطِن في أذنه ودعاه قلبه إلى أن يعود فلبَّى النداء؛ اتصل بوالدته أولًا ليستمع إلى نغمة صوتها التي تعيد إلى قلبه الطمأنينة.

كمُّ الحب الذى تحيطه به أمه ينزع من قلبه كل قلق!

بعد أكثر من سؤال واستفسار وصعود عربة والنزول من أخرى، وصل إلى الميدان، كان الصباح قد أقبل وعَمَّ الهدوء، ذلك الساحر الذي يسحره رغمًا عنه كلما غادره، يسحبه مثل العنكبوت ويدخله إلى شَبَكَتِـه!

تلوح في الجو ألوان الكآبة ولا يزال غبار اليوم السابق عالقًـا في الهواء يحرِّك صراخ الشباب الذي تعرض للضرب أو الاختطاف، تهدمت كثير من الخيام لكن المعتصمين ظلوا جلوسًا كما هم، بينهم جرحى يئنون، تجلس جميلة وجوارها المعلم منصور وهو يحاول أن يشعل نارًا فاحمر وجهه من شدة النفخ، لكنه أفتر عن انزعاج عندما رأى ناي مقبلًا نحوهما.

لم تكن جميلة على سجيتها؛ وجدها هادئة ساكنة، تحول وجهها الخمري النضر إلى قطعة قماش صفراء كالحة، قعد ناي جوارهما منهكًا يضرب الألم جسده وروحه أيضًا، يكسوه الغبار، نظر إلى جميلة فـوَدَّ لو أخذها بين أحضانه، رغم ثوريتها بدت أمامه طفلةً صغيرةً تائهة، رأى آثار الدموع في عينيها، بكاءٌ محبوس.. أو بكاءٌ مؤجل، عيونٌ تبكي ألما وشوقًا وخوفًا، سألها همسًا:

"ماذا بك؟"

لم تجب؛ أتجيب بأن قلبها قد انفطر خوفًا عليه من أن يصيبه مكروهٌ، خوفًا من ألا يعود أبدًا، أم تجيب بأنَّ تعلقها به أزعجها وأربكها؟
ظلت على صمتها وشرودها فأعاد السؤال في جد وإلحاح؛ أبت أن تفضح لهفة قلبها عليه وردت عليه اختصارًا:

"لقد أصيب عم جلال ونقلوه إلى الإسكندرية؛ تعرض لأزمة قلبية ولم يتحمل قلبه ما يفعله المصريون ببعضهم"؛ لم يعلق، نسي ألمه للحظات وحَزِن لأجل عم جلال أيما حزن؛

فقلبه لا يتحمل خَسارةَ مزيدٍ من الأحِبَّة، حاول أن يعيد إلى جميلة بهجتها وهو يتجنب أن تعرف ما ألم به لكن عينه المعصوبة كشفت أمره فحكى لها ما حدث، إلى أن ضربت رأسَه فكرة مجنونة فقال:

"لنذهب إليه!"

تساءلَت في عجب:
- إلى أين نذهب؟!

- إلى الإسكندرية.

بُهِتت جميلة وهبت واقفة حائرة الطرف بينه وبين المعلم منصور الذي بدا منشغلًا عنهما، قالت في ارتباك:

"لم يسبق أن زرت الإسكندرية من دون الأهل"؛ نهض ناي وهو لا يزال يبتسم فقال:

"وأنا لم أزرها من الأساس، فلنذهب لأول مرة معًا؛ لعلها ذكرى لا تنسى!"

رفعت عنهم المصادفة عبء التفكير في الخطوة لأن أول صفات الإبداع الجنون، ولم يبذل أي منهما جهدًا في التفكير؛ فقد دعتهما اللحظة إلى الانسياق مع الحلم، تسبح جميلة في عالم من الأفكار واسع غريب، تحرك عينها وجسدها بسرعة، استغرقه ذلك الخليط الغريب من الحرية والبلاهة وأدرك موافقتها **لأن كلَّ شيءٍ جميلٌ في صحبة من تحب!**
...
في ميدان رمسيس أسفل الكوبري تقف عربات أجرة تحمل الركاب إلى الإسكندرية، استقلا إحدى هذه العربات عازمَينِ على تجربة لم يعرفا مداها ولا مؤداها.

وصلا إلى الإسكندرية في ساعة مبكرة، الشمس تلهث لانتزاع قرصها الأحمر من رأس الإسكندرية، والأفق كله يتفحم بسحب الشتاء القاتمة التي تتخللها سحبٌ بيضاءُ تنذر بالأمل، كتل من السحب المكسرة المغبرة تسبغ الكون بألوان قدسية صاخبة.

أوصلتهم العربة إلى محطة الرمل، تعرف جميلة عنوان عم جلال الذي اتضح أنه بعيد عن مكانهما.

جذبهما صوت البحر وفي قرارة أنفسهما أرادا أن يزوراه أولًا، ظلّا يمشيان متجهين نحوه وهو يدعوهما في إصرار!
هفا بهما هواءٌ مفاجئ صحبه مطر شديد وهما في عراء الشارع، راحا يحتميان من المطر بالعمائر المرتفعة والبلكونات البارزة، كان لاصطدام قطرات المطر نُقَر متصلة، كانت رُوح روايات إبراهيم عبد المجيد وأبطاله تملأ المكان، في اللحظة التي فكر فيها ناي في صعوبة العثور على سيارة أجرة، قالت جميلة:

"يدهشني هذا الجو المختلف؛ حقًّا إن الجمالَ يكمن في الطبيعة".

صَمَتَا وهما يمشيان حِذاءَ الشاطئ، ظل ناي شاردًا مستمتعًا بالمطر والبحر وامتداد الأفق، جلسا متجاورين بحيث كانت وجوههما نحو البحر وظهورهما صوب الطريق، المياه زرقاء والرمال بيضاء، أقدامهما العارية تلتقي في قلب ماء دافئ، جسدها القوي الحُرُّ المليء بالأسرار يبعث فيه نشوة وهدوءًا، فإنما هي لحظات حَسُنَ فيها الحظ، واستوت فيها الريح في الشراع.

قرارُهما السري الذي اتخذاه بأن تكون له وأن يكون لها، لكن أحدًا منهما لم يجرؤ على النطق به؛ ظل حبيس نظرات العيون وشوق الاهتمام.

ضحكت جميلة وقالت:
- لم أخجل يومًا من عفْـويتي، فقد يبدو هذا تصرفًـا غير حكيم: أن أذهب مع شاب لا أعرفه إلى مكان لا أعرفه، أوليست هذه بحماقة؟

- كلا؛ إنها مغامرة مجنونة، فما الجنون إلا مغامرة، والحياة أيضًا- مغامرة.

- لقد أتيت معكَ دون وعي لكني لست حائرة ولا خائفة أن تراني فتاة مخلة أو مختلّـة، لقد عودني والدي منذ صغري أن أكون كما أنا، لذلك لم أسال نفسي كيف تراني الآن! الأنا التي بداخلي وافقت على الإسكندرية، وعليك.

وَدَّ ناي لو قال:
- أنا لا أراكِ؛ أنا فقط أشعر بك، أشعر بنبضات قلبي التي لا تكُف.

فأصغر اختيار يؤكد أنهما متمسكان بالوجود هو التوحد بينهما، بحيث لا نزوة في التجربة، كل ما في الأمر أن هناك حقيقة واحدة في حياة كل منهما، أن **العشق يجيء قَدَرًا**؛ فهو الذي يرتب ويهيئ ويفرض علينا هذه الحقيقة من غير ما إرادة.

تابعت جميلة:
- يبدو أن عفْويتي تزعج الآخرين، فلو علِمَت والدتي أني أتيت معك إلى هنا فقد نتشاجر، لكن والدي سيرحب بذلك ما دمت قد أعلمتهما"

علق ناي مستنكرًا:
- لعله تصرف غريب من رجل!

- الغريب أن التصرف العاقل الحكيم يبدو لنا غريبًا، ثم أكملت غاضبةً:

"ينتابني إحساس بالسخط والغضب تجاه كل روتين يجهل بالمشاعر والحقيقة، ويجهل بالحرية، كل فعل غير طبيعي يعد شذوذًا!، قد يعني ذلك أني فتاة غير مؤدبة، لكن وجهة نظر والدي تبدو مختلفة؛ هو يعرف أن قضيتنا الوحيدة في الكون هي أن نعرف أنفسنا، وهذه المعرفة لن تأتي إلا بالتجربة، كي نعرف من نحب وماذا نحب، نفهم الطريق التي نكمل فيها حياتنا بالطريقة التي تشبهنا، نحن جئنا إلى هذه الدنيا لكي نعيش حياتنا نحن لا حياة الآخرين.

لذلك أنا أشفق على الذين يعيشون هناك في الصعيد، عندما ذهبت هناك إلى الصعيد أول مرة كي أزور عُمومتي ، عرَفت أنكم تُظلمون كثيرًا في الحياة، ظُلِمتم لأنكم بعداء عن القاهرة، العاصمة، أنتم هناك في الهوة المظلمة، أشعربأنهم يقفون مكتوفي الأيدي، كل شيء ممنوع، حتى الحركة ممنوعة!".

هدأت قليلًا وملأت صدرها بالهواء ثم أكملت:

"أشكر للهِ أنني لم أعش فترة نضجي هناك، فهنا تعلمت أن أحافظ على حياتي، لديَّ طموحي: أن أتعلم وأعمل وأستقل بذاتي، كانت هذه رغبة والدي التي غرسها فيَّ، جعلنا نأتي إلى القاهرة لكي نرى الحياة الصاخبة المزدحمة فأتعلم، أتعلم الحياة والناس..."

ينهمر شلال الكلمات من فم جميلة التي يتابعها ناي بقلب نهم.

تفرقت الغيوم في السماء فظهرت الزرقة صافية واضحة، راحت جميلة تفكر فيما يعتمل في صدرها، تسبل جفنيها للهواء النقي وتتنهد، أحست حيال ناي عطفًا غريبًا، كأنه قد وُلِد على يدها، أو كأنهما خرجا توًّا من بطن واحد

توأمَيْن يشق عليهما الانفصال ولو لحظةً، أما ناي فيحاول أن يتكلم لكن خجله ما زال يمنعه، فهو يقول في نفسه:

"من أين لي أن أعرف أن روحي تفتقد كل هذا الكم الهائل من الحيوية؟ لم أكن أدري أن الحماس والحب لهما سبيلهما في نفسي!".

أراد أن يسألها عن دراستها لكنه ظل على صمته إلى أن عاودت هي الكلام كأنها تسأل نفسها:

"لماذا تفوَّهت بهذا؟ أشعر بأني ولدت بداخلي دون رغبة مني، أشعر كأني أكتب شيئًا لي، شيئًا خاصًّا بي"، ثم استعادت عينَها من الأفق موجهة إليه نظرة متسائلة وهي تقول:

"أتُقدِّر ما أعيشه أم تراني -كما يراني أصدقائي- فتاة طائشة؟"

يبتسم ناي وينظر إليها نظرة صافية حانية فيقول:

"تصرفى كما تشائين، لكننا هناك معذورون، أنتِ الآن تعيشين في العاصمة، ونحن هناك في دولة داخل الدولة، الحياة هنا أوسع وأرحب، أكثر انفتاحا، أما هناك فحياتنا ضيقة، والأفق منغلق على عاداتنا وتقاليدنا، لو لم تأتوا إلى هنا لما عرفتِ أن ما هنا مختلف عما هناك، كنتِ ستعيشين مثلنا، وتفكرين مثلنا".

ابتسمت، وصمت هو لحظة فقالت كأنها تقاطعه:

"أشعر تجاهك براحة غريبة"

أطرق إلى الأرض خجلًا فعادا إلى صمتهما وهما يتابعان تدفق الأمواج التي تضرب الصخور في تحدٍّ وإصرار.

(قال معشوق لعاشق: "لقد طُفت بكثير من المدن، فأيها أعجبك أكثر؟"؛ أجاب العاشق: "تلك التي فيها اختطف الحب قلبي").

مولانا جلال الدين الرومي

6

منطقة بحري، حيّ الملوك والفقراء، إحساس حميمي يغمر كل من يخترق حدود هذا الحي، رائحة البحر المفعمة باليُـود المنعش، قوارب الصيد المتناثرة على صفحة الميناء الشرقي لعروس البحر المتوسط، مرورًا بالصيادين الباسطين شباكهم العارضين تحصيلة صيدهم من الأسماك الطازَجة، العربات التي تجرها الخيولُ فتعيدك رؤيتها إلى أجواء نجيب محفوظ وأفلام حسن الإمام.

كل تلك المشاهد تؤكد لك في بساطةٍ أنك في حي بحري القريب من قلعة قايتباي، ذلك الحي الذي تتجاور فيه قصور الأسرة العلوية مع بيوت الفقراء ومنازلهم من أهل الحي في تناغم اجتماعي يزيل أية فوارق اجتماعية بين

الطرفين، تجد الفقراء من أهل الحي يتحدثون في أنفة وعزةٍ مَلَكيَّـة.

من بين هذه البيوت يكمن بيت عم جلال عامر دلَّهم عليه صاحب عربة الفول الذي لم يتأخر في الثناء على أخلاق عم جلال وتواضع، نادى من قلب الشارع بصوته المرتفع ولهجته الإسكندرية التي أضحكت ناي وجميلة:

"عم جلجلل، ياعم جلجللل"

من شرفة مطلة على الشارع برزت رأس امرأة خمسينية؛ قال لها صاحب العربة:

"ناس بتسأل ع الأستاذ جلال".

ما هي إلا لحظات حتى ظهر في الشرفة رأس عم جلال، ابتسم لهما وأشار إليهما بأن ينتظرا، هبط إلى الشارع مهللًا فرحًا بقدومهما، مرتديًا "عباية بيتي" واسعة الأكمام، بساطتة تدعو إلى التحيُّر لكونه كاتبًـا مشهورًا.

بعد دقائق بدل عم جلال ملابسه واصطحبهم إلى نزهة في مدينته التي يدرك جمالها ويعشقها، يتحدث كثيرًا بكلام خفيف راقص، هذا شخص آخر غير رجل الميدان، أكثر رشاقة وحيوية ومرحًا، يصف لهما جمال حي بحري وتاريخه.

بحري من أحياء الإسكندرية القديمة، سكنه المغاربة والأتراك والخواجات منذ عهد المماليك، مشهور بملابس أهله المميزة منذ سنوات بعيدة، فالنساء يرتدين الملابس المُزركَشة بألوانها المبهجة ويلففن عليهن الـ"ملاية اللفّ" والرجال يرتدون السراويل الإسكندريَّ المسمى "أبو ليَّة" والـ"صِديري" المزخرف.

وصل بهما عم جلال إلى البحر، غاب عنهما وظل صامتًا كأنه يرى هذا المشهد الجليل لأول مرة!
غاب كثيرًا، رأى ناي وجهَ الرجل الذي احمرَّ كثيرًا في خفوت، رجل في مثل عمره يذهب إلى المظاهرات ويعرض حياته للخطر.
إلى أن قال عم جلال:

"بلادنا جميلة يا ولاد، بس حكامنا فسدوها"

قالت جميلة راجية:

"ليس هذا وقتًا للحديث عن السياسة، دعنا نطمئن على صحتك ونستمتع بهذا البهاء وهذه الهالة الروحية التي تغلف الكون"

ابتسم الرجل ثم قال:

"ومن ذا يتحدث في السياسة؟ صبرًا؛ سأحدثكم عن الموسيقى!"

ثم راح يضحك ضحكًا طفوليًّا مرِحًا يخرج من شغاف قلبه تَبِعه سعالٌ شديدٌ احمرَّ له وجهه ثم أخذ نفسا هادئًا وقال:

"قد كتب جان جاك روسو أن كل شيء في النهاية يعود إلى السياسة، لكن أعظم سيمفونيات جون كيج كانت السيمفونية الصامتة التي جعل الجمهور فيها يسمع صوت وقار الصمت!

قديمًا، كانت الإسكندرية أحلى وأجمل، لكن السلفيين عاثوا فيها فسادًا، وهذه سياسة.

كانت الفتيات يرتدين الفساتين ويجلسن إلى البحر لكن هذا قد اختفى حاليًّا، وهذه سياسة".

أخذهما عم جلال إلى مقهى من مقاهي الأنفوشي القديمة، لم يخل الطريق من المزاح المتبادل بين عم جلال ومن يصادفه في الطريق، منهم بائع الخبز وصاحب متجر الألبان، وصاحب مقلى اللب والتسالي، والحلاق العجوز الذي يعرفه الجميع ويحبه.

شملهما صمتٌ للحظات وهم يشربون القهوة، وما إن أفرغ الرجل فنجانه ووضعه على المنضدة الصغيرة التي تتوسط ثلاثتهم قال:

"مشكلة جيلكم أنه يحمل وزر عقود طويلة من الفساد، تعيشون في عنق الزجاجة، فإما أن تخرجوا منها بنجاح الثورة وإما أن تنغلق عليكم وحينها سوف تظلون حبيسي الجهل إلى الأبد.

في أعماقكم رٌوح وحياة، منكم من لا يعرف كيف يعبر عنها وآخرون لا يشعرون بقيمتهم ولا بقيمة الحياة التي بداخلهم".

لمست ناي هذه الكلماتُ وحَرَّكَته، هزته هِزةً عنيفة، شعر بأن عم جلال جرده من أفكاره ومضى يعرضها أمامهما، ثم انتبه مجددًا إلى عم جلال وهو يكمل:

"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان وإنما بالعلم أيضًا، صراعنا الآن صراع حضارات فلقد انتهى عصر النار والكِبريت وأتى عصر الفيزياء والكيمياء والبحث العلمي، العلم هو الباب الملكي للدخول إلى الحياة الجديدة، الأمم تسير على قدمين إحداهما العلم والأخرى النورُ الذي بداخلكم أيها الشباب، ومن كلتيهما تتألف موسيقى الحقيقة، إن أردتم التغيير فعليكم بتغيير أنفسكم أولًا، لا تظنوا أنكم عديمو القيمة حتى إذا حاولوا إقناعكم بذلك".

أخبره ناي أنه في أثناء دراسته لم يكن يحب المواد العلمية؛ ابتسم عم جلال ثم ردّ:

"إذن، فلتبحث عنك داخلك!"

ضحكت جميلة قائلة:

"الحمد لله؛ أدرس الطب عن اقتناعٍ وحب"

قاطعها ناي وهو يسأل عم جلال:

"فكيف؟!"

أجاب عم جلال وهو يعتدل من جلسته ويخرج سيجارة من علبة سجائره:

"لكي تعرف نفسك يجب أن تُقبِل على الكتبِ؛ القراءة ترسم لك الخطوط العريضة التي تخطو عليها لتبلغ حقيقة نفسك، لقد تركت الخدمة في القوات المسلحة حبًّا في القراءة والكتب!".

لكنَّ سؤالًا ملحًّا أخذ يضرب عقل ناي دون هوادة، أخذ ناي يتململ وهو يفكر محاولًا وأد هذه الأفكار لكنه عزم أن يسأل:

"إذن فمهنة الكتابة التي تحبها عمل جيد!"

انتبه عم جلال لقول ناي وقد قرأ في عينيه ما ينطوي عليه هذا السؤال من معانٍ فأجاب مراوغًا وهو يبتسم:

"وما مقياس المهنة الجيدة في رأيك؟!"

أجاب ناي دون تردد:

"هو الذي يُربِح صاحبه مالًا وفيرًا يضمن الاستقرار والأمن".

فاضت مشاعر عم جلال حزنًا لما آلت إليه عقول المصريين الذين أصبحوا لا يؤمنون إلا بالمادة، اختفت القيمة الرُّوحية للأشياء أمام قيمتها المادية، لا أخلاق ولا روح ولا متعة، لكنه كفكف حزنه بابتسامة واهنة ارتسمت على طرف ثغره ثم قال:

"أتعلم أني كنت عميدًا في القوات المسلحة؟ تركت وظيفتى من أجل ما أحب، من أجل الكتابة، كان محظورًا علينا الكتابة أو النشر، تقاضيت راتبًا شهريًّا كبيرًا، لكني تخليت عنه لأعمل كاتبًا، سلكت الطريق رغم أنها غير مضمونة، لِأن العمر يُـقـاس بالمتعة لا بالمال ولا النجاح، أنا أعشق الكتابة، والعاشق لا ينتظر شيئا مما يحب!".

لم ينفذ الكلام إلى عقل ناي، بيد أنه ظل موزَّعًا بين كلام عم جلال وعمقه ومدى تأثيره على القلوب وبين عدم الاقتناع إلا بمادية الأشياء، نطقت عيناه بذلك إلا أنه أبى الإفصاح عن ذلك لحبه لعم جلال لكنه سأله:

"وما الفائدة إن صنعت ما أحب دون كَسب؟!"

ضحك الرجل...

لا أقول لك بألا تربح، لكني أقول لك ابحث عما يحبه قلبك؛ ستعثر على الراحة التي هي أهم من المال؛ سوف تكون أنت نفسك، ربحك الأعظم أن تجد نفسك فالحياة تجربة شخصية".

تأوهت جميلة من شدة التأثر حتى صفقت بيدها في سعادة بينما ظل ناي على تصلبه غير قانع بما سمعته أذناه فأكمل عم جلال:

لا تحاول أن تقاوم التغيرات التي تعترض طريقك، بل دع الحياة تعِـش فيك، ولا تقلق إذا انقلبت حياتك رأسًا على عقب، فكيف لك أن تعرف أن الجانب الذي اعتدتـه أفضل من الجانب التالي؟ يقبع الكون كله في داخلك وفي كل شيء تراه حولك حتى الأشياءِ التي لا تحبها، لا تهتم إلى أين تقودك الطريق، بل ركز على الخطوة الحاليَّة فهي أصعب خطوة يجب أن تتحمل مسؤوليتها".

تساءلت جميلة:
- إني أبحث عن ذاتي كثيرًا ولكني لم أحدد وِجهتها إلى الآن.

- فلماذا لا تكتبين ما يجول بخاطرك؟ ضحكت جميلة في خجل...

- لعلي لا أجيد الكتابة، أو لعلي لم أحاول من قبل!

تأمَّلَـها وتأمل شفتيها المشدودتين في خجل ثم قال:
- نستطيع الكتابة كما نستطيع الكلام، أما الأسلوب فيكون مثلك تمامًـا، فاتركيه للقارئ يتذوقه كيفما يشاء"

- لا أفهم ماذا تقصد!

ضحك ضِحكة الواثق ثم أجاب:
- ما دمنا نتكلم ونفكر ونتحرك فنحن نستطيع الكتابة، إن الكتابة أو الفنون جميعًا ليست بحجر يصعب علينا رفعه، بل هي أشبه بكلمة "أنا جائع" عندما نشعر بالجوع، الكتابة وسيلة نعبر بها عما يعتمل في دواخلنا، من مشاعر وأفكار وأحلام، وهكذا الرسم والموسيقى والنحت، طاقة تخرج لتعبر عما في دواخلنا، **اكتب كأنك الكاتب الوحيد في العالم، كأن كلمتك ستنقذ العالم**، لكن...

لكي تكتب يجب أولًا أن تحيا، تفرح وتحزن، تشاهد سينما وتسمع موسيقى، على الكاتب أن يكدح في الحياة.

ابتسمت جميلة، ثم أطالت النظر في عينيه اللتين تحتضنهما في ود مشبوب وحنان عارم.

لم تمر هذه اللحظات على عقل ناي مرور الكرام، فرُوحه تشبه أرضًا جافة متشوقة لقطرة ماء تروي العطش، تتدفق كلمات عم جلال فتخلق براحًا وخفة مثل التي يراها ناي وهو ينظر إلى ذاك البحر البديع، أفكارٌ مثل أمواجه التي تغلي في باطنه، ينظر إلى نفسه بعين ناقدة، يشعر أنه أضاع سِنِي عمره في الظلام، بعيدًا منزويًا عن كل ما هو جميل وحقيقي، نور المعرفة المنبثق من الكلام الذى يسمعه يملؤه ارتياحًا أقرب إلى السكينة.

"الأيام" تلك اللحظة التي نحيا فيها الآن ولن تتكرر، اللحظة التي لن تعود بعد أن تمضي، لن تعود إلا بالندم عندما نبكي عليها حسرةً، التفاصيل الصغيرة التي تنفلت من أصابعنا في زخْم الحياة، كلمة حنو وحنان على أم، تقبيل يد أب، "صباح الخير" التي تمرررها إلى جارك، ابتسامة في وجه طفل، كل لحظة نقضيها بعيدًا عن المتعة أو نهدرها في الألم.

لم ينقطع عم جلال عن الكلام، وإنما هو نهر جارف يجري على لسانه، لديه علم غزير وشغف عميق وثورة عنيفة تشبه موجة عالية تضرب السور المطل على الشاطئ فتغسله، يطيل الحديث عن الإسكندرية تمامًا كما يطيل حديثه عن الفقراء، يلفت نظرهم إلى علاقة السلطة بالمواطنين في المجتمع وتغلغلها في حياتهم مما يجعلها جزءًا مقدسًا راسخًا في وجدانهم وتكوينهم، تحكمهم داخليًّا بالخوف وخارجيًّا بالفاقة والحاجة.

مجتمع مثل طفل يحبو، إذا سقط يصرخ للحكومة لترفعه!

مجتمع اتكاليٌّ، أصبح بمرور الوقت مسلوب الإرادة والمعرفة والوعي ونسي أن لديه القدرة، كلام عم جلال فتح لناي بابًا من التأمل المتصل في العلاقة بين الحكومة والمواطن، ودور الحكومة في ترويع من يختلف عنها أو تدميره بالكامل، والمواطن الذي يميل إلى الانصياع إلى حكم المستبد العادل الذي يختصر عليه عناء التفكير والاختيار، حقًّا إن الحرية مرهقة للجهلاء.

لقد أصبح المواطن في انتظار دائمٍ للبطل الذي يخلصه من متاعب الحياة حتى لو كانت على حساب الحياة نفسها! عندما يصرخ المواطن المصري ينادي "الرحمة "لا "العدل"! العدل يعني أن هناك ظلمًا وأن المواطن له حق يجب أن يعود، أما الرحمة فتعني أن الحكومة تتفضل على المواطن الذي يعيش تحت أمر السلطة، بمبدأ: "أعطني كي أعيش".

يضحكهما عم جلال ساخرًا مما وصل إليه الشعب الذي كان قائدًا ومعلمًا فيما مضى.

حكت جميلة لعم جلال ما رأته إثر الهجوم على المتظاهرين فأخبرها أن لحزب الوطن رجاله الذين يستعملهم وقتما شاء، فردَّت:

"في أثناء وجودنا في الميدان أتى أحد الشبان الملتحين مهرولًا وهو يصرخ بأن جماعة من البلطجية يقتحمون الميدان، تعرض المتظاهرون للضرب بالمُـدَى والشُّـوم، تمزَّقت لافتات ودعس للخيام بالأقدام وهؤلاء يطلقون الهتافات ضد المعتصمين ويكسرون الخيام ويضربوننا بأخشابها!

حدث كر وفر، قررت أنا ومجموعة أخرى أن نبقى في أماكننا لنواجههم، أحاطوا بنا وقالوا موجهين كلامهم إليَّ:

(عودي إلى بيتك، أنتم شيوعيون، إن لم تذهبوا فسوف نحملكم رغمًا عنكم ونفعل بكم فعلتنا، على مقربة مني كانت جماعة من السلفيين جالسة، ينظرون إلينا في استهتار ولا يعيروننا انتباهًا)"

ضحك عم جلال وهو يقول بصوت خفيض:

"اخفضي صوتَكِ؛ الإسكندرية كلها سلفيون!"؛ ضحكت جميلة ثم أكلمت:

"فُضِح موقفهم أمامنا إلى أن بدؤوا في الانسحاب وقد أصيب العشرات من المتظاهرين؛ تدخلت الشرطة بحجة أنها تفض الاشتباك لكنها كانت تخص المتظاهرين فقط بالضرب! سقط كثيرون من حولي مختنقين بالغاز المُسَيِّـل للدموع.

بحثت عنكم ولم أعثر على أحد منكم، رأيت شرطيًّـا ملثمًـا وهو يسحب خلفه متظاهرًا أعرج يشده شدًّا، ولم يستطع الولد ملاحقة خطواته السريعة فتعثر في مشيته ثم سقط أرضًا ومن ورائه جنود يضربونه بالعِصِيِّ ويركلونه بأقدامهم، يدفعونه دفعًا لكي يقوم ويركض وهو يحاول فلا يساعده وضعُه فيسقط مجددًا ويضربونه، قد كنت أخاف عليكم أكثر من خوفي على نفسي!".

خفض ناي رأسه وهو يصغي إلى جميلة فانتبها إلى ما ألـمَّ به.. تصوَّر عم جلال أن هناك أمرًا تخبئه هذه العصبة التي تغطي عينيه، لكنه لم يُـرِد أن يفاتحه في الأمر، وعندما علم عم جلال لم يأسف على ما ألم به وإنما راح يمتدحه ويحمّسه، فقد شعر أنه بطلٌ حقيقيٌّ لا يختلف عن الأبطال الذين رآهم في الحروب التي خاضها، فكلُّهم بواسل وكلهم "عبد الودود" مع اختلاف الميادين، لأن كلًّا تحرك من أجل الحرية حربًا.

أثلجت تلك الكلمات صدر ناي الحائر وصيَّرت حزنه فخرًا

دعاهما عم جلال لتذوق حِمَّـص الشام من عربة تسير على رصيف البحر (الكُرنيش) أمام مكتبة الإسكندرية، حيث تحتشد جموع غفيرة من المتظاهرين الذين لا يكفون عن الهِتاف.

...

عظمة هذه الثورة أنها نقلت ميدان التحرير إلى كل مدينة، حتى الإسكندرية لم تعد هادئةً فقد ضربت المظاهرات شوارعها طوال الأيام السابقة، مظاهرات لا تقل قوتها وحماستها عما يجري في القاهرة.

النيل ملا الشوارع
رايح منها وراجع
النيل كره السكوت
بيهرب م البيوت

ظلوا يتابعون المظاهرات من كَثَـبٍ وظل ناي يستمع إلى كلام عم جلال الذي له وقع السحر على آذانهم، بدا كأنه يغتسل من ذاكرته.. فالبحر يتسع أمامه محتضنًا الكون، وكلمات عم جلال تقع على أذنيـه وهو يرهف السمع إليها، كلمات عذبة جديدة لم يدركها من قبل، كلمات تقتلع الحَسَك من حول عيدان النعناع.

مرت أمامهم مظاهرة تهتف:

"آسفين ياريس!"

سألهما عم جلال:

"أكان الشعب الألماني يكره هتلر؟"

لم ترد جميلة ولا ناي...

"كان الشعب الألماني يعيش أحلامًا نسجها لهم هتلر، وهذا درسٌ يجب على شعبنا أن يتعلمه من التاريخ، التاريخ ليس أحداثًا نتناولها فحسب، بل إنه ذكريات ننظر فيها ونتعلم منها كيف نعيش الحاضر ونقرأ مسبقًا كيف يكون المستقبل، التاريخ آثارُ أقدامٍ نخطو فوقها ونفهم منها أي مستقبل سينتج عن حاضرنا الذي نعيشه وخطواتنا التي نخطوها.

لكننا لا نلوم الشعب؛ نحن نعشق الشعب المصري ولا يمكن أن نخرج عن طاعته حتى إن أخطأ، سيظل هو المعلم الذي يعلمنا نحن -المثقفين- ويعلم العالم كيف تكون ثورةً حرةً سِلميَّة، وغدًا سيعلمون العالم كيف تكون الحياة"

كانوا قد ابتعدوا عن الزحام، عاد بهما عم جلال مجددًا إلى السور الذي يحيط بالماء، ظلوا ثلاثتهم صامتين، كلٌّ في دنياه.. إلى أن قال عم جلال بعدما خرج عن صمته وشروده:

"كيف استطاعت هذه الرؤوس الداكنة أن تُقصِي أمة بكمالها عن أحلامها، أن تمنع بيوتًا من تناول قهوتها في بيوت تسكنها حياة، كيف غُيِّبَ وعيُ أمة؟ كيف رمتنا إلى كل هذا الصبر وكل هذا الموت؟! كيف استطاعت أن تزرع في عقولنا الخواءَ وتزرعنا في السجون والأحزاب الهشة والوجوه الخائنة؟!".

لم ينتظرا ردًّا، عاد يتأمل البحر وغاب عنهما مجددًا وقد غابا أيضًا عنه، كلم ناي والدته ليحكي إليها عن الإسكندرية؛ فرحت ودعت له بدائم السعادة، قال لأمه:

- أتمنى أن تكوني معي هنا وترَي البحر.

- أنا سعيدة ما دمت أنت سعيدًا.

ثم أنهت المكالمة بفيض غامر من الدعوات.

بلغت الشمس الأصيل واحمر وجه الكون وأفسح المجال للغروب الذي يصبغ وجه السماء في أعينهم مؤذنًـا باقتراب نهاية زيارتهما للإسكندرية، قال لهما عم جلال وهو يسير معطيًا ظهره للبحر وهو يهم بالقيام إيذانًا بالوداع:

"إن الحرية قريبة كنجوم الشاعر الساذَج وبعيدة كخطوة المشلول"

مرَّت أمام عيني ناي طفولة غابرة، وقت من الصور المتحركة التي تظهر وتختفي بلا نسق مفهوم، لقطات حية شعثاء، ذاكرة ترتطم بجهاتها كالمَكُـوك، صور تتكون وأخرى تُمحَى تستعصي على "المونتاج" الذي يمنحها شكلها النهائي، شكلها في فوضاها، لكن ناي أحس حنينًـا لهذه الخاطرة التي طرقت رأسه ثم أخفت وجهها!

استقام ثلاثتهم ونظر إليهما الرجل نظرة امتنان وحب وعلى النقيض ارتسمت على وجوههما سِيماء التردد والخوف خشية الوداع إلى أن أوصاهم بألا ينسوا نداء مولانا صلاح جاهين:

اتكلموا اتكلموا
محلى الكلام ما ألزمه وما أعظمه!
في البدء كانت كلمة الرب الإله خلقت حياة
والخلق منها اتعلموا.. فاتكلموا اتكلموا.

ظلوا يمشون في هُيام وتندمج اللحظة المَحظِيَّـة بخفقان القلب وصوت الأمواج اللامتناهي، لحظة يقف فيها الجمال على حافة الكون!
ومن دون اتفاقٍ أو تجهيزٍ غنَّيـا له:

"شط إسكندرية يا شط الهوى..."، فجأةً تحضر فيروز على غير المألوف في كثير من أغنياتها فـصَوتُ فيروز أكثر حنانًا مما يفضل المرء.. كيف استقرت فيروز في وجدان المثقفين والحراثين والطلاب والجنود والنجارين والصبيان والصبايا والعمات والخالات والثوار...؟!

طافت الخاطرة بذاكرة ناي مجددًا وارتسمت الصورة كاملةً أمام عينيه، تذكر جدته لأمه فهو يتذكرها في كل مرة تكلم عم جلال، جدته الشاعرة بالفطرة، التي أفقدتها الأيام بصرها فارتجلت أشعارها ترانيمَ وغناءً ونحيبًـا في أعراس الشارع وجنائزه.

تذكر تمتمات دعائها قبل النوم، دعاء لم يرِد في شعر العالمين ولا نثرهم! تذكر حينما كانت تضعه على فخذيها وتهدهده وتغني له أغانيَّـها لكي ينام ظُهرًا، أغانيها الخاصة بها وحدها، وفي الليل كان يرفع طَرف اللحاف ويصغي إلى موسيقى كلامها فيترك سريره ويندس بجوارها عندما تتأهب للنوم، تذكر حين كانت تلازمه الموسيقى في الصباح وهو في المدرسة، تذكر رنينها على صفحات الدفاتر المدرسية، كانت تمنحه إحساسًا بالأمان يجده في صوت عم جلال.

مر النهار سريعًا خفيفًا إلى أن أزف موعد الرحيل، ودع ناي عم جلال ونطقت عيناه بفيض المشاعر القوية الملحة التي تشكر هذا الفيلسوف الذي رآه طيلة الفترة الماضية متصبرًا بشوشًا مسالمًا لا يئن ولا يغضب، لا يتذمر ولا يتمرد لغير الحق، يبهت صوته عندما ينطق بالحرية والعدل.
إنما هي أمور لم يعرف أحدٌ قدرَها مثله.

رأى عم جلال ذلك كله في عيني ناي ولمسه وهو بين أحضانه فألقى إليه نصيحة مثل الدرة المكنونة:

"أنت إنسان نقي جدًّا، في داخلك مشاعر جمة، لكن... عليك بترويضها وفلسفتها، وسيتأتى لك كل ذلك بالقراءة؛ ذلك أنَّ **القراءةَ مِفتاحُ الأبواب الموصدة في دواخلنا، وأن الكُتُـب قربان الروح**.
أشهد لك بأن الثورة أشرف ما رأته عيناك".

ثم نظر إلى جميلةَ موجهًا كلامه إلى ناي:

"وهذا الكنز الثمين، احتفظ به أبدًا".

تبادلوا كلمات الوداع المخلوطة بمشاعر الألفة، ثم ذهبوا، تقلص آخر شعاع للشمس إيذانًا بالرحيل وهم على وعود بقريب اللقاء.

تنقضي أجمل اللحظات سريعًا كخاطرة ترهف القلب، ولكن الحياة لا تخلو من أمل في لحظات أخرى ما دام في العمر بقية.

في الميدان، في لحظة أبدية كأنها سحابة صيف، ارتفع صوت راسخ النبرات في المذياع يزف إلى الشعب قرار التنحي! هل تمخض الجو الراكد المؤذن بنوم طويل بصاعقة تقتلع الأعصاب من جذورها؟! هل يتطاير المستحيل ويتلاشى كأنه وهم ماكر؟! اندثرت شخصية صفراء هزيلة وحلت محلها روح الشعب الساخرة، تجلى النصر هالة سحرية كمعجزة باهرة تحلق فوق الخيال والتاريخ، صرخ رجل جوارهما من ملء قلبه:

"ينصر دينك!"

تعالت الهمهمات وتداخلت.. الجميع سعداء بهذه اللحظة وغير مصدقين؛ فإنما هو شيء لا يصدقه عقل! ففي بلادنا لا يزيح الرئيسَ عن عرشه سوى الموت، ويبدو أن الناس لم يصدقوا بعدُ أن بإمكانهم أن يصنعوا المعجزات!

"قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس البلاد"

تعالت الصرخات وارتفع الهتاف بكلمات مبهمة لا معنى لها، صرخات وبكاء وفرح، لحظة من التِّيـه اللذيذ، والجميع يركضون ويهللون في غير تصديق.

أخيرًا تحقق الحلم وانزاح الكابوس!

اختلج قلب ناي وأغمض عينيه دقائقَ ثم أفاق من ذهوله؛ شعر بأنه يولد في عالم جديد، شعر بالقيود تنحل عن عنقه ويديه وقدميه، شعر بأن وزنه قد خف وأن نسائم الأمان تهفو إلى وجدانه، وسرعان ما اجتاحه ارتياح عميق وملأه حبور قوي لا حيلة له فيه، وقد بكت جميلة لاقتحام الحقيقةِ قلبَها بقوة لم تعهدها من قبل فلم تشعر بنفسها إلا وهي تضم صدرها إلى صدر ناي...

كان أولَ حِضن وأول لقاء حميمي خارج نطاق الكلمات، تبادلا دفء اللحظة في صمت وبكاء بعد الهتاف والصراخ، تولى الحضنُ وحده التعبير عن كل مشاعر الحب والسعادة، امتزجا في لحظة وردية غابا فيها عن تزاحم الناس وفرحتهم، فجأةً تهبط دفقات الرُّوحانية في خشوعٍ على القلب، لحظات تأتنس فيها الموسيقى بالعشق والثورة فتخرج اللحظة المحظية بالعشق الإلهي، يندمج اللحن في النغم في الصرخة والهتاف فيخلق موسيقى تريح القلب لتذكرك بمنبع الحب والعشق والراحة والحرية...

قال أحد المتظاهرين: "من كان يتصور ذلك؟!"، وقال آخر: "لقد أنسانا كل شيء حتى القدر"، ثم قال ثالث: "لو حكمَنا يهوديٌّ بعده فسيكون أفضل منه"؛

علق آخر: "حان الوقت ليحكمنا واحد منا".

حتى والدته عندما هاتفها فرحًا، استسلمت لطوفان المشاعر المنهمر...

"في داهية، الله يحرقه" ثم أخذت تكررها عدة مرات.

اعتاد الناس أن يروه وحده فوق المسرح، أما اليومَ فقد خلا وليس أمامهم إلا الفراغ ..لا الضياع والذعر، بيد أن الإنسان يحن إلى الحنين، يحن إلى ما ألف أن يراه حتى إن كان سَجَّـانَه، وهذه من غرائب الإنسان!

رغم انقضاء الأعمار فلم يشهد أحد هذه اللحظة قبلًا، كما أن أعمارًا أخرى قد انقضت بغتة من أجل هذه اللحظة، لحظة هبوب النسيم، والقلب يتنفس دون خوف.. من أراد الصراخ فليصرخ، ومن أراد الضحك فليضحك.

انتصرت الثورة ووقعت المعجزة..
ورفع المصري رأسه بعد طول انحناء!

غنَّى المِـذياع احتفاءً واحتفالًا:

مصر يا اما يا بهية
يامُّ طرحة وجلابية
الزمن شاب، وانتي شابة
هو رايح وانتي جاية!

7

مرت مدة على لحظة إسقاط النظام تبـدَّل فيها وجه الوطن، فقد امتلأت الصحف والقنوات بالمعارضين الناقمين وظل أبرز الحضور هم شباب الثورة الذين رُفِعوا على الأعناق يُعامَلون كما الأبطال.

الاحتفاء بهم عارم وشامل، صادق أحيانًـا وكاذب في أحيان أخرى، والأعجب أن تابعي نظام مبارك ورجاله

تحولوا سريعًا إلى ثوار محبين للثورة التي يقولون إنهم من أول المشاركين فيها!

يعتمد هؤلاء على الذاكرة القصيرة للشعب، يحاولون القفز على الثورة والتبرؤ من النظام البائد بمنطق: "عاش الملك مات الملك"، لكن المشهد إجمالًا يحمل على التفاؤل والنشوة؛ سقط النظام وتحرر الشعب وانفك قيده.

"الورد اللي فتَّـح في جناين مصر"، من شعراء ومغنين وكتاب ومطربين، هكذا ظهر ضوء الثورة في قلوب الثوار الذين جمعهم حب الوطن فأظهروا وعيًا عميقًا بأمور السياسة والحياة والمجتمع، طاقة مكبوتة ضاعت وتاهت في غياهب الظلام لكنها أعادت اكتِشاف نفسها بقوة الثورة، ففي ظل وجود حرية حقيقية منذ زمن بعيد تلاشت روحٌ فاسدة مكفنة بالقمع وخلقت رُوحًا جديدة تختال بالحبور والإلهام.

الغناء أصبح للحياة وعن الحياة، قفز محمد منير والفاجومي وأمل دنقل إلى المشهد من جديد، عاد الشعر بقوة إلى المشهد والوجدان المصري أشعارًا ثورية تنشد حبًّـا للوطن والثورة والتغيير، القوة هذه المرة فعالة غريبة طارئة مبهمة، حلم تجديد الوطن سيتحقق في وقت قريب، متاعب الحياة ستخف يومًا بعد يوم، حتى أحزان الناس الخاصة ستذوب في النشوة الكاملة!

تَطوَّر الثوار في أحاديثهم من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، فالآن قد عَرَفوا الحياة والناس كما عرفوا الوحشية والعذاب، استمدوا من الشباب قوة أشعلوا بها شمعة في عالم يموج في الظلام، تحول الإحباط تِـلقاءَ المستقبل إلى تفاؤلٍ مَبعُوثُه حاضرٌ نصنعه بأيدينا.

عاد من كانوا يلعنون الوطن إلى رجائهم فيه، عشاقًا يتمسكون بالأرض والتراب وذلك بعدما اشتموا رائحة الأمل تفوح في الأُفُقِ تحملها رياح الثورة الهَفهافة.

تصدَّر الشباب المشهد الإعلامي والسياسي بصورة لم تكن متاحة فيما مضى، يحملون مطالب وأحلام في مقدمتها القصاص للشهداء الذين ضحَّوا بأرواحهم ليُبعَث الوطن من جديد.

ثورة بدأت بمبادرة من الشباب ولكنها جرفت في طريقها حركة شعب بكل طبقاته وهمومه وأشواقه فتحولت مصادفةً إلى نفحة مجنونة.

لم يعد الحكام آلهة ولا أنصاف آلهة، بل هم بشر عاديون يصيبون ويخطئون وفى النهاية يجب أن يحاسبوا.

لعلها رحمة الله وحبه لهذا الشعب، مبارك يرحل رغمًا عنه، رحل ورحلت معه كل الأوهام التي سهلت طريقته في الحكم والتفكير والحياة التي أشاعها نظامه في هذا الشعب وعنه، لم يعد شعبًا فوضويًّـا كما يزعم الحكام، فشعب "همه على بطنه "لا فائدة منه.. خانع.. طائفي، رحل بأيدي الثوار الباسمين والثورة الباسمة.

لحظات أظهرت براعةً وجمالًا وخفة ظل من الشعب الذي أعطى درسًا لا يُنسى للعالم في كيفية إشعال ثورة سلمية ساخرة، دائمًا ما تتسم التظاهرات والانتفاضات بالعنف والدم أمَّـا الثورة المصرية فمعظم شعاراتها كانت ساخرة، فقد تفنَّـن المواطنون في السخرية من النظام!

نحن شعب إذا خاف ضحك وإذا حزن ضحك، شعب يضحك في الجنائز، يبدو أن الضحك هو الأمل الوحيد الذي نتشبث به لكي نتمسك بالحياة.

رحل مبارك وأخذ معه كل الركود والرتابة والملل، الآفات التي جعلت كل المعاني تنتحر!

زهزهت ألوان العَلَـم والأغاني الوطنية التي لم تعد مسخًا، الكتب والأشعار والبلاغة والنكتة والدموع والحرية والسياسة والفلسفة، كل شيء عاد كما خلقه الله خلقًا جديدًا أمام أعيننا مثل فرحة الأب بمولوده الأول فكأنه خُلِـق من رحم مجهول، أخيرًا أنجبت الأم العظيمة ولدًا عظيمًا!

بات على الناس أن يعيشوا بحَقٍّ قبل أن يموتوا، ولتعش مِصرُ إلى الأبد!

الآن تستحق مصر أن تعيش دون وجوه قديمة ملتبسة شاركت في نهب البلاد ولو بالصمت المخجل، لم يعد الأمل كذبة ولم يعد الحالمون مراهقين مجانين، عاد الأمل وهو يحلف بحياة هذه الحياة كأنه يقول:

"وَحَياةِ النعمة التي يعاني الفقير ليطالَـها، وحياة بحر الإسكندرية وهوائها، وحياة الأمهات اللائي خلَّين صلاة الفجر يومًا آملاتٍ اللَّحاقَ بساعة توزيع الأرزاق دون يأس أبدًا من تأخر وصولها، وحياة قصص الحب التي لم تنهزم، وحياة خيال الأطفال وواقعية الآباء الذين لم يكسر الفقر هيبتهم، وحياة الزرع الأخضر الذي يؤمن شريط القطر، وحياة ضجيج ماكينات الطعمية وعجيجها، وحياة شاي العصاري في البلكونات النضيفة التي لم تبهدلها الكراكيب، وحياة المقاهي المزدحمة المجلجلة بصوت خشخشة الطاولة وقرقرة الشيشة، وحياة منير وأنغام وعايدة الأيوبي وصوفية نجيب محفوظ وسخرية جلال عامر وخيال أحمد خالد توفيق وترقيصة أبو تريكة، وحياة أبناء مصر جميعًا...

إنها ستُرزَق بصباح تستحقه وسياسيين يليقون بمقامها وثوار يناسبون أحلامها وفقراء يعيشون على الكَفافِ دون أن يفقدوا الكرامة والستر!

_سوف تعود مصرنا قوية تحترم كرامة الإنسان وحقه، مصر التي نحلم بها منذ سنين، تعيش قطعةً كاملةً من الماضي الذي كان يحدث فيها، وخصوصًا فلوله -وفي مقدمتهم الأفاقون المنافقون- الذين يراهنون دائمًا على ضعف ذاكرة الجماهير فيتقافزون من طريق إلى آخر حَسَب مجريات المباراة السياسية.

هؤلاء الذين تحولوا مصادفةً إلى ثائرين يَهجُونَ عهد مبارك الذي -حسب رأيهم- قد ساده الفساد والظلم والزيف والنفاق، كأنهم يتكلمون عن أناس غيرهم، يمتدحون ثورة يناير التي أنقذت البلاد من مبارك ورجاله، رغم أن فنانين ومطربين وصحفيين وإعلاميين ونجوم كرة سابقين أفنوا أوقات برامجهم في مدح الرئيس الأب وأيامه ولياليه.

لم تعُد مصر القديمة التي لا تعرف سوى الأغنياء، بل هي وطن حر يسعى إلى التقدم والتمدن، وطن لا يفرق بين مواطنيه حسَب الدين أو الجنس والعرق، وطن ينحاز إلى الخيال على حساب الواقع الأسود وأنصاف الحلول، فالأوطان الكبيرة لا تبنى إلا بأحلام عظيمة، كحُلمٍ بمصرٍ لم نرها مُذ حَكَم العسكر البلاد، لعل أبشع جريمة ارتكبها العسكر أنهم جعلوا هذا الشعب لا يحلم؛ صيروه شعبًا بلا أمل وبلا حلم فلم يكن من بُدٍّ من أن ينتهي الأمر بثورة.

لم يغب عن المجال العامِّ أن انفلاتًا أمنيًّا لاح في الأفق كأنه غيوم تلبد سماء الأيام الحالمة، لكنها مرحلة ضرورية.. مرحلة تطهير الجرح وإخراج الصدأ والتلوث الذي ضرب المجتمع.

لا ثورات من دون تضحيات، وقد عشنا ثلاثين عامًا بلا سياسة ولا حياة، "سياسة إيه يا ناس يا طيبين؟!"، أي سياسة نتكلم عنها ونريد من هذا الشعب غير المُـسيَّـس أن يمارسها؟!

لو كانت هناك سياسةٌ لما كانت ثورةٌ من الأساس، ولحَدَث تفاهم بالعقل واللسان، لكن بما أن العنف والإرهاب من الأعمدة التي ارتكز عليها الحكم فلا بد من إرهاب وعنف يقومان في الناس بنوع خاص.

شباب تُرِك لأيدي تجار الدين وتجار المخدرات عقودًا طويلة- ماذا يُنتظر منه؟ لا شيء بالتأكيد، إلا أنهم الآن على أبواب حياة جديدة يفترض أن يهتموا فيها بالسياسة والدين والحياة، قد يكون منهم الوزير أو الرئيس أو الكاتب أو المطرب، لكنَّ هذا يتطلب من العمر عمرًا فهلّا صبر عليهم أحد!

ثلاثون عامًا عمر طويل ماتت فيه كل الأزهار الطيبة، هاجرت كل الكفاءات العالية، مات الموهوبون أو دُفِنوا أحياءً، لم يبق في الحكم سوى الانتهازيين البيروقراطيين المدربين على "حاضر يا أفندم"، "سيف المُعِزِّ وذهبه".

وشرفاء القوم يموتون جوعًا أو يبيعون ذممهم وضمائرهم بثمن بخس لـنَـيـلِ الكفاف ليس إلا.

كان رؤساء الهيئات والمؤسسات الحكومية -وبخاصة الإعلامية منها- يمتلكون هم أنفسهم مؤسساتٍ إعلاميةً خاصة بهم، يحركونها تلقاءَ مصالحهم الخاصة، حتى صار لمدة ثلاثين عامًا أول أخبار الصحف والإذاعات هي تحركات الرئيس وإنجازاته الوهمية ومن بعده رجاله.. وليحترق العالم!

 إن هذه الحكومة الغنية نجحت في خلق شعب من أكَلةِ العيش المسالمين؛ كلٌّ يقول: "يلا نفسي".
لقد نُفِـيَ الشعبُ الحقيقيُّ وأُوجِد شعب آخر يريدونه هم، شعب لا شأن له بأي شيء، مشغول في لقمة العيش ومأواه وملبسه ونصفه السفلي ليل نهار...

سريعًا انكشفت لناي هذه الحقائق التي لم يكن يعلم عنها شيئًا ولم تكن تعنيه من الأساس، لعله أحد أولئك المفعول بهم فانغمس فيها بعمقه من رأسه إلى أخمَصِـه.

اعتزل مشاهدة كرة القدم التي كان قد أدمنها، التي اكتشف أنها وسيلة لإلهاء الشعوب عن الحقيقة ثم أدمن دينًا جديدًا اسمه الثورة.. الشيء الذي بات يخلد اسمه وسيرته ليلَ نهار، يتابع أخبارها ويقرأ عنها، يحب محبيها ويكره كارهيها ويدافع عنها بملء قلبه ووجدانه!

لم يكن هو الوحيد على هذه الشاكلة، لكنه من أكثرهم حماسة وتعصبًا للثورة، هفه هواها فترك مدينته وقرر أن يعيش هناك في القاهرة، مدينة الزَّخْم، بهرته الحياة الصاخبة فيها فقرر أن يذهب إليها ويرتمي بين أحضانها، شعر بأن لا شيء يستطيع أن يمنعه عن الحياة التي دبت في باطنه.

فبمرور الأيام تولدت له أحلام، أن تكون مصر كما يجب أن تكون وأن تنفكَّ دولة العُجُـز...

هذا النوع من الطموحين أمرهم مقلق لميلهم إلى المغامرة، لعل أسوأ جيل هو ذاك الذي انشرخ بين زمانين متناقضين أشدَّ التناقض، لا تفصل بينهما سوى هوّة قصيرة كتلك التي يَهوِي فيها نجم أو يحترق فيها كوكب، مثل الجيل الذي ولَد على نصر أكتوبرَ لكنه ما كاد يحلم حتى خذله السادات بالمعاهدة الخائنة.

لم يكن سفره طيشًا أو نزقًا لكن بحثًا عن الاستقلال الذي شعر بالراحة فيه، التصرف بحرية يتوق لها، حيث يفعل ما يشاء دونما رقيب اجتماعي، أن يمتلئ من الثورة ويعيش أحداثها بعدما أغرته حياة الكتاب والمثقفين.

جذبته جميلة إلى دائرتها، صادق أصدقاءها فأصبح ضمن زمرتهم واختصته بمعاملة خاصة واضحة، تشاركه كل تفاصيل حياتها التي لا يراها سواه، أعجبته الحياة الجديدة فانجذب إليها أكثر فأكثر، وقد كان يقضي معظم النهار في صحبة جميلة، حتى إذا افترقا أكملا حديثهما على منصات التواصل الاجتماعي.

دفن نفسه في صخب الأصدقاء وتنقل في بطانتهم الدافئة من الميدان إلى الشوارع إلى المقاهي إلى حفلات الشعر، يأكلون ويشربون ويتنفسون سياسة ويمدونه بزخم الكتب.

رويدًا رويدًا صار قارئًا نهمًا لا تُروى له غَلَّة، أقبل على القراءة كظمآنَ وجد بئرًا وسط الصحراء بعد أيام من العطش!

لقد أدمن على القراءة إدمانًا قاتلًا استعرت حياته في باطن القراءة وظاهرها وتركزت فيها مشاعره ونوازعه وآماله، أسلم نفسَه إلى عزلة عقلية وقلبية ملهمة كي يعوض ما فاته من أيام بعيدًا عن هذه الحياة الحافلة بالمتعة والألق، جعل يزينها بزمرة الأصدقاء والجو الرُّوحاني الذي يحبونه فانشرح صدره وتحلَّب فمه وأخذ يستلذ ويستعيض بالكتب والأصدقاء والحب على وعثاء الحياة!

ليس من شيءٍ أجمل من أن تجد نفسك التي تريدها أنت لا التي يريدها الغير؛ فالسعادةَ الحقُّ مزيجٌ من الإحساس الخفي بالسعادة والنشوة والرضا والتقرب إلى الذات.

سوف تتغير نظرتك إلى الحياة، قد يدعونك مجنونًا أو ساذَجًا وفي الحقيقة هم معاتيه المظاهر، يجهلون كُنهَ المعاني التي ترنو إليها النفوس، لا يدركون أن مغامرة الإنسان الوحيدة هي الذَّهاب إلى ذاته.

أحب القاهرةَ من الكتب ولم يمنع نفسه من التلفت إلى العمائر القديمة أوروبية الطراز، يقارن بينها وبين العمائر العصرية التي لا يميزها إلا الارتفاع وليس فيها زخارف العمارة الأوروبية فيدرك إلى أي مدًى انحدر الذوق العام، يتذكر كلمة عادل إمام في فِلم "عمارة يعقوبيان":

"إحنا في زمن المسخ"، والمشهد برمته يعبر عما آل إليه الوضع.

لقد جذبه جو المقاهي الأثيري، ففي القاهرة الجَـوُّ أكثر لطفًا وألقًـا من جو الصعيد.

أَلِف العيشَ وحيدًا رغم انحطاط الغرفة التي تأويه وأحس راحة تجاهها على أية حال، يتطلع إلى الأيقونات المعلقة على الجدران، عندما تضيء إضاءتها الضعيفة يعطي جوها مع مشهد الأيقونات إحساسًا بالراحة والقداسة، والأهم تلك النافذة المطلة على شارع كلوت بك، تلك النافذة التي يتسرب منها الضوء الذي يغمر الغرفة نهارًا فيمكنه من القراءة، في لحظات التأمل يطل منها على الناس والشارع، يتابع حركة المارة الذين يمرون جوار المقهى الرابض أسفل النافذة، منظر يذكره تمامًا بشرفته التي تطل على شارع القيسارية في بلدته.

ترك نفسه لجميلة وأصدقائها، لم يترك هو وجميلةُ شارعًا إلا باركاه، وعندما يحل المساء يفترقان، تعود إلى مسكنها على حين يتسكع هو إلى أن يصل إلى غرفته، يستحِمُّ ويبدل ملابسه ثم يستلقي آخذًا في القراءة إلى أن يتصل

به أحد الأصدقاء، يصطحبونه إلى الندوات الشعرية واللقاءات الثقافية، حفلات الغناء في ساقية الصاوي تحديدًا، يجلسون في مقهًى إلى أن ينتصف الليل، وهنا يبدأ ناي طعمًا جديدًا ليومه بحيث يقضيان وقتهما في خمارة.

في القاهرة خمارات كثيرة وشوارع أكثر، فكان يترك نفسه إليها لتحملهما الشوارع الهادئة في سكون الليل، فقد حل هدوء مكان الزحام الشديد على الأرصفة في نفس الشوارع، زحام لم يعتده لكنه يتقبله في لطف، يتأمل الباعة خلف عربات اليد ذوي البضائع الصِّينية الرديئة الصنع التي تملأ الأسواق.

في الماضى كان يلعنهم ويلعن الضجيج الذي يخلفونه، لكنه الآن، بعدما أدرك الحقيقة وبرقت أمامه حقيقة أنهم أناس مستهلكون مجبورون على هذه الحياة دون وعي منهم، يعذِرهم ويلعن من أضاعهم وأضاع الطريق والحق والحقيقة.

في بداية الأمر أخافته هذه الأجواء السريعة المتداخلة الصاخبة، لقد قضى معظم حياته يسير جوار الحائط، لذلك أربكه قليلًا ذلك التبدُّل المفاجئ في وتيرة الحياة لكنه قال لنفسه:

"هي حياة جديدة؛ عِشها بصخبها وضجيجها إلى أن تنتهي هذه الفترة وأعود إلى الهدوء والرتابة"

بَيدَ أن وجود جميله قد جرأه على ذلك القرار، فكل الأوقات في صحبتها ممتعة بالنسبة إليه إذ يتمُّ بينهما انسجام روحيٌّ في وسط الزحام وتضمه جميلة بعينيها ليطمئن...

كانا يذهبان كل يومين إلى سور الأزبكية يطالعان الكتب ويقرآن العناوين، قد لا يشتريان، لكنهما يجدان معًا متعة لذيذة في رؤيتهما الكتب.

قالت له جميلة:

"أرى فيك أبطال روايات الكُتَّـاب الذين أحِبُّهم، المسيري بطل زهرة الليمون لعلاء الديب.. ورواية الأم لماكسيم جوركي.. هذه الرواية الشيوعية التي جعلت أحمد فؤاد نجم شاعرًا ثائرًا".

قرأ عن الكُتَّاب الذين لا يفيقون من الخمر ولا ينقطعون عنها ليكتبوا، قرأ كثيرًا لكُتَّـاب يصفون الحشيش ولحظاته الأثيرية، وكان يتمنى لحظتها لو فعل مثل أبطالها؛ لكنَّ وحده الحَذَر كان يمنعه.

قرأ لسارتر وسبينوزا وماكسيم جوركي وكارل ماركس وفيكتور هوجو، وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وسلامة موسى وجلال الدين الرومي، وعلاء الديب وإبراهيم عبد المجيد وبلال فضل، وخيري شلبي وإبراهيم أصلان وعمر طاهر...

بمرور الأيام صار متابعًا جيدًا للصحف والبرامج السياسية، فعرف يسري فودة الذي عَرَف من خلاله أمل دنقل ومحمود عوض ومحمود درويش.

اختص أمل دنقل بحب عجيب لما رأى في نبرة صوته من وقار أبناء الصعيد؛ تخترق كلماته القلب وتزيح كل غم لتجلس مكانه منتشية، كان يصوغ أشعاره أزهارًا تفوح منها رائحة الإنسان.

توغل أكثر في دنيا السياسة، هذه الحياة التي لم يكن وطأ فيها قدمًا، لكنها الآن خليقة بأن تكون حياته الجديدة التي

يمتلئ فيها قلبه بالنشوة وتغوص رُوحُه في عالم مضيء ينبثق منه نور يضيء ليل الوَحدة الحالك، يتدثر بلحاف بلوريٍّ منسوج من خيوط التقرب إلى الذات والهيام والإلهام!

لقد بدأ يدرك قيمة الجمال الذي بداخله، فحقيقة الإنسان أنه مخلوق مائل إلى المتعة لكنَّ عليه أن يتجرد من عقله ويترك روحه تهيم في طريق ترسمه لنفسها في نفسها وتعزف موسيقاها دون التفات إلى قيود الناس، إلا أنه لا يميل إلى الوحدة، حيث يعشق الإنسان أن يكون جواره إنسان يشاركه أفراحه وأتراحه، يأتي مصادفة من غيرِ ما ترتيب أو معرفة ليعطي الحياة طعمًا جديدًا، روحًا تضاف إلى روح.

"الحب الذي لا يهتم إلا بالجمال الجسدي ليس حبًّـا حقيقيًّـا"

جلال الدين الرومي.
صار يتودد لأشياءَ لم يكن يحن إليها ولا يقبلها من قبل ويُظهِـر حنينًا غامضًا للأشياء في كل لحظة، حنينًا مفعمًا بنظرات عيونه التي تنطق عشقًا.
تبسطت رُوحُه في داخله مثلما تبسَّـط منظره من الخارج، يعيش السعادة في كل لحظة وكل خطوة وكلمة وابتسامة، ولا يخطو خطوة إلا تَتْبَـعُها متعتها.

ظل يود لو شاركه الناس هذه السعادة المجانية المتجلية في قلبه بلا كلفة أو بَـذَخٍ ويحمل على عاتقه همَّ إدخال الراحة في قلوب الناس، لم تكن راحته نفسية فقط بل كانت رُوحية أيضًا.

ظل يتذكر الأبدية ويستعدُّ لها في كل لحظة، تفجَّـر الحب بداخله حتى كان أولُ ما وقع فيه من الحب حبَّ ذاته وحبَّ

الحياة؛ وبالتبعية تحمل الحياة في طياتها حب الناس والأشياء...

صار يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه أحد، ويحكم على نفسه قبل أن يُحكَم عليه.

دعا في أثناء صلاته قائلًا:

"يا ألله، إله المدى إله الشمس والقمر، النهار والليل، إله الفقراء والأغنياء، إله الناس فتافيت الماس، أعطني القدرة على ما تهفو إليه روحي!"

سمع حكاياتٍ مخيفةً عن مهالك السياسة ولكن هذا لم يوهن من عزيمته، يخوض التجربة بخبرته القصيرة بالحياة والناس، تشجَّع بـنَـزَق جيل كامل أظهر وفاءً وحبًّا وعشقًا للثورة والوطن والحرية وأسكرته نشوة متحفزة للمغامرة فدق باب المجهول وعلَّم نفسه أن الحياة شبيهة بما يحوم بخيالـه.

تلقيناها وهي مثال للأمان حتى بعد الموت، ثم تكشفت لنا عن مجهول جليل واحتمالات مبهمة وما زلنا نعشقها ونتعلق بأذيالها حتى الموت.

المجازفة تحمل بعض أسرار الوجود، لكن الماضي يتمثل لبعض الناس كأنه الحقيقة الوحيدة الراسخة، وتمثل له ذلك في أصدقائه القدامى الذين لا يتقبلون ما طرأ عليه من تغيُّر في سلوكه وسماته الشخصية ومظهره، يقرؤون ما يكتب على صفحته فيشتمونه!

يشكو ذلك إلى جميلة فتهدئ من غضبه وسخطه وانهزامه أمام نفسه معللة ذلك بغيرتهم وحقدهم على توهجه وتألق شخصيته التي أصبحت تلفت إليها كثيرين، ليرتد قويًّـا فتيًّـا متأثرًا بكلمات جميلة التي تلين الحجر.. وتطيب الخاطر.

ينتشى عندما يسمع إطراءَ جميلةَ على شخصه، ويدرك في داخله أنها سبب مجيئه إلى القاهرة.

وجد الراحة عند الأصدقاء الجدد وعند جميلة خصيصى، كلمة منها تجعله يطير هائمًا، ينظر إلى نفسه نظرة فخار، يتأملها، تلك الناعمة المستكينة المهذبة المجنونة المتمردة الغارقة في الطمأنينة رغم ما يفور داخلها من ثورة ملهمة لأحلام الحب السعيد تسود وتفوح كالشذا في أعماقه، فتشكل بضعفها المنساب أمامه طاقة مسيطرة بعون الإغراء والرغبات الدفينة فتتجسد أمامه صورةٌ لأمنيَّةٍ عذبةٍ غامضةٍ منعشة للروح مبدعة للألفة الحميمية إذ يقول لها:

" أنتِ نعمةٌ لم أطلبها من الخالق"

ظل يتمادى في الألق ويلتهم الكتب ليلَ نهارَ، أثارت روحَه كتبُ الدكتور مصطفى محمود بما يحمله من ذكرى لموسيقى برنامج العلم والإيمان الخافتة، لم يكن يعرف عنه الكثير سوى أنه الرجل الذي أنكر وجود الله مثله مثل جميع المصريين الذين لا يُسخِّرون أسماعهم إلا للتُّرَهَات.

لم يختر هذه الكتب إلا بالمصادفة في مكتبة عتيقة في شارع من شوارع القاهرة المتداعية، مكتبة يشغلها التراب أكثر من الكتب، جذبه عنوان الكتاب فاشتراه ثم جذبه أسلوب الكتاب المبسط وخفة ظل القصص فأخذ يشتري ما تيسر أمامه من كتبٍ لمصطفى محمود.

لحسن حظه قرأ مبكرًا لهذا الفيلسوف الذي تضج كتبه بالجمال والصوفية والرهبنة وسَبْر أغوار النفس البشرية وتحليلها والدخول في أعماقها ومحاولة تنظيفها من الأهواء والأوساخ والصدأ الذي لحق بها على مر التاريخ.

تأثر ناي بذلك أيما تأثر، صبغته الكتب بالجمال الذي تحويه فظل يرتقي داخله بصورة ملحوظة دهَشته من نفسه، اكتشف إنسانًا بداخله لم يكن يعرفه وانفتحت عيناه على حياة لم يكن يعرفها، حياة تمور بالحب والخير والجمال والحق والحقيقة والفلسفة، يقرأ وينظر إلى السماء وهو يخرج أنفاس الراحة من صدره ويقول:

"أنا حُرٌّ كتلك السحابة في السماء، حُرٌّ كليًّا"

يغمره الدفء والهدوء مجددًا فيأخذ أنفاسًا عميقة ويُحدِّث نفسه:

"ستكون بخير، ما عليك إلا المضي قدمًا في هذه الحياة الحافلة بالمتعة.
صادِق نفسك تصادِق الحياة؛ وهأنذا من داخل الصندوق الذي يحويني وقد أغلق عليّ (علينا!)، أُغلِق بإحكام تمامًا مثلما أردت وبذلك أجد نفسي حيث أنتمي".

لم تكف جميلة عن تأمل وضع ناي، رأته صبيًّا تمضي حياته كالقطار السريع، يمر خطفًا من مواليدَ يطلبون المِرضَعة وتغيير القِماط المبلل لطفل يُكوِّن جملًا مفيدة، يقول نعم ويقول لا، لكنه يقول لأنه اكتشف نفسه وإرادته ليس إلا.

في غمضة عين أصبح نَـزِقًا ذا رأي وكلمة وصوت عالٍ يحبه الجميع، يتابع كل كبيرة وصغيرة وألْفَ شيء بينهما لأنه هو من يريد ذلك.

كان يذكرها بالنبي موسى؛ فلو لم تُخرِج ابنةُ فِرعَونَ سلةَ موسى الطفلِ من الماء لما كان العهد القديم!

تتأمله مبهورة وتتساءل:

"ماذا حدث لناي الذي بقي بالصدفة البحتة على قيد الحياة مثلما بقي نبي الله موسى؟! كيف تحول من شاب عاديٍّ لا رأي له ولا موقف.. إلى صاحبِ قضية يحارب لأجلها؟!".

لقد دعا شمس التبريزي مولانا جلال الدين الرومي إلى الخلوة التي أدت به إلى أن يكون زاهدًا متصوفًا، يقرض شعرًا تذوب فيه القلوب حبًّـا، علمه الفناء في روحه بعدما اختلى به أيامًا فعاد مولانا جلال الدين روحًا أخرى ورجلًا آخر، عاد نبيًّـا شاعرًا يَنشُدُ التَّقوَى والخلاص بالحب والرقص والشعر والموسيقى.

بهذه السرعة رفعت الكتبُ والثورةُ والأدبُ والفلسفةُ الصدأَ من فوق الأرواح، صاروا متألقين مبهورين على الدوام، فمن يتابع حركة الشباب وأداءاتهم قبل الثورة وبعدها فسوف يشعر بالفارق الكبير.

تحولت مواقع التواصل الاجتماعي إلى مأدُبةٍ سياسة وفنية وأدبية، الجميع ذوو رأي سديد، أصبح للحب وللفن مكانٌ وطغت السياسة على الرأي العامِّ مُغلّفة بالفلسفة.

عادت القراءة ملكًا للجميع وليست حكرًا على النخبة والمثقفين، قرأ ناي "الوجود والعدم" و"سيكولوجية الجماهير"، "أحجار على رقعة الشطرنج"... بهرته روايةُ "المسيحُ يصلب من جديد" مثلما بهره بلال فضل وعمر طاهر لفهمهما المبسط الرشيق لدهاليز الروح المصرية الشعبية.

تفوَّق ناي في معرفته وثوريته على جميلة التي لم تعد تستطيع أن تعيش من دونه! لكنها ظلت تسأل نفسها:

"أهذا حبٌّ أم أنه تعلقٌ أو إعجابٌ عابرٌ مُجرَّد؟!"

لا تعلم معنًى لما كانت تشعر به، لا تدري أكان حبًّا أم ارتياحًا أم شيئًا ثالثًا عالقًا بينهما!

سألته ذات يوم بعد نِقاشٍ دار بينهما أدى إلى شجار:

- ما الحب؟

-لا أعلم، كل ما هو جميل لا يمكن وصفه، لا ندري أهو حالة أرضية أم صوفية خالصة أم أنه برزخ لا يمكن وصفه...

- أنا لا أحتمل أن أراكَ حزينًـا.

- وأنا آسفٌ أني أغضبتُـكِ يومًا.

- في العشق.. كلمة آسف أغبى من كل الأخطاء، فليس بين العشاق مكان للاعتذار.

-لا أعرف كيف أعبر عما بداخلي، كل ما في الأمر أني لا أستطيع أن أعيش من دونك، لا أستطيع أن أحيا بلا أمل!

- لكنك تستطيع أن تعيش من دوني!

وضع كفه على فمها كي لا تكمل...

- لا، لن أستطيع؛ الحياة تقف على من نُحِبّ، تقف وتموت خصوصًا إن كان من نحب هو أنتِ.

أنتِ معجزة لا تتكرر، نفحة إلهية، كنز لا ندري له نهاية، زهرة تزين وحشة الحياة الكالحة، تبدلين الأسود إلى أبيض والرمادي إلى بهجة.

...

ما إن رآها أولًا كان قد تأكد من أنها هي، هي التي أرادها دومًا ولم يكن يعثر عليها، يظل الإنسان تائهًا إلى أن يعثر على ما تشتهيه روحه، نعرف قيمة الحب عندما نتذوقه، هي التي بحث عنها في كل فتاة، بالضبط هي بكل ما يحب

في النساء وقد تعلم ذلك معها، فهي من تحتويه وتأويه وتُشعِرُه بوجوده وكينونته، تكمله وتجدد ثقته في ذاته وتسد بحبها له الثغرات.

يعيش المرء طفلًا يبحث عن مأوًى له إلى أن يجد الحب، ثم يتحول بعدها إلى راهب مخلص.

في الحب يبيت الرجلُ أكثر تفانيًا والمرأةُ أشدَّ عطفًا.

من النظرة الأولى كان قد قدَّر أنها هي -طال الزمن أو قصر، شاءت الظروف أو لم تشأ- فمن الوهلة الأولى تخيل قصتهما معًا وقد كشفت لهم بعض الأضواء عمَّا سيأتي من أحداث بينهما.

قال ناي:

"لم أكن أومن بالحب من النظرة الأولى، أن نحب شخصًا لا نعرفه، نراه مصادفة يمر في شارع الحياة فيصير هو الحياة!"

ابتسمت جميلة ثم راحت تلقي معه كلمات قصيدة "لاعب النرد":

كان يمكن ألا أحب الفتاة التي سألتني كم الساعة الآن
لو لم أكن في طريقي إلى السينما..
يا حب نحن نحبك حين نحب مصادفة
أنت حظ المساكين.

الحب هو التفسير المنطقيُّ الوحيد لعلاقة ناي بجميلة، فهذه اللحظات التي جمعتهما لا يعيشها إلا العشاق!
هو الحب الذي يجمع المُتشابهَينِ في الروح وفي كل شيء حتى الأماكن التي يترددان عليها، فقلما تجذب سواهما.

لا يحتاج الحب إلى مجهود لكي يعيش العاشقان، وهذا سبب هروب كل منهما إلى الآخر.

لقد تداخلت أنفسهما في الشوارع المهجورة والمتاحف القديمة والمقاهي البسيطة. صارا يجدان المتعة التي يشعران بها أمام لوحة حزينة أو مقطوعة موسيقية نابعة من القلب. اكتشفا معًا المتعة في الأغاني الثورية وشجوية أمل دنقل، وقصيدة الكمان التي أصبحت راية الحب بينهما والميثاق الذي اتفقا عليه، فكثيرًا ما أسمعتها جميلة لأصدقائها لكنَّ ناي وحده الذي أحبها كما أحبتها، تعلقا بها وتأثرا نفس ذاك التأثر الذي شغل قلوبهما.

قال أمل دنقل لزوجته الكاتبة عبلة الرويني في أول لقاء بينهما:

"حذارِ أن تحبيني!"

لعل رُوحَه أدركت وِجهتها من المقابلة الأولى، فما الذي يدعو فتاة أرستُقراطيةً أن تحب شاعرًا صُعلوكًا لا يُعرَف له بيتٌ أو مأوًى سوى الحبّ ذاته؟!

الحب يساعدنا على العثور على من ندعوه لتذوق الجمال دون أن ندعوَه! نعيش معه لحظاتنا الخاصة التي ما عرفناها إلا معه، نعيش التنعم بفنون الدنيا التي تجمع العاشقين، فبينما ينحرف العامة في ذوقهم وفكرهم يحاول ناي وجميلة الانسلاخ من ذلك القطيعِ بالشعر والأدب إلى نورٍ أرقَى ونواحٍ مفعمةٍ بالحياة...

حين تبدو السماء رمادية
وأرى وردة نَتَأت فجأةً
من شقوقِ جِدار
لا أقول السماء رمادية
بل أطيل التفرس في وردة وأقول لها

يا له من نهار

إنه الحب، حب الإنسان للإنسان، هو في حد ذاته يقوم في النفس من غير أن تعرف لماذا قام!
مُضحِـكٌ أن تسأل عاشقًا: "ماذا أحببت في نصفك الآخر؟!".

إنه لمن السخرية أن نقرأ في قصص الحب أن البطل قد غرق في حب البطلة بشعرها الأسود وعيونها الزرقاء ذات الرموش الطويلة، فذا هُراءٌ وخرافة، نحن لا نفضل إنسانًا على آخر لأن ملامحَه أجمل، ولا نحب فتاة لعيونها والتفاتاتها الجريئة!

إننا نحب في الإنسان الشيء الذي لا نستطيع تحديده فيه! هل يمكنك أن تصف لي لون الماء أو الهواء؟!
سل من أحب: "ماذا أحببت في رفيقك؟!"؛ واطمئن إلى أنه لن يجيبك.

اعتادا أن يسيرا معًا كل يوم إلى ميدان التحرير ويلتقيا بعضَ الأصدقاء ولكنهما سرعان ما ينسحبان ليتمشيا في شارع قصر النيل وهي ترتدي فساتينها القصيرة الجريئة.. والعيون تحاصر البنات اللاتي يسِرْن على الرصيف وقد تعرَّت سيقانهنَّ الطويلة وأفخاذهن المشدودة، لعلَّ البناتِ قد صِرن أكثر انطلاقًا مما مضى!

كانا يمشيان ببطء ويصطنعان اللامبالاةَ للعيون المُحدِّقة والتعليقات الجريئة التي تصدر من المارة والسيارات، وعندما تمر إحداهنّ بناي يظل ناظرًا أمامه، ولكنَّ جميلة تلفت انتباهه بحيث تتطلع إلى وجهه فيزداد ارتباكًا.
تضحك فيسألها عن سبب الضحك، تكمل ضحكتها وهي تضع يدها على فمها فيعلق غاضبًا:
- لماذا تكتمين ضحكتك؟!

- يعجبني منظرك وأنت تتظاهر بأنك لا تنظر إلى البنات!

- أنا لا أمثِّل! خلق الله الجمال كي نستمتع به؛ لذا عندما أرى فتاةً جميلةً أنظر إليها بعيني، أما قلبي ففي مكان آخر...

تأبطت ذراعه قائلة:
- هذا ما يهمني

ردّ عليها ضاحكًـا:
- أنا أيضًا لا أشعر بنظرات الشباب إليك، بل ذلك يجعلنى أكثر فخرًا بأنك لي، جمالك وذوقك اللذان يعجبان السائرِين.

يضحك ناي في خجل وتضغط جميلة على يده ثم تُطرق أمامها في صمت وسرور وهي تتأبط الكتاب الكبير "أَنا كارنينا" لليو تولستوي.
كانت تصرفاتها مرحة بل ربما كانت صاخبة، وكانت عيناها دائمًا تنطق بما يعتمل في قلبها، أما هو فقد كان دَهِشًا لأنه يتصرف بخلاف مبادئه.. إنه لا يعلِّق على فساتينها القصيرة على عكس ما أحب!

عادت تتساءل مجددًا:
- ألا تعجبك الفتيات الجريئات؟!

- نعم! ولكن...

- ولكن ماذا؟!

- ولكنَّ هذا استفزاز!

- لماذا؟ هل رأيت صور الفراعنة وزوجاتهم؟ كان المصريون القدماء منتهى التقوي بالمناسبة!

- هؤلاء هم المصريون القدماء.. أمَّـا المصريون الحاليُّون فقد انهارت أخلاقهم وتغيرت قيمة المرأة في أعينهم، نحن الآن في القاهرة الجديدة ولسنا في طيبةَ!

هزَّت رأسها موافقة...
- حسنًا، هيا نحتسِ بعض القهوة.
...
تقدما نحو كُشـكٍ خشبي لبيع المشروبات الساخنة، إلى جانبه كشك سجائر وحلويات.. تقدم نحوهما النادل المسن وعلى وجهه ابتسامة ترحيب فيها ودٌّ:

"كالعادة يا سِتّنا؟!"

أجابت جميلةُ في لطفٍ:

"أيوة.. بس المرة دي اتنين".

لما قدم إليـهما القهوة عاد يقف خلف الحاجزِ الخشبيِّ ويتطلع إليهما صامتًا؛ هزت رأسَها بعد رَشفة وقالت: "تمام".

وقفَا يحتسيان القهوة ومن خلفهما الأشجار المحيطة ببرج القاهرة، لم يكن أمام الكشك سواهما، رائحة البن مع نسائم الهواء المعبقة برائحة الكافور تريح النفس.

قبل أن ينهي ناي كُوبَه قال:
- تبهرينني دائمًا، أتساءل: (كيف تعرفين كل هؤلاء الناس وكل هذه الأشياء وأنتِ الشابة الصغيرة الغريبة عن القاهرة؟!)

تضحك جميلة، تصمت... تهم بالكلام ثم تعاود الصمت!

- لم أمنع عن نفسي يومًا فكرة ضربت رأسي، أخرج يوميًّا لأتمشى وأدخل الأماكن وحدي، فبمنتهى البساطة أعيش حياتي وأترك روحي على سجيتها.

علق ناي ساخرًا:
- المرأة الفيلسوفة!

ضحكت في دُعابة ثم ردَّت:
- فيلسوفة، ولستُ متفلسفة. ثم أكملت دون أن تنتظر كلامه:

"الفيلسوف هو الذي يبحث عن حقائق الأشياء وعمقها، قد يكون نجارًا فيلسوفًا، صيادًا فيلسوفًا، فيسأل الأول ما جدوى النجارة للبشر؟ ويسأل الثاني السؤال نفسه فيما يتعلق به. إنَّ الأسئلة تأخذنا إلى الأسئلة والأسئلة تأخذنا إلى الحياة...

أما المتفلسف فهو الذي يملأ رأسه بالقشور، تطن في رأسه الموروثات العتيقة إلى أن تضيع الحقيقة رذاذًا بين الكلمات.

(مرة واحدة لا تحسب، مرة واحدة هى أبدًا، ألَّا تستطيع العيش إلا حياة واحدة كأنك لم تعش ألبتة)

ميلان كونديرا"

قاطعها ناي:
- لو كنتِ فتاةً أخرى ترتدين فستانًا بهذا الشكل لقلت إنكِ فتاة سطحية مبتذلة، كالكثيرات اللائي لا يملكن أثمن من حقيبة المكياج..

لكنه من طِيبِ حظي أنني أعرف عقلكِ، رُوحكِ التي تحوي الدنيا بداخلها، ولعل ذلك أهمُّ ما جذبنى إليك فأنتِ تملكين عقلًا راسخًا وروحًا تفيض نقاءً ومتعةً. ثم أكمل بعد رشفته الأخيرة:

"الناس جميعًا يتحدثون عن الجمال، ولكن ماذا خُبِّروا عن كُنـهِ الجمال؟! إنهُم يُعجَبون بألوان بياض العاج وسبائك الذهب.

لن أحدِّثهم عن السمرة الصاخبة والعيون السود والقامة الهيفاء والأناقة الباريسية نهائيًّا؛ فكل ذلك ليس من الجمال؛ إنما هو خطوط وأشكال ملموسة تخضع في النهاية للحواس وللقياس.

الجمال هِزة في القلب جارحة، وهذا ما أراه فيكِ، أرى داخلك -وهذا ما أراه في مرتادي المقهى التي تطل عليها شرفتي- الجمال كامنًا في كل شيء.

بالمناسبة نسيت أن أقول لك إنهم يطلبون شابًّـا للعمل على ماكينة الحساب، أريد التقدم إلى العمل هناك، فرصة للجلوس بين الناس الذين طالما أحببتهم، فرصة لمعرفة حياتهم التي نقرأها في الكتب من كَثَب، وهي كذلك فرصة جيدة لأكل العيش".

- افعل ما شئت واجلس أينما وجدت المتعة؛ فإنما هي حياة واحدة.

تتقبل جميلة أفعاله كلها بحب، فهكذا يحملنا الحب على أجنحة الطيور، يرفرف بنا ويأخذنا إلى أعماق الدنيا وأعالي السماوات!
لم يدرك يومًـا أن الحُبَّ جميلٌ إلى هذا الحد؛ فهو يشعر الآن فقط بأنه يعيش، بأنه على قيد الحياة...

تلك أول مرة يأتيه فيها ذاك الشعور، فقد أشعرته الثورة بأن له فائدةً، أما الحب فذو طابعٍ خاصّ؛ وذلك أنَّ الحب هو الفائدة والحياة، الحب هو الأول والآخر، فـنـحـن نأتي إلى الحياة ولا نعرف لماذا أتينا .لا نعرف إلا عندما نحب.

هكذا أحس ناي.. وهكذا كان يعيش هذه الفترة المثيرة من عمره.

نظرات العيون، تلك اللغة التي تتقنها جميلة، تنطق كلامًا كثيرًا لا تَسَعُه الكلمات، تتحدث بعينها ويخرج منها العشق أطيافًا تلتهمه.

أجمل ما في الحب أنه يجعلنا ندرك قيمة أنفسنا، فقبـل أن يعرفها كان ينظر إلى المرآة ليتأمل وجهه ويجبر عينيه ألا ترى الأشياء التي لا يريد أن يراها في وجهه وملامحه، الأشياء التي لم يكن يحتاج إلى رؤيتها ليعرف أنها موجودة أصلًا، فـلَـقَـد كان لفرط إدراكه لها يحفظها!

أما الآن فهو لا يرى كل ذلك، لأن البهجة التي في قلبه تظهر جماله وتملأ وجهه نورًا وحبورًا، كما أن جميلة تحبه كما هو، لا لشكله وهيئته إنما لروحه، لذلك أدرك أن المقاييس كلها تنهار أمام الحب، **فعندما نحب نعرف من نحن**.

لقد فعلت جميلة ما كان يتمناه وهو نفسُه لا يعرف أنه يتمناه، الاهتمام!

إن ناي الذي تربى يتيمًا بين يدي أم وحيدة كان يحتاج إلى الاهتمام، هذا الذي أهدته إياه جميلة، فقد صارت تهتم بكل تفاصيله وتبادره بالاطمئنان عليه؛ يتحدثان طَوال النهار يضحكان ويمرحان ويتطرف بهما حديث الحب إلى الفلسفة والسياسة، يمارسان طقوس الحب التي خلقت

بينهما فقط ويتحدثان بلهجة تخصهما، كلام يتخلله صمتهما المعبق بحرارة الأنفاس المتوهجة عشقًـا وهي تحادثه في الهاتف المحمول.

قال ناي:

"إن أجمل ما في حبنا أننا لم نسعَ إليه، جَميلةٌ هي الأشياء عندما تقع مصادفة"

فتلقي جميلة مجددًا جزءًا من لاعب النرد:

يا حب نحن نحبك حين نحب مصادفة
أنت حظ المساكين.

يضحك ناي ثم يقول:

"المساكين هم أنا، وأنتِ حظي!"

صمتٌ آخر أصاخا خلاله إلى دقات القلوب...
ثم قالت له أجمل كلمة يسمعها فتُربِكه، كلمة تجعله يتلعثم وتتلعثم الكلمات في فمه...

"أتمنى أن أكمل حياتي معك"

سَمِعت صوتَه يختنق كأنه يبكي وقد فرت دمعة من عينه فرحًا...
- لأجل هذه الكلمة لن أترككِ أبدًا.

- ما أحوجني إلى حِضنك الآن! لو كنت أمامي الآن لحضنتك..

ضحك وقال:
- فلنفعلها غدًا!

...
عندما التقيا في اليوم التالي وكانت تسير جواره، شبكت أصابعها بكفه وهي لا تدري كيف فعلت ذلك!
إنما شعرت كأنها طفلة تتعلق في ذراع أبيها، وشعر كأنها أمٌّ..

رِعشة لذيذة عبرت البدن فـظـلَّا ينتفضان معًا دون أن ينبسا ببنت شفة، فإنما هي لحظات غاب فيها الوعي ودخلا في جو روحاني من الهناء، لم يفيقا إلا وهو يُوقِفُها أمامه ويضمها إليه وهو ينتفض، فقد اختلج جسدها بين يديه وراحت تعبث بيديها في لحيته وهي تضع رأسها على صدره وتنطق:

أحبك!

ردَّ عليها في نبرةٍ واهنةٍ مرتعشة يتخللها بلع ريقه:

أحبك...

قبَّل رأسها ووجنتيها ولم يزد على ذلك، فقالت مجددًا:

"أنت الهدية التي بعثها الله إليَّ دون ميعاد"

لم يردّ، لكنه ضمَّها ضمًّا وهوينتفض ويكرر: أحبك.

في طريق العودة ظلا ذاهلين مُطرِقين صامتين يفكر كل منهما فيما وقع، ولقد شعر ناي بذنب على ما فعل، أحضان وقبلات تنطوي عليها راية الحرام!
أفضت جميلة بمكنونها إليه فقالت:

"هذه اللحظة وهذا الحِضن سأجعلهما عهدًا بيني وبينك أمام الله ألا أتركك إلى الأبد"

نظر إلى جمال عينيها في تلك اللحظة وهي تترقرق بدموع العشق، فكأن روحها كلها قد انتقلت إلى نظرات عينها، ثم راحا يركُضان وهما يغنيان بصوت مرتفع.

الدنيا ريشة في هوا
طايرة من غير جناحين
واحنا النهارده سوا
وبكرا هنكون فيـــــن، في الدنيا في الدنيا!

أكثر ما يعجب جميلة ويربكها أنها تشعر بضعفها أمامه، فعلى الرغم من أنها تربت على قوتها وحيويتها فهي أمامه تصمت ولا تعرف ماذا تقول.

كانا يتمشيان في عَتَـمة الليل والسماء مفترشة بنجوم نُثِـرت بيد إلهية، يداعب وجوههما هواءٌ خفيف في أثناء العودة.

تسير جميلة مُطرِقة إلى جواره، تسمع كلامه وتتأمله في صمت وحُبٍّ إلى أن صمتت الدنيا من حولهما، وعلى هسيس الصمت قال لها في صوت مرتعش:

"أعطني يدكِ مجددًا!"

لكنها لم تُجِـب ولم تستجِب فتوقف ونظر إليها في وُدٍّ طفولي ومد يده إليها منتظرًا...

أغمض عينيه للحظة وتخيل أنها ستأخذه بين أحضانها، ظل يسبح في نهر الحلم ولم يوقظه إلا لمسة أصابعها وهي تتشابك مع أصابعه، ثم وضعت راحته في راحتها وتشابكت الأصابع في خجل؛ أحس قُشَعريرة تفوق الماضية من هول الموقف رغم أنه كان يظن نفسه أقوى من ذلك!

فاتَ في غيبوبة أثيرية وتسارعت نبضاته وجف حلقه، مضت لحظات وهو يرشف رحيق النشوة ثم غاب العالم من حوله ولم يُفِـق إلا وهي تعبث بأصابعها..
حطَّ الصمتُ على لسانه، صمتٌ بطعم الحب، أحس رِعشةً قويةً تنتاب جسدها فرفع يدها إلى حيث يوجد قلبه كي تشعر بضرباته وهو يدق بسرعة الريح حتى كاد يخرق صدره ويقفز إلى الخارج، إلى أن سمع صوتها هادئًا في سكون الليل...

- بمَ تشعر؟

تنهد فكأنه زفر نارًا من صدره وتكلم وهو مغمض العينين فقال:
- إنه الحب... أشعر بالعدم.

تنهَّـــدت ثم ردَّت:
- إنها السعادة... كلام الحب الذي هو أعظم من أن يقال؛ فقط نشعر به!

عادت تعبث بأصابعها في كفه ثم قالت:
- ما أبلغ هذه اللغة!

حل الصمت من جديد لكنه قطعه فقال:
- أشعر بالخوف!

أطرق ناي إلى الأرض ثم رفع رأسه إلى السماء واشتافت عيناه منظر القمر وهو يتحرك في هدوء من خلال السُّحب ثم قال:
- أخاف الغد.. أخاف ألا نكمل، أشعر بأنكِ لن تتركي شيئًا لمن ستأتي بعدك.

ردَّت جميلة وهي تبتسم بسمة عتاب:
- سأظل أكررها لك، أنت لي وأنا لك.. دع الغد للغد! اسمح للَّحظة بأن تقودك إلى حيث تريد لأن الملتفت لا يصل.

لكن شعورًا بالخوف ظل يلازمه في صورة صديق سمج، لكن اللحظة طغت على الحالة فعاد ينظر إلى السماء وهو يقول:
- ما الأجملُ من أن تلقي نفسك في الهاوية من أجل لحظة عشق؟! ألم يعرف من مات من الثوار أنه قد يموت، لكنه لم يتراجع! ألقوا أنفسهم في الهاوية من أجل الحلم.

تأوَّهت جميلة في غَنْـج، زفرت نَفَسًا حارًّا متوهجًا، فأكمل:
ما زال الخوف يحاصرني، لكني سأعيش اللحظة لعلها لا تتكرر.

لم تنظر إليه لكنها قالت:

"كل حب أول حب"

فعلق ناي:
- أيقنت أني لن أعيش هكذا ثانية، فسأعيشها الآن وليكن ما يكون!
...
الخوف قوة موجودة على الأرض لا يمكن إنكارها، لكن على البشر ألا يستسلموا، فمَن أفلت من قبضة الخوف فقد عاش.

من يعش الألم يتجاوزه؛ فلا رحلة بغير ألم..
والإنسان يعيش في أرَقٍ من الميلاد إلى الممات في سبيل هدف واحد، هو الحياة، هذا السر الجميل الذي لا نعثر عليه بغير تجربة.

ظل ممسكًا يدها التي ظلت على اختلاجها وهو يشعر بأنها تداعت في يده، نظر إليها متسائلًا:
- أخائفة أنتِ؟

ابتسمت وأجابت:
- وكيف لي أن أخاف وأنا بين يديك؟

ضغط ناي على كفِّها، ثم رشها بعطر الحب كلامًا فقال:
- هذا أجمل إحساس عشته في حياتي.
خارت قواها وارتجفت مجددًا، ثم قالت: "لو كُنتُ خائفة ما أمسكت يدك، ولما حضنتك".

ابتسم ناي وقال:
- إن استسلمنا فقد يُفقِدنا الخوف متعتنا!
...
ظلا يقتسمان الحياة والسعادة والحزن جميعًا، وهو يحتوي جميلة بين أضلُعه كنجمة مضيئة في سماء الكون، فهي المصب الذي يستقر فيه نهر حبه الجارف ويلقي فيه شوائبه وأفراحه ومخاوفه.

أما هي فكانت بين الحرص والحب، أخفت داخلها حقيقتها وكانت تعلم أنها كمن يمشي على الحبل، إن مال إلى ناحيةٍ سقط إلى الهاوية فورًا، فهي تعلمُ أن التقرب إلى شاب بروحها الطاغية يسحبها لا محالة.

دارت هذه الحرب بداخلها أيامًا وليالي لكنها في النهاية استسلمت لملاك الحب، لأنها تحمل بين أضلاعها ذكرى مُغلَقَة للحزن، كانت تقول في نفسها:

"إن الوَحدة تجربة مُرَّة لكنها ضرورية، إذ تُجنِّبـنـا النظر إلى الوجوه المثيرة للقلق إلى أن يأتي الحب الذي يأخذنا عَنوةً".

تكشفت لها هذه الحرب ذات أصيل، حينما استيقظت من نعاس ساعة العصر ووَجَدَتْ روحَها تبحث عنه ولا تعلم لماذا!

برقت في عقلها خاطرة سِحرية، يبدو أنها حلمت حلمًا جميلًا لا تذكره..
أمالت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها ووجهُها تعتليه بسمة خجِلة، بعد لحظات أفاقت من نعاسها وأدارت الحاسوب، وعبر محرك "فيس بوك" بحثت في خانة الرسائل فلم تجد شيئًـا لكنه كان متصلًا في تلك اللحظة؛ كتبت إليه رسالةَ تحيةٍ منطويةً على مشاعرَ خفيةً:

بافكَّر في اللي ناسيني
وبنسى اللي بايعني

قرأ الرسالة فأرسل إليها ضحكة طويلة، ثم تلتها رسالة مُطوَّلة فيها:

"قرأت كتابَ (يوميات نص الليل) للدكتور مصطفى محمود، كتاب جميل يحوي كثيرًا عن جمال الحياة، فالحياة حقًّـا خيال مليء بأسباب السعادة والبؤس في الوقت ذاته، وإنما نحن أصحاب القرار.

نحن نعيش في معجزة دائمةٍ خفية اسمها (الكون)، ذلك الذي يسير وَفق نظامٍ دقيق من ملايين السنين دون خلل، فكُلُّ شيء بحساب، وقد توَّج الله الإنسان ملِكًـا على هذا الكون.

لقد عثرت في هذا الكتاب على راحة حقيقية، ولكي نلمس هذه الراحة يجب أن ننقي قلوبنا ونقتل أجسادنا ونقمع الأنا المسيطرة على عقولنا!
نحب ذواتنا والأشياء والناس في الله، حبًّا خالصًا نقيًّـا".

قَرَأَتْ هذه الرسالة فارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة وهي مبهورة بكلامه كالعادة، مأخوذةٌ إلى منطقة لا تبلغها إلا به.. ثم كتبت إليه:
- أنت سائر في طريق التصوف لا محالة.

- لا؛ أنا بعيدٌ كل البعدِ عن التصوف!

- مفهوم التصوف أن تسيطر على الأنا التي بداخلك، تترك مباهج الحياة بإرادتك من أجل هدف أعلى، هو السمو، بحيث تعطي دون انتظار مقابل، التصوف هو أن تزهد في ملذاتك بالحب، يقول الصوفيَّةُ القدامى:
"إن الصوفية هي أن تذكو بذاتك، تحلِّق خارجها وتنظر إلى الأمور من منظور إلهيّ، أن تتوحد مع الكون وتصبح جزءًا منه لا مجرد كائن فيه.

وتحسب أنك جِرمٌ صغيرٌ... وفيك انطوى العالم الأكبر!

إننا واحد في الله لأننا جميعًا من الله وإلى الله، فبداخل كل شخص منا على وجه الأرض نِـبتةٌ إلهية، والروح التي في دواخلنا هي صُـلة الله بالكون.

سوف تسمو رُوحك عندما تسيطر على الأنا التي في داخلك، وعندما تفعل ذلك تقبض على السعادة في قلبك، تملك إحساسًا أشمل من إحساس السعادة وهو الراحة، ترى الجنة على الأرض.

انتظر مزيدًا من الكلام، لكنَّ ثمة عطلًا في الشبكة...

أغلق الحاسوب وأدار المذياع ثم استلقى بظهره على الأرض بعدما افترشها بقطعتين من الكِلِـيم اليدوي، غاب في إغفاءة كالسَّكرة وتمشَّى في سراديب الذاكرة فخيمت على روحه سحابة دكناء من الحزن المطبق، عض على يديه ندمًا على السنينَ التي فاتت هباءً وهو مغيب بعيد يعيش على هامش الحياة الغنية الثمينة.

أخلد بعد ذلك إلى نعاس عميق بعدما هبت على الغرفة نسمة لطيفة أسكرته فغفا تلقائيًّا، دهَمه حلم فيه أن الدنيا طفلةٌ صغيرة، لكنها شيطان مغرٍ.

عند الفجر أيقظته لسعة برد ففتح عينيه ونهض متثاقلًا، لمح من النافذة المطلة على الشارع قرصَ القمر ينيرُ صفحة السماء في خشوعٍ وكبرياءٍ منفردًا، وفي هذه الظلمة الكالحة حاول التخلص من نعاسه إلى أن تذكر أنه كان في انتظار رسالتها فنهض مسرعًا وأدار الحاسوب، وجد رسالةً لم تكن طويلة لكنها بهرته.. فكتب لها:

"الحب ثورة قصيرة المدى.. والثورة حب طويل الأمد"

أما هي فقد أشعلت تلك الرسائلُ جذوةَ الحب في قلبها وآمنت بأنهما مدعوَّان إلى الحب واستراحت لتلك الفكرة.

في الصباح تقابلا، وكانت هي قد رتَّبت أن يزورا أحد المسنين الذين تهتم برعايتهم، وفي طريقهما إلى بيته نظرت إلى الحبيب بعد صمت دام طويلًا..

- حدثني عن حياتك هناك.. عن أهلك وبيتك ووالدتك.

- الآن بعدما أدركتني الحياة الجديدة اكتشفت أحسست أني ما حييت قط؛ كل ما مضى لحظة بلا ذكرى، بلا موسيقى ولا أغاني ولا أحلام!
تبدأ الحياة عندما تحيا حياتك الخاصة، وتتجدد معاني الحياة عندما يألفها العشق، لذلك إخال أنني لم أكن أعيش، ولو لم أقضِ أيام الثورة هنا لبقيت كما أنا.

لست مريضًا، ولكنَّه من السخف أن يصبح الجميع نسخًا متشابهة، ولأني شخص انتقائي لي ذوق معين، فليس سهلًا أن أحب شيئًا، هذا لا يقع إلا قليلًا، لذا فعندما أحب شيئًا

أحبه بصدق وأتعلق به ويصبح هو حياتي حتى إن كان هذا الشيءُ أغنية.

لذلك أنا لا أذكر الكثير من الماضي الذي لم يبق لي منه إلا أمي.

جرَّبت من قبلُ في حياتي خيبة الحب، أحببت فتاة لم تبادلني المشاعر نفسها، عرفت أخرياتٍ تعثرت علاقتي بهن.. عرفت ذلك الألم، أن تشعر بأنك إنسان منبوذ ضئيل أمام نفسك!

لكن الأمل ظل يراودني بطريقة ما، أحِسُّ أن معجزة سوف تورق من جديد تلك الشجرة التي سقطت أرضًا فماتت، أو أنَّ رسالة ما أو كلمة ما سوف تصل، وسألقى الوجه الذي هجرني فجأة في الطريق، فتبتسم العيون وتتعانق الأيدي ويستتب كل شيء، وأن سوف تتحقق في الصباح أحلام الليل...

مع الزمن تظل الأحلام أوهامًا، ولا أقول إن الجرح يشفى لكني كنت أتعلم كيف أعيش مع تلك الحربة المغروسة في داخلي كأنها جزء مني.
الألم جزء حقيقي من الشعور إلى أن يأتيَ حب جديد وأمل جديد.

الآن أتيتِ أنت من حيث لم أتوقع، أكملتِ ما -كان- ينقصني، ملأتِ ثغرات روحي طرًّا، فأنا أبني حياةً جديدة في وجودك، حياةً كانت في داخلي ولا أعرفها.
...
تضحك جميلة وتبادله النظرات ثم تقول:

لا أعلم ما الذي جذبني إليك، رأيت في صمتِكَ اختلافًا ونغمةً، أيام الثورة كنت تستمع إلى الحديث عن الظلم والمظلومين وتبتسم لمواقف الشهامة، كنت أراقبك في

صمت وأنت تتأثر دون أن تتحرك.. تتوارى والجميع يصعدون إلى المسرح، وعندما تتكلم أرى فيكَ نقاءً ووضوحًا، إنك نعمة من الله أتت بإرادته، علمتُ ذلك من حديثنا عن الصوفية"، ثم ساد صمت...

رفعت جميلة يدها في رشاقة...

"أنتَ جميلٌ هذا الصباح!"

كانت تجلس جواره مرتديةً قميصًا ورديَّ اللون، تصبغ شفتيها بطلاء خفيف وردي، تتحرك بسرعة فيتهدل شعرها فتبعده عن وجهها وهي تتكلم دون توقف، ولا يكاد ناي يجد ما يقوله فما زال يشعر بأنه في حلم كلما رآها، لكنه في ذلك الصباح حلم جميـــل.

وهما ذاهبان إلى بيت رجل عجوز أعمى يعيش وحده ضحكت جميلة ثم قالت:
- لكنها بداية غريبة لحياة ثورية!

ضحك ناي ثم رد:
- لذلك أحب الثورة، لأنني بفضلها وجدتك.

كانا في بيت الرجل يجلسان جواره على السرير، وعندما شعر ناي بالبرد الشديد طلب منها أن تقوم، لكنه كان به همود، وكذلك كانت جميلة.

قامت لتنظِّف أرض الغرفة على حينَ هذَّب هو شارب الرجل..
سألته جميلتُه:

"لماذا كان يجب أن نلتقي؟! في البدء لم أكترث لنظراتك، كنت أراك مثل الآخرين.. ربما في ذلك الوقت قد حل ملاك الحب، تفاجئني تعبيرات وجهِك وأنا أمشِّـط شَعري أمام المرآة، وأنا أقرأ في كتاب...

لم أعتد أن يشغل عقلي شيءٌ بهذه الطريقة فدائمًا كنت أحافظ على نفسي!"

ثم أكملت بعد لحظة صمت وقد عادت تكنس الغرفة: "ومن يدري لماذا التقينا؟!"

فقال ناي في هدوء:

"تلك هي الحياة التي أحلم بها"

ساد صمت ثقيل...

كانت شمس برتقالية متجمدة تحت سحب داكنة، هبت ريح خفيفة جمعت أوراق الشجر الصفراء الساقطة على الأرض في مجرًى مستطيل، تندفع سريعًا ناحية بيت الرجل ثم تمرّ لتصنع في نهاية الطريق دُوَّامة تصعد إلى أعلى ثم تعود إلى الأرض.

أخرج ناي ورقة من جيب بنطاله ثم أعطاها لجميلة كي تقرأها، فأخذتها ثم فتحتها سريعًا ومضت تقرأ:

"انتظرتها وأنا لا أعلم عندما كنت وحيدًا، لم أكن أعرف من هي.. ورغم أني مثل الموت لا أحب الانتظار، فأنا أيضًا أحب ألا أكون وحيدًا! كنت أبحث عمن ألقي عليه ثقلي وأرحل؛ فأتت جميلة..

كنت وحيدًا لكنَّ الحياة أصبحت هي الوحيدة أمامنا ونحن معًا، بحيث لا حيلة لها إلا أن ترضينا. وعندما تلتقي عينانا في لحظة السَّحَـر وأرى عينيها أمامي، فسرعان ما أسترد بصري لأنه أيسر عليَّ أن أحملق في قرص الشمس إبان اعتدالها من أن أحتمل وقع نظرة عينها الساحرة".

أنهت القراءة وظلت ممسكةً الورقةَ بين أصابعها، وثمة دمعة تترقرق في مقلتيها، تنظر إليه شاخصة ولسانها لا يقوى على الكلام.

خرجا من بيت الرجل وكان الجو خريفًا.. تنتقل نتف الغيوم في صفحة السماء في عبثية منتظمة، وهكذا هي عبثية الخالق.. تبدو منتظمةً دائمًا، يجمع الأضداد ويصنع منها واقعًا جميلًا ومنظرًا بهيًّا!

تتأمل جميلةُ المنظر وكانت رائحةُ النيل تقترب، تهب عليهما نسماتٌ خفيفة معطرة، وكلما اقتربا من الشاطئ أسفل كوبري قصر النيل ازدادت الرائحة واخترقتهما.

يقرأ لها ناي أشعار ناظم حكمت وهو يتحدث عن حبه، يقرأ روايةَ "الحياةُ جميلة يا صاحبي"، فيتأملان تشابه اللحظة.

قبَّل ناي جميلة... ثم قرأ لها:

"كان القمر ساطعًا والنهر هادئًا كالفراشات، وكان إسماعيل قد استأجر مركبًا من رصيف النهر، والناس في ملهًى ليليٍّ قريب يرقصون على أنغام الموسيقى، وسطح النهر ممتلئ بالقوارب".

كان ناي ممسكًا بالمجداف وهما متجهان إلى أسفل كوبري قصر النيل، أضواء الكوبري تلمع تارةً وتهدأ تارةً أخرى.

عاد إلى القراءة:

(من الجهة الأخرى مرت بَاخِرةٌ متجهة نحو الجزر، أنوارها تتلألأ، ترك إسماعيل المركب واتجه إلى مؤخرة المركب

وجلس بجانب أمينة، "أيمكنني أن أقبلك يا رفيقتى؟"؛ لم تُجِـب.
سوف تسألين: "أويُطلَب الإذن في مثل هذه الأمور؟!")

قبَّـل ناي جميلة وكان المركب يتمايل بخفةٍ بسبب الأمواج التي خلفتها الباخرة المتجهة نحو الجزر...

استكمل:

"أراد إسماعيلُ أن يشغل أمينة بالسياسة لكنَّ الفتاة لا تهتم بذلك، لكنها أنصتت إليه باهتمام حينما حدثها عن حياة الثوريين، حيث تعجبها الكلمات وتنصت والألق يملأ عينيها..

حدثها عن النساء الثائرات، وحياة كروبسكايا زوجة لينن على وجه الخصوص؛ قالت: (امرأة مخلصة ووفية؛ وهبت عمرها لزوجها).

- ليست القضية في ذلك، وإنما وهبت عمرها للثورة.

- طبعًا طبعًا، لكن كيف أحبت لينن؟ فمما لا شك فيه أنها كانت زوجة مثالية، بمنزلة زوجة وأم ورفيقة أيضًا، انظر إلى كل هذا الحب الذي لديها!".

سألها ناي:
- أما كنتِ ترغبين في أن تكوني داخل هذه الباخرة المارة؟

-لا أرغب، أريد أن أكون معك، فأحب الأماكن إليَّ في هذه الدنيا مكان أنا فيه جوارك.

ضمها ولم ينبس، لكنهما مضيا يتأملان هدوءَ النهر وجمالَ المركب الذي يتراقص فرحًا في هدوء.
...
تجردا من حذاءيهما ووضعا أرجلهما في الماء متجاورين، ثم بدأ ناي يتكلم:

"إنه نيل واحد، لكن شتان بين نيل القاهرة ونيل الصعيد، نفس الماء مع اختلاف الوعاء؛ هنا لا توجد جزر ولا حشائش وإنما تزينه المراكب والأنوار، كما أن رائحة الماء هنا مختلفة وكذلك الصوت، اسمه البحر عندنا وليس النيل!".

شعرا بهواء النيل يتخلل شعرها ووجهها وملابسها وهي تحدق في حركة الأمواج التي تعلو ثم تنكسر ثم تعلو، ويـتـتـابَع الرذاذ الخفيف.

غريب؛ كيف تتراكب صورتان وتتداخلان واحدة على الأخرى؟!

فتًى وفتاةٌ يتربعان على الضِّـفـة لا يعلم أحد إلا الله ما ينتظرهما من أسرار الغيب، فهما صغيران على شاطئ الحياة، أمامهما النيل الحزين صاخبًا تتواصل أمواجه وألحانه، والقمر عالق في الفضاء في حين أن ملاك الحب هائم فوق رؤوسهما يلازمهما ويحرسهما.

يا قمر.. يا رغيف بعيد
النهارده الحد.. عيد
الفقير ليه مش سعيد
والغُناي ليه مبسوطين؟!
...
يقول ناي بعدما أخذ نفسًا وأخرجه من مِلء رئتيه:

"أأحكي عن حياتي أم أقفز وأتخطاها؟ أحسب أنني ولدت الآن من جديد وأن كل ما فات من عمري ليس إلا قبضَ الريح. وهل يمكن أن يحكي شخص عن حياته فيتمكن من استحضار كل تفاصيلها؟ هل بإمكان شخص أن يهبط إلى قاع النهر هكذا بغتة؟! نهر عجيب يتعين عليك النزول فيه وحيدًا لأنه لا يخص أحدًا سواك، لكنني قد أغرق إذا

انهمرت مياه الذكريات فوق رأسي، ولو نجوت فإنما هي صدفة، ككل شيء جميل يحدث لنا في الحياة مصادفة".

أكمل وفي صوته حشرجة خفيفة:

"ذكرياتى مع الآخرين ليست بالكثيرة، بالكاد أذكر والدي، بالكاد أذكر تلك اللحظة التي كنا عائدَينِ فيها من مكان ما وكان الوقت متأخرًا بحيث لا توجد إلا سيارة واحدة، وعندما اقتربنا منها كانت تتحرك ثم أسرعت؛ جرى والدي خلفها وهو ممسك بيدي فلم نلحق بها، ظل ينادي السائقَ مترجيًا لكنه لم يتوقف. كانت أول مرة أرى فيها أبي يخرج عن وقاره المعهود، وقف أبي متحسرًا وأنا أنظر إليه حتى كدت أبكي لأني ظننته منكسرًا.

لعله موقف عادي.. لكنه سيظل ساكنًا في ذاكرتي"

هنا.. قرر ناي أن يعود إلى والدته فقد شعر بأنه يفتقدها ويفتقد نظرتها الحانية، كان قد ذهب إليها مرات عديدة في الفترة الماضية، لكنه يريد أن يذهب إليها هذه المرة لأنه يشعر بأنه افتقدها أيما افتقاد، شيء من البهجة يعتمل في صدره يريد أن يحكيه، وهو يعرف أنه سيخجل لكن رغبته في رؤيتها تشتعل بفعل الذكرى، فسافر على أمل العودة واستكمال المشوار.

لم تستمر كثيرًا حكومة أحمد شفيق، فقد رحلت وأتت بعدها فترة لم يكن الثوار يتوقعونها.. وذلك حيث تبدلت النبرة بعض الشيء، فقد صار المتظاهرون مشاغبين وتَسلَّم المجلس العسكري حُكمَ البلادِ.
نقطة فاصلة في طريق الثورة، خطوة لم يحسب لها الثوار ولا المثقفون ولا الشعب أي حساب.

فجأة خرج إعلاميون وسياسيون وفنانون كانت الثورة قد عرت فُجورهم وفسادهم، يتحدثون باسم القوات المسلحة، يلعنون الثورة والثوار الذين يريدون أن "يخربوا البلد"، وتحول الجيش من حامٍ للثورة إلى خصم في الميدان يتصدى للمتظاهرين.

إلى أن كانت مذبحة ماسبيرو التي سقط ضحيتها الأقباط الذين افترى عليهم الإعلام المصري فادَّعى أنهم اعتدوا على دبابات الجيش وحرقوها، لكن أمرهم قد انكشف بتدخل إعلاميين ومثقفين شرفاء شهدوا بأم أعينهم على ما حدث، لقد كشفوا حقيقة الإعلام الآخَر، الموتور الموالي للسلطة، وأظهروا حقيقة الأقباط الذين كانت تظاهراتهم عبارة عن شباب يحملون الورود والشموع، ويرتلون الترانيم ويتغنون باسم الوطن.

كانت هذه أول طرفة تنوير تُحدِث شرخًا بين القوات المسلحة والقوى المدنية والثورية التي تأبى ترك أحلامها في دولة مدنية بعد ثورة سلمية.

إلا أنه على النقيض من هؤلاء الثوار الذين امتدت فيهم الثورة المصرية على نحو رشيد، نجد فريقًا منهم يهينون ثورتهم سهوًا، يبددون قوتها في أرض الابتذال والسذاجة، ومن هذا الفريق جماعة معطِّلة لثمار الثورة دون قصد،

مبددة سيول الثورة العارمة بالانجراف نحو صراعات جانبية لا تفيد، تساعد بفَعَالها غير المقصود وإخلاصها الأعمى ضد المتربصين بالثورة، أذرع الدولة العميقة التي اختفت قليلًا وهي تترصد الثورة وتتربص بها كي تُصوِّب ضربتها في الوقت المناسب.

ارتاح بعض من شاركوا في الثورة إلى حالة الغضب النبيل الذي يدعو إلى إنهاء الظلم، وهم يغفلون عن أن حالة الهياج الثوري مؤقتة ولا بد أن تلِيَها حالات رشيدة لا تتم في الميادين والشوارع وإنما تكتمل في مجالات العمل السياسي، وذلك ببذل مزيد من الجهد ورسم خطط إصلاح حقيقية للأحوال العامة ومراقبة الخطى الساعية إلى النهوض بالبلاد بعد ثورتها المجيدة..

لكنهم لم يفعلوا ذلك؛ فقد أصبح التظاهر هو الطريق الوحيدة إلى حل العقد، الاعتراض الدائم على كل الأمور حتى إن كانوا على صواب، إلى أن وصلوا إلى حالة من النرجسية المفرطة التي تفشل أمامها أي فرصة لنقد الذات أو النقد المنطقي لمسار الثورة.

تلك سمات الحب الأعمى، حبٌّ دون تعقل ولا نظرة مستقبلية، حب يغلب عليه الجهل حتى إن كان نقيًّـا في مقصده.

إن الثورة سيلٌ يجب ألَّا يمتد إلى الأبد في نسق واحد، فقد تكون خيرًا للناس إذا شقت مجراها وانتظم تدفقها، وقد تكون شرًّا إذا تفرقت في الأرض على غير نظام.

كانت تلك النقطة مبدأ الخلاف بين ناي وكثير ممن حوله، فهو مثل الشباب الذين تغنوا بالانتخابات البرلمانية؛ تجاهلوا العقل والمنطق الذي قال: "الدستور أولًا"، فرحوا بفتات المقاعد في مجلس الشعب واللجنة التأسيسية للدستور، فرحوا بصورهم في الصحف والشاشات، وضعوا

مستحضرات التجميل (المكياج) وصاروا أبطال الثورة فوق الشاشة إلى أن انقلبوا على أعقابهم وانفرط عِقدهم!

انسحبوا ثم اجتمعوا مع المجلس العسكري ثم انسحبوا، ثم تكرر المشهد دون اعتراف بالخطأ ولا نقدٍ للذات، لقد ارتفعت لديهم الأنا فلم يشعروا حتى بتأنيب الضمير!

يجهرون في الصحف بأخطاء الجميع إلا أخطاءهم، يرون القشة التي في عيون الآخرين ولا يشعرون بالخشبة التي في أعينهم!

نسُوا التفكير الإبداعى في المستقبل وظلُّوا متمسكين بأنهم معصومون من الخطأ، يدورون مثل آبائهم في الحلقة المفرغة ذاتها، تعوَّدوا إما أن يكونوا أتباعًا لغيرهم وإما أن يكون الجميع أتباعًا لهم.

صحيح أنهم أنقياء القلوب أوفياء للثورة والناس، لكنهم يسيرون دونما تفكير، دون أي تحكيم للعقل والمنطق والسياسة، يريدون للجميع أن يصغوا إلى آرائهم دون تفكير، من يختلف عنهم فهو خائن للثورة والشهداء، حتى إن الأمر يَطَالُ معلميهم وعرابيهم وآباءهم في النضال الثوري، أصبحوا محل انتقادهم لأنهم يحكمون العقل والتروي.

لم تشك جميلة في نِيَّات ناي الطيبة، تؤمِن بأن حبه للثورة حبٌّ مقدس خالٍ من الأنانية، لكنه حب أعمى، حب يُغمِض عينه عن الحقيقة، فقد تمسك قلبه بجزء من الحقيقة وهو أنها على حق، لكن الحقيقة -في شموليتها- تشمل التعدد، الرأي والرأي الآخر.

يقضى ناي نهاره في نقاشات مشتعلة، لم يعد يحتمل أن يُوجَّه إليه نقد ولا إلى الثوار، فسرعان ما ينهال سبًّا وتقريعًا في الجميع ويتهمهم بالجهل والرجعية والخوف.

تفتت حجر الثورة الراسخ بمرور الأيام دون أن يشعر وتحول إلى كتل وائتلافات وجمعيات وأحزاب تشرذمت كلها، فَاتَـهم أن الاتحاد قوة وأن كل طاغٍ يستند في طغيانه إلى الفرقة والتشتت.

الثورة نفسها ظهر لها أعداء كثيرون، المجلس العسكري ثم الشوارع، يليهما التيارات الدينية التي ظهرت مؤخرًا وقفزت على ظهر الثورة، وجوه العهد البائد الذين يلعبون على وتر الاستقرار ولقمة العيش، إعلاميون يتحدثون عن مخططات لهدم مصر، المواطن البسيط الذي خابت آماله في تبدل الحال بل إن ذعره زاد مع الانفلات الأمني.

لقد بات هذا المواطن يرضخ لكل هؤلاء الذين يلعبون على أوتار الخوف من المستقبل؛ فرجل الدين يلقنه أن الديموقراطية حرام، وفلول النظام يُعلمونه أن المظاهرات ستهدم البلد!

كل هذا والثوار منهمكون في النزول إلى الشوارع وفي كيفية إثبات من منهم أكثر ثورية، متفرغون للمظاهرات ولم يعلموا بعد أن الثورة يجب أن تتحول إلى سياسة!

وسط هذا الزخْم لم يغب الحب بين ناي وجميلة.. فقد ظل هو لحظة السكينة التي يستقران فيها بعد تعب، وبالأكثر جميلة التي تبقَى لناي سنده وملاذه.

لعل الحياة اختارت أن تنصفه بعد طول اغتراب فأعطته نعمة السلام الداخلي الذي حل عليه إثر اعتناقه الحياة الجديدة، كفت رُوحه عن العبث في بحر الماضي وانسدت الثقوب، مضى يمخر في نهر رائق خلق له وحده، لعله لم يكن يدرك أن الحياة جميلة بهذه الصورة ولا أن روحه خفيفة هفهافة للراحة والسعادة إلى هذه الحد!

تتوالى الأيام وهو ينهل من مشارب الحياة الجديدة الجميلة التي أظهرت له جمالًا لم يرَ سواه فظل يعيش هذه الحياة المثالية، مما جعله ساذجًا في عيون أصدقائه.

إن الحياة فكرة سيئة لكنها تبتسم له في تبتل، وقد فهم الرسالة فآمن بسحر الحياة وصدقها. لقد ترجم له الحب والثورة لغة الحياة المعقدة فأيقن أن الجمال ليس في الأشياء وإنما في ذواتنا نحن، هبة إلهية رقيقة حلت عليه في خشوع، وهذا هو الحب الذي يقرأ عنه، هب عليه مثل النسيم العليل الذي يهب علينا في نهار قائظ..

لكن قلبه ظل يخفق بخاطرةٍ أفاقتْـه.. قد تذهب جميلة مثلما أتت، فالأشياء الجميلة لا تدوم!

يتعكر صفو حياته بتلك الخاطرة بعض الشيء لكنه يطرد هذه الفكرة ويقول في نفسه إن الإرادة الإلهية لا تستدعي ذلك القلق.

إن الحياة جديرة بأن تعاش، أما الخوف فهو العائق الذي يمنع عنا المتعة ويجعلها تنفرط من بين أيدينا ونحن ننظر إليها حائرين، فشكر لله على نعمة الكتب التي بدلت نظرته إلى الحياة؛ لقد جعلته أكثر تمتعًا بأغلب الظروف رغم سُوئها، وهو ما زال يندم على عمره الذي ضاع جهلًا وظلامًا.

قال لها وهما يسيران متأبطين ذراعيهما:

- إن الشارع حياة، فأجزاؤه كأعضاء الجسم، في بلدي ليس لدينا هذه الحياة؛ الشوارع ساكنة هادئة بلا روح"

- يمكنك أن تخلق حياة في شوارعكم.

- كيف؟

أسبل جفنا جميلة في رقة...
- بأن تأخذني إليها!

ضحكت إلى أن غيرت نبرتها ثم أكملت:
- بأن تخلق أنت حياة بداخلك!

نظر إليها ثم صمت كلاهما، لكنهما ظلا يمشيان تحت الشمس الحارقة...

كانا قد وصلا إلى دهاليز حي الظاهر الخلفية، فما فتئ في الظاهر شيء يحتفظ بطابعه القديم..

قالت جميلة:

"فيما مضى كنت أمشي بصحبة والدي وكنا نرى في ناصية هذا الشارع عمارة مصممة حديثًا من هذه البنايات، وكان مكانها القديم مقهًى من الأشجار. كنّا نعبر المدخل ونهبط درجتين فإذا بنا نترك مدينة من الطوب والحجر، لندخل مدينة من الأزهار والشجر.

كنا نذهب أنا وزميلاتي أيام الدراسة أيضًا وقد كنت أحب أشجارها.. بل أحسب أن كان هناك شجرة مانوليا تتوهج في الربيع بأزهارها الحمراء، لست متأكدة الآن أكانت شجرة مانوليا أم أنني أحلم..

ولكن منذ هدموا المقهى وبنوا تلك البناية القبيحة لم أعد أذهب إليه ولا أنظر نحوه، تمامًا كما تتجنب النظر إلى شخص مبتور الذراع، لا لأن العمارة قبيحة.. لكن لأنهم أطاعوا عقولهم وقتلوا الجمال".

عادت جميلة إلى صمتها مكتئبةً وإلى جوارها ناي الذي لا يتكلم، ثم أدار الموسيقى على هاتفه المحمول...

علموني عنيكي أسافر
علموني افضل مهاجر...

ضبط ناي نفسه وهو يفكر في البراح الذي يتسع في عقله يومًا بعد يوم، يرى أشياء جديدة ويسمع قصصًا كانت أمامه لكنه لا يعي منها شيئًـا.

منذ متى يهتم الناس بمناظر البيوت ويغتمون لها مثلما تغتم جميلة؟ ففي مدينته يشترك الناس في جمعيات ويقترضون الأموال من أجل هدم دُورِهم وردمها ثم بناء عمائر جديدة بالأسمنت المسلح، كل ذلك وهم لا يدرون أنهم يقتلون إرثًـا!

أحس حنينًـا غامضًا تجاه بيوت الطين التي تقل تدريجيًّـا هناك، يبدو أن جميلة أنهكها الحنين فظلت صامتة وإلى جوارها ناي يستغرق في أفكاره، وصل إليهما من مذياع صوته عالٍ في كشك سجائر صوتُ أحمد منيب يغني:

فينك يا مشواري
يا أبو المشاوير يا مشواري...

يعاوده الحنين إلى والدته ومدينتها التي يشتهيها، "نقادة" التي تحتله مثل وردة موحشة، فعندما يغادرها ولو لأيام أو لساعات يشعر بها معه، يسمع تقطّع أنفاسِها مثل عشيقة في لحظة ألقها، يسحبها وراءه في ذاكرته وبين أشيائه الصغيرة، عندما يتذكرها تسبقه روائحها وعطرها وألوانها وفوضاها الجميلة وشوارعها التي لا تنتهي وموسيقاها التي تأتي من المخابئ المنسية وتستقر في القلب من دون استئذان.

مرًّا بمحل فول على ناصية شارع، كان هناك مذياع آخر وكان حسن الأسمر يغني بصوته الحزين الشجي:

عمري بينسرق.. قلبي بينحرق...

كان ثمة زحام شديد أمام المحل لشراء السندوتشات كأنها مظاهرة، وفي هذه الأثناء عثر ناي أخيرًا على شبح ابتسامة يتسرب إلى وجه جميلة وهي تنظر إلى الزحام فقال في نفسه:

"أنا لا أفهم جميلة، أنا أحبها فقط. أنا أيضًا لا أفهم نفسي، لذا يجدر بي أن أكف عن التفكير في أي شيء!".

ظلت جميلة على ابتسامتها دون أن تنبس وظل هو سادرًا في أفكاره، يتأملان معًا مداخل العمائر في حي الظاهر ومشهد القطط التي تتوارى عند اقترابهما. ظلا يمشيان إلى أن وصلا إلى شوارع وسط البلد التي تخص جيلهما.

ما زال الشارع خاليًا والرياح معتدلة مشبعة ببرودة ودودة آمنة، وفي أحضان الغروب المنتشرة تتراقص الأضواء في رشاقة.

جلس ناي وجميلة على طَوار مطل على مقهى الأمريكيين، وللمرة الأولى هذا العام تغير جميلة أسلوبها في ملابسها التي تكون عادة سوداء، فتُجَلِّي عودها الرشيق تحت القميص الأبيض والبنطلون الرمادي، بشرتُها القَمحِية وشفتاها المشدودتان وذراعاها الملفوفتان تضفي عليها أنوثة طاغية، لم يغب عن عينها المرح والدلال كما لم تغب عن عينيه الصبابة والأشواق.

جلسا جنبًا إلى جنب ينظران إلى المارة فكأن العينين لا تريان شيئًا، قالت هي:

"وحشتني..."

حل هسيس السكوت على المكان وغلف أديم الشارع، وصوتها العذب لا يزال يرن في أذنيه فغابت الدنيا من

حوله ولم ير إلا وجهها ولم يسمع إلا صدى اللحن.. كأنه بحّارٌ لا يسمع سوى نغمات الماء خلال إبحاره.

أعادتها عليه وهي تمسك يده، وقد وقعت عليه الكلمة فشطرته شطرين ثم مزقته إرْبًا إرْبًا، ودوَّت في رأسه حتى ذهلت به عن كل شيء.

غاب المشهد عن ناظريه وغاب المكان، رأى فراغًا مخيفًـا تمتزج فيه الحُمرة بالورد وتتراقص فيه ملائكةٌ فَرِحةٌ بالحب الذي يعم الأرض.

لبَّـى رغبتها في خجل رغم أنه اعتاد ألا يمانع رغبتها حتى إن كانت رغبتها قَتْـلَه! فهو يدرك إدراكًا أن الحياة تمنحنا فرصة الحياة بغتة ثم تأخذها عَنوة.

ودّ لو سألها:

"كيف تخيلتِ مرة أنك يمكن أن تغيبي عن حياتي؟ كيف تخيلتِ أن الحياة يمكن أن تمضي بإيقاعها العاديّ الخالي من مفاجآت الميلاد والبعث دون أن نلتقي؟ كيف تخيلتِ أن من الممكن أن تعود كل هذه الأصباح الندية وتحلق الطيور فوق الشجر ويصدر السحاب همسه الخفيف في غيابك؟!"

ردت -وكأن كلامًا كثيرًا قد انحبس بين شفتيها-:

"ها نحن ذا مجددًا؛ ترقد يدُك بين يديّ كأن لم تغادرها أبدًا" ثم راحت تنظر إليه في حنو أمومي وقد تراجع شعرها المقصوص حديثًا عن وجهها الجميل الذي يبرز ملامحها التي ازدادت قوة وجمالًا، فقد صارت رقبتها أطول وأنفها أعلى.

قال وهو يتأمل عينها من كثب:

"باللهِ لماذا حرمتِني رؤيتَـكِ وأنت تكبَرين؟! لماذا لم تدعيني أحتفظ بخصلات شعرك المقصوص وسْط كتبي حتى أحتفظ بعطرك دائمًا معي؟!"

ثم أكمل وهو يضغط على كفها بقوة ويرجو ضمها:

"أستحلفك يا جميلة بأن تبقَي مثل بقاء كل شيء حولنا، البيوت والشوارع والمقاهي والشجر!"؛ فقالت وهي تربت كتفه بأصابعها:

"وهذا وعد مني بألا أتركك.. أبدًا!"

أحس أصابعها وهي تتحرك بين أصابعه، وهي تضغط عليها ثم تتركها كأنها تحاول إخباره بهذه اللمسات عما تعجز عن قوله إلى أن قالت:

"وحتى إن افترقت أجسادنا، فلن تفترق القلوب..."

كان المغيب ينزل على صفحة السماء والجو يخلو لهما من المارة والزحام، مضت تتصفح هي في روايةِ "الأسودُ يليق بك" لأحلام مستغانمي، وهو يقرأ في كتابِ "عودةُ الوعي" لتوفيق الحكيم.

أخذته من يده ثم قالت:

"سوف نذهب إلى مكان يعجبك"؛ أومأ موافقًا، فأكملت:
- سوف نلتقي مع الأصدقاء أولًا بضع دقائق ثم نذهب إلى حيث نريد.

- ولماذا لا نذهب إلى حيث نريد مباشرة؟!

- منذ مدة لم ألتقِ أحدًا، وأشعر بأني في حاجة إلى الزحام.
...
عندما رآهما الأصدقاء ارتسمت على وجوههما ابتسامات مستسلمة؛ فلم يعد ناي يخجل منهم.. التف الجميع حولهما وتحلقوا بحيث كانت جميلة مركز الحلقة، جعلوا يتضاحكون ويذكر كل منهم أشياء يحبها، يتذكرون نكتًا ويسخرون من كل شيء، بدءًا من مقررات الدراسة إلى مقام الرئيس المعزول إلى قُوَى الفلول التي تتحلق حول الثورة.

تضحك جميلة من مِلءِ فِيها إلى أن يحمر وجهها، وكانت تمارس هوايتها في صنع المعجزات الصغيرة إلى أن وجه أحدهم كلامه إلى ناي:

"أما زلت عاطلًا؟"

أجابت جميلة نيابة عنه فقالت:

"إنه سبقنا جميعًا في الحياة، لقد انتصر علينا وذهب بعيدًا في دنيا الفكر"؛ فـضَـحِـكـوا وضحك ناي ولكنه لم ينبس، وعندما انفردا قاصدَين المكان الذي تعرفه قال ناي:

أحبكِ...

سألته جميلة من خلف ضحكتها:
- وما الجديد؟

- أنتِ ترفعين شأني بينهم، تجملين صورتي أمام الناس وترسمين لي صورة أكبر مني بكثير.

- أنا لا أجملك! أنت بالنسبة إليَّ كل شيء وأهم شيء، وأجمل شيء...

وأنا لم أرتب ما قلت لكنه خرج مني هكذا لأنه من فضلة القلب يتكلم اللسان.

...

سحبته من يده واتجها إلى دهاليز العتبة، دهمته الشوارع كأخطبوط خرافي، فهُـنـا كل شارع وكل عطفة تحمل اسمًا من القاهرة الفاطمية. اخترقا قطاعًا من الحيِّ العتيقِ تقتحمه الألوان الزاهية والأصوات المُحشرَجة، الحاضر الصاخب والماضي المتحفز، النظرات المحملقة والهتافات ونداءات الحِرَف المختلفة بالأصوات والدق والروائح.

مِهرجان الأزياء من البِـذَل والقفاطين والجلابيب فضلًا عن الأجساد شبه العارية، عطفات وأزقة وبيوت متداعية ومبانٍ شاهقة، والأهم أن تقررت مصايرُ كثيرٍ من المصريين بالفقر والضحالة في هذا المكان.

زجره صوت داخلي قائلًا: "ماذا تفعل؟ !لا تكن سخيفًا واسحبها وعدا!"؛ لكنه انتصب أمام إغراء الحقيقة القاسي رغم شعوره بالعبث، وأما جميلة فكل شيء بالنسبة إليها يبدو هادئًا، الناس يرمقونها بنظرات عابرة وعيون متسائلة ورغم ذلك فقد اقتحما الحارة.

هبطا دروبًا ضيقة وسلالم حجرية، عبرا بوابات واطئة وانحدرا فوق طين لزج، بدأت الجدران تضيق من حولهما، جدران من الطين صبغتها الشمس ومنحتها لونًا رماديًّا كئيبًا.

شوارع ضيقة يجلس فيها النسوة أمام الأبواب لا يكففن عن الثرثرة، يتزاحمن بأجسادهن ليزداد ضيق الشارع.
طين وفقر وعَطَن يسكن فوق الأعناق، لم يكن للفقر حدود، تأمل ناي كل ذلك وهو يسأل نفسه:

"هل يوجد عشاق يعيشون بين هذه الأنقاد؟"

ثم أحس سخطًا على نفسه وهو يفكر في الحبِّ والناسُ هنا يعيشون تحت التراب!

...

داخلَ بناية واطئة من الطوب اللبن غرفةٌ مظلمة يَشغَل معظم مساحتها سرير من الجريد يرقد عليه شبح امرأة شاحبة النظرة في السبعين، راقدة كالنائمة راكنة إلى الجدار، أشبه بهَيكَـلٍ خلا من مقومات القوة، كليلة البصر لا ترى ما يبعد عنها مترًا واحدًا، غائرة العينين بارزة الجبهة، يمرق عنقها من جلباب لا لون له من تلبد الغبار والأوساخ، لم تنتبه المرأة لدخولهما إلا عندما هزتها جميلة منادية:

"ست نادرة"

شعر ناي نحوها بعاطفة ولكنه اجتِيح بإحساس شامل بالتقزز والاحتجاج والتمرد.

روت جميلةُ له قصة هذه السيدة:

"كنت مستقلة سيارة أجرة تأخذني إلى الجامعة، كان السائق مُكفَهرًّا وهو يتحدث في هاتفه المحمول ويتبادل الزَّعيق مع الطرف الآخر، سمعته يشكو عدم قدرته على الاعتناء بسيدة عجوز، ولم يكف عن النُّباح إلى أن أغلق الخط.

سألته:

"ما الأمر؟"

بوجه غاضب عاجز قصَّ عليَّ القصة كاملة...

(امرأة عجوز تجاور بيته، تعيش وحيدةً، سقطت وهي ذاهبة إلى دورة المياه فكُسِـر مَفصِلُها، لا أحد يعتني بها وتنصل الجميع من احتمال المسؤولية، كما أني أعيش

وحدي وأقضي أغلب النهار في سيارتي، لذلك ليس بوسعي أن أعتني بها).

فكَّرتُ فيما يمكن أن أفعل.. فالخليقة تنهار والناس يموتون جوعًا ومرضًا! من دون كثير تفكير طلبت منه أن يأخذني إليها؛ يمكنني خدمتها.

ضحك السائق بحيث يريد أن يقول إن المسألة ليست بهذه السهولة؛ فأخبرتُه أني أدرس الطب وأن لدي فكرةً عن التمريض.

أخذني إلى هناك واتصلت بطبيب أعرفه فتكفل هو بإجراء العملية، أخذت أرعاها بنفسي وأزورها يوميًّا، وهي -كما تراها- ساكنة ساجية في هدوء الشيخوخة، بَيـدَ أن المكان هنا قد صار ملاذي من الملل؛ فهُنا أشعر بقيمة الصحة التي نخاطر بها وأشعر كذلك بقيمة الأصدقاء".

...

استأذَنَتْـه جميلة أن ينتظر خارجًا لتبدِّل ملابس المرأة وتنظفها.

في الحياة جزء خفي لا نعرفه، الشقاء والفراغ والملل، بشر يولدون فيعذبون ثم يتوارون في هدوء، القلق يضرب الوصال والناس هنا يعيشون في قلق دائم، قلق من الظلم والحرية والثورة والمرض والفقر.

ورغم استهتاره بكل القيم فهو لا يبرحه القلق، صحيح أنه شخص روحاني مستقر يميل إلى الهدوء، لكنه يقضي معظم وقته مذبذبًـا بين السعادة والقلق.. شخصه الحقيقي لا يكف عن تعذيبه!

يشعر أحيانًـا بأنه يعيش في عزلة تامة، يغلي بالحنق ويحلم بالثورة الحقيقية، يغرق في العبث الذي وجد فيه الحل لمتناقضاته الماضية. وإذا وجد الحل هنا في هذا

الزخْم فهو الذي أخرجه من تردده المعذب بين الإيمان والإلحاد، الديموقراطية والحكم المطلق، الماركسية والرأسمالية.
لعـلّ الحب أنقذه من هياكل خاوية وقد ينتشله أيضًـا من مرض جديد، مرض الفراغ والرعب.

قيمة العبث في أنه يُشعِرُه بعدم الانتماء؛ فالانتماء قيدٌ حتى إن كان إلى الثورة!
الحياة قاسيةٌ رغم جمالها، أو جميلة رغم قسوتها .لا يهم؛ الذي يهم هو هؤلاء المعذبون الذين ينتظرون المعجزة، أو يطلبون الموت في سلام.

والأهم أن زمن المعجزات قد مضى، فالمعجزة إنما تولد فيهم ومنهم؛ فالثورة معجزة، وتحقيق العدل في الأرض معجزة، والعثور على سر الحقيقة معجزة، وكل هذا لا يحدث إلا بشعب يريد.

سمع ناي صوت جميلة وهي تحدِّث العجوز:
- هذا ناي الذي حدثتكِ عنه.

ردت في صوت لاهث متقطع:
- إذن فهذا سر سعادتك! ويبدو أن جميلة أومأت بالإيجاب...

جلس القرفصاءَ عند مدخل البيت منتظرًا وهو يستمع إلى همسات الأنثيين، يتمنى لو كان غنيًّا مثل نجيب ساويرس لِيَـهَـب أمواله لهؤلاء، ثم سأل نفسه:

"ما ذنب هؤلاء ليدفعوا ضريبة كونهم مصريين؟!"، لكنه تذكر قول عم جلال:

"في مصر فيه ناس عايشة كويس، وناس كويس إنها عايشة"

أخذ يفكر كيف يصنعُ شيئًا لهؤلاء، فقد جاءت الثورة إليهم لكنه حتى الآن لا يسعه إلا الابتسام في وجهها؛ الابتسامة نعمة كبيرة مجانية.

قضى وقتًا لطيفًا يتأمل جميلة وهي تداعب المرأة وتتجاذب معها أطراف الحديث فتملأ البيت مرحًا وبهجةً. كانت هذه نقطة البداية في طريقهما لخدمة الأرامل والمسنين.

ظل يطوف بالمقاهي ويتعرف بالمواطنين والمثقفين والثوار الحقيقيين؛ فوسْط الناس وعلى هذه المقاعد البالية.. تهب ريح الثورة العاتية، يجلس أبطال لا يفقهون بعض ما يفعلون، يدخنون الشيشة وينفثون دخانها أريجًا للثورة، ويتشنجون ويصرخون من مِلء حناجرهم.

مؤسفٌ أنكم يا معشر المصريين نشأتم على الاستعباد وتربيتم طيلة السنين الماضية في كنفه، تناوبتكم أيدي اليونانيين والرومان والفرس ثم العرب فالأكراد وصولًا إلى المماليك ثم العثمانيين، حتى وصلتم إلى هذا النظام الذي مسح الماضي والحاضر والمستقبل وملأ رؤوسكم فراغًا، لا يهمكم من أمور الدنيا سوى الجنس والأهلي والزمالك، أصبحتم أنتم المتهم وأنتم الضحية.

...

لم ينقطع ناي عن التفكير في مشكلات الناس وصُوَر الحياة التعسة التي يراها المصري الفقير في أنحاء وطنه ولو لحظةً واحدة، الفقر في الريف والجهل في الحارات والفساد في القصور، فما العلاج سوى الثورة؟!

يعاود النظر في الأمور على شعاع هذا الضوء الجديد ويسأل نفسه مكروبًا:

"كيف نزل كل هذا البلاء بالوطن؟"

لقد كانت تلك السنوات التي قضاها ناي صعلوكًا مراهقًا سنواتٍ خطيرةً في عمر مصر، وكانت كل القوى قد اختارت هذه الأرض ميدانًا لمعركة عالمية حددت تاريخ هذا الركن من العالم لثلاثين سنةً لم يبق لمصر فيها ركن لتستريح عليه، الصناعة انتهت والزراعة تآكلت والشباب نهش عقولَهم الجهلُ واللاوعيُ والفراغ.

إن ناي كشعب مصر بكماله، يتأمل كل هذا الفساد وكل هذه الدُّوَّامات، الدهشة في رأسه أكثرُ من الفهمِ شأنَ من استيقظ من نوم طويل على أحداث لم تطف حتى بأحلامه العبثية.

يعيش هذه الأجواء الثورية المطعمة بالحب في أشد استمتاع، يمضي في سبيل المعرفة ويتلمَّـظُ معاني لم يكن يعرفها كالحب والخير والجمال.

كانت جميلة قد عرَّفته بأحد أصدقائها، أحمد مدحت، هذا الشابُّ الذي عرف الحشيش معه لأول مرة.
اصطحبه ذات يوم إلى سَطحٍ يسكنُـه أحد أصدقائه ثم ارتقيا سطح منزل، مرقا دون استئذانٍ إلى غرفة وحيدة تشغل ذلك السطح، غرفة صغيرة بالكاد تكفي فردًا لكنها مرتبة بشكل لافت للنظر، ويشتمل الحائط على صور تشي جيفارا وأحمد زكي الذي يبتسم ابتسامة لا تنقطع.

يجلس شابٌّ أسمرُ قد لفحت وجهَهُ الشمس، يبتسم وهو يقطع بالسكين قطعة من المستطيل الذي ظل يشمه في تلذذ، وفي الحقيقةِ رائحةُ ما يشمه قد ملأت الغرفة، قد سبق أن رأى ناي تلك القطعة البنية في نشرات الأخبار من قبلُ بجوار صور لمتهمين بينهم مهربو الحشيش الذين كانوا دائمًا يقفون للتصوير خلف قطع أكبر من تلك التي يراها حاليًّا؛ إذن فما يراه الآن ويشمه هو الحشيش!

سأل ناي نفسه:

"هل ذلك بيتُ مثقفٍ يساريٍّ حقًّا أو غرفةُ تاجرِ مُخدِّرات؟"؛ ضحك الشاب من نظرات ناي المتعجبة وتبادلا التعارف في عجالة، اسمه البريء، يبدو اسمًـا غريبًا مثل مظهره بالضبط.

اصطحبهما البريء إلى خارج الغرفة في اتجاه السطح، شمس الغروب تضفي على المكان جوًّا من الأثير والصهللة، أقعدهما على كَنَـبَـة صغيرة مفروشة بكِلِيم يدوي قديم؛ أدار المذياع الموضوع فوق منضدة صغيرة بجانب الكنبة فخرجت الموسيقى صاخبة مهللة، موسيقى يعرفها ناي خير معرفة؛ قال:

"هذا الشيخ العربي فرحان البلبيسي"

علق الشاب وهو يبرم سيجارة الحشيش وهو يبللها بطرف لسانه:

"أحلى عربي بلبيسي!"

مضى ثلاثتهم ينصتون إلى الكلمات الصوفية المعبقة بالعمق والسلام...

"دع الأيام تفعل ما تشاءُ.. وطِب نفسًا إذا حكم القضاءُ"

يهز البريء رأسه على إيقاع الكلمات وهو يمد يده بالسيجارة، يتكلم منسجمًا:

"الحشيش للمبدعين فقط، ورغم ذلك فلا بأس ما دمت ضيفًا".

لفَّ السجائر بالتبغ المحشو بالحشيش ثم وزعه عليهما.. لم يتوقفا عن مناقشة أحوال البلاد في حينَ ظل ناي

صامتًا مأخوذًا بأنفاس الحشيش التي سرت في أطرافه تنميلةً خفيفةً منعشةً أدهشته، ثم قال:

"أحب الحشيش المنتشر في القاهرة أكثر من الماء؛ فدخان الحشيش في القاهرة أكثر من دخان المصانع!".

جذبت ناي كلمةُ "الحشيشُ فقط للمبدعين"، إذن فهو ليس من زمرة المبدعين! ظل سارحًا صامتًا منفردًا عنهما إلى أن أعاده البريء وهو يتكلم إلى أحمد مدحت، سمعه يقول:

"أبحث الآن عن فرصة للسفر إلى إفريقيا، فقد مللت الحياة وسْط البشر، الآن تهفو روحي إلى العيش هناك في هدوء الله، لعلها استراحة محارب أو محاولة استرخاء أو هروب من الواقع المتهالك"
ثم ضحك مقهقهًا بفعل نشوة الحشيش.

سأله ناي:

"أليس من الصعب السفر هكذا وحيدًا بعيدًا؟ لعلها خطوة غير مدروسة!"؛
ضحك البريء مجددًا ثم أجاب:

"يا عمنا، الحياة قبس من عبث.. ماذا جنى الإنسان بخطواته المدروسة؟!

الإنسان لن يبلغ الراحة على الإطلاق، أنا أفعل ما تهفو إليه روحي لذلك أطلقوا عليَّ اسم البريء، والمقربون كثيرًا ما ينعتونني بالجنون.

الأمر بكل بساطة أن روحي تهفو الآن إلى هذا وتنشد فيه الراحة؛ إذن أفعلَه أو على الأقل أحاول!

الحياة تعاش، الحياة نعمة من الخالق فيجب أن نحياها.. وأحب أن أذهب إلى الحياة البكر التي لم تتلوث بالتكنولوجيا بعدُ"

ثم أكمل بعد همسة صمت: "إنه لمن المُحقق أن كل حياتك وجهودك سوف تذهب هدرًا، لكنَّك تظل أنت كما أنت ولم تصبح أحدًا آخر، تواصل السير قُدُمًا باسمك أنت، استرح إذن!"

رفع ناي رأسه ونظر إليه ثم نظر إلى السماء، يبدو مقنعًا ومبهرًا، تمنى لو شاركته جميلة هذه اللحظة الفريدة...

سأله أحمد مدحت:

"لماذا تظن أن ذلك هو الحقيقة؟"

حملق البريء في عينَي ناي ولكنه وجَّه حديثه إلى أحمد مدحت، تكلم في وقار شديد:

"اسمع يا عمنا، ما أمُرُّ به الآن هو أساس كثير من التراجيديات الإغريقية، هذه رؤية الدراما الإغريقة للعالم، فلسفة المأساة (حسب أرسطو).

لا تأتي السخرية من نقاط ضعف الإنسان وإنما من حسناته، هل تفهم ما أريد أن أقول؟ لا يتورط الناس في المأساة بسبب عيوبهم وإنما بفضائلهم مثلما سأل النبي داوُدُ اللهَ في أحد المزامير (لماذا ينجح طريق الأشرار؟!).

وأكبر دليل على ذلك سيدنا المسيح.. أحَبَّ آلَهُ لكنهم رفضوه وأهانوه، صلبوه صَلبًا، وهذا ما يحدث مع الطيبين دائمًا، وهذا ما يحدث مع الثوار على مر التاريخ، من اسبارتاكوس إلى جيفارا إلى أحمد حرارة، لم تكن مأساةُ المسيح كسلَه أو غباءه أو جهلَه، إنما الحب والشجاعة،

ولهذا لم يستطع أن يهرُب من مهزلة الأقدار التي كان يعلمها مسبقًـا عندما وهب رُوحَه فداءً للبشرية".

علق ناي:

"لكن هذا الأمر محبِطٌ للجميع!"

"الأمر نسبيٌّ"، قالها البريء ثم فَسَّر:

"أحيانًا يكون المرء هكذا فعلًا، ولكن سخرية القدر تزيد من عمق الشخصية وتساعدها على بلوغ النضج والمدى الأعلى، تكون المدخل لطريق الخلاص واكتشاف حقيقة الحياة وفنائها والزهد فيها بحيث تجد نفسك في مكانٍ أكثرَ شُمولية.

إن أكثر الناس راحة على وجه الأرض هم المحبَطون أو الرهبان والمتصوفة الحقيقيون؛ هؤلاء يعيشون في الحياة بلا مطامع، وهنا تكمن الراحة.. في عدم السعي وراء الزيف.

لهذا يستمتع الناس بقراءة التراجيديات حتى الآن؛ فهي تأتي على عكس ما نتوقع، ودائمًا ما يتمنى الإنسان شيئًـا غير الحقيقة رغم وضوحها لأنه ما زال لديه أمل في نتائج جديدة، فأنتم مثلًا تأملون في واقع أفضل بعد الثورة، انسوا.. لم يشهد التاريخ بذلك!

ولعل المسيح هو أفضل مثال يُحتذى به ويُتَّخذ رمزًا ثوريًّا، فقد جاء المسيح ليخلق ثورة، بدءًا من مصادقة الفقراء والبُـؤَّس والضالِّين، اختار المسيح أن يعيش بين الفقراء كما اختار تلاميذه وأصدقاءه وحوارِيِّيـه صيادين ونجارين وحمالين، أضف إلى ذلك أن مريم المجدلية كانت زانية.

بدأ دعوته إلى التغيير والثورة من بينهم، لم يطلق شعاراتٍ فارغةً وإنما ذهب مباشرة إلى من تقوم الثورة لأجلهم، الفقراء، قال ما يريد بالطريقة التي يريد في وجه الكتبة والفريسيين ورجال الدين الذين يسيطرون بمناصبهم على حياة الناس ويحتكرون الدين والمال والحياة، ولم تكن رسالة المسيح إيمانية فقط، لكنها شملت جوانب الحياة كلّها.

إن طريق المسيح ليست طريقًا أنيسة ورقيقة لتأخذنا إلى تدين مريح تقليدي، بل تأخذنا إلى ثورةٍ هوجاء وتحوُّلٍ كاملٍ يبدأ من عمق الإنسان وينتشر إلى كل الحياة. فمن أين أتت المأساة؟!

مثل كل ثائر يأتي برسالة جديدة فيحبه الناس ويرون فيه ما ينقصهم فيرفعونه على الأعناق، هكذا حدث مع المسيح عندما أقام موتاهم وشفى مرضاهم، أحبوه واتبعوه، إلى أن أخذ يفسر تعاليم سابقيه بالطريقة التي يراها صحيحة مما أثار ضده الكتبة والفريسيين فراحوا يتآمرون عليه من أجل إقصائه، فهو يزعزع أمن عروشهم وسلامتها، تلك التي بنوها من عَرَق الفقراء.

وهنا تكمن المأساة الحقيقية، عندما علم الناس أنه لم يأتِ ليشفي مرضاهم ويقيمَ موتاهم بل ليخلِّصهم ويحرِّرهم، رفضوه وصلبوه رغم أن حرية الروح أهم من شفاء الجسد!

والمأساة أن من رفعوه على الأعناق هم أنفسهم من هتفوا لِصَلبه.

وهذا ما سيحدث في القريب العاجل مع الثوار هنا في مصر، فمَن نزلوا إلى الشوارع هم أنفسهم من سيُطِيحون بالثوار، إنها مهزلة!

الثورة تدعو إلى الحرية، ويطلب الناس العيش.

فهذا هو الإنسان، وهذه هي مأساته."

...

نظر البريء إلى ناي ثم قال وهو يبتسم:

"بالطبع أنت تَعجَبُ مما سمعت، يبدو أنك من خارج القاهرة مثلَنا، أتيت لتجد لك مكانًا في الحياة الثقافية. اسمع، لا بد أولًا أن تعلم أنك لن تجد محترمًا -أي محترَمٍ- على وفاق مع النظام السياسي، وسوف تعمل في السياسة شئت أم أبيت، أتفهم ما معنى ذلك؟

السياسة لعبة قذرة، لن تتقنها وأنت نقيٌّ النقاءَ الثوريَّ، وهذا ما يهزم الثورات.. "النقاء"؛ فقَولُ الحق يدخل السجون، وقول الزيف يدر الأموال.

إن الغانية أشرف من المنافق؛ فالغانية تبيع جسدها وهو ملكها وحدَها مهما كانت الدواعي، أما المنافق فهو يبيع أحلام الملايين ويتاجر بها من أجل ربح أو نفوذ أو سلطة".

ابتسم ناي وهو يسعل بعدما أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته ثم قال:

"لم آتِ إلى الحياة الثقافية هنا عمدًا، لكنها سحبتني قسرًا، يومًا بعد يوم تنزلق قدمي إلى العمق ولكني أشعر باللذة".

فقال أحمد مدحت ساخرًا:

"إن كنت تتوهم أن ثمة حاكمًا نقيًّـا مخلصًا للشعب، فاتخذ إجراءً بسيطًا، اقترب من الكرسي وحاول أن تزيحه من الحكم، سترى شيطانًا على الأرض، سينقلب الطَيِّب ماردًا قاتلًا لا يتوانى في أن يقتل الآلاف ويسفك دمهم كي يُبقِيَ كرسيَّه".

- ولكنَّ الحرية تستحق الألم من أجلها!

رد البريء:

"وهذه هي الحقيقة، إن كلَّ شيءٍ نحبه يستحق الألم بغض النظر عن النتيجة، فالمحب لا ينظر إلى النهاية ولكنه يعشق الطريق.

يقولون إن عقلي قد خَـفَّ لأنني أعيش في الظلام، اعتدت ذلك لطول معاشرة الليل والخلاء والنوم في الليالي الكالحة عاريًا لا يستر لحمي إلا إزار مهترئ.

الشوارع بيتي والأرصفة ملهاي، أعيش في عالمي الخاص وأعيش جوار نفسي في الزمان الذي لم تكن الأعين قد خلقت فيه بعد، فقد تعلمت منذ نكبتي ألا يهمني شيءٌ، إذ لا يُكبِّـِل الإنسانَ مثلُ حرصه المضحك على حُسْـنِ السمعة.

سر الحرية التي أتمتع بها هو الألم والخلاء وسوء السمعة وما تيسر من الأفيون، لي صوت كالقرقرة ونبرة لا تخلو أبدًا من السخرية والثقة بالنفس.
للسادة مَنزِلةٌ يُخـشى فواتها، أما الفقراء فليس عندهم ما يخافونه.
وأنتما، لماذا لا تجعلان حياتكما امتدادًا جميلًا لهذه الجلسة؟! ستقولان العمل والأسرة والواجب... سُـحـقًـا لكل ذلك!

إني أسخر من الناس ومن هذا الكلام الفارغ وهم يسخرون مني في دواخلهم بالصمت، وهذا يعني أنهم لا يتعلمون، أما أنا فقد حققت لنفسي المعجزة رغم أنف الدنيا، في غمرة الذهول تبدو الحياة طويلةً كثيفةً مُثقلةً بالملل، وأنا لا أخاف الموت.. فمن من الناس لا يخاف الموت مثلي؟!

في قلبي خلاصة مركزة لحكمة الحياة، كل شيء فانٍ.

ماذا جنى الناس من عقولهم؟! لماذا لا يجربون جنوني؟! إني أخدر نفسي بابتكاري العجيب.. اللامبالاة، أترك الحياة تذهب كيفما شاءت، حتى الجنس أصبحت لا أعيره اهتمامًا لأن الغريزة مجنونة مثلي، فهي تأخذ من مشاعرنا ما تريد وتذهب دون أن نستيطيع محاسبتها.

لا تعطوا الحياة ولا أنفسكم ولا أيَّ شيءٍ أيَّ قيمة، فقط اللا شيء هو القيمة العليا.

عذرًا؛ لن تصدقوا كلامي، ولن تؤمنوا بحل اللغز، لأنكم عاقلون في حياة مجنونة، أما أنا فأكثر الناس سعادة لأن جنوني ينطبق على جنون الحياة".

...

ظل ناي مبهوتًا بما يسمع، يقول البريء ما يعتمل في صدره دون أن يعرف كيف يعبر عنه، فـلـعـلَّ أسعد اللحظات هي التي نجد فيها من يشاركنا المشاعر نفسها!

حكى كل ذلك لجميلة عند رؤيتها...

ما يميز ناي وجميلة أن لديهما دومًا شيئًا يقولانه، لم يتسرب إليهما الملل مطلقًا، باستثناء تلك القطيعة التي كانت بسبب انشغالها في الدراسة، يندمجان في كل شيء، أفلامهما المفضلة، البلاد التي يودَّان زياراتها، أحمد زكي، وجع الحياة، كل شيء وأي شيء، يشعران بما ظلا ينتظرانه، تسارع دقات القلب، الفرحة المفرطة غير المبررة...

أخبرها أنه لا يعلم الآن إن كان الأفضل أن يبقى في القاهرة للحب وللثورة، خصوصًـا أن أمَّه أبدت اعتراضًا خفيفًا على الغربة لكنها قالت:

"إن من الحماقة أن تتحدى أحداثًا قد تحمل فوق جبينها طابع القدر"

بيد أنها كانت سعيدة في باطنها، لقد كبِـر الطفل وصار رجلًا، هذا ما كان يعيِّرها به أهل الشارع، أنها أنجبت ذَكَرًا في صورة أنثى، لذلك فقد سُعِدت به لأنها لم تيأس من هطول الرحمة ذات يوم.

أهدته جميلة كتابَ "قلب الليل" لنجيب محفوظ، كان متحفظًا عن الاقتراب لدنيا نجيب محفوظ؛ يشعر تجاهه بالرهبة والحنو، كما أن الإنسان يؤجل من الثمار أطيبها وأينعها كي يستلذ بها في النهاية، لكن نجيب محفوظ طرق بابه بيد جميلة، فما كان منه إلا الانصياع.

رهف قلبه بشعور سحري، ربما لم تكن هناك كلمات كافية لتشرح إحساسه في تلك اللحظة، ربما لحبه الذي يترسخ في داخله لقاهرة نجيب محفوظ التي نفتقدها الآن.. والأجمل من ذلك أنها هي أيضًا تحن لذات القاهرة، قاهرة الست نادرة والرجل الأعمى.

أجراس القدر ترن في أذنه تنبهه إلى أنه مشهد يُرسَم بفرشاة تداعب قلبه عندما قرأ إهداء جميلة إليه:

"أحبك مثلما أحب نجيب محفوظ القاهرة".

زارا مقهى ريش في ذلك اليوم، ثمة صورٌ معلقة لكثير من المبدعين، فما زال المكان يحتفظ بغرام العمر البائد!

ظل ناي صامتًا أمام جميلةَ وعينِها واختلاجاتِها، ركن مقدس ينظر إليه.. تلمع عيناه ويدق قلبه، ما زال يشعر أمامها بنفس العشق والدهشة والانجذاب.

قال لها:

"إنني أريد أن أفاتحكِ في أمرٍ ما.. أريد أن أعمل خلال الفترة القادمة؛ كنت قد حدثتكِ عن محاسب في المقهى القريب من اللوكاندة، ما زال المكان شاغرًا"؛ ابتسمت جميلة وهي ترمش بعينها وقالت:

"أحسنت التفكير!"

كان قد التحق بوظائف كثيرة في السابق لكنه لم يكمل في أي منها بل كان يذهب إلى غيرها؛ لم يحتمل تعنت أصحاب العمل.

لكنه هذه المرة كان يخشى ألا يرضيها العمل الذي ينويه؛ فبهذا العمل تتسع الفوارق بينهما.

ضحكت وهي تضم أصابع ناي إلى يدها ثم قالت:
لا شيء يهم مثل ارتياحك، أنا أريدك في أي وضع".

كان يشعر في داخله باكتماله لكنَّـه عرض عليها ليعرف رأيها، لم يكن هذا الشعور بالتكامل هو التغير الوحيد الذي طرأ عليه منذ أحبها، فمن يعرفه فسوف يلاحظ عليه هذه التغيرات، لقد جدَّت عليه صفات نبيلة تترسخ وتشتد، حيث ازدادت ثقته بنفسه وأصبح مرحًا بشوشًا أكثر هدوءًا، اكتسب عقلُه أفكارًا غريبة خفية متقلبة ومستحيلة أحيانًا، تغير قلبه ورغباته وانفعالاته وتعلم أن يسير مبتسمًا.

اتفقا على أن يكللا عَلاقتهما بالوضوح وألا يتركا مجالًا للخيال المريض ليتربصَ بهما فهي تَعْلـمُ أن الظن قد يجلب سوء الظن، الأهم والأبدَى أن يعتذر من أخطأ منهما في حق الآخر لكي تتضح الصورة، وعلى الآخر أن يقبل الاعتذار، فمَن منا لا يخطئ؟!

لقد عاشا حقًّـا أيامهما في هناء في عَلاقةٌ لا تشوبها شائبة، فقط حب ومتعة وألق.

قالت جميلة:

"إن القراءة تقربك إلى ذاتك وتحببها إليك، وعندما تحب ذاتك تحب الآخرين في الله، وهذا تفسير مقولةِ (الله محبة)".

دائمًا ما يكون كلامها حلوًا، يستلذه ويتأمله، وبالإفراط في الحديث أدرك أيضًا أن لديه قدرةً فائقةً على التعبير عن كوامنه بالكتابة، حتى عندما أفصح لها عن ذلك قالت وهي تضحك ضحكة بلهاء:

- لعلك تصبح كاتبًا!

- لكنني لا أرى ذلك في نفسي، فـلَـو عرَف الكاتب طريقة أخرى للتعبير عن ذاته غير الكتابة لاستعملها! سألها مستفهمًا فأجابت:
- قرأت أن وراء كثير من الكتاب العِظـام خجلًا عظيمًا، قد تكون هذه حقيقتهم لكنهم يكتبون أيضًا لأن نفوسهم تنطوي على معرفة تسيل فوق الورق.
...
غفل عنها وهو يتذكر نفسه كيف كان وكيف أمسى، فهو لا يكف عن الكلام منذ طرق باب المعرفة.

شعر بألمٍ حادٍّ في ضرسه الذي كثرما أوجعه، صمت للحظة وهي لا تزال منتظرة إلى أن قالت:

- لماذا سكتّ؟

- ضرسي يكاد يفجر رأسي ألمًا!

أحست قُشَعْريرة تجتاح بدنها فلم تجد كلمة لتقولها؛ اكتفت بـ"سلامتك"، لكن عينها ظلت تئن أنينًا لأجله.

نام آملًا أن يستكين الألم، دهمه نوم عميق من تأثيرالمسكن، نوم عميق مليء بالأحلام والنجوى. وفي غداة اليوم التالي استيقظ على صوت زقزقة عصفورين كان قد اشتراهما ليؤنسا وحدته، تمطّى متباطئًا وهو يتثاءب ثم فرك وجهه وراح يتأمل الطائرَين الصغيرَين قائلًا:

"أنتما شاهدان على نشوء مخلوق جديد قد يشبهكما"، ثم تأملهما قبل أن يذهب إلى المرحاض ليغتسل ثم نزل إلى المقهى ليشرب شاي الصباح.

يجلس صامتًا يتأمل مزايا الكون، الحياة حقًّـا جميلة لكن ثمةَ بشرًا مسعورين يعيشون الحياة في نهم ونكران، لعلهم فقدوا الرجاء، لعل زادَ الحياة هو الأمل.. حتى إن المسنين وهم يحتضرون يتشبثون في أمل حسن الختام.

في تلك اللحظة يشعر بأنه يكاد يبصق في وجه الدنيا، يكور قبضته وهو يتوعد الكون غضبًا حينما يتذكر أن الثورة تواجه أيامًا عصيبة؛ فقد اشتدت رياح الثورة المضادة وامتدت وكثرت حملات التشويه والتخوين، التشويه الفكري والنفسي لكل من يقول لا!

يعود ويقول في نفسه إن الثورة قد ركبت صهو جوادِها، ومحالٌ إنزالها أو إقلاعها عن طريقها، لكن الشك تسلل إلى عقله والحقيقة بزغت في رأسه رغمًا عنه..

شعب أمِّيٌّ يَسهُل اللعب بمقدراته، وبين الأميين سهلٌ انتشار الكذبة وصعبٌ دحضها، وإنما يطمئن الجاهل إلى الحقيقة القريبة السهلة، وليست هذه الحقيقة إلا كذبة.

يعرف ذلك كله لكنه يحاول أن يستمسك بالأمل، فاليأس خيانة الحالم!

ما زال يظن أن الشعب يحب الثورة ويهتف لها، والشعب وحده كفيل بِوَأد كل هذه الأكاذيب التي تنتشر في الهواء، لكنه يعود ويقول:

"إن الدولة العميقة تعرف من أين تؤكل الكتف"

مر زمن طويل ولم تحقق الثورة شيئًـا للناس؛ حيث ينتظر البشر دائمًا المكاسب القريبة وهكذا هي الشعوب.

شعر بحزن عميق وألم دفين وتلوَّن عقله بسواد دامس، فهو لم يفكر في كل هذه الأمور من قبل، لكنه الآن سرح بعيدًا في صحراء الشك المُتلظِّية بنار الحقيقة.

يقول هتلر:

"أعطني إعلامًا فاسدًا أعطِك شعبًا جاهلًا".

يُفتِر فُوه عن ضحكة ساخرة من الواقع المجنون، كاد يُجَـن وهو يرى من يتاجرون في الوطن محتلين الشاشات وقد عاد مسارهم من الثورية إلى التطبيل.

وأما من يدافعون عن حقوق الناس فإنما يُزَج بهم من أيديهم في السجون تعسفًا بتهمة تخريب الوطن...
لكن التاريخ كان يزيح عن عقله هذه الغمامة ويذكره بأن الحقيقة ثقيلة على أصحابها، ولكنها مهما توارت خلف سحب الشك وخبا وهجها سيأتي يوم يراها فيه الجميع ويؤمنون بها، ولكن يجب قبل ذلك على من يملكون شيئًا من الحقيقة أن يجدوا الطريق كي تصل خالصةً إلى الناس.

"الناس" كلمة السر المنسية، الكتلة الحرِجة التي تهب الحقيقة قيمتها أو تنتزعها منها، وتاريخيًّا غابت الحقيقة كثيرًا لكنها عادت، فهي لم تعد بالمثقفين ولا بالنخبة وإنما بالناس!

إذا مش نازلين للناس فبلاش
والزم بيتك.. بيتك بيتك
وابلع صوتك.. وافتكر اليوم دا
لإنه تاريخ موتي وموتك

لكن مناقشاته تدور في نفس الفلك، نفس الانتقادات والتهم التي توجه إلى الثورة ويجيب عنها بنفس الحجج، مسلسل متكرر من الجدل البيزنطي والسفسطة الفارغة التي لا تأتي على شيء إلا أنهكتـه واستنفدت طاقته، لكن الغرام بالحقيقة يدفعه دفعًا إلى الذُّود عنها، وفي نفس الحين تجتاحه رغبة أخرى رغمًا عنه أن يصل بالحقيقة التي يؤمن بها إلى آخرين، الحقيقة التي استراح في إثْرِها واطمأن لها وأصبح إنسانًا يستقبل الفواجع بصدر رحب.

على مدار ساعة كاملة يتقلب في فراشه دون جدوى، فالحجرة هادئة والصمت ثقيل ولا يقطعه إلا صوت المذياع المتقطِّع، شد جسده إلى أعله وأراح ظهره على مَسنَد السرير، تراءت أمام عينيه أحداث الأيام الماضية، الأيام تمر ولا يعلم كيف ستنتهي، أُنهِكَت رُوحُه ورَكِبَه الكربُ، أحلامه تتقاذفها أيدٍ كثيرة وكل يد تبحث عما تريد.

هذا الشعب يسكن في قاع بئر مملوءة بالغائط دون أن يدري، والأدهى أنه يزيح من يحاول إيقاظه!

لأنه من يقل لا، لا يرتوِ إلا بالدموع.

كلما رأى انتقادًا للثورة اهتز خلل الثقة المتأصل في روحه وشك في صحة أفكاره، لكنه يستعيد قوته بالقراءة والشعر وبمن أحب من الإعلاميين، وبجميلة..

يلوح الإحباط في الأفق مثل طائرٍ أسودَ نذير شؤم وتنحسر العقدة على الأعناق، تحرقٍ النار كل الشرفاء بطريقة ممنهجة ويقتل اليأسُ الحلمَ في هدوء، فإنما هو إحباط عامٌّ يشمل كل قطاعات الشباب الذين شاركوا في الحلم، والسماء تنذر بقرب النهاية.

ظل يعيد في داخله تلك الليلة التي كان يجلس فيها وسط زمرة من الأصدقاء، عندما قال أحدهم بلهجة يملؤها اليقين:

لا سلطة تعلو فوق سلطة المال"،

فقال آخر:

"على قدر مالك تنال احترامك"،

وقال ثالث:

"العالم خليط من المال والجنس ورائحة الشيطان، والإله يشاهد مثلنا".

تناثرت الأفكار والآراء، كلٌّ يدلو بدلوه في جو يغلفه الغم والقُتوم، ويجلس ناي صامتًا ليس لديه رغبة في الولوج في وصلة الولولة تلك، فهو يعلم أن رأيه مخالفٌ تمامًا لما يقولون، وليس ذلك عمدًا أو رفضًا لمجرد الرفض كما يزعمون، بل لأن رأيه يأتي من إيمانه العميق بأفكاره التي يحياها، لكن رغبته في الحديث ازدادت بتوغلهم في غياهب اليأس حتى خرج عن صمته وقال:

"ما تقولون عبثٌ ليس غيرُ!"

في إثر كلماته الرنانة حل صمت للحظات تراجع فيهنّ في داخله عن هذا الهجوم غير المبرر، فقال محاولًا تلطيف الأجواء:

"أحترم آراءكم، لكني أختلف مع كثيرٍ منها"

علق أحدهم:

"أتحفنا بأوهامك!"

أزعجته الكلمة وتقلصت أحشاؤه فلاذ بالصمت حتى يتحين لحظة مواتية، ولكنه ظل صامتًا إلى أن عاد إلى اللوكاندة وقد اهتز إيمانه بنفسه اهتزازًا عنيفًا.

كان كلما رأى خطأً ما تحدث عنه على الفور؛ فلم يكن يراوغ أبدًا، حتى إن صدقه كان يثير حنق الآخرين ويُشعِرهم بالإهانة، لقد كان صريحًا مستقيمًا إلى حد الفظاظة!

لكنه كان يحب استفزاز الآخرين ليرى ما يُبدونه في لحظات الغضب، الأمر الذي دعا كثيرًا من المقربين إلى أن ينفروا منه ويخافوه ويخافوا لسانه السليط.

أصبح مهاجمًا شرسًا لكل ما يتعارض مع أفكاره وخصوصًا في ما يخص الثورة، فهو (على الرغم من ثوريته وتمرده) يحب بناء التماثيل التي يجلس أمامها يتعبد يوميًّا على الشاشات وفي الصحف والكتب.

كل ما يحبه يَرفُض أن يُمَسَّ بسوء، حبه للحقيقة أقوى من ارتياحه لتملُّق الآخرين ومديحهم، لذلك كان يعلم في أثناء المناقشة أنه قد يخسر هذا الشخص إلى الأبد، لكنه يمضي في طريقه غيرَ مبالٍ، مثبِّتًا ناظرَيهِ على الحقيقة التي يؤمن بها.

لم يعلم أبدًا أن هذه التفاصيل الصغيرة سوف تخلف في قلبه حزنًا قاتلًا وفراغًا مميتًا عندما يهدأ ويراجع نفسه حين يخلو إليها.

بمرور الأيام مضى الأصدقاء ينفضُّون من حوله مثلما ينفض المُعَزُّون من حول أهل الميت، بات وحيدًا صريع الأوهام والأفكار والندم فانطبعت في عقله مجددًا حقيقةُ أنه مكروه، غير مرغوب فيه، حينئذٍ عادت إليه الذكريات القديمة وعمَّت روحَه الفوضى العارمةُ فـهوَى من جبال الثقة بالنفس إلى سفوح سحيقة من خيبة الأمل والميل إلى العزلة.

هذه النار التي ظل سنواتٍ يجاهدُ كي تنطفئ، لم يكن يدري أنه يشعلها بيديه ويغذيها حطبًا بفكره وأفعاله.

قص على جميلة ما يجول بخاطره وحكى كل شيء دون خجل أو ريبة:

"ما الخطأ في أن أقول إني لا أهتم بالمال مطلقًا؟ المال وسيلة إلى السعادة وليس هدفًا في حد ذاته، وإن الإنسان إذا تملكه المال وصار عبدًا له تحول إلى وحشٍ ضارٍ زَهدَ في مباهج الدنيا وامتلأ قلبه خوفًا وهمًّـا".

أكمل كلامه على هذا النحو وجميلة كعادتها موافقة على أفكاره لكنها تقول في قرارة نفسها:

"هذا كلام جميل، لكنَّ واقعَنا لا يؤمن بهذا!"

لكنه يجذبها أيضًا بسخريته الذكية المترفِّـعة على كل ما يتوق إليه الآخرون وخصوصًا أحد الأصدقاء، الذي لا يكف عن مهاجمة ناي بضراوة، بحيث لا تعجبه كلمة مما يقول ناي، يتعمد استفزازه، كانت تكمن شخصيته في ارتكازه الشديد على القوة المادية، إذ غذّتـه تلك القوة بالتعالي والثقة والتفرد، وبوعي سقيم اختزل الدنيا كلها في المادة والسُّلطة باعتبارهما فريسةً للسيطرة، فأعرض صاحبُ هذه الروح المريضة عن ذاته وعن الآخرين.

يدير الوجود من حوله معتمدًا على القوة المادية فأنتجت أفعاله قدرًا من الكره الداخلي لكل ما هو ناجح سواه، خاصمه الامتلاء الرُّوحيُّ إذِ افتقد في تصرفاته كل ما هو إنساني شريف وأهدر كل ما هو نبيل، يصاحبه الخواء الروحي في كل مساراته، والمفارقة التي جسدت مأساته هي ثقته المطلقة في ذاته وتشبثه بقناعة صارمة في قدرته على السيطرة على الآخرين!

لذلك كان يعترض على كل كلام ناي الروحاني الذي يتعارض مع ماديته.

فقال له ناي:

- لم يعد عجيبًا بالنسبة إلينا أنانيتك، كأنك الوحيد على الأرض!

- متى تكف عن أوهامك؟! الثورة لعبة صنعها الجيش اعتراضًا على التوريث، ولستم إلا أحجارًا تحركها قوى أكبر منها.

- سنظل نؤمن بما نحب إلى الأبد، حتى إن كان وهمًا فالأهم أن لدينا شيئًـا نحارب من أجله.

- أنت موهوم، لديك نقص تريد إكماله بهالة المثقف، لكنك بالون ممتلئ فراغًا.

...

راح ناي يسخر منه في ثقة، لكنه اغتم في داخله وتكالبت عليه الأحزان مثل الذباب الذي ينخر في جثة كلب ميت، فالثورة التي بنى عليها أحلامه تهوي الآن في خِضَمِّ معاركَ حاميةٍ مع مئات الكلاب التي تنهش جسدها.

أصبح يسمع لعنات الناس للثورة وما خلفته من خراب وفوضى!

وشخصيته التي تَصوَّرها فذةً محبوبةً من الجميع بعيدة عن الخطأ- تبدت له في صورة أخرى أهون وأبهت.. وهَوَت على رأسه تلك الحقيقة التي أفقدته وعيه!

حتى الصِّحاب الذين ظنهم يُجِلُّونه فرُّوا بعيدًا وتنصلوا منه ومن ثورته، سخروا من فظاظته وصفاقته وغروره، إذن ليس أمامه طريق سوى العزلة.

أخذ يهجر التلفاز الذي اتجه معظم من فيه إلى إدانة الثورة وتخوينها وراح يقرأ ويفكر في سكون وهو يرى كل من أحبهم يدورون في نفس الفلك، الإحباط وغياب الرؤية والإحساس بضياع الأمل.

فكر في أن يعرض نفسه على طبيب نفسي، لكن القراءة مكنته من ملامسة بعض السلام وذكّرته أن الصمت فضيلة، وأن العاقل يصمت في هذا الزمان لأنه زمان رديء. مع مرور الوقت ازداد يقينًا بأن المرء الذي يشتعل أملًا قد يعرض نفسه للخطر، ولكنه يبقى مخيرًا بين الأمل واليأس.

عندما يختلي بذاته يشعر برغبة قوية في السقوط، كان الحماس الذي انكبَّ به على الحياة عند قدومه إلى القاهرة ضاريًا وهشًّا في آن واحد، فظل يخشى أن يجرؤ أحد على أن يقول له: "لست في مكانك هنا، ارجع إلى المكان الذي أتيت منه"... لكن إقباله على الحياة مشدود ومنجذب بقوة الروح التي تخلصت من عُقَد الماضي وجعلته يطفو فوق السطح.

لكنَّ ثمةَ خطرًا يقترب، ذلك التضامن المهلهَل على اليأس لفقراء الأرواح ذوي الكبرياء المضحكة.. السعداء بأنهم أنزلوا من فوق أكتافهم حمل الحرية، الذين استسلموا إلى أول مطب وقعت فيه عربة الثورة، المؤمنين بأن اليأس راحة، وأنك إن ترقد في قاع بئر فلا خوف عليك من

السقوط، كما يؤمنون بأن الرياح لا تزعج المُنحنِي، وأن البلد بلدهم!

يأخذون التعزياتِ مبكرًا في موت الثورة، وكان ذعرهم نابعًا من متابعة تصوير اغتصاب المستقبل البعيد.
لقد خسر الثوار كل رهان دخلوه، لكنَّ من يبتغِ الارتقاء فعليه أن يستعد يومًا للإصابة.

المشهد هزليٌّ أشبه بديكور مسرحية، فالوضع على المسرح منتظم وواقعي، أما في الكواليس ترى شيئًا مختلفًا، شيئًا فيه غموض وتجريد.

لكن ناي يعيش في الحقيقة حتى إن اهتز، وتلك عبارة استعملها كافكا يوميًّا في رسائله، هذه العبارة تسحر ناي:

"معنى أن نعيش في الحقيقة أننا لا نكذب ولا نخفي ولا نتكتم"

وهذه حياته الآن، فعلى الرغم من أن الوضع يجره إلى أن يخفي مشاعره وأفكاره التي تتعارض مع المزاج والشعور العام فهو يأبى ذلك، شيء من الاتساق مع الذات يمنعه من أن يتوارى خلف الرياء؛ ذلك أنَّ قِـمَّة الخيانة أن تخون ذاتك!

حين تخون ذاتك لن يعود أي شيءٍ تؤديه حقيقيًّـا، أن يفقد الإنسان ذاته ولو لحظةً معناه أن يفقد كل شيء، فـهذه خسارة لا تُعوَّض وخطأ لا يمكن تلافيه، فالإيمان لا يلغي العقل بل إنه يفوقه بكثير.
...
أفاق من سكرته وتأملاته وكان الليل قد أوغل في الظلام والسماء تسربلت بهالة من اللون الأسود مثل فتاة حلت غدائرها السوداء فغطت الكون كله، وحـلَّ سكون في الجو يُسمَع هسيسُه بالأذن.

تذكر أيام طفولته فشعر بحنان اقشعر له بدنه، وآثر السلام الذي حل بروحه عندما اختلى بجميلة وحكى لها.

هبت أمامه صورة الماضي البعيد نقية يحيطها إطار أبيض يريح العقل، وبداخله صورته وهو صغير نائم متشبث بحِضن والدته بعدما دارت برأسه خيالات أرعبته في تلك الليلة.

كان والده مسافرًا في تلك الليلة وكانا نائمَين على سطح المنزل في ليلة من ليالي الربيع البديعة، مستلقيَينِ فوق سرير من الجريد.
أخذ يفكر قبلما يزوره النوم، خُيِّـل إليه أنهما جالسان فوق سطح سفينة، وبينما هي تمخر في جوف البحر إذ غرقت، رأى صورة والدته تغرق وتحاول النجاة، تهيأت له وهي تغطس وتختنق فارتعد كثيرًا وخَـبَـت أنفاسُهُ من تأثير الخوف، تشبث بوالدته وأيقظها فوجدته ينتفض...

- ما لك خائفًا؟

قص عليها ما خُيِّـل إليه، فقالت وهي تربت ظهره:
- لا تخف، لعل الشياطين تريد أن تقلق منامك.

أخذت تبادله الكلام في حنو أمومي، حتى سألها:
- ما معنى أن يموت الإنسان؟!

- لا تتحدث عن الأموات في الليل لكي لا تقلق منامهم..

- إذن، غنِّي لي أغنيةً لكي أنام!

- متعِبٌ، لكني أحبك.

عندما تغني.. صوتها الشادي يصيح بألحان ومدائح وتراتيل تراثية قديمة عن الحياة والناس يتوارثها أهل الصعيد فنًّـا وتراثًا...

ياما زقزق القمري
على ورق الليمون
علشان بلدنا يا وله
وجمال بلدنا يا وله
كله يهون...

استلذ صوتها واحتضنها بقوة ثم لثم وجنتيها ونام، كانت الأم أشاعت في المكان كله بهجة ذهبية ذات أُبَّهة وأنس، فاستُغرِقَ في نوم هادئ.

يتذكر ذلك كله فيبتسم، ثم ينظر حوله فلا يجد أحدًا؛ بدا الجو مُوحِـشًا بعض الشيء وخُيِّـل إليه أن مخلوقاتٍ غريبةً سوف تقفز عليه من السماء وتنقَضُّ عليه انقضاضًـا، تراءى له في ركن من أركان الغرفة شبح غامض الهُوِيَّة؛ وصوت الهواء يصفر في الشارع محدثًا جلجلة وصلصلة تختلط بهسيس الصمت وسكون الليل.

ود لو غنَّت له والدته في تلك الليلة، لكنه وجد نفسه وحيدًا بلا غناءٍ ولا أم، فلا وجود حقيقيًّا إلا لجميلة وحبِّها.

في اليوم التالي استقبل صباحه بعبارة كتبها على صفحته:

"الحب عَلاقة روحانية ومنحة إلهية، الحب حقيقة لأنه رُوحانيّ، ورُوحانيٌّ لأنه ربانيّ، ولا أحد يملك الحقيقة إلا الله"

كتب هذا على الفيس بوك وراح يتابع التعليقات وهو يجلس في المقهى القريب يتأمل مجيئها، فإذا بها أمامه!

- قد شعرت بمجيئكِ قبل أن تأتي.

- أعلم أنك تعلم.

أعطته كتاب "الجنوبي" عن قصة حياة شاعره المفضل أمل دنقل فأخذ يقرأ مقدمته في نهم:

"تأخذ محاولة العثور على مدخل حقيقي لشخصية أمل شكلًا من أشكال الصعوبة حيث نصطدم بعالم متناقض تمامًا، يعكس ثنائية حادة كلٌّ من طرفيها يدمر الآخر ويشتت كثيرًا من أشكاله، إنه الشيء ونقيضه في لحظة نفسية واحدة يصعب الإمساك بها أو العثور عليها.

عالم فَوضَويٌّ يحكمه المنطق.. بسيط في تركيبة شديدة.. صريح وخفي في آن واحد.. انفعالي متطرف في جرأة ووضوح، كتوم ولا تدرك ما في داخله.. يملأ الأماكن ضجيجًا وصخبًا وسخريةً وضحكًا ومزاحًا.. صامت إلى حد الشرود.. حزين حزنًا لا ينتهي.. استعراضي يتيه بنفسه في كبرياء لافتة للأنظار.. بسيط ببساطة طبيعية يخجل معها إذا أطريته.. ربما يحتد على مديحك خوفًا من اكتشاف منطقة الخجل فيه.. صخري شديد الصلابة ..لا يخشى شيئًا ولا يعرف الخوف أبدًا ولكنه من السهل إيلام قلبه.. تاريخه حافل بالعصيان لكنه غير ملحد!".

أغلق الكتاب وتنهد...
قالت جميلة: "وجدتك في كتاب!"، فـقـبَّـل يدها..

حبهما في حاجة إلى مدينة أوسع من القاهرة التي خرجا يمشيان فيهما لأن الشوارع أصغرُ من أن تتسع لأقدامهما، كانا في حاجة إلى سماء أقرب لأن السحب أبعدُ من متناول أيديهما، لكنَّ ناي وجميلة مثل السمك، وسائر الناس مثل الماء، فبغيرهم تبدو الحياة قاحلةً موحشة.

عندما يسيران معًا لا يريان أحدًا ولا يشعران بأن أحدًا يراهما، فيدخلان إلى أزقة وحارات لا يعرفانها، يشربان عصير القصب بحيث لا وجود للبذخ، وحينما يتعبان فيجلسان على الطِّوار لأن قطعةً من الرصيف كفيلة بأن تصنع لحظة فرح!

تعلما أكثرَ الأشياء حياةً وأعظمَها متعة.. تعلم أن يُقبِّلَها.. يقبل شفتيها ويتذوق قِطـافها البكر، يرتعد جسده من لمسة دفئها ويحضنها ثم يعاود النظر إلى وجهها، يحملق كل منهما في الآخَر في هذه الدرجة من الاقتراب الحميم ويبحث كل منهما عن صورته في عينَي الآخَر، تغمض أعينهما رَغمًا عنهما ومع ذلك يريان بعضهما، تأخذ أجسادَهما خفةُ العصافير وهشاشةُ السحب.

بدأت لغة خاصة تنمو بينهما، لغة التقارب والتباعد، حركات متموجة وَفق إيقاع خاص فيه بعض التلامس والدفء، الالتحام يجعل أجسادهما دائمة التشكل وكُـلُّ جسد يتشكل حسَبَ منحنيات الجسد الآخر، وخلال تلك العملية يتصاعد إيقاعٌ خفيّ.

مع كل قبلة ثَمَّ طعمٌ مختلف، يسري في عروقهما شذا أشجار الصفصاف والجازورين والورد الجوري وشيءٌ من نضارة الخضرة.

كان الصمت الذي يحيط بهما في الشوارع الهادئة يعطي قُبلاتِهما طعمًا مختلفًا وإحساسًـا بالتبتل والوجد والرغبة في الذوبان. يتمشيان في أماكن غريبة تشبههما ويسيران خلف الأسوار المُهدَّمة وفي قلب المدينة.

يثرثر المواطنون في المترو ويتشاجرون كعادتهم، في حين أن ناي وجميلة يتأملان كل ذلك في حب ويفسران أمور الناس على نحو فلسفي مُطعَّم بعبق الحب؛ فالناس معذورون؛ الحياة صعبةٌ تمضي من ضَيِّـقٍ إلى أضيق، حتى الثوار نسُوا الناس وباتوا يفكرون في ما يخصهم.

كان عبق جسدها يبقى في أنفه فيتخيل أنه ما زال يعانقها، يتبادلان الصمت والكلام والحب في كل مكان دون الولوج في حديث رومانسي من الأساس، يصمتان عندما يتلامسان ذلك التلامس العفيف حيث تكفيهما مفردات اللغة التي تمتلئ بها أجسادهما!

لا يختلفان كثيرًا؛ قد وَحَّدَتهما الثورةُ والحبُّ والحريةُ وحبُّ الناس، وحتى إذا اختلفا فنظرة عتب من عينيها تنهي الخلاف؛ فهو لا يقوى على مقاومة هاتين العينين اللتين تنطقان.

وصلا إلى درجة من الامتزاج النادر، درجة من الدفء الروحي تذيب الفروق الطبقية التي لم ينتبها إليها.

درجة من التداخل تجعلهما ينفذان معًا إلى دواخلهما خلف أقنعة الجلد والعظام، ينفذان إلى جوهر رُوحَيهما.

قرأت له قصيدةَ "الحلزونة" لفؤاد حداد، دق قلبه دقةً... ربما لم يكن لديه ما يكفي من الكلمات لتشرح إحساسه حينها، إنما ظل ينظر إلى عينها واختلاجاتها، ذلك الركن المقدس حين ينظر إليه تلمع عيناه ويدق قلبه، ثم نطق فجأة...

- لقد بدأت العمل في المقهى منذ مدة..

- أنت لَم تخبرني بذلك من قبل!

- خشيت أن يؤثر وضعي هذا على حبنا..

- ولكنَّ حبَّنا لم يقف في سبيله أي عائق!

- أعلم، لكنه الخوف..

- الخوف يقتل أكثر من الحقيقة!

نظر إليها في وجد وهو يكرر قولها:

"الخوف يقتل أكثر من الحقيقة...".

9

يحتل المقهى منزلة قريبة من قلبه ويأسره جوُّها المعبَّـق برائحة الماضي، فالناس هنا أقل كلفة، سهلةٌ معاشرتُهم.

هبط من اللوكاندة في ثاني أيام عمله وكانت الشمس لم تظهر بعد، أصبحت الأمطار نصف قوية. وما إن فتح باب المقهى شغَّـل المذياع ثم أحضر إليه القهوجي شاي الصباح بالنَّعناع، وبينما يأخذ مجلسه فوق ماكينة الدفع إذ توقفت الأمطار تمامًا وبزغت الشمس بقوة كأنها مصباح يتوهج قبل أن يحترق، هبت رائحة عبارة عن خليط من كلوت بك ونسمات الهواء المحملة برائحة الطمي الذي يغطي أسفلت الشارع الذي تشبع بالمطر، أجواء لم يعتدها صعيدي جاء إلى القاهرة.

ارتفع صوت أدعية الصباح من المذياع هادرًا، وأغمض عينيه محاولًا التشبع باللحظة حتى نهايتها.

فتح عينيه وهو يشعر بأنه مقبل على ساعات من السِّحر الصافي، فعندما تمطر يحتمي قاصدو الأعمال بمدخل المقهى، وقد شاء القدر أن يمتلئ المكان بالزبائن إلى أن يهدأ المطر مما أشعَرَه بأنسٍ وَدَّ لو لم ينتهِ.

فالصباح في القاهرة مختلف، وصوت المذياع أيضًا مختلف، وقد ظل يتنقل بين محطات الإذاعة الموسيقية المختلفة فـكَانت كل أغنية تطل من نوافذ البيوت القديمة في قلب كلوت بك تُشعِرك بأنها تقصدك أنت.

توقف المطر وأخذ الناس يغادرون إلى أن تبقى زَبونٌ وحيدٌ يجلس أمامه يشرب الشاي في صمت...

نظر إليه الرجل في ود ثم سأله:
- أأنت جديد هنا؟

أومأ ناي بالإيجاب على حِينَ ظلَّ الرجل على ابتسامته، ثم تكلم مجددًا فقال:
- أيامكم صعبة، لكن الثورة جاءت لتعدل الميزان.

ابتسم ناي ولم ينبس، لكن الرجل عاود السؤال مجددًا:
- تفتكـر هتتعدل؟!

لم يدرِ ناي كيف يجيب، فهو يخشى أن يغضب صاحب المقهى إذا شارك الناس حديثًا في السياسة، كما أنه شعر بسعادة لعثوره على شخص ما زال لديه أمل في الثورة!

"قول يا رب..."

لم يمهله الرجل لحظة أخرى فبدأ يتكلم:

- ربنا عمل اللي عليه؛ فاضل احنا بقى نعمل اللي علينا، نرجَّع فلوسنا اللي اتنهبت ونقسِّمها بالعدل.

ابتسم ناي مغتمًّـا مغرقًا في التفكير ولم يعقب، فأكمل الرجل:
- حقيقي يا أستاذ.. ربنا عمل واجبه وزيادة، جاب لنا ثورة وادَّانا عقل عشان نفهم ونطالب بحقوقنا، بس تقول إيه... شعب ابن كلب طماع، الكُبار ياخدوا الفلوس يقسموها على بعض ونلم احنا الفتافيت.

تعجب ناى من الطريقة التي يفكر بها الرجل في إدارة الأمور، هذه النظرة السقيمة القصيرة إلى مكتسبات ثورة عظيمة، لكنه أبى أن ينزل في نقاش ليس في محله فظل يُومئ برأسه موافقًا والابتسامة البلهاء لا تفارق وجهه إلى أن انقطع حديث الرجل وساد الصمت.

حاول ناي أن يلقي رُوحه في أحداث الجو الأثيري الذي يجوب المكان، إلا أن كلام الرجل قد خلَّف في رأسه حرارة فكان عليه أن يهدأ كيما تبرد.

انسحبت منه نظرة إلى كوب قهوة فارغ فجرى ريقه إلى قهوة قد تأخذه إلى الإحساس الذي يحبه، ومع أول رَشفة من كوب القهوة تأمل المكان كأنه يراه لأول مرة، انبثقت في رُوحه قوة سحرية لا عهد له بها، أن ينتشي انتشاءً إلهيًّـا يرتقي به معارج السماوات السعيدة ويشعر برضاه عن نفسه، لكنه لم يجرِّب هذا الإحساس بفعل القهوة فحسب...

لعله أيقن بلذة المغامرة وبهجة الأمل، لذة أن ينزرع وسط الناس ويتابع أحاديثهم من كَثَب، وهذا ما جعله في المساء يقف بين الأصدقاء متفاخرًا وهو يحكي لهم عن عمله الجديد، وقد أبى أن يَصغُر في أعينهم فأظهر رضاه الحقيقي عـمَّا هو فيه.

ليست قيمة العمل فيما نعمل، وإنما تكمن القيمة الحقيقية في ما نحب أن نعمل، شعور الراحة والرضا الذي يلازم الإنسان، حتى إن ناي يشعر بأن الوقت يمضي سريعًا دون ملل، حتى كان دائمًـا ما يقول لنفسه:

"قد تتبدل الظروف ويتغير معها إحساسي ولكني لن أبرح هذا المكان إلا بعدما أفرغُ من كل أوجه اللذة التي تصاحبني هناك".

حتى أصدقاؤه قنعوا بذلك لثقافتهم وأخذوا يشجعونه، وكان في مقدمتهم -بالتأكيد- جميلةـ التي أظهرت هذا الارتياح لصاحب المقهى الذي أحس تبدلًا ملحوظًا في نظام المكان ونظافته وترتيبـه؛ فقد غلّـف المكان الآن جو أنيق وظهرت لمسة الحب التي أضافها ناي.
كل ذلك لشعوره بالارتياح لجلوسه بين الناس، حتى جِلسته ممسكًا بكتابه قد أضفت وقارًا تجاهه في قلوب الزبائن فصاروا يستشيرونه في أمورهم ويحكمونه في عشرة طاولة بينهم على رِهان كبير...

من بين المقيمين في القهوة موظف قديم من أنصاف المتعلمين، يرتدي بنطالًا وقميصًا وقبعة شبيكة بيضاء على الدوام، فهو لا يتخلى في مظهره عن كونه موظفًا حكوميًّـا، وكان دائم النظر إلى ناي في حنق وفتور.
قال لنـاي ذات يوم:

"أراك تقرأ كثيرًا، يبدو أنك من شباب الثورة الجدد"؛ ابتسم ناي كعادته ابتسامته الودودة المرحبة، لكنه اشتمَّ من رائحة حديثه تنمرًا وسخرية، لم يكن من البسطاء المعممين الذين يرتادون المكان وإنما يُضفي بلاغة على حديثه ويُدمِج بعض الفصحى ويتكلم بثقةٍ متغطرسًا كأنه العارف ببواطن الأمور، فأجابه ناي في أدب جم قائلًا:

"بل أنا شاب من شباب هذه البلد الذي يُصلِح ما خربتموه أنتم"؛ نظر الرجل وعيناه السوداوان الواسعتان يسبقانه إلى الكلام فرَدّ:

"وماذا جلبتم أنتم للبلد سوى الفوضى والخراب؟ لا يعجبكم مبارك ولا المجلس العسكري ولا الإخوان المسلمون، ماذا تريدون؟ أتريدون أن تحكمنا أمريكا؟؟!"

لم يحتمل ناي مزيدًا من هذا الكلام فقال في غضبٍ خَرَج منه رغمًا عنه:

"بل أنتم من خربتم البلد بجهلكم وسكوتكم على الظلم وجهلكم بالحق والحقيقة"، ثم أكمل وقد استشاط غضبًا: "أضعتم البلد وأسلمتموها إلى الحرامية ونحن نريد أن نَرجِعَها إليكم ومع ذلك لا يعجبكم الوضع، (تقتلوا القتيل وتمشوا فـ جنازته)".

ردَّ الرجل ولا تزال في صوته نبرة التنمر:

"أي خير يأتينا من ثلة من الـ"خولات" أمثالكم؟ لم نسمع منكم سوى الكلام والطنطنة الفارغة لا أكثر، قبضتم أموالًا في سبيل خيانة البلد والاسمُ ثَورة!".

وقف ناي مخاطبًـا الرجل وهو يطرق على طاولته منفسًا عن غضبه:

"أنت لا تهمك البلد ولا السياسة ولا الحرية ولا العدل في أي شيء، رأيك يفصح عن موقفك أنت وقلة ممن يُحتَسَـبون على المصريين كأنك ناطق بلسانهم، تكررون الكلام نفسه يائسين من نهوض البلد، تعودتم الخنوع وألا يحلم أحد بمستقبل مصر بدلًا منكم، يأسكم يأسُ جهلٍ وتعالٍ وتطرف.

تريدون المكاسب سهلة مُجهَّـزة، فأنتم لا تتعبون ولا تريدون لغيركم أن يتعب!"

علق أحد الجالسين وكان مدرسًا للُّغة الفَرنسية وقارئًا قديمًا مثلما خبَّر ناي سابقًا:

"أنت مجادل جيد، يعجبني حماسك وإن لم أشاركْـك الإيمان به".

احتد الغضب في صدر ناي، ولولا ما يُـكِـنُّـه للمكان من احترام لانفجر، تقلقه نظرة الناس إلى الثورة ويبدو أنه هو ومن مثله يعيشون في وهم أن الشعب قد تغير وصار راغبًا في التغيير، والآن تـتـكـشَّـف الحقيقة بوجهها القبيح!
ثم عاد إلى الحديث:

"أنت تقلل من شأن الثورة ومن شأن الكلام، الحَقُّ أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن أن نَرجِعَه إلى كلمات..
إن المسيح جاء بكلامٍ اسمُه الإنجيل، ومحمدًا جاء بكلام اسمه القرآن والحديث، وكذلك موسى جاء بلوحي الوصايا، وغاندي وأرسطو وسقراط... كلهم جاؤوا بكلام، فـقد خلق الإنسان الكلام كي يخبئ به مشاعره أو يظهرها.

ونحن كلماتنا تتضمن الخير والأمل والحقيقة، بيد أن الثورة ليست كلمات فحسب، إنه سجل حافل بالأعمال والمواقف، وأنت تجلس هنا الآن وتشرب الشاي وتلعب الطاولة، وهناك من هم في عمر أبنائك في الشوارع من أجل الحق والعدل، من أجل دولة مدنية تليق بك وبنا!".

علق الرجل:

"إن الأمم تتقدم بالفعلِ والحكمةِ والسياسة، لا بهذه الخطب والتهريج الشعبي الرخيص الذي تسمونه مظاهرات!".

أجابه ناي وهو لا يزال على حماسته:

"لم يتركوا لنا سبلًا أخرى للتفاوض وأغلقوا آذانهم مثل سابقيهم، لذلك ننزل إلى الشوارع. كما أنه يجب أن يكون هدم أولًا لكي يكون بناء، كما أنه لكي يشفى الجرح لا بد أولًا من تنظيفه.
يقول لك طفلك في هدوء: "أريد حَلوَى"، وعندما لا تشتريها له يرتفع صوته: "أريد حلوى!"، وإذا تماديت في التجاهل بكى وصرخ وارتمى في الأرض ينادي مِرارًا بأنه يريد حلوى، وهذا ما توصِّلُـنـا إليه الحكومات، تَضطرُّنا إلى أن ننزل إلى الشوارع نتظاهر، ثم يتهموننا بالغوغائية!".

فقال مدرس اللغة الفرنسية لناي متسائلًا في سخرية:

"ألا ترى أن من يتعب نفسه في إصلاح البلد كمن يحرث الماء؟! يقول غسان كنفاني بحق وصدق:

(ألا ترى أن التشاؤم هو الشجاعة، وأن التفاؤل كذب وهروب وجبن؟! أنت تعرف أن الحياة قميئة وسيئة، فلماذا تواصل الأمل فيها؟ البلد بلدهم وما نحن إلا غرباء)".

تأمل ناي المشهد في تعجب وأدرك أن حياةَ الكتب مفيدة حقًّـا لأنها تُغنِي العقل، لكن ماذا عن الروح؟! سأل نفسه ذاك السؤال لأنه مُدرِك أنه لم يُخلَق للحياة بين الجدران، إنما خُلِق ليتأمل هذه الحياة الحقيقية التي ظلت الكتب حتى زمان قريب تترفع عن دراستها والتعرض لها.

هذه الحياة المصرية الصميمة التي يعيش فيها ابن البلد الحقيقي بذكائه الفطري الذي صَهَرته الأيام فلم يبق منه سوى نكته الحاضرة وكلماته الساخرة، ابن البلد بكسله الذي أورثته إياه قرون عاشها في بلده غريبًا وهو يشاهد الغرباء يحكمون، لم يبق منه سوى أمراضه التي تسربت

إليه في سنوات اليأس والجمود، يدخن الحشيش للفرار إلى غيبوبة. يتباهى بِفُتُـوحِه مع زوجته وبكثرة أولاده الذين يملؤون الشوارع ويأكلون التراب.
ابن البلد الذي يعيش في كل هذه القُـمامة وينتظر الهِزة العنيفة التي سوف تطردها عنه!

تكمن آفة مصر في المصريين المستقرين، الذين ينتظرون الفرج بأيدي الآخرين فحسب، المرحبين باليأس الطاردين للأمل، الصابرين على البلاء معتقدين أن الفرج سيأتي بأيدي غيرهم.

عندما التقى ناي مع أترابه حكى لهم عما دار بينه وبين الرجل، فضحكوا كلهم أجمعون من نظرة الرجل إلى الثورة والحرية، إلا البريء الذي استقبل المسألة بنظرة مختلفة واختلق فيها العذر لهؤلاء وهو يلعن الظروف التي جعلت منهم المُشوَّهين، ثم وجه كلامه إلى ناي:

"ليس كل ما تدركه يدركه الآخرون، فـلِكُلٍّ منا أولوياته، أنت تريد الحرية وهم يهمهم قوت يومهم، والرجل المصري ولاؤه أولًا لبيته وأولاده، فقد علمته الأيام أن ليس لديهم سواه، فإن أحببتهم حقًّـا فكن عِظة ولا تكن واعظًـا.

هؤلاء مفعول بهم، دورنا نحن أن نُرقِّي وعيَهم ونبلغهم حقائق الأمور دون أن نسخر منهم، هؤلاء هم الكتلة الحَرِجة، أينما تَجمَّعوا ربحت كِفَّتهم، فليكونوا معنا لا علينا لأن من دُونِهم لا ثورة ولا أمل، ولا يزال الشعب هو القائد والملهم والمعلّم، لولاهم لما كانت ثورة ولا كانت ملايين في الشوارع".

يستمتع ناي بكل دقيقة يقضيها في عمله الجديد، ففي أول أيام العمل كان نشاطه المفضل هو الجلوس إلى ماكينة الحساب ممسكًا بكتاب، واضعًا سماعات الأذن التي تضخ الموسيقى في أذنيه ضخًّـا، محاولًا الاندماج مع

التجرِبة بتعود العمل وتأمل المكان وتحويل الوجوه الغريبة التي تغدو وتروح إلى وجوه مألوفة تذيب الحاجز الذي ما زال بينه وبين الناس.
تنمُّ ابتسامته التي لا تغيب عن ثغره عن رضًا كاملٍ عن التجربة.

سمع أحد الجالسين يقول:

"إن البقاء والدوام لله وحده، فهو معنا أينما كنا كما ينبغي. فيما عدا ذلك فالحياة فانية، تجارب من كل شكل مثل تجربة الجنين والطفولة والمدرسة والزواج والشيخوخة والموت.
لا أحد يستطيع أن يزعم أن هناك تجربة أمتع من الأخرى، الممتع حقًّا -كما يقول الأكابر- أنك خرجت من العَدَم".

لم يكن العمل مجرد باب رزق يكسب منه قوت يومه، بل هو باب آخر يتيح له فرصة التأمل، وهذا ما كانت ترومه نفسه مَرامًا ولكنه لم يستطع أن يفصح عنه.

لم تعد القراءة هواية بالنسبة إلى ناي بل صارت أسلوب حياة، قرأ كثيرًا لجلال عامر وبلال فضل وخيري شلبي وإبراهيم أصلان وحجاج أدول؛ مما جعله يتأمل كل ما حوله في حب مشبوب بعاطفة حانية على أناس لم يعرفهم، لا يتوقف عن التأمل والبحث عن الحياة في كل شيء يقابله مثل صورة يراها على الفيس بوك أو مقال في جريدة، أو ماسح أحذية يبتسم أو حلاق شعبي يتهامس إلى زَبونه باطراد...
شخصٌ واحِد، أفكارٌ كثيرة.

يجلس إلى الماكينة ويتأمل الأحاديث التي تدور بين الجالسين فتفتنه، يتحدثون في الفن والسياسة والحياة لكن على طريقتهم البسيطة غير المفتعلة.

خليط من الدخان والضحك والبذاءِ والفلسفة في جملة واحدة.

قسم يومه إلى قسمين، الصباح للعمل، والليل للعربدة والقراءة والسمر والأصدقاء.

وفي نهاية اليوم يخلو بنفسه مع أفكاره وأحلامه التي تعلَّـم مؤخرًا أن يكتبها، وفي وسط كل هذا.. تحضرُ جميلةُ حضورَ المَلائكَة..

مرت شهورٌ في عمله، ازداد فيها حبًّـا للحياة التي يعاصرها والقهوة التي يعمل بها والزبائن الذين اعتادوا الجلوس فيها، والأهم من ذلك كله مشروعُهُ الأسمى "جميلة".

فكلما رأى شيئًـا أو مر به شيءٌ فكَّـر فيها وتمنى وجودها لتشاركه اللحظة، فهي الوحيدة التي تفهم مشاعره وتعيشها معه، كما أنها بمرور الأيام والتوغل في دنيا الأدب أضفت على روحه مسحة من السلطنة لم يُقـدِّرها إلا هي، لذلك فهو يستمتع بكل شيء في كل لحظة توجد فيها. أصبحت الحياة في أعينهما سحبةً على وتر كمان.

يعرف أن جميلة عندما تأوي إلى فراشها وتبادله ذلك الحديث الهامس الطويل الذي يحيط تفاصيل يومها؛ يؤرقها افتقاده والحاجة إليه، فهي تحب روحه الهادئةَ المطمئنةَ كما أنه -على الرغم من تمرده الواضح- يستقبل الفاجعاتِ بقلب مطمئن.

عندما يجلس للقراءة بعد عودته يبقى مطلًّا من شرفته ينتظر مجيئها دون ميعاد؛ يُدهَش ويتشكك في سلامة عقله وهو ينتظرها، فكلما سمع وقع خطوات تقترب أنصت وأصاخ وقال في نفسه إنها تتصرف كعادتها في نزق وجنون؛ تجيء دون ميعاد.

وبينما ينتظر طيفها في منتصف الليل فإذا بها تأتي!

ابتسمت له ودعته إلى النزول، بَـدَتْ بعيدة عالية بين السحاب وعيونها تعلن أنها تحبه.
بالطبع نزل إليها مسرعًا ليتجولا، فما إن رأته أمامها قالت له:

"كنت في نَـوْبَـتـْجـِيَّـة متأخرة، أنهيتها ثم قصدت العتبة لأصور بعض الأماكن الأثرية فيها ليلًا"

تنتعش على لسانها حكايات كثيرة وفي أذنه شوق كبير إلى سماعها، كأنه طفل تقوده كلماتها إلى أرض مسحورة وتهمس له بأغانيَّ ترقص لها شعيراته الدموية، ثم تصمت فتتركه وسْـط واحة حضورها المُطَمئِنِ.

يحدق في وجهها الساكِنِ فيرى الدنيا من خلف هذا الوجه، تغيب عيونها وهي تجري وراء الكلمات.
أما هو فيتكلم مسحورًا كأنها غائبة؛ كأن كلماته بقع ألوان تتلاشى في الأفق وتذوب ثم يسقط عليها صمت المرح مرة أخرى، تطلب منه جميلة الوعد بألا يتركها، فإذا به يـقـبِّـلها في صمتٍ وعدًا منه لها بذلك.

تتحول جميلة إلى لوح من البلُّور وهي تمسك الكاميرا وتلتقط الصورة، تنتقي اللحظة بعناية ولم تعلم هل أحبت أحمد زكي بعد فِلم "اضحك الصورة تطلع حلوة" أو أنها أحبت الفِلم لحبها للصور؟ على كل حالٍ تُكرِّر ما قاله أحمد زكي مرارًا:

"الصورة هي الحاجة الوحيدة اللي بتخلينا متأكدين إننا عايشين أيام حلوة"

لقد أحيت الثورةُ بداخلهما ما أماته الزمان وأحيا الحبُ بداخلهما ما أماته الألم، فتخلصا من شوائب الماضي والحاضر والمجتمع وأصبحا ذهبًا نقيًّا خالصًا مستعدًّا للانطلاق والتحليق عاليًا في دنيا الله وخدمة الناس كي يُـحسَّا الظمأ للعطاء والحب والحرية.

والأجمل أنهما معًا يتشاركان أفراح الحياة العذبة الصافية، يتبادلان الحب الذي يسقي روحهما من حبهما لله والناس، هذا حقًّـا ما يستطيعان معًا تقديمه إلى مصر بعد الثورة.

لقد ثارا على أنفسهما أولًا ثم انتقلت الثورة داخلهما إلى أفعال حتى عادا يقولان مجددًا إن الحياة حقًّـا جميلة.

"ويُخيَّـل إليك أنك مُـكتمِـل، حتى تعثرعلى الروح التي تكمل روحك، وتدرك كم كنت ناقصًا!".

- جلال الدين الرومي.

10

كان يومًا غائمًا من بدايته ينبئ بهطول أمطار لذا لم يأتِ زبائن كـثـيـرون إلى القهوة، ظل ناي طَوال النهار منهمكًـا في قراءة رواية "قصر الشوق" لنجيب محفوظ، دائمًا يحيره ذلك الروائيّ؛ يسأل نفسه:

"كيف وصل إلى هذه القدرة على صياغة الأفكار التي تدور في دواخلنا؟! كيف حوت رأسه هذه الأفكار والكلام واللغة؟"

يخترقه نجيب محفوظ اختراقًا مثل الهواء النقي فيملأ قلبَه حبورًا.

أتى المساء وكانت الرواية قد أشرفت على الانتهاء، طار ناي إلى غرفته وأوى إلى مقعده المطل على الشارع وراح يقرأ في نهم، كانت قمم الأشجار هادئة ونجمات بعيدة تسطع في السماء، تأتي من الشمال ريح رقيقة تحرك أوراق الشجر فتميل لتلامس شُباك غرفته، دار الظلام حول اللوكاندة حتى كانت عيونه مفتوحة ولا يرى شيئًا!

خلفه في غرفته أثاث قليل يُسقِط ظلالًا رقيقة عندما يقع عليه ضوء المصباح الصغير المُعلّق في وسط الحجرة، نسمات خفيفة تداعب الشباك وتداعب وجهه فتدعوه إلى الراحة؛ ينفصل عما حوله وتحمله الكلمات وصوت أوراق الشجر والصمت إلى متعته الداخلية، وبينما كان يقرأ لم يكف عقله من مبدأ الصباح عن التفكير في جميلة؛ فقد مرت أيام لم يتقابلا لانشغالها في دراستها.

ظل جالسًا يقرأ وينظر بين الحين والآخر إلى الشارع، يتخيل مجيئها فجأة كالعادة ويتخيلها وهي تهل عليه أسفل شرفته مرتدية فستانها الخفيف وتدعوه إلى النزول، ثم أغلق النور ونام على ظهره وفتح عينيه في الظلام.

سمع صوتًا يعرفه.. إنه صوت صافِرَتها!

يقولون إن المحب للمحب رسول، وإن الله يربِـط بين قلوب المحبين برباط روحاني يجعلهم يشعرون ببعضهم الشعورَ نفسَه في الوقتِ نفسِـه.

نظر إليها من الشباك فوجدها كما تخيلها، تنزل من سيارة أجرة وهي تحمل معطفها وتنظر إليه في شرفته مبتسمة وتشير إليه بأن ينزل، نفس الابتسامة ونفس المعطف والفستان كما تخيلها منذ قليل.

ارتدى ملابسه سريعًا ونزل إليها، ثم صافحها وهو لا يدري ما يقول من شدة ارتباكه. ظلا على صمتهما لكنه لاحظ تصاعدَ أنفاسها وعدمَ ارتياحها فسألها:

"ما بك؟"

لم تجب، إنما نظرت إليه نظرة حزينة ولم تتكلم، داعبها بجزء من قصيدة "عزة" لأحمد فؤاد نجم:

العيون بتقول كلام
والكلام طاير حمام
بينادينا بالأغاني
ويهادينا بالسلام

في أثناء كلامه وهو يحاول إضحاكها سمعها تقول:

"وحشتني"

صمتا، وصمتت الدنيا من حولهما.. وكانا قد اتفقا على أن "وحشتني" أجمل من "بحبك"؛ وذلك أنَّ جميلة تحبـها وتستلذ قولها.

لم يدرِ ماذا يقول وهو يبذل جهدًا مُضنيًـا ليقاوم رغبته في أخذها بين أحضانه، لكنه لم يدرِ إلا وهو يفعل ذلك في قلب الشارع ويهمس لها:

"أريدك كما لو لم أرد شيئًـا في حياتي"

لم يعُد غريبًا أن يدور بينهما هذا الحديث في الشارع، فـمَالت بجذعها إليه حتى لمست كتفه بشفتيها وقبَّـلته قبلةً سريعةً مختلسة واعية بالمكان، ثم غادرا الشارع متجاورين وقد تشابكت أيديهما.

"كنت أود لو أتيت إليكَ؛ فكَّـرتُ عدة مراتٍ في زيارتك"

علق ناي مبتسمًـا:
- تمزحين!

- لو دعوتني الآن إلى شرب الشاي معك في غرفتك فسآتي.

ضمَّها قائلًا:
- سنبقى في الشارع لمشاهدة بزوغ الفجر. وكان الفضاء ما زال بنفسجيًّـا به لسعة برد خفيفة...
كيف أتيتِ في هذه الساعة المتأخرة؟!

- الجنون! (قالتها وهي تضغط على أصابعها)

- هل تعلمين أني كنت أعلم بمجيئك في هذه اللحظة وكانت صورتك أمامي بنفس ملابسك التي ترتدينها؟!

- قرأتُ مثل هذا في روايات الحب؛ يقولون إن هناك قوةً لا مرئيةً تربط بين العشاق. (قالتها مبتسمةً)

- الجميل أنكِ أظهرتِ حبَّـكِ قبلي..

- نعم، لم أستطِع أن أقاوم!
...
هبت على روحه الغمامة القاتمة نفسها عندما تذكر أنها أوشكت أن تصبح طبيبة، فأفضى إليها بمكنونِهِ فقالت متفهِّمةً:

- قلتها لك كثيرًا، هذه عقبة لن تقف في طريقنا.

- لكنَّ المجتمع لا يقبل ذلك!

- سُحقًـا، أحبكَ وكفى!
ألا يجب أن نتعب لأجل الحب؟ أنت تعمل وتتعب لكسب المال، وأنا وأنت بِتْـنـا في الشوارع وثرنا لأجل حب الوطن، أليس ذلك بتعب وحب؟!
إن كل حبٍّ بداخله حربٌ تجمع ولا تفرق.

قال ناي بعدما تنهد:

"أعرف أنني لن أصرخ؛ فلِلصُّراخ أناسُـه. أما أنا فلا أصرخ ولا أضحك، لأن الحالم تذوب أمامه كلُّ الحدود وأنا أحلم حلمًا طويلًا لن ينتهي، فهلا أخبرتِني كيف يفيق السكران من الحُلم!
مَن كان مثلنا لا يمـوت وهذا هو الجمال وهذه هي الغرابة"

- أتمنى أن تجرب يومًا هذا الشعور، أن تفعل شيئًـا لا تفهمه من أجل شخص تحبه.. لكنك هكذا منذ عرفتكَ، لم تزِدك القراءة إلا طربًا!

- معكِ الحياة جميلة.

- كل شيء جميل في صحبة من نحب.

- تشبهين تلك الليلة التي انهزم فيها الطغاة وانتصرت الثورة! ثم أخذها بين أحضانه ولثم جبينها وأكمل:
- هذا وعد العناق، فالإنسان لا يجد رُوحَه إلا مرةً واحدة.

- يقولون إن كل حب أولُ حب.

- أنتِ أولُ حب وكلُّ حب.

اعتدل في جِلسته ثم سألها:
- هل تذهبين إلى الميدان هذه الأيام؟

- من حين إلى آخر.. قليلًا

- تدور بيني وبين الزبائن نقاشات كثيرة، أغلبهم يعاملونني متهمًا، فـهذا الجيل يجب إبادته من جذوره! قتلوا الماضي ويريدون قتل المستقبل الذي يخصنا، الذي رسمه الشهداء بالدم. (قالها وهو ينفخ ما في صدره من مقت).

- لكنهم معذورون...

- وما عذر الجهل؟ إن مقياس الفعل الثوري إنما يكون بدرجة وعي القائمين به وعليه، بمقدار عمق فكرتهم عن الثورة، تلاميذ المدارس في جيلنا يفهمون أن أي شعب جاهل أسهلُ للقيادة والقمع وأقلُّ استجابة للروح الثورية من غيره، لذا يجب عدم الوقوف كثيرًا أمام هؤلاء لأنهم انتهازيون لا شأن لهم بالحرية، يريدون الثورة لتحقيق أهدافهم، وإن لم تفعل فملعونٌ أبوها!

الثائر لشرط كمن يحب لسبب، لا يُعوَّل عليه كثيرًا، كـالذي يثور لتنفيس أزمة أو مطلب خاص، فمِثلُ هذا النوع على العموم مُضرٌّ مُعطلٌ للمسار، صحيح أنه لا يظهر أثره السلبي في لحظات الحماسة الثورية، لكنَّه سرعان ما يؤثر بالسلب في الأطوار التالية للثورة على تغير السلطة، وذلك عبر ممارسات تنعكس سلبًـا على المسار الثوري، مثل إشاعة الإحباط والتشكك والانقضاض لسوانح الفرص وإيقاع الثوار الحقيقيين في الشرك والتشويش... وهذا ما أعانيه حاليًّـا، فالثائر الحقُّ لا تحركُه أهواء شخصية.

والأعجب أن الجميع يتحدثون في السياسة، والتلفاز لا يبث إلا الأخبار واللقاءات السياسية.

إن المصريين مبتهجون وقلوبهم مفعمة بالأمل، وفي الوقت نفسه يأتي أنصاف المتعلمين الذين يرضخون لأهواء ذوي المصالح فيعودون بنا إلى الخلف ويعطلون الطريق أمامنا، لكنَّ ما لا شك فيه هو أن الطريق قد ازدادت صعوبة، وأنَّ غدر الناس بالثورة يلوح في الأفق.

...

لقد مر عامٌ على الثورة وتعددت علاقات ناي وأصبح صاحب صيت وشهرة، وقد عُرِف بوضوح رأيه وسخريتِه المفرطة خفيفة الظل.

يأتي كثيرون إلى محل عمله فيسامرونه إلى أن يتطرق بهم المجلس إلى حديث السياسة، وحينئذ ترتفع أصواتهم بالزعيق، إذ يقول أحدهم إن الثورة خربت البلد، ويترحم آخر على عصر مبارك!

يرد ناي محتدًّا وغاضبًا، يلومهم على كونهم شبابًا يفكرون بهذه الطريقة الرجعية ويعدد لهم الأسباب التي اشتعلت لأجلها الثورة ويوضِّح لهم حجم الفساد الذي عم الناس، حيث يتساءل في تهكم:

"لماذا خرج ملايين من الناس إلى الشوارع؟"

يجبب أحدهم: "بسبب الفقر"؛ يرد ناي سريعًا:

"لا؛ على مر التاريخ لم يثر المصريون ضد الفقر باستثناء بعض الاحتجاجات ضد الأسعار في عهد السادات، لكنهم ثاروا ضد الظلم، ضد طغيان رجال الشرطة، ضد التوريث"؛ ثم أكمل ضاحكًا:

"لو كنا نعيش في باريس لما ثرنا؛ فالناس لم يخرجوا للتنزه بل خرجوا بسبب تفاقم الظلم والفقر والجهل والمرض، خرجوا لأنهم صبروا كثيرًا لكنهم لم يروا إلا تدهورًا وانحطاطًا".

يقول أحدهم:

"لكن مصر لن ينصلح حالها..."

قاطعه ناي:
"أنت مخطئ؛ سوف ينصلح حالها عندما نكف عن ترديد مثل هذا الكلام، سينصلح حالها بك وبنا نحن -الشباب الذين ذقنا طعم الحرية ومشينا في أرض الأمل- فإنما يجب أن نثور نحن أولًا على أفكار آبائنا، وأن ندرك أن كل ما يشاع حاليًّا في الإعلام ليس إلا خططًا ممنهجة لضرب الثورة.

فالدُّول القمعية تستغل ما يحتاج إليه الناس، تبحث عن علة خوفهم وتدوس على جروحهم المفتوحة دِياسًا، تلقي عليها ملح الأكاذيب كي تهتاج خوفًا ورعبًا من المستقبل، تملأ الشوارع بالبلطجية ثم تشير إليهم في الإعلام كأن هؤلاء هم الثوار أو على الأقل أن هذا مما تسببت فيه الثورة، كما أن التحرش بالنساء هدف سياسي ليخاف الناس من نزول المظاهرات.

الثورة تنادي بإسقاط النظام، والنظام ليس شخص الرئيس وإنما هو منظومة كاملة من الفساد، جماعة من المتسلطين الجائرين المتاجرين باسم الدين واسم الوطن، تجار الوطنية الزائفة، رجال الأعمال ذوو المصالح والقنوات الخاصة.
تجارة رخيصة، وكلُّ رَخيصٍ رائـج، أما الدولة فتتمثل فينا نحن -الذين ما زلنا نعشقها- لأن الدولة هي المواطن الذي إن غاب وعيه أو كرامته سقطت الدولة".

جذابٌ ناي في حديثه وصدقه، يحكي بلسان ابن البلد البسيط لا بلسان المثقفين الحُذَّاق، وكل ذلك لا يساوي شيئًا إذا وُضِع في كَفة مقابل شخصيته الحقيقية؛ فهو رغم لسانِه السليطِ ذو ذوق رفيع ودماثة وإنسانية، دفء وعفة ولطف وحُسن معاشرة، كل ما يمكن أن يكون صادفك في الكتب والمواويل من أوصاف الجمال بجميع مستوياته وألوانه تتمثل فيه.

متحدث لبق يفيض صوته بالصدق حتى في أقصى درجات الانفعال كأنك ترى ما يقوله رأي العين، نبرة أجدادنا الحكماء الموهوبين في السَّرد وحَـبْـكِ الحكاية، كلماته مواثيق مُطعَّـمـة بثقافة عصرية علمية مستنيرة، لديه إلمام كافٍ بالأدب والفنون الرفيعة والفنون الشعبية وبزُبـد المعارف في شتى المناحي.

تطور ناي خلال عام تراجعت فيه أسهم الثورة ولم يكف فيها الإعلام عن ضخ الأكاذيب في الأذهان وبثها بطريقة ممنهجة عن إمكانية انهيار مصر.

احتد الصراع بين الشباب والمجلس العسكريّ، حملات تخوين وتشويه لكثير من الشباب والإعلاميين والصحفيين، تلفيق تهم ومقاطع فيديو وتسجيلات مفبركة تدينهم بالخيانة والتخابر، كما اشتد عود القوى الإسلامية أيضًا

فدخلت في الصراع مُناهِضَة للثورة مُبايِعةً للمجلس العسكري.

جو من الإحباط العامِّ قد ضرب أواصر الشباب وازادادت كتل الشعب التي تلعنهم وتلعن ثورتهم، إرهاق يتجاوز حدود اليأس.

يذكر الثائر دائمًا أن مسيرته ذاتُ طبيعة مختلفة، فهو يبـذُل جهدًا لا يرى له أثرًا، لكن هذا عمل مجحف يدعو إلى اليأس ومع ذلك يكابده أصحابه ويصرون عليه، حتى إذا سقطت جماعة من بينهم فهم معذورون لأنهم خرجوا من مجتمع غير مُسَـيَّـسٍ، تاريخه قصير في عمر النضال ووعيه الثوري نشأ بمولد الثورة.

تسرب داخل جماعة منهم شك بأن لا شيء سيتغير، وأن الأنفس لن تتحول (على الأقل بالسرعة التي تشعرهم بلذة الانتصار)، لذلك فهم يمضون بنصف قلب ونصف أمل دون النظر إلى النتيجة، وقد قفز كثيرون من مركب الثورة لحظة اشتداد القصف الأمني والإعلامي عليها، صمت مطبق ومتعمد على كل ما تتعرض له الثورة من تشويه.

إن أصحاب السلطة يدركون ذلك ويعون أهميته في اجتذاب طمأنة تربيطات العشائر والعصابات والمصالح الاقتصادية التي تدعم الحزب الوطني، "عشان البلد تمشي".

يعود البلد رويدًا إلى سياسة مبارك في إدارته ببركة تفصيل القوانين على لواءات يملؤون الشاشات بصفتهم خبراء استراتيجيين مع بعض الـ"مبرراتية" على ببغاوات الإعلام من كل صِنف ولون، سجون تمتلئ ودمٌ في الشوارع إن لزم الأمر.

مناخ فاشٍ هستيريٌّ جعل الِّثوار بلا أمل في إقناع من حولهم بأنً كل ما حدث يؤكِّـد السلطة القمعية التي تنتشر بفعل الأكاذيب، فنحن نكرر تاريخنا دون أن نتعلم ونرتكب الأخطاء نفسَها بالطريقة نفسِها.

الشعب فقيـر، والسلطة القمعية تستغل هذا الفقر بديماغوجيتها ودَهمانيتها لصالحها. قالها نجيب محفوظ وقد أوجز وأنجز:

"إنما آفة حارتنا النسيان".

منذ تلك اللحظة عَرفَت حياةُ ناي منحنًى آخر، منحنى السقوط والحيرة، لو لم تأتِ هذه المرحلة لتبدلت حياة ناي وجميلة، لكنها طبيعة الحياة **تصعد بنا قليلًا ثم تنحدر بسرعة الصاروخ نحو الهاوية والضياع.**

فقد كان من بين أكثر أصدقاء ناي تعلقًا به مهندس يُدعَى مالك سليمان، تعرف بناي من خلال الفيس بوك وتنامت صداقتهما سريعًا وكان دائم الإطراء على ناي وآرائه، يلتقيان كل مساء يتبادلان الأخبار، وكانت بداية تعارفهما بمنشور نشره ناي على صفحته.

في ذلك المنشور كان ينتقد الطبقية التي على أساسها يتم تمييز الناس بناءً على مؤهلاتهم، طبقية جديدة أضيفت إلى تاريخ صراع الطبقات، الطبيب والمهندس وسائر الفئات، تكالُـب الأهالي على وصول أبنائهم إلى ما يُسمَّى "كليات القمة" وعدم ترك حرية الاختيار لأبنائهم.

يرى ناي أنه من أسباب اضمحلال الأحوال في مصر قتل روح الإبداع في المواطن المصري بدءًا من طفولته، سياسة التلقين التي تربى عليها الآباء، تهميش دور المواد الأدبية وكلياتها، الاهتمام بالكليات التي تدرّ أموالًا أكثر بعد التخرج!

يتعلم الطفل المصري فضيلة الركوع إلى أن يُصيَّر رجلًا خانعًا صامتًا، يُلَقَّنُ مزية أنه طفل محترم هادئ يسمع للكلام ثم يخرج بتلك المزية إلى المجتمع ليصبح إنسانًا منزوع الإرادة اتكاليًّـا على غرار معظم المصريين.

قرأ مالك ذلك المنشور وراح يناقش ناي في ذلك، كان رأيه أن الأدب والكتب والفنون لا تجدي نفعًا ولا تسد جوعًا، لأننا ببساطة في زمن المادة، فالمال هو الحكم الأساسي في المعركة، أما قراءة الكتب والفلسفة فلم تعد تجدي نفعًا، لكن ناي أقنعه بالحوار الذي دار بينهما، ومع الوقت أصبح متابعًا لمنشوراته مُعجَبًا بأسلوبه.

أعجبه ناي عندما كتب:

"المشكلة في مصر أو أي بلد آخر لن يحلها فرد سواء كان أبًا أو رئيسًا، وأنا لا أومن بالزعيم المنقذ أو البطل المُخلِّص! فلقد قمنا نحن -الشعب- نساءً ورجالًا بثورة عظيمة وأسقطنا رأس النظام، إلا أن جسد النظام لا يزال قائمًا في كل مؤسسات الدولة، متربعًا في كل ركن، في البيت والجامع والكنيسة...

مشكلتنا في البلاد العربية ترجع إلى أننا توقفنا منذ قرون عن إنتاج المعرفة والعلم والإبداع، بِـتـنـا مستهلكين لما ينتجه الآخرون، آخذون مقلدون مكررون لما تلـقَّنَّــاه في البيوت، لَعِبَ الاستعمارُ الخارجي والاستبدادُ الداخلي دورًا رئيسًا في تخلفنا وتجميد أفكارنا، والاستبداد يأتي من مكوث الحاكم فترات طويلة بحيث تُربِّي حوله طبقة غليظة من المنتفعين غلاظ الرقاب.

هناك أسباب في كل المجالات تعيق تقدمنا، أهمها المجال العلمي المتعلق بالعلم والتعليم والمعرفة والإبداع والبحث العلمي، والمواد الأدبية التي تُعمِل العقل لكنها مهمشة مهملة، ويرجع ذلك كله إلى نظام التعليم الذي يخضع للاستبداد الأبوي والعبودية تحت اسم فضيلة الطاعة".

تمر الأيام ويتقرب مالك إلى ناي ويتعرف بجميلة كذلك، كثيرًا ما يتقابل ثلاثتهم يتناقشون في مرح، لكن مالكًا لم يكن يعلم بحبهما.

قالت له جميلة:
-إن مالكًا قد أرسل إليَّ طلب صداقة على الفيس بوك، هل أقبله؟

وافق ناي ثم قال:
-هو صديقنا على أي حال (إضافة إلى أنه كان يأبى التحكم في تصرفاتها).

سألته:
- أويعلم بحبنا؟

- لم أخبره، ولكن أليس حبُّنا واضحًا للأعمى؟!

عادت بعد فترة وأخبرته أنهما يتحدثان كثيرًا، وأنه قد أبدى إعجابه بها غير مرة، وطلب أن يراها دون ناي؛ يريد أن يقابلها؛ جَفَـل ناي وقرصته نار الغيرة، وحاول أن يكتم غيظه فقال محتدًّا:
- إياكِ أن تفعلي ذلك!

- لكنه يصر..

- فليصرَّ كيفما شاء، فإنما لكِ حرية الرفض أو القبول.

تحدث مالك مع ناي عن جميلة وعدد له صفاتها، وأوضح في طريقة كلامه انبهاره بها؛ إذ أعجبته رُوحها وأخذته، قال عنها:

"إنها ذات طقوس وعادات وتفاصيل شخصية، لا تهتم بمظهرها على قدر اهتمامها بالداخل، حياتها تكمن في التفاصيل والأحاسيس والذائقة، تكمن في معنى أن تهز رأسها حزنًا أو فرحًا أو طربًا لمقطوعة من أغنية قديمة،

هي مثلك؛ تحب الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم، تقرأ لأمل دنقل، تتحدث عن كرة القدم مثل الرجال".

وبينما هو يتكلم إذ كانت النار تغلي في صدر ناي، حاول أن يخفي كل ذلك وراء تعليقات مختصرة خرساء، يداعب قلقَه صوتُ السيارات المتأرجحة القادمة من بعيد، يصرخ قلبه صرخة عاتية ويزداد طعم المرارة في حلقه لكنه لم ينبس.

أخبرته جميلة أن مالكًا طلب منها أن يذهبا وحدهما إلى مكان ما، والعجيب أن قَبِلَت جميلة!

- سيحبُّكِ!

-لا تقلق، سوف أوقفه عند حده.

بالطبع رفض ناي، لكنها أصرت أن تذهب فقال لها:

"أخاف أن تضيعي مني!"؛ فكررت كلمتها :"لا تقلق!".

لقد صارت رغبته في الحفاظ عليها أقوى من أي وقت مضى، أكبر من أي شيء آخر في حياته، فعندما يتحدث الحب يجب على العقل أن يصمت.

قالت وهي تذوب رِقةً إنها تعرف كم تعذبه هذه الأمور، ولكنها يجب أن تضع حدًّا لهذا الأمر، وعندما ذَعِن لرغبتها قالت:

"من حسن الحظ أننا متفاهمان، ومن حسن الحظ أننا التقينا وبعد ذلك لا شيء يهم".

كانا يمشيان وليس في الشارع من أحد غيرهما، نُورٌ خافت وبعض النائمين لصق جدار محطة القطار، نصبة

الشاي التي يعرفانها نصف مضاءة، يقدم صاحبُ النصبةِ الشايَ إلى بعض الزبائن ويستجمع شجاعته ليتكلم، ثم يصمت... ويكرر ذلك تَكرارًا، يريد أن يجعل الأشياء التي تدور تثبت في مكانها، يغدو ويروح، ويلتفت إلى ناي كثيرًا، ثم يسحب عينيه من عيني ناي اللتين تنطقان بالحزن والجد والأهمية،
قد يحدث شيء... جلسا صامتَين... الهواء ثقيل والحضور رمادي على غير عادتهما، بعدما نهضا ليغادرا دعا صاحبُ القهوةِ ناي وترجل به بعيدًا.

"أريد أن أخبرك أمرًا ما، لقد رأيت صديقتك تتمشى بصحبة شاب آخر"
ومِن وَصفِه له عَرَف أنه مالك.

انصرف ناي وهو يتطلع في الوجوه ولا يرى شيئًا، يرى عيونًا كثيرة تسأله:

"ما لك واجمًا؟!"

أخذت اللحظات البطيئة تدفعه في دوامة لا تنتهي، يشعر بمالك دائمًا وراءه وفي ظهره وعند أطرافه، فهو زميله في الشوارع وفي كثير من أوقات الفراغ واللهو، لكنَّ وجوده أصبح خانقًا له لأنه يهدد حبه واستقراره.

يذكر جيدًا متى بدأ هذا الشعور يراوده، يوم رآه ينتحي جانبًا وهو يرد على الهاتف المحمول، بعدها أعطى له ناي روايةَ "خان الخليلي" ليقرأ قصة الحب التي دارت ويفهم كيف سرق الأخ حب أخيه!

أخذ يراقب زحف ظله الثقيل على أدق تفاصيل حياته، استعان على أوهامه بخُلُق كريم وابتسامة حائرة يخفي بها خوفه وجزعه، ولكن شعوره بأن صديقه يريد أن يأخذ حبيبته منه أثقلَ أطرافَه وأصاب قلبَه بهمٍّ عَظِيم.

أتدري ما الوجع؟ ألا تملك حتَّى حق العتاب.

غلبه النعاس بعد العمل فنام على الكرسي في نهاية المقهى، كان مرهَقًا تؤلمه عيناه وكذلك ساقاه وكتفاه وسائر بدنه، وما إن رأى الكنبة القديمة في الركن الذي بدأ يخلو من الزبائن؛ جلس عليها واستُغرِقَ في نوم ثقيل.

أطفئت المصابيح الرئيسية وانصرف آخر الزبائن، وذهب عم علي النادل إلى صاحب المقهى وزوجته لمراجعة الحسابات وبقي هو وحده، فوجهه تحت النور الكابي بِغَير ملامح، عيناه حمراوان ووجهه مكروب.

اقترب من عطفة اللوكاندة ليصعد إلى الدور الأول ويدخل الغرفة التي يسكنها، ويترك العالم ليسقط عليه ضوء الفجر، لن ينام سوى ساعات قليلة ثم يعود إلى المقهى في الصباح، ولكنه لم ينم!

نزل إلى الشارع ليتمشى، عقله مغرق في التفكير وقلبه مشغول، لم يرد أن يبقى وحيدًا فانبرى يبحث عن الزحام وحركة الناس حول محطات الحافلة، ومطاعم الفول المغلقة وبائعي الجرائد... كيف تمكنت هذه الفتاة الأنيقة الضئيلة الغائبة الحاضرة أن يكون لها هذا الحضور المنتظم؟!

هدأ قلبه قليلًا عندما بدأ يمشي، اهتدى بفضل عَدَميته إلى أنه لا أهمية لشيء فأخذته رياح الراحة إلى السعادة القصوى، يسكنه الآن براح من الراحة والهدوء؛ فهو يحب التمشي في ليالي الشتاء، وينتظره مثلما ينتظر المحب قدوم حبيبه ليرده إلى الحياة، فيسحبه ليله الطويل إلى دروب روحية في داخله لم يزرها قبلُ، وكل ما يدركه أنه عندما يمشي وحيدًا يتكفل البرد بكل شيء.

قادته قدماه دون أن يعي إلى شارع مظلم، لمح في نهايته ضوءًا خافتًـا فمشى يتتبعه، كلما اقترب ارتفعت في أذنيه صوت موسيقى خافت من مذياع يغني:

"أنا هويت وانتهيت" بصوت سيد درويش نفسه.

قرقعة أحجار النرد، طرقعة كؤوس، أصوات ضحك وصخب يلازم كل خانات وسط البلد...

أزمع المجازفة ليخفف عن قلبه وطأة الألم، دلف إلى الخانِ بنصف قلب ونصف قرار، لأول وهلة ألفاها شيئًا باقيًا من الزمن الجميل، كان الزمن نسيها بمن فيها فلم تمسها الحداثة، عندما وطئت قدماه أرض الخان تعثرت في أعمار المسنين الملقاة على بلاط الزمن، تشم في موسيقاها رائحة بحر إسكندرية تفوح من قلب سيد درويش، وتتلألأ في فضاء المكان الفاني أجساد بضة مقبلة ومدبرة.

شعور بالخوف والخجل لم يعتده منذ مدة جعله يجلس في مكان قصي، تهفو روحه إلى كأس نبيذ قد تنسيه ألم الليلة! فلقد جرب الحشيش مرارًا لكنه لم يكن قد جرب الخمر بعد.

سرعان ما باغتته فتاة مصبوغة الوجه بألوان كثيرة، خمرية مرسومة الملامح نافرة الصدر، قعدت أمامه وعلى وجهها شبح ابتسامة تِجارية مصطنعة، يبدو أنها جاهدت كثيرًا لترسمها على ثغرها! تلفظت بصوت واثق من نفسه كلمات الترحيب، إن ما يميز هؤلاء الفتيات أنهن يعطينك الثقة من نظرات أعينهن، وهذا ما يبحث عنه الرجال في دواخلهم؛ إذ يريد الرجل أن يشعر دائمًا بأنه شهريار عصره معشوق النساء.

كررت عليه بعض الكلمات التي تحفظها كي تشعره بأنها تعرفه منذ أمد بعيد، إذ قالت: "لقد اخترتك من بين هؤلاء المساطيل"

- لماذا؟

أجابت في غنج مبتذل:
"تكمن قيمة الرجل في قدرته على إقناع المرأة من ثقته في نفسه، ولكني رأيتك خائفًا مترددًا تفضحك عيناك، ولكوني امرأة تهوى الاختلاف اخترتك".

شعر للوهلة الأولى بأنها تختص بصفة تستحق التأمل، تترك فيك أثرًا قبل أن تذوب في النسيان.

تابعت (كفتاة ليل ماهرة) في استدراجه نحو الولوج معها في كلام قد يأتي بثماره، إلى أن انزلقت قدماه دون أن يدري (أو قل إنه يدري لكنه يُسِرُّ في نفسه إعجابه بحضورها)، دار الكلام بينهما ورأى في الحديث معها تنفيسًا عما يجول بصدره.

مرت برأسه فكرة كثرما شغلته، إلى أن استحالت ألفاظًا على لسانه بعد كثير من التردد؛ فسألها:
"ما الذي رمى بكِ إلى هذا المكان البذيء وهذا العمل الرخيص وهذه الحياة البغيضة؟".

صِداميٌّ.. يلقي ما في قلبه دون أدنى تنميق أو تزيين.

انطلقت من حنجرتها ضحكة ممزوجة بصرخة خرافية جعلته يرسم على وجهه سِيماء الاستنكار، ثم أردفت قائلةً في تؤدة كمن يَزِن الكلام على لحن عميق وهي تداعب كأسها دون أن تنظر إليه:
"كم مرةٍ جاء إلي رجل يلقي محاضرتَه عن الشرف والعفة وهو يترجل بين الخانات ويفيض جوفه برائحة الخمر!"

علق مستهينًا بما تقول:
"أنا أشرب الحشيش، أما الخمر فلا... لكني أشربه مزاجًا لا مِهنةً أمتهنها!"؛ غلّف الأجواءَ صمتٌ غريب إلى أن ردَّت في هدوء:

"وما فائدة عذرية الجسد إن كانت الروح عاهرة؟"، ضحك ناي لبلاغة قولها المأثور، ثم قال:
"لا أنتبه لكلامك من هذه الدوشة المحيطة بنا"؛ ضحكت...
- إذن ستطلب مني أن نكمل الكلام في سريرك!

ضحك مجددًا...
"لا؛ ليس عندي بيتٌ؛ هيا بنا نذهبْ إلى النيل"؛
أومأت بالموافقة ثم ذهبت كي تجمع أغراضها وعادت وهي تبتسم ابتسامتها اللذيذة، أمسكته من يده وترجلت به خارجًا قاصدَينِ أقرب مكان يطل على النيل.

ظلامٌ وسكون ..لا صوت إلا صوت تلاطم الأمواج الهادئة، تجاورا في جِلستهما مخلفين ظهورهما إلى الشارع، بادر ناي بالكلام فقال:
"أنعود إلى ما انتهينا إليه في الخانِ أم تودين حديثًا آخر؟".

ثمة نسمات خفيفة تتراقص أمام أعينهما فأظهر النبيذ مفعوله في رؤوسهما، بدأت تتمايل في طربٍ على أنغام موسيقى هاتفه المحمول إلى أن نظرت إليه في هدوء وقالت:

"لنكمل... انظر إلى النيل، هل القذارة التي تشوبه من صنعه أو من صنع البشر؟"
تساءلت بنظرة عينيها ثم أكلملت وعلى وجهها ابتسامة ود وهي تشعل سيجارتها: "أنا مثل هذا النيل؛ تلقيت القاذورات من الخارج لكني ذات أصل نبيل".

- إذن حلت الفلسفة! قالها ثم ضحك..

- كثيرًا ما قرأتها عشقًـا، لذلك أقوم بما أنا فيه عن اقتناع، في النهاية ستفهم أن لا شيء يهم، فـكُـلُّ ذاهب، اليومَ أنا فتاة ليل وغدًا قد أحج بيت الله، تناقض نابع من تذبذب الروح لكنَّ لكل تصرف فلسفتَه وقناعاتِه، والروح بطبعها لا تستقر في مكان.

- أتمزحين؟ من أين لفتاة ليل مثلك بالفلسفة والعدمية؟!
ثم طأطأ رأسه خجلًا ثم قال: "معذرةً! اغفري لي وقاحتي".

- لا عليك، أنت لم تقل سوى الحقيقة، ولأريح لك رأسك، ما دمنا قد غادرنا الخان فسأقصُّ عليك قصتي إن أردت.

- بكل سرور.

ثم سألته وهي تنفث آخر دخان في سيجارتها:
"ولماذا بكل سرور؟!"

- لعله سحر المغامرة والطواف بمملكة جديدة مدفوعًا بحب الاستطلاع والرغبات المكبوتة.

- وماذا أيضًا؟

- بداخلي حزن ثقيل، لكني أريد أن أسمع ولا أتكلم، شيء يهزني هِزةً عنيفة قد يعيد ترتيب الأمور، وطالما حيرني ذاك السؤال الذي رميت به إليك، عن السبب الذي يجعل فتاة جميلة مثلك في وضع كهذا.

- سأقص عليك، لكن دعني أشعل سيجارة أخرى أولًا
أشعلت سيجارتها ثم نفثت دخانها في الهواء مصحوبًا بزفرة عميقة تعني الكثير.. ثم أكملت:

"كان أبي يعمل مدرسًا في مدرسة قريبة من منزلنا، معلمًا منفتحًا ذا ثقافة على غرار والدتي، عندما ضيق السادات على الناس، كفَّرهم بالبلد والحياة؛ فبحث أبي عن فرصة عمل في الخليج، فما هي إلا شهور حتى كان من بين أرتال المسافرين ليعمل هناك مدرسًا للّغة العربية.

قضى هناك خمسة أعوامٍ تبدل فيها حاله؛ أطلق لحيته وأصبح فظًّا غليظًا، تعلو هامتَه علامةُ صلاة مفلطحة، يرتدي جلبابًا قصيرًا.. قد لفحته رياح الوهابية فأطاحت بعقله وعقول معظم الذين عملوا في الخليج، تصحَّر عقله ونضبت أنهار الثقافة والحياة في رأسه.
لقد تغير والدي تغيرًا كليًّا فاجأنا، الأفكار السلفية وضعت على وجهه قناعًا قبيحًا من صنعها لا من صنع والدي ولا طبيعته".

توقَّفَت قليلًا كي تنفث ما تبقى من أنفاس في سيجارتها ثم أكملت:

"أخذ أبي في التضييق على والدتي التي كانت امرأة جامعية ذات ثقافة وقدر كبير من العلم والمعرفة، شديدة التمسك بالحرية وعوالم الموضة، شأنَ نساء ذلك الجيل، امرأة متحررة على خلق وجمال أنثوي، لا تخفي إعجابها بنفسها وقوامها الأنثوي المرسوم.

عندما عاد أبي لم يعد يرتضي كل هذه التصرفات، طلب منها أن تنتقب فرفضت، ضربها كثيرًا ولكنها ظلت رافضة، بمرور الوقت لم تستطع أمي الحياة في تلك الأجواء المتطرفة المتزمتة المكبوتة، تركت لنا البيت وذهبت إلى حيث لا نعلم".

سأل ناي:
- وكيف كان حال والدك تجاهها قبل سفره؟

- كان شديد الإعجاب بها وبعلمها، تزوجا بعد قصة حب عنيفة.

ثم أكملت وشلال الكلام يتدفق من فمها:

"أصبحا كثيرَيِ الشجار، لم يمر يوم إلا علا صوتها إلى أن هرَبت منه، سمعنا بعد ذلك بزواجها، صارت أخبارها تأتينا كقطرات الماء، حينها هاج أبي وماج ففرض الحصار عليَّ وكنت لا أزال طفلة صغيرة، خاف أن أحذو حذو أمي التي ربَّت داخله فيما بعدُ عقدةً تجاه كل النساء.

بات يضربني فكنت أنام باكية لتفرقة أبي بيني وبين أخي، يترك له الزمام إلى آخره، يتصرف كيفما شاء، على حين يحيطني أنا بسياج من الشك والريبة والشروط والفروض، لقد أصبح يعاملني أَمَةً لا ابنةً!

ضاقت بي الحياة في البيت بعدما منع عني الذهاب إلى المدرسة، ولأن الممنوع مرغوب... هربت وتركت البيت".

همس ناي:

- حقيقة، في النهاية كل شيء يعود إلى السياسة.

- أنا أكره السياسة والسياسيين والبلد بأسره.

- لكنهم هم الذين يحركون العالم!

- كلَّا؛ بل الجنس والمال.

- أوَلا تخشين العواقب؟

- سحقًا للعواقب؛ **الحياة لا تحترم إلا من يستهين بها**. قالتها في حزم

- ألا تخشين الحياة وأنت امرأة وحيدة؟!

ضحكت...
- نحن مجتمع نفكر في المرأة أكثر من الخالق!

ابتسم وندت عنه ضحكة خفيفة وهو يرد على كلامها:
- هناك كاتب يقول:

(المجتمع لا يهتم بالمرأة إلا إذا كانت عاريةً، ولا يهتم بالرجل إلا إذا كان ناخبًا)".

- حقيقةٌ؛ لا يعرف الناسَ غيرُ فتاة مثلي عاشرت الرجال بكل صنوفهم. سكتت هُنيَّةً ثم أردفت: "نحن مجتمع غريب؛ نفرض على المرأة الحشمة ونتباهى بالتدين، وحينما تمر أمامنا امرأة نتفحصها تفحصًا من شعرها إلى أخمص قدميها".

-لا أعلم لماذا لا تمنح الحرية للنساء مثل الرجال! نحن مجتمع له عادات وتقاليد، مجتمع عاهر. إذن فأنتِ قاسيتِ ظلم الناس..

أجابت وصوتها يهدر مثل الطاحون:
- لن يظلمني ظالم، ولن أعطي الحياة فرصةً لأن تعبث بأقداري، وإنما أنا من سيعبث بأقدارها.

- أراكِ تقفين مفتوحة الصدر في وجه الحياة.

- ذلك أنَّ الخوف الموت ذاتُه.

أثنى على كلامها بإيماءة من رأسه فسألته:
- هل أعجبك كلامي؟

- جدًّا.

- أتريد سماع المزيد؟

- بكل سرور.

تثاءب قليلًا ثم اقترح عليها أن يتجوَّلا قليلًا حيث إن الجلوس أنهكه، وافقت على الفور، شعر معها بألفة قديمة وحميمية وانتابته رغبة لمواصلة الكلام معه؛ سألها أن تكمل الحديث فالتقطت أطراف الحديث من حيث انتهت وأكملت كأنها لن تنتهي، قالت:
- أنت تحب أن تسمع، وأنا أحب الكلام، وأنا على الرغم من زحمة الناس أشعر بالوَحدة.

- هل عرفتِ الحبَّ يومًا؟

- الحب أسطورة قديمة لم أرَها، ولكني أحسبه ضعفًا والضعف بالنسبة إليَّ يساوي الهلاك.

- كيف لامرأة تعرف كثيرًا من الرجال ألَّا تعرف الحب؟!

- مدخل أي امرأة قلبها، شعورها بالأمان.. ومن أعرفهم يأتون لجسدي لينثروا غبار نزوتهم، ولا شأن للحب بالجسد.

- أشعر كأنكِ تقومين بما لا تؤمنين به!

- لا تقاطعني كثيرًا؛ فأنا لا أحب القيود، أحب أن أتعرَّى في الحديث مثلما أتعرى في السرير.

- الحرية هي التي ألقت بكِ في طريق الهلاك.

- تتحدث كأني نادمة على ما أنا فيه! أنا أفعل ما تمليه عليَّ أفكاري، أشعر بالرضا وأنا أرى الرجال يلهثون خلف

نزواتهم كالكلاب، أنتشي لرؤية العالم يتقوض والنفوسِ تُحتضَر، وددت لو حرقت الثورة البلد بمن فيها، وفي مقدمتهم الفقراء.

- أنتِ متسيبة.

- كلا، إنما أنا متمردة، والتمرد قيمة.

- لكن لا بد من ترويض غرائزنا وإلا أصبحنا في غابة!

- ما أجملَها الغابةَ التي لم تمسها يد إنسان!

هنا صرخ ناي منزعجًا: "هذا جنون!"؛ فندت عنها ضحكة عالية احمر لها وجهها ثم قالت:

"الجنون حياة، ولا تلُم النهر على القذارة بل ألقِ اللوم على هذا المجتمع المتدين الكاذب، قالها لي أحد الذين يطارحونني الفراش.

أرأيتَ من نَبَذوك نبذ المُنكَرِ؟ ... فما الذنب ذنبُك.. إنَّما ذنبُ المُشترِي

- أما تخافين الغد؟

لم تجب، وطغى الصمت إلى أن استفاقت من نوبة سرحان في ذعر وهو يكرر عليها كلامه.

- معذرة.

-لا عليكِ، كنت أسأل: "أما تخافين الغد؟".

ابتسمت ثم نظرت إلى الأعلى كأنها تتذكر شيئًا، ثم قالت:

فتمتع بالصبح مادمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا

ضحك واستطرب البيت.. هذا أحمد شوقي.

-لا أخشى الغد، أظنني رأيت كل ما يمكن رؤيته، لكني على أي حال أوشكت أن أسافرَ إلى الخليج؛ يقولون إن سوق المصريات هناك في نشاط مستمر.

- أليس هذا الخليجَ الذي علم والدك التَّزمُّت؟

أجابت وهي تشعل سيجارة جديدة: "ما الحياة إلا مجموعة من المتناقضات".

سألها:
- ماذا يخطر ببالك من الأسئلة؟

- حياة المرأة ملأى بالأسئلة، ولكن في مجتمع يحقر من قدرها، ويتفه من دورها، مجتمع القهر، لا يملك المظلوم رفاهية السؤال.

أعاد السؤال بغتةً:
- ماذا لديكِ من أسئلة؟

- بل لدي الجواب، الحرية.

طلب منها الإيضاح فقالت:

"لقد خلق الله للمرأة عقلًا كما للرجل، فلماذا يحرم علينا استخدام العقل الذي يمنحنا أحيانًا الشهوة كالرجال؟ لماذا ارتبطت العفة بعدم التفكير في أمور تأتي بالطبيعة

والغريزة والشهوة واللذة؟! ألفُ لِماذا تطن في رأسى وفي رؤوس النساء".

كاد يسألها: "لماذا لم يرسل الله نبيًّا امرأة؟" ولكن الحديث تشعب كما أن الحنق الذي بدا على وجهها جعله يحاول أن يغير مجرى الحديث.

كان قد أنس روحها المتقدة وراء الأطلال وبدت هي سعيدة ممتنة للجو ولظَفَرِها بمستمعٍ يتابع ما تقول في اهتمام، ولكن أشعة الشمس كانت قد بدأت تبصق في وجه الأرض فكان على ناي أن ينهي اللقاء.

بادرته قائلة:
- هل أراك ثانية؟

- دَعِي الأمر للصدفة.

- لقد ملأتُ رأسك بكلام لا يعنيك.

- كل إنسان في الكون يعنيني.

- هل سبب حزنك امرأة؟

- ربما.

- إن كانت خائنة فاتركها وأغلق الباب، فِرَّ إلى حياتك.

...

افترقا وذهب كل منهما إلى حياته ولكنها لم تبرح عقل ناي؛ غانية تتحدث في فخار ووقار!

إذن فالصورة من بعيد تبدو مختلفة عن الحقيقة، فأي حكم على الأشياء من ظواهرها لا معنى له، فكم من مظلومٍ بيننا بفعل الظنون!

كتب على صفحته على فيس بوك:

"بِتُّ أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك وأن يقيموا حياتهم على دِعامة من هذا الاعتراف، وهكذا تكون المشكلة الأخلاقية الجديدة: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد؟".

نجيب محفوظ.

كيف لعقلٍ أن يتقبل أن مصدر الحنان إليك يصبح مصدر القسوة، ومصدر الراحة يصبح هو مصدر الألم، ومصدر الحب هو مصدر المشاعر الرديئة كلها؟! فتتوه في اللا منطق وتمكث في اللا مكان لتكون أنت لا شيئًا وبلا أي معنى.

هكذا صار ناي على حالة من البرود واللا مبالاة لم يدركها من قبل، حيث إنه إذا هوى جبل خلف ظهره لم يأبه به، كأن شيئًا لم يكن، يجلس كمن ينتظر قطارًا يدهشُهُ كي يشعر بوخزةٍ مثل شكة دبوس في روحه وعقله، تبلَّد وبهَت، أصبح لا يخاف ولا يحزن ولا يفرح، أحسَّ أنه لا شيء، كأنه الموت في الحياة، حتى الحب فقدْ سئمه وملَّه.

لم تعد لديه الرغبة في محادثة تلك الفتاة التي تملأ الدنيا ضجيجًا لأنها سبب مأساته، اعتراه شعورٌ عبثيٌّ كأنه باحث ينقب عن المشاكل، يريد أن يبصق على الجالسين أمامه، أو أن يتلفظ بكلمات خارجة وصوت مرتفع، أو أن ينزع عنه ملابسه ويسير عاريًا غير مبالٍ، يريد أن يعارك الدنيا ويُخرج حقده وسخطه وغضبه.

لاحظ أصدقاؤه ذلك لكن أحدًا لم يجرؤ على مفاتحته بعدما انطوى على نفسه وآثر الصمت فمضوا يرقبونه في هدوء.

أخذ ينزوي يومًا بعد يوم، شحب وجهه وتحول لون عينيه، هي المرأة الوحيدة التي اختارت قلبه وأدخلته جنة الحياة على الأرض، وجعلته يطير ويموت ويغرق ويغني ويبكي في نفس اللحظة، تقول له:

"إن الألم يشعرنا بالحياة"

ذلك الأمر الذي يتنافى مع روحه، فهو لا يزال يستهين بكل الأمور، يتقبلها في رضا، لكن نار الغيرة أغشت عينيه عن كل إحساسٍ وألم، أصبح حبيس ضعفه وحزنه وألمه، فهو حائرٌ بين رحيله ليلوذ بنفسه من الألم الذي يصهر روحه، وبين البقاء. يجلس إلى نفسه، يأخذ قرار الرحيل، لكنه يتراجع عند أول لقاء، يتراجع لأنه يخجل من نفسه، يخاف أن يجرحها، يخشى أن يظهر أمامها أنه ليس على قدر تحمل المسؤولية، في نفس اللحظة التي يبدو فيها مالك أحن عليها وألطف بها.

لقد أثقل قلبه لأنه لم يكن صريحًا معها بالقدر الكافي، فهو يُخفي عنها حزنه وتململه وسأمه وخوفه من تعلقها بمالك، يخاف أن يصْغُر في عينيها..

لعن الله الغيرة التي تقتله وتستنفذ روحه، وتحول بينه وبين الحب وتُظهر أسوأ ما في داخله، حتى جعلته يتحيّر بين النار التي تأكل صدره وبين الشيء الذي يدفعه إلى إغداق الحب عليها، يديم الحديث إلى نفسه، يؤنبها ويبكّتها، لعلَّ الغيرة جعلته يشك في الحب من منبته!

هل يحبها حقًّـا؟ أم أنها صورة الشخص الذي يود دومًا أن يكونه؟ ذلك الشخص المقدام الذكي اللماح المجنون الحريف "اللي بيفهمها وهي طايرة"، هل يحبها لروحها مثلما يظن أم أنها كانت مجرد صديقة لكنَّ انجذاب مالك إليها جعله شديد التعلق بها؟

بمجرد دخوله في حياتها أحس أنه أفضل منه وأجدر بها منه، فقد جعلته الغيرة يرى نفسه على صورة غير صورتها، فهو يرى مالكًـا مهندسًا وأيقظ ذلك داخله شعورًا دفينًا بالقلة والنقص كان قد توارى منذ عَرَفها وأحبها.

لقد أصبحت الحياة مرهقة بحق لأنه أصبح وحيدًا أمام هذه الأفكارالمتعبة التي تبدو حقيقية، يشعر حيالها بتأنيب ضمير لأنه لم يكن يرى الحقيقة، ظن أن حبه كان وهمًا، يرى ضعفاته لكنه يصر على السير في هذه الطريق الحالكة التي يعلم أنها تتعبه وتؤلمه بواقعيتها.

يعلم جيدًا أنه عندما يعدها أنه سيحارب من أجلها أنه سوف يحارب لأجل إثبات عدم ضعفه وعجزه ليس إلا؛ أصبحت الغيرة تحركه وأمسى ألمه يتحكم في أفعاله، يرفض الخسارة لكنه لم ينكر أنها ملكة تقام من أجلها أعتى الحروب! يريد حقًّـا أن يكمل حياته معها، يعود ويقول إن قصة حبهما تحمل في عمقها رُوح الله التي نفخها في قلوبهما فجعلهما يحبان حبًّا صادقًا نقيًّا، فجميلة هي الحب الذي لم يحسِب له حِسابًا.. يرى نفسه مسكينًا رزقه الله حب جميلة الثريّ.

إن الأحزان مثلُ الغيوم تعكر صفو السماء وتحجب وجه القمر ولكنها سرعان ما تنقشع وتذهب بعيدًا؛ فتخلف ذكرى جميلة لأنها زينت وجه الكون ولو للحظة.

يتقابلان.. ولكن ناي لا يبدو على ما يرام، يسلط عليها نظرة يملؤها بروح العتاب، إذ تأكد له في عينيها بركان على وشك الانفجار.. يتناقشان في أمور هامشية وتجلس معه على مضض.
كما أنها الآن أكثر هدوءًا منه، استقرارها مع مالك جعلها لا تقوم بشيء سوى أن تستمع إلى ملامته، وأما هو فعلى عادته في الأيام الأخيرة لا يخفي ما بداخله، حادٌّ ثائرٌ على الدوام، ليس لديه استعداد أن يقف لحظة في "منطقة

الرمادي"، على حين تلطف هي الأمور وتلقي كلماتها في سخرية خفيفة.

"أريد أن أخبرك شيئًا"، قالها وقد علا صوتَها وغشي عينيها مسحة من الحزن؛ تأملها منتظرًا أن تكمل فقالت:

"أشعر بأني أختنق"؛ قطب جبينه متسائلًا:

"مم تختنقين؟!"

صمتت، لم تعرف كيف تجيب فأعاد سؤالها ثانية؛ نظرت إليه بعين كسيرة خجلة حزينة وقالت:

"أشعر بأنني أدمنتك، أنني متعلقة بك إلى درجة تخيفنى من نفسي، لم أعد أخطو خطوة من دونك وهذا شعور يخيفني ويكتم أنفاسي، شعور أنني أتحرك بك ولك، أنني أمامك منزوعة الإرادة، كل شيء أصبح أنت، كلامي، تحركاتي، فكري... وأنا لم أعتد ذلك من قبل فأنا دائمًا حرة غير مقيدة لا بشيء ولا بشخص، لكني الآن مقيدة بحبك، لم أعد أنا أنا، لقد وصل حبي لك إلى حد الإدمان!"

قاطعها قائلًا في حنو:

"لكني ما قصدت أبدًا إلغاء شخصك ولا التحكم في أفعالك"؛ ردت: "لم أقل ذلك، لكني لا أفعل شيئًا إلا إياك ليلَ نهار، لم يشغل بالي سواك!"

- إنه الحب.

- كرهت ذلك الإحساس، لذلك أشعر بالرغبة في التنصل من ذلك الحب، ضمها إليه في حنان، ولثم كتفها، غاصا في لحظات من الصمت... سالت دموعها فراح يكفكفها ثم أعادها إلى حِضنه، لكن قلقًا مفاجئًا مضى يدب في

أعماقه، هبت على رأسه الأسئلة هبوبًا، وجد نفسه لا يدري ماذا يفعل، اغتم قليلًا لكنه في الأخير سلم روحه إلى دفء حِضنها، أرخى جفونه ونام على صدرها، مرت لحظات إلى أن كفت عن النشيج فسألها وفي صوته غيظ مكتوم خلَّفته الأسئلة التي برقت في خاطره:

"أهذا الحزن سببه حبنا أم ظهور مالك في حياتكِ؟"

نفخت مزمجرة ثم أجابت:

"مالِـك مشكلة أخرى لا أدري لها حلًّا"

- أيُّ مشكلة؟!

- تعلقه بي يتزايد يومًا بعد يوم، وأنا أيضًا أجد الرغبة داخلي في الكلام معه، حاولت كثيرًا أن أمنع نفسي منه ولكني لم أستطع.

- لكنك تحبينني، فكيف لديك حاجة إلى الكلام مع شخص آخر؟!

-لا أستطيع أن أمنع نفسي؛ أجد في عيونه شيئًا مختلفًا فتجذبني قوة حبه رغمًا عني.

ثم شعر كم هو صغير في وجه الدنيا عندما قالت له:

"حدثت أهلي عنك فرفضوا الفكرة تمامًا، أنا طبيبة فلا بد أن يتزوجني طبيب".

افترقا على غير وعد بلقاء آخر، لكن قلبه ظل يغلي بالحنق، فأسوأ ما في بلادنا أنها تحرمنا من الحلم.

أُحِبُّها وتحبني، لكن هذا لا يليق في وطن الفوضى واللانظام، ولكن كيف لنا أن نواجه هذا الظلم؟ ينبغي أن يدخلوا في قلوبنا ليروا ما يفعله الحب بنا، لكن هيهات!

رغمًا عنه استبد به الغضب فارْبَدَّ وجهه وتغيرت ملامحه إلى الغيظ والمقت ودون أن يدري طفرت دمعة وهربت من البركان الذي يغلي في دواخله، ظلم في السياسة، وظلم في الحب الذي يعالج ما أفسدته السياسة!
يتوهج داخله بركان صارخ؛ نظر إلى السماء نظرة حانية ثم راح يقول:

"فلننتظر إرادتك التي لا رادَّ لها ولا يعلمها سواك".

كاد كوب الشاي ينزلق من يده من عمق الاستغراق في التفكير إلى أن جذب عينه منظر عصفور صغير يفتش في الأرض عن شيء يأكله.
لعلها رسالة توحي إليه بقدرة الله على ترتيب شؤون خلقه وقدرته على تآلف الكون وتشابكه وانتظامه في لحن مُوسيقيٍّ سرمدي.

أفرغ كوبَ الشاي في رشفتين متتاليتين ثم تبعهما بكوب ماء مثلج، ثم أخذ هاتفه ليسمع قصيدةَ "الكمان" لأمل دنقل، تلك القصيدة التي تلازمه.. ثم نظر إلى الكتاب الذي أهدته إياه فانتعش بدنه بلذة خفية فأراح رأسه إلى الوراء كي ينفض عنهُ غبار الحيرة ونظر إلى السماء نظرة غائمة واجفة ولكن فمه أفتر عن ابتسامة رغمًا عنه.

كيف نشكر لله أسباب السعادة التي تقع بين أيدينا؟! قد تأتينا السعادة في ثوب نجاح أو مال لكن أجَلَّ صورها عندما تأتينا حبًّـا، هذا السحر الإلهي المصبوغ بروح الخالق، يأتينا من السماء مثل البرق فيضيء قلوبنا ويفتح أذهاننا، الحب هو المرأة التي تجلس أمامها لترى الحقيقة.. حقيقة

أنفسنا وحقيقة ضعفنا دون خجل، مما يجعلنا نتخطى تلك الحقيقة في سلام.

لكن الشعور بالخوف يعود ويلازمه عندما يتذكر أن حبه في خطر، فلم يكن أمامه سوى أن يعاتب جميلة مجددًا، يعاتبها لأنها سمحت لنفسها بأن تدخل شخصًا آخر في حياتها، "تقول إنها تحبني، فلماذا ترتاح إلى مالك؟ لماذا تتعلق برجل آخر؟ هل لتهرب من إدمانها لي! أم أنني لم أعد مرضيًا بالنسبة إليها؟".

عاد حائرًا ولم يتوصل إلى سبب مقنع لما يجري، أما هي فأطبقت عليها ظلمة صامتة ثقيلة الوطأة بعدما لاحت لها طريقة لوضع حد لحياتها التعسة، فهي تحب ناي ولكنها لا بد أن تنعم بالحرية بعد أن تمتلكها بإرادتها، وهي لا قوة لها على مقاومة ذلك الحب.

اعتمادها الكلي عليه يشعرها بالاختناق، حتى إنها كانت تأتيها لحظات تشعر بأنها تكرهه وتكره الحب أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا.

فما الذي يدفع امرأة إلى أن تشعر بذلك إلا الخوف؟ إلا عقلها الذي يملي عليها أفكاره رافضًا الوضع، فيدفعها إلى الانجذاب إلى مالك وسيلةً للخلاص من قيود ناي! أم أنها تحب مالكًا ولم يكن حبها لناي إلا وهمًا؟! يرجع خوفها إلى أنها تبينت أنها تسلك طريقًا خاطئة معوجة، كما أن رأي أهلها أخافها فجعلها تهيئ نفسها إلى الخلاص من ناي والالتصاق بمالك الذي يرضيها وسيرضي ارتباطها به المجتمعَ والناس.

لكن ناي لم يكن يعلم بهذه الطواحين التي تطن في رأسها فلم يعد بينهما موضوع للكلام سوى العتاب وكلماته الثقيلة التي لا تعرف كيف السبيل إلى الرد عليها، لا لأنها ثقيلة، بل لأنها حقيقة.

هل بإمكان الحب أن يخنق الحياة؟!

لم يكذب محمود درويش حين قال:

"لا أريد من الحب غير البداية".

انقلبت حياته جحيمًا بين الغضب والغل والغيرة والشجار ومزاملة الشياطين في رأسه، لقد هبطت به الغيرة إلى أسافل الأرض ليري وجه الحياة البائس، فـتـلـك التي يعشقها أمست نبعًا لأحزانه، هوت به الحياة بغتة، أدارت له وجهها وأظهرت الوجه العابث، الحب يَهوِي والثورة تأفل، والكون يتردى إلى الظلام.

لازَمَ الفراش أيامًا، أصبحت دموعه أكثر من كلامه، لم يعد قلبه يحمل سوى الغل والكره لمن كان صديقه، لم يكن يعلم أن حياته ستنقلب جحيمًا بهذا الشكل، فهو لم ير وجه الحب الآخر ولم يتوقعه، هذا الوجه المدمر الذي يحضه كل لحظة على الانتحار.

دائمًا يأتي الألم من حيث لا نتوقع، فيأتي ثقيلًا مباغتًا يأخذ في وجهه كل أوجه الحياة ويكنس ما كان من ذكرى ويخلف الدمار الشامل.

بكى كثيرًا وفكر أكثر، وهرب بالنوم من أفكاره، يتحدث إلى جميلةَ فيجدها متذبذبة بين حبه وحب الآخر إذ تخاف أن يضيع كلاهما منها، بين رغبتها في الحياة مع ناي وقَبول صوت عقلها الذي يلح عليها إلحاحًا بمركز مالك وشهادته، ظل متحيِّرًا لا يدري ماذا يفعل، أيطالب بحقه في الرحيل؟ لكنه -مع الأسف- يعود ويخاف أن يتركها كسيرة، ويتزايد خوفه عندما يدرك أنها لا تعوض.

لعلها تحبه، يعلم يقينًا أنها تحبه لكنها كفت عن ترداد ذلك، يظهر ذلك في عينها أسفًا، لكنها لا تعلن مجددًا خوفًا من أن يطول أمله ثم ينكسر قلبه أشد انكسار، لا تعلن كي لا تربط نفسها به، فهي تعلم أنها ستكون حملًا عليه، لإدراكها أنه سيؤنبها يومًا على كل الوعود.

تتوالى الأيام وهو على هذه الحالة، يرحل عنها ويعود ثم يلعنها ويرحل ثم يعود، كلاهما يحترقان دون أن يتصور أيٌّ منهما كيف تكون النهاية.

عزم أن يكون وفيًّـا محاربًا من أجل الحب، ففي لحظات الصفاء يتحدث معها بقلب رائق وصوت يحمل في طياته هدوءًا وثقة، يقول لها:

"سوف أحمل عنك أعباءك كي تجدي الراحة في حبه"

وهو ينوي في داخله أن يجذبها إليه بإظهار الوفاء والتضحية، وكان هذا الحب حقيقة في داخله، إلا أنه كان يبتكر طرقًا للعمل على راحتها رغم أنها سبب تعبه، الحب عطاء في حقيقته؛ يحاول أن يعطيها الراحة والحب والأمان دون مقابل لكنه سرعان ما يعود إلى ضعفه ورغبته في العتاب، يكيل لها اللوم وهي لا تناقش، فهي تعلم أنها اقترفت ذنبًا عظيمًا، حزينةٌ لفواته من بين يديها، لكنها تمادت في طريق مع الآخر بإرداتها لا تعلم كيف تعود منها، ولا تريد.
...
طلب منها الآخر أن تبتعد عن ناي؛ نهرته ثم انهارت أمامه باكية وهي تقول له:

"لن أسامحك لأنك أضعت مني حب عمري، أضعت مني من عرفت معه طعم الحياة"؛ انفجر مالِك في وجهها مغاضبًا مما دعاها إلى اللجوء إلى ناي، حدثته المشكلةَ

كاملةً وشكت إليه حجم الألم الذي حل بها؛ فلم يقرر سِوى أن يحنو عليها ويهدئ من حزنها.

يجد ناي بعض الراحة عندما ينقطع حديثهما لأيام، لكن ما يعيده إلى الكلام عِلمُهُ أنه لا يوجد شخص آخر يلبي احتياجها النفسي مثله، وهذا ما كان يؤلمه، فمِن أين له بحب آخر يضمن له ذلك الفناء من دون إرادة؟

يحزن لأنه يثق بأنه لن يرى مجددًا من يعيش معه متعة الحياة مثلما عاشاها معًا، امرأة تقرؤه دون أن يتكلم، تفهم ما بداخله من صوت أنفاسه، لذلك كان يعود من بعد غياب من خوفه عليها وخوفه على نفسه من الوحدة، فيجدها كما هي تحبه ولا تنكره ولكنها أيضًا لا تنكر الآخر، ظلت تحبه لكنها تحاول الفراق إيثارًا للسلامة.

ظل ناي أسير الحيرة القاتلة، هل تحبه؟ هل تحب مالكًا؟ هل تحب نفسها وتتلاعب بالاثنين؟ هل تحب ناي العاشق أم الصديق؟ هل تحب مالكًا لروحه أو لكونه مهندسًا يرضي رغبات أهلها؟ هل حُبُّها لمالك ناتج من تلاقي الأرواح أو هو حب أناني ناتج من أوهام الأنا؟...

لذلك فعندما يعاودان الكلام يغرق في دُوَّامة الشك والحزن والحيرة، وفي لحظات الغياب ينسى كل ذلك، ففي الغياب يمر به طيف لحظة جميلة يتذكرها، قراءة كتاب يعالج حزنه، سماع أغنية تذكرها بها، يود لحظتها لو حدَّثها ونقل إليها نشوته مثلما اعتاد، لم يكن يحس إذا عاد إليها بعد غياب أنه يكون قد جرح كرامته؛ فهو يعلم في داخله أنها تراه جميلًا دائمًا، تصون كرامته رغم ما فعلت.

يسأل نفسه في فترات الغياب ويسأل الأصدقاء، وقد أقر جميعهم بحتمية الرحيل...

"اهرب فهذه امرأة لن تنفعك"

"من باعك مرة يبيعك ألف"

"اترك امرأة فضلت عقلها على قلبها"

"بقاؤك مضيعة للوقت والكرامة"

"امرأة قبلت أن يشاركك فيها رجل ليست بحبيبة"

"العاشق لا يختار ولا يحتار"
...
لم يجد صوتًا يرضي ما بداخله من رغبة في البقاء إلا واحدًا، كان راهبًا زاهدًا في الحياة ولم يتزوج، قال له:

"إن كل حُبٍّ حرب، حاول أن تنتصر بالعطاء، بحنانك ورجولتك، وإن فشل الحب فأعطِ مزيدًا من الحب".

حاول أن يفعل ذلك مرارًا لكنه سقط فريسة الغيرة والغضب، فينقلب حبه تبكيتًا يَجُـرُّ خوفًا من أن تكرهه وتلفظه.

طالت بهما الأيام وهما على تلك الحالة، غياب وإياب، حب وعتاب، أطياف من الصفاء وساعات من اللوم، يزداد ألمُها بازدياد حَيرتها، ويزداد هو حيرة بين البقاء والرحيل.. فهي تحبه وتريد الآخر، وأما هو فلا يقبل أن يشاركه فيها أحد ولو لحظةً، يضغط عليها هو من ناحيته وكذلك يفعل مالك، الحرب قائمة بين القلب والعقل، حرب باردة لم تعرِفْ فيها من المنتصر ومن صاحب الأرض.

لم تكن لناي سيرة سوى خيانتها له، وما ألم بحياته من بؤس وعبث، وأما هي فتسمع إليه بقلب كسير، وعندما تقابلا لم تفعل سوى أن ارتمت في حِضنه، لثم كفها وجبينها، وكان جسدها ينتفض وينبض حرارة.

"وحشتني..."

أمسَك شعرها بكفه ثم حل ربطته وجعله ينسدل على كتفيها كـلَيلٍ بعد غياب شمسٍ، دفن وجهه وأنفه في أعماق شعرها وهو يضغط بصدره على صدرها ويختلج، يخرج من جوفه الخوف والحزن والحب، بـكـى فـبَكَـت، ظلا فترة ليست بقصيرة إلى أن رفعت رأسه وقبلت جبينه ثم قالت:

"آسفة على ما فعلت"، ثم عادت واحتضنته؛ ذابت دموعه فوق وجنتيه واختلطت مشاعره برائحة جسدها، إلى أن خارت قواهما فقعدا صامتين، قال لها:

أحبك...

- أحبك.. ولكني لا أدري ما العمل.

- اتركيه.

- لا أستطيع.

- إذن اتركيني أنا.

- لا أستطيع!

أغمضت عينها حزنًا على ما وصلا إليه، ثم افترقا ومشى كلٌّ إلى طريقٍ وهما لا يزالان واجمَين.

في شهوره الأخيرة أصبح دائم الوجوم كثيرَ الصمت، تتوالى الأيام وهو على حاله، حتى الأصدقاء قد مَلَّهُم، سئم الحياة وظل يقضى أيامه في غرفته حتى إنه لم يكن يطل

على الشارع؛ كانت الحياة مُعطَّرة بحبها والآن هي مغلفة بحزنه على ما فعلت به وبنفسها.

حدثته في الهاتف بأنها تريد أن تتمشى معه؛ ذهب للقائها وتمشيا وسط الناس في قلب النهار وهو غير آبه لا بالناس ولا بنظراتهم، هذه الشجاعة التي تنتابه عادةً وهو معها، ظلا على صمتهما إلى أن رن هاتفها المحمول، مالَت عنه قليلًا وردَّت في خجل، كان المتصل هو مالك.. فما هي إلا كلمات مختصرة حتى أغلقت.

اشتعلت النار في جسده، "كيف لها أن تسير معي وتكلم آخر؟! كيف أدخلت نفسها في هذه الدائرة؟!"، ظل يعض على نواجذه من فرط الغضب ثم سألها -وقد علا صوته رغمًا عنه-:

"كيف فعلتِ ذلك؟ تشاغلين رجلين في آن واحد؟"

ثم انثالت عليها كلماته مثل جبل من تراب، سِباب لاذع وكلمات جارحة وهي صامتة قد ملأ عينيها الحزن.

تركها ومشى وحيدًا، وقلبه مشتعل نارًا إلى أن أتى الليل وهاتفته؛ انهال عليها مجددًا، بكت قائلةً:

"إني حائرة لا أدري ما ينبغي لي فعله"، وكان هو متحيرًا بين غيظه وغضبه، بين خوفه عليها وحزنه على نفسه، يصرخ فيها لكنه يندم في داخله لأنها جزءٌ منه، لكنه يعلم أنها تعذِره لأن الألم كان أكبر منها ومنه.

دموعُهُ محبوسة في مقلتيه ليل نهار، سواء أكان نائمًا أم مستيقظًا، استأثر به الحشيش الذي يدخنه وحيدًا أو مع الأصدقاء، يسير مخمورًا طَوال اليوم ويمرق في الأماكن التي كثرما حملتهما، تجرُّه قدماه إلى البيوت التي يعرفها، يطفئ فيها نار الغضب التي تتحول عادةً إلى لذة إذ كان

يتردى يومًا بعد آخر في بيوت السكر والدعارة، يبحث عن أجمل النساء ويتعرف إليهن ثم لا يلبث أن يلعنهن ويذهب، بحيث يطفئ الجنس نار الغَيرة في قلبه.

عندما يسير وقلبه منقبض لا يستطيع أن يتنفس من فرط شوقه إلى اللقاء، يسير مثل المدمنين الذين يلهثون وراء جرعة، جرعة حب، وحينها كان الجنس هو العِوَض.

لم يكن يعلم أنه يحبها إلى هذا الحد، يتألم بمجرد أن يتخيل أنها ليست بجانبه، يتخيلها تقول: "أحبك إلى الآخر" كما تعودت أن تقول له، ويسير ثملًا يتذكر كل ما بينهما وإذ بالخمر تزيد جُيُوشَ المشاعر، ثم ينتهي أمره إلى البكاء.

أظلمت الدنيا في عينه فغابت عن جسده أمارات الحياة وتدريجيًّا انطفأ وخبا، نقُص وزنه بشكل ملحوظ، الأحزان جاثمة على قلبه كما الجبل وليس بمقدوره أن ياخذ ولو خطوة واحدة نحو الخلاص من هذا الثِّقل، لعله مستمتع بدور المقهور المظلوم الذي يرفع عن كاهله أي مسؤولية تجاه فشل العلاقة
رغم أنه يعيش مسلمًا أمره إلى الله، لكنه انفجر ذات يوم فمَضَى يعاتب إلهه!

"لماذا أعطيتني إياها إن كنت ستأخذها؟"

يسأل وفي قلبه تردد، لأنه دائمًا على يقين بأن الله يختار لنا الصالحات، لكنَّ الألم في تلك الأيام كان أقوى من رجائه فصار يعيش كالمهزوم وأوشك أن يسقط في الهاوية.

حتى البكاء أصبح لا يريح من تَكراره وغزارته، والعالم بكماله ينهار أمام حيرته، كما أنه يشعر بأنها تعاني اضطرابًا كبيرًا لذلك رأى أن الأفضل لها الابتعاد عن كل منهما لتنأى

بنفسها عن ألم الحيرة، والذي يحبها هو الذي سيبقى رغم البعد، فتترك الاثنين لئلا تخسرهما معًا.

وردت إليها مكالمة فإذا بناي هو المتصل، وجد في صوتها صدى البكاء الذي انتهى بالكاد منذ لحظات؛ ما زال صوتها مشمولاً بتلك القتامة التي تشمل الباكين بعد البكاء، حاول إضحاكها لكنها لم تستجب، قال لها:

"ما رأيكِ في العاشق المجنون الذي يصرخ غاضبًا ليلومك على الخيانة؟!"، ثم أكمل وهو يضحك: "إنه يريدك من كل قلبه، وما زال على جنونه المعهود لكنه صار أكثر تعقلاً الآن بعدما نفض الغضب عن قلبه، يتمنى منك أن تنقذي روحك التي أنهكتها الحرب، لعلكِ أصغرُ تجرِبةً من أن تحتملي هم علاقات كهذه، يجب أن تضعي حدودًا لـكـلَينَا، يجب أن ترحمي روحكِ وتتركيها تستمتع بحياتها، هذا عذاب عظيم على قلبك".

وهي تعده بأن هذا هو الحل الوحيد.

ظل يمدحها ويلقي عليها كلامًا جميلاً فسمعها تهمس له:

"شكرًا لك من كل قلبي"

انفرجت الحياة في وجهه، صار أكثر مرحًا وحبورًا وأكمل يومه هادئًا إلى أن أتى المساء.

رن هاتفه المحمول وتبدى له أنها أكثر مرحًا من السابق؛ تتحدث أكثر مما تنصت، تضحك وتضحكه كعادتها.. إلى أن أنهيا المكالمة ونام مغتبطًا منبسط الأسارير.

وعند مطلع الفجر استيقظ مغتمًّـا رغمًا عنه فكأن شيئًا لم يكن! أخذ عقله يصور له أنها تكلم الآخر الآن، فعاد إلى حزنه ولم يعاود النوم.

عندما هاتفته والدته أحسَّت في صوته نبرةً غريبة؛ ليس هذا ابنها الذي يحكي لها كل شيء عندما يتحادثان عن حياته الجديدة، شعرت بفطنتها أن في الأمر امرأةً.. لكن إحساسها توارى خلف حنين الأم التي تود الاطمئنان على وحيدها، وقد آثرت تأجيلها إلى حين.

...

صار أكثر جرأة وإقدامًا في أمور السياسة، غزا الجنون عقله غزوًا فبات ينغمس في شتات الفكر والفلسفة، يقول رأيه علانية في وقت صارت الأصوات تتهاوى والحرية تختنق، يداهمه القدر أحيانًا فيلقي أمامه بطلًا يحتذى به، أمور تجعله يشك في الحقيقة والواقع؛ الحقيقة التي ينبض بها قلبه والواقع الذي يزعق أصواتًا تعلو لتناهض كل صوت حر ينطق في الفضاء.

ذات يوم كان متجهًا إلى مكان ما داخل المدينة، جالسًا في العربة منتظرًا اكتمال الركاب ويقرأ كتابَ "يوم مقتل الزعيم" فـداهمته قصته من بين السطور، كأنه هو وكأنها هي.

كانت السيارة أوشكت على الاكتمال، ولم يتبقَّ إلا كرسي واحد ينتظر الراكب الأخير، فما هي إلا لحظات حتى وجدها جواره على ذلك الكرسي، انطلقت السيارة وهو في حيرة من تداعي اللحظة، أحقًّا حدث هذا؟ تأتي وهو يقرؤها في كتاب!

أما زال الحب ينبض في قلوبهما؟ يُبرهَـن على ذلك بالشفافية التي تشمل قلوبهما، فهي تأتي كعادتها في اللحظة التي يتمنى فيها أن تأتي بملابسها السوداء وملابسه السوداء كأنهما اتفقا على أن يرتديا اللون نفسه.

ظلت صامتة وفي عينها دمعة محبوسة مما أشعره بأنها تخفي عليه أمرًا؛ فعندما تنظر إليه ولا تتكلم يفهم هو أن هناك خطبًا لا تقوى على أن تقوله.

"ماذا حدث؟"

فتحت صفحتها على الفيس بوك من هاتفها المحمول، أرَته خبرًا، لم تصدق عيناه ما قرأ، ضرب جبهته براحته وتسارعت دقات قلبه، لم يدرِك ما حدث في هذه اللحظة التي يقف فيها بين الحلم والحقيقة!

"الكاتب جلال عامر في ذمة الله"

ازداد نَـقْـمُهُ على الحياة التي تأخذ منا كل جميل قسرًا، تتهاوى الأعمدة ويفرغ المعبد من أصحابه، تنقلب الحياة فجأة إلى شر وضحالة، ازداد مقته للحياة حتى إن طوفانه طالها هي؛ حيث انفجر فيها رغمًا عنه!

"كلما رأيتكِ تذكرت نكبتي، أتذكر عامًا مضى وأنا أعيش وهم الحب، أوهم نفسي بأنِّي أعيشُ الحقيقة على أمَلٍ هو أنتِ! لكني الآن مستيقظ على حقيقة أخرى، حقيقة أنكِ تحبين شخصًا غيري، وأن الحياة كذبة نصدقها، وأن السعادة وهم ينسجه الخيال...

ألوم نفسي، كيف لم أرَ ذلك وقد كنت أظن نفسي خبيرًا بالحقيقة؟ أنا الذي أغوص في بحور الكتب زعمًا مني أني طويت الدنيا في جيب قميصي! كيف أنكر عقلي الظواهر التي تضيء الطريق، كيف سَمَحتُ لنفسي بأن أعيش مخدوعًا عامًا كاملًا؟!

الحب خدعة، والثورة وهم والحياة طلاء من البهرج المخادع، وما أنا إلا فرد وسط جمهورٍ صَدَّق المسرحية

حبًّـا في الممثلين ظنًّـا منه أن ما يحدث على المسرح هو الحقيقة.

لقد عاندت مشيئة الله بسبب حبكِ وجنوني.

حزني الآن أكبر من حزن الحب، حزني الآن أني عشت الوهم كمن يصعد في الفضاء ثم يهوي من فالق وهو يشاهد الصور تتداعى أمامه وينتظر النهاية!".

تركها دون وداع ثم تَاهَـت الدنيا وأعتمت، انفصل عن الكون وهو يمشي متثاقلًا، تراءت له الدنيا من المعاني والمثيرات كأنها ليست مكانًا محدودًا مطويًّا في شتى التفاصيل، وهذا ما أشعل وجدانه وأغرقه في بحر الغم، دبت بداخله طاقةُ انتصارٍ فريدةٌ بعدَ ما قاله لها، لكنَّ حزنه على عم جلال لم تكن له حدود.

أمطرت السماء قطرات صغيرة ترسم بقعًا خفيفة من الأثر تلسع رأسه وضلوعه، واختلطت قطرات المطر بسيل دموعه الذي انهمر فجأة.

ظل يفكر في ما حدث، شعر بأنه انتصر عليها فهو الذي تركها وليس العكس، شعر بأنه استعاد شيئًا من كبريائه، لكن خوفًا كان يراوده بأن قلبها لن يحتمل كلامه، وهنا لمسته روحٌ خفيفة وهو يسير في الهواء تحت المطر.. فقرر أن يسلك مسلك القوة والابتهال والأمان.

مرت أيام وهو يفكر، يعاتبها في داخله ويلومها...
هاتفها فأحس في صوتها حزنًا ووهنًا وخوفًا...

"أنا آسفة"

رد ناي في غضب وقسوة لم يعتدهما:

"يجب أن تأسفي لنفسك على ما فعلتِـه بها، لقد أضعتِ من بين يديك حبًّـا قد لا يُعوَّض".

- أعلم ذلك، لكنني لا أستطيع الرجوع!

- فلماذا؟

- ...

- لا أحد يجبركِ على اختياركِ..

- لعن الله عقلي؛ أذهب إليك دون اختيار، وعندما تحين لحظةُ الاختيار أختاره هو!

- إذن فهو الحب، ما دمتِ قد اخترتِـه فأنتِ تحبينه هو. فلتحسمي أمرك!

- أنا إلى الآن لا أعرف من أحِبّ..

- إن كان لحبك أسباب فهذا ليس حبًّـا؛ إنما هي صفقة، بيع وشراء!
لكن الحب يختلف؛ الحبُّ مثل الموت يأتي بلا سبب، ولا يعطينا فرصة لنختار.

- والذي أشعر به تجاهك، ماذا يمكن أن يكون؟

- لا أعلم.

- كيف لك ألا تعلم وأنت الذي تعلمني كل شيء؟!...

- إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطرق المختصرة.

- إن همومي أكبرمما تتصور.
ثم سَكَتَت كأنما غلبها الانفعال إلى أن عاودت الكلام:

- في داخلي اثنان، الأول يريد أن يكمل حياته جوارك، يراك السند والرجل والحب والأخ، والثاني يذهب إليه دون أسباب مقنعة سوى رضا أهلي عنه.

- وما جدوى النهايات؟ الحياة أقصر من أن ننظر إلى النهاية، إن كنتِ لا تستطيعين أن تقفي ضد أهلك لأجلي فاتركي نفسك له ولحبه، ربما تجدين الراحة!

- أشعر دائمًا باحتياجى إليك.

- **المُحِب يبقى، المحتاج يعود**.
وَوُجود الحب مرتبط بوجود الألم؛ ذلك أن الحب والألم وجهان لعملة واحدة، مثل الرغبة في الحياة والمشقة.. وحتمية وقوع الألم، يجب أن نحارب من أجل كل شيء نريده، يجب أن تحاربي لأجل نسياني أو أن تحاربي لتبقَي معي.

- يبدو أنك لم تعد تحبني..

قال بعد تنهد أربكها:
- لم أفعل شيئًا سوى أن أحببتك، فقد اتخذت قراري وانتهى الأمر.
لكني رجلٌ، والرجل لا يقبل أن يشاركه أحد في حبه.

حاول أن ينهي الكلام بعدما أخذ قلبُه يشتعل بالغَيرة فأخبرها أنه يجب عليه إنهاء المكالمة

- أنت تحاول أن تقول إني لم أحبَّكَ وتحاول أن تقنع نفسك بغير الحقيقة.

- الحقيقة أن كلًّا منا أحب الآخر، ولكن من يستطيع أن يمنع طوفان العقل؟ هذا إن كانت هناك حقيقة أصلًا
قالها دون صبر ثم أغلق الخط دون سلام.

شعر بأنه يريد أن يقتل الناس أجمعين ثم يقتل نفسه ليرتاح مما يعاني، رغم أن ذلك خلاف طبيعته؛ فاختلفت نظرته إلى الحقيقة عما كان يؤمن به.

الحقُّ أن الحياة كذبة كبيرة وفكرة بائسة، أكذوبة التفاؤل لم تجدِ نفعًا ومن يدعون إليها مجموعةٌ من المتاجرين بعقول المنهزمين، التفاؤل مجرد بصيص ضوء بسيط أو حب عابر يضيء الطريق لنرى ما بها من ألم وعبث!

لذلك ما زال فرانز كافكا ودوستويفسكي ونجيب محفوظ ورباعيات صلاح جاهين كلهم معنا حتى الآن، لأنهم كابوسيون عدميون سوداويون، وتلك حقيقة الحياة.

حقيقة الحب أنه غلطة طعمها لذيذ وسرعان ما تذوب في الصراع، ولكي نصلح هذه الغلطة ننزلق في غلطات أكبر، من خذلان وخيانة لكل ما نحبه ونؤمن به، لأنفسنا وأرواحنا... إلى أن تنتهي حياتنا بشكل مأساويٍّ بطيء، النهايات دائمًا كابوسية مُرَّة لأنها بمنتهى البساطة "نهاية"، تنتهي بعدمية سوداء، بأن لا قيمة ولا أهمية لشيء، كما أننا نفقد شغفنا وجمرة مشاعرنا، ينطفئ جزء من أرواحنا، لكن الحب يعلِّمنا حقيقة المرأة، نبعُ خيانةٍ وخطأ شنيع في حق البشرية.

حقيقة الإنسان أنه كائن عبثي فوضوي طماع أنانيّ، متأصِّلةٌ فيه الخيانة، لا يعرف ماذا يريد ولماذا يحيا، حتى الذي يعرِف يهرب، لأن من يعرف يتألم ومن ثَمَّ يعدل عن الحياة ليعيش راهبًا في الصحراء يتعبد أو يتصوَّف بين الناس، يغني ويرقص من دون أي روابط اجتماعية، أو

يعيش كائنًا ملحدًا شهوانيًّـا يعيش على الغريزة الجنسية والفطرة، رافضًا كلَّ قانون وضعي أو نظام اجتماعي.

إن الحياة سراب نجري وراءه، وكلما اقتربنا اكتشفنا أنه سراب لذلك يعيش الراهب وهو ينتظر اللحظة التي تنطلق فيها روحه ليعيش جوار الحقيقة الوحيدة الثابتة، ويعيش الإنسان الشهواني منطويًا ينتظر اللحظة التي ينهي فيها حياته بيده، ليتخلص من الحياة وعبئها وعبثها وبؤسها بشكل مأساويٍّ يشعره بأنه أخذ حقه منها بالانتقام من نفسه!

إنه ينزلق في هاوية أو يطير نحو المجهول، مفعم القلب بالحزن والحنين، يطرق باب الذين يقفون وراء الزمان أو يرجعونه خطوة إلى الوراء، يواجه ما هو أعظمُ من موقفه وأفدحُ من الخذلان، إنه يواجه المجهول والقدر.

أخذ يفتش في الكتب عن كلمات تجعله يلعن ذاته، فهو مُخيَّـر بين طريقين ولا يدري أيهما يسلك، كلما قرر تَرْكَها شعر بالراحة تسيطر عليه لانتصاره على ضعفه كأنه همٌّ قد انزاح، فلم تعد لديه القدرة على المثابرة ضد المجهول وكتم انفعالات البركان الذي يغلى تحت جلده وبين ضلوعه حتى يوشكُ أن ينفجر في أي لحظة ويصرخ: "كفى عذابًا!"، يشعر براحة سرمدية فيغلق عينيه ويستكين للرقاد، يمارس حياته بانسيابية ولا يستسلم لنباح المشاعر الصارخ.

لم يعد يخشى التعب لأنه قرر أن يقذف كل شيء خارج السفينة لينجو بنفسه.

قال محدثًا نفسه:

"غريبة هي الدنيا، تضن علينا بالحب، حتى إذا منحتنا إياه وكان سهلًا ليتًا، فإذا بها تنزعه منا عَنوةً!".

فكَّر كثيرًا أن يكتب ما يدور داخله لكن كلماته تبدو عبثية، لكن الكتابة هي الحل الوحيد لتفريغ هذه النار التي تشبه كثيرًا آلام الحيض.

عاش نشوة عارمة عندما تصرف بما يليق بطبيعته كرجُلٍ له كبرياء وكرامة، رغم يقينه بأن هذه اللحظة ليست الأخيرة في الرواية، يعلم أنه قد يَضعُف ويعاود الكلام لذلك قرر في نفسه أن يظل على طبيعته ويعيش كل لحظة كما هي، أن يعيش كل انفعالة وكل فوران مشاعر كما هو، ألِـفَ في سنِّـه الصغيرة انقسام الشخصية والعذابات الأخلاقية، كما ألِـف الصدامات المتوقعة وغير المتوقعة، وقد جثم الفتور في أعماق قلبه حتى اليأس.. فرأى أن يشغل نفسه بغيره ليخرج من دائرة القتامة التي يدور فيها.

كانت الشوارع معتمة وبرد ينايرَ ينخر في العظام، وإنه ليهوَى هذه الأجواء ويشعر بأنه على قيد الحياة عندما تمر عليه لحظة كتلك التي يعيشها الآن، وفجأة شعر بأن مزاجه رائق كمن يشرب بمفرده زجاجة من النبيذ الفاخر، ظل يمشي وهو يتذوق رحيق اللحظة، يكاد يرقص من فرط النشوة التي هجرته طيلة الفترة التي يكابد فيها الألم.

أمشي في البرد حافي
الرذاذ يرعش كتافي
قلبي يبقى حضن دافي
وجنِّـنْـنِي طول البعاد

مر بخفير ليلي يحرس شارعًا مليئًا بالمحالّ، سأله الخفير فجأة:

"كم الساعة الآن؟"

نظر إلى هاتفه المحمول ثم أجاب باختصار: "الرابعة".

فقال الخفير:

"لم يَبقَ كثير من الوقت على بزوغ الفجر".

دهمه شعور بالراحة لأنه يغفل دائمًا قيمة الوقت، لم يحمل في رسغه ساعة يد منذ مولده، لكنه قبل أن يهم باستكمال المسير انحنى إلى الخفير واتخذ مجلسًا جانبه ثم ابتسم ابتسامة كلها وِدٌّ وتَنَهَّدَ لكي يهيئ الرجل لاستئذانه الصامت بأن يجلس معه، ثم تنحنح وهو يمد يده إلى جذوة النار التي يشعلها الخفير طلبًا للدفء.

- متى تنتهي سهرتك؟

- عندما ينتهي العمر.

- ومتى ينتهى العمر؟

- عندما تخلو الحياة من الأحبة.

...

وقع قولُه من مسمع ناي موقعًا غريبًا حتى خُـيِّـل إلى الخفير أنه يسخر منه، لكنه ابتسم للإيحاءات المجهولة التي انثالت من عالم الغيب، لأن ما لاح به الرجلُ ساخر وقاسٍ وغادِر، فقال في نفسه:

"أي تفكير وأي تردد؟ لن أجن على آخر الزمان! بالحزن يتقدس الإنسان ويعد نفسه للفرح الإلهي".

ذكرته جلسة الرجل الحميمية بنفسه، فقد تعلم سر السعادة أن يكون هو لا شيء آخر، السعيد هو من تهتدي خطاه ويترك روحه على سجيتها، عندما يتمنى قلبه أمنية يسعى إليها، إنه الجنون الذي يشفي، فالدنيا الحقيقية مُضمَرةٌ في أعماق القلب، وكلما اقترب إلى قلبه أدرك أن أمنياتِـه ليست من التعقيد والمغالاة في شيء، كشراء دراجة يتسكع بها ليلًا..

لكن أغرب أمنياته التي كانت تنبع من قلبه ويرى فيها علاجًا للحزن واليأس، أن ينعزل في مستشفى للأمراض العقلية، حيث إن جنون الحياة صار لا يُعالَج إلا بالجنون الحقيقي!

عندما يتأجج عقله بأسئلة الوجود، عن الحياة والموت والميلاد، تأخذه روحه إلى مجالسة المجاذيب لعل لديهم الجواب بعدما يئس من عبثية الكون، يريد أن يفهم كيف ينظرون إلى الحياة، إن عالم النساء لا نهاية لتنوعه وعذوبته وعذابه فليظفر إذن بعالم المجانين فكتب على صفحته:

"تنقاسُ قيمة الإنسان بمدى تشبثه بالحياة أو تخليه عنها"

لم تسعْـهُ الفرحة وهو مقبل على مغامرة جديدة مجنونة تمناها قلبه فلبَّى النداء.

الحب غريب! كيف يمكن لشيء بهذه الروعة أن يتسبب في هذا القدر من الألم؟ أضِف إلى ذلك أن السعادة هي غاية الإنسان في هذه الحياة، فهل يتنافى الحب والسعادة أم أن الحب والألم هما الطريق المقدسة إلى السعادة؟

كان يومًا من أيام الشتاء، الجو رطِبٌ يتسلل إلى حنايا النفس بالأسى العذب، وصل إلى عمارة مرتفعة في مكان ناءٍ بإحدى مدن القاهرة الجديدة، الصحراء تتسع في الأفق، والخلاء يشمل المكان إلا من هذه العمارة، يشغل طابقَها الأولَ دارٌ للعُجُز المسنين، والطابق الثاني عنبر يحوي مجموعة من المدمنين، والطابق الثالث -وهو المقصود- عنبر للمجاذيب.

ماذا يدعو الإنسان إلى أن يضع نفسه في مكان كهذا سوى خُفُوت الروح وانغلاق باب الأمل وفقدان الشغف، غير ذلك كان البديل الانتحار.

أول من قابله بعد الدخول كان مشرف القسم، رجل أصلع مبتور الساقين، يستند إلى عكازين ولا تنطفئ سيجارة الحشيش من يده، لم يتعجب ناي من ذلك لأنه ليس باستطاعة إنسان طبيعي أن يحتمل الحياة في مكان كهذا.

قابله الرجل على مضض وعامله معاملةً فاترة ليس بها ترحيب، وقال له في صرامة:

"عند أول مشكلة سوف تطرد من المكان، هؤلاء هادئون بفعل الأدوية المهدئة فلا تحاول أن تثير غيظهم".

المنظر مهيب وهو لا يدري ماذا يفعل، ثمةَ رغبة عارمة متخبطة داخله في آن واحد. جيدٌ أن ترى من هو أكثر بؤسًا وأشد ألمًا إلى درجة أنه لا ينطق ولا يتحرك ولا يتكلم، لكنَّ صوتَ الأبنودي قفز إلى رأسه وهو يقول:

جدعان زيّ عيدان الزان
وتطل فعين الواحد يا ولداه ع الغربة
عارفة يا مرتي الراجل في الغربة يشبه إيه
عود درة وحداني في غيط كمون

جال بخاطره أن من بينهم من هو مثله؛ أتى هربًا من ثقل الحياة وكثرة الأسئلة، ولكنهم صامتون، ينظرون إلى العدم نظرات غائمة ثقيلة، إلى اللا شيء ...لا يفعلون سوى أن يأكلوا عندما يقدم إليهم الطعام، أغنام في هيئة رجال دون رغبة!

لم يجد ناي سوى الصمت الثقيل السميك الموحي بالفراغ والوحشة التي تنذر بإيقاع جديد للحياة، لعبة طارئة يتجرعها الإنسان بلا استساغة، ثم يجد نفسه وجهًا لوجه مع الحتم المؤجل، يلقي نظرة على الحياة الشاملة، يزن أعماله ويتلقى أنفاس المجهول بامتعاض، يتأهب أكثر للصراع ويسلم بالهزيمة لكنه يأمل أن تحل مقدسة.

أخذت رأسه تطن بالأفكار مجددًا وتوالت الأسئلة...

إن كان الله يحب خليقته فلماذا يعذبهم؟!

لماذا أحكامه ومشيئته أكبر من إدراكنا وعكس مشيئتنا نحن أصحاب الشأن؟!

لماذا خلق الحياة على مقاسه هو لا على قدرنا نحن أهل الحياة وسكانها؟!

اللعنة! ما الحياة بغير وجودك يا ربّ؟!

هل يستمتع الله بعذابنا ونحن نسأله: "أين أنت؟"؟

تقتله تلك الأسئلة المستحيلة ولا توجد إجابات مقنعة، وان امن ورضى وادركالتي تفتقر إلى الإجابات المقنعة، وإن آمن ورضي وأدرك الطريق فلماذا لا تخلو الحياة من كدر؟!

في القرآن: " لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ "،
وفي الإنجيل: "في العالم سيكون لكم ضيق".

يقول ناي في نفسه:

"هذه حياة لم أخترها ولم تعجبني، ولم أشارك في وضع قوانينها، ولا أقبل فرضها عليَّ. فمتـى ينتهي هذا الجنون؟".

لم يجد سبيلًا إلى الراحة إلا المهدئات؛ يتعثر عليه النوم؛ إذ حاصره فشله ولم يترك له الحلمُ إلا الخذلانَ.

مرت عليه أيام تحت تأثير المهدئ فلا يكاد يصحو حتى يعاوده النعاس، بالكاد يصحو ليأكل أو يشرب، إلى أن استيقظ ذات مرة وأصر ألا ينام، وضع رأسه بين كفيه وهو يغالب النعاس، صدره يعلو ويهبط في تنفس غير منتظم ويخفق قلبُه ويدقُّ سريعًا، أحس أنه تائهٌ عن المكان.

من المرات القليلة التي يشعر فيها بأنه مهزوم، لقد ألهبه الجزع بِسِياطِه ورأى الزمن يجري حتى توارى في الأفق تاركًا إياه وحيدًا في الخلاء مع ألمه المقدس.

سمع صوت خطوات متثاقلة تقترب، رفع رأسه وبالكاد فتح عينه، رأى أمامه شبح إنسان يبتسم له ابتسامة بلهاء من فم ثرم مفتوح مثل الكهف، يستند يمينه إلى عكاز

ويمسك بيسراه زجاجة فارغة، قال في خفوت وهو لا يزال على ابتسامته:

"اذهب واملأ هذه الزجاجة، سأنتظرك حتى تعود"

قال ناي مرتعدًا قد خرجت الكلمات من فمه متداخلة:

لا أعرف من أين أملؤها"؛ فأشار الرجل إلى مكان الصنبور دون أن يتكلم.

من النظرة الأولى نزع قلبُ ناي إليه بارتياح وسرور ورغبة خفية في الاحتماء به من هول المكان، ذهب وملأ الزجاجة وعاد سريعًا مُوجِسًا بعض الخيفة، لكن لذة التجربة تلسع روحه وتجعله يبتسم رغمًا عنه وهو يحث خطاه فشعر كأنه يقفز قفزًا، أعطى الرجل الزجاجة فأخذها ولم يتزحزح، صمت ولم يتخلَّ عن ابتسامته إلى أن حرَّك حنكه فقال:

لا تقلق، لست من هؤلاء؛ لقد جئت إلى هنا بإرادةٍ مني"

توقع أنه يهذي كما اعتاد من أفعال المجاذيب التي كَثُـرما رآها في الأفلام، تذكر محمود عبد العزيز في فِلم "الدنيا على جناح يمامة" وهو يصرخ:

"أنا مش بلحة"

ابتسم لتلك الخاطرة ولكنه ظل على صمته إلى أن قال له الرجل:

تعالَ معي.

نظر حوله لعله يعثر على مشرف القسم ليخلصه من ذلك الرجل أو يرشده إلى حقيقته فلم يجده.

تبعه ناي إلى أن وصلا إلى سرير صغير في نهاية العنبر، قعد الرجل وأشار إلى ناي بأن يقعد ففعل ذلك في خجل جم، السرير صغير لكنه نظيف خلافَ بقية أسرة العنبر، ولم يترك له الرجل متسعًا من الوقت للتفكير فقال مجددًا:

لا تقلق، أنا لست منهم!"

ابتسم ناي ولم ينبس كما اعتاد، وتأكدت له صحة كلام الرجل عندما رأى عمودين مرتفعين من الكتب المرصوصة حِذاءَ السرير.

صار الآن ذا طبيعتين، الأولى طبيعته التي جُبِـل عليها؛ الخجولة الهادئة الصامتة..
والثانية المكتسبة حديثًـا؛ ذات الصوت العالي والكلام الكثير والرُّوح المرحة.

أكمل الرجل:

"عندما رأيتك وعرفت قصتك سُعِدت كثيرًا، لم أنم عندما علمت أنك آت، مضى عام على وجودي هنا، اشتقت إلى الحياة التي لا أريد الخروج إليها! قد أتيت هنا مثلك، بإرادتي، لكنها سرقتني من بلدي إلى هنا"، ثم أخذ يحكي قصته كأنه لم يصدق أنه قد عثر على عاقل يسمعه! قصته التي من شدة غرابتها جعلت ناي دَهِشًا منصتًـا.

"كنت ناظرَ مدرسةٍ ثانوية ومُدرِّسًا للتاريخ، وظيفة مرموقة نسبيًّـا في قريتي، كان لي بيت وأولاد وأحفاد لكنهم جميعًا تركوني وتخلوا عني، لم يأتِ أحد لزيارتي طيلة العام، أصِبتُ بوعكة صحية وطفِقت صحتي تتردى وبدأ جسدي في الهُزال وقلَّ وزني بشكل ملحوظ؛ فاستشرت عديدًا من الأطباء إلى أن كانت المفاجأة، إذ استقرت الآراء على

أني مُصاب بداء الجُذام، وقد أشار الأطباء إلى أن هذا المرض لا علاج له، فقط كلما ضرب طرفًا من أطرافي بَتَروه.

خاف مني أولادي أن تنتقل العدوى إليهم؛ فتركوني ولم يعودوا، ودون أن يخبروني رموني كما الكلب الميت، فَهمتُ ما يدور في نياتهم فقررت في هدوء أن أرحل.

الرجل بطبيعته لا يتحمل المرض، عقله لا يقبل فكرة كونه عاجزًا أو عبئًا على أحد من الناس حتى لو كانوا أبناءه، حتى إن أخباري وصلت إلى عموم الناس فخافوا وابتعدوا، أخذت دائرة المعارف تنحسر إلى بِتُّ وحيدًا، أكلني الغم أكثر مما أكلني المرض، الوحدة مرض لا علاج له إلا الأنس، مشكلة مريض الجُذام أن لا مستشفى تقبَلُه ولا أحد يقرَبُه؛ إذ يقولون إنه مرض معدٍ.

كنت معتادًا شرب الخمر، وذات ليلة كنت ثمِلًا فتظاهرت بالجنون، أطرق أبواب الجيران، أسب وألعن، تظاهرت أني لا أتذكر أحدًا فمشيت أهذي بكلام غير مفهوم، بمرور الأيام صدقوا اللعبة وأتوا بي إلى هنا.

لم يدرِ ناي أيضحك أم يبكي، فالنكبات تتكالب على الجميع، والألم يدق الابواب أكثر من الفرحة، والبشر وحوش ضارية، والأيام تنزلق نحو الهاوية أسرع من الضوء.

تذكر جميلة في أيامهما الأخيرة وهي تنهره، عندما قالت له:

"لا أريدك أن تفسر لي الحقيقة، أنا أريد إنسانًا لا فيلسوفًا، لا أريد نصيحة، أريدك أن تسمعني فقط"

تكررت هذه الكلمات كثيرًا، وهو لا يعي أنه يخطئ!

إلى أن وصلت إلى مرحلة أنها تضيق به وتخبئ عنه ما يدور في حياتها.

اشتعل جسده نارًا؛ فهو يريد الآن أن يعتذر إليها عن حماقته، أن يقول لها:

"لماذا فعلتِ ذلك؟!"

كل ذلك من الحب والخوف، ظنًّا منه أنه يحافظ عليها من الخطأ، غير أنه كان يختنق بالغيرة، فكيف نريد من غريق يختنق أن ينقذ غريقًا يختنق؟!

تراجع إلى مقعده وهو مُنتفِضٌ مُرتعِشٌ مُحترِق، ثَمِلٌ بخمر الحياة والخوف من المجهول.

أغمض عينيه وهو يقول بصوت هامس:

"الغرور أضاع الثورة وقتل الحب"، ثم عاد يقول ليهدئ نفسه: "لم يكن غرورًا بل كان حبًّا، لكن الإفراط في الحب يعمي! لقد كنت عاشقًا إلى أن دخل حياتنا آخر، لكني لست بطلًا فأحتملَ الغيرة!

على المرء أن يقبل نفسه كما هي، ألا يطلب منها أكثر مما تستطيع، أن يقبل الضعف البشري الذي لا نستطيع أن نغيره، فكيف نطلب من طفل أن يحمل جبلًا؟!".

خرج إلى الباحة الخارجية المفتوحة على السلم الذي بلغ به الأدوار العليا ثم السطح، شبك يده على صدره وراح يتنقل ببصره بين السحب البيضاء، يراقبهم وهو يحاول كالعادة أن يمنع دموع عينيه، فكرة واحدة تتكرر في رأسه، "أضعتَها، أضعتَها!" لكنه ظل على صمته قليلًا ثم قال بصوت مُختفِض وهو شاخص إلى السماء في خشوع:

"لماذا أتذكرها في كل لحظة؟ حاولت الهروب من الذكرى فإذ بي أجدها أينما ذهبت في كل الأشياء، فمن أين لي أن أتجاهل امرأة كانت تشاركني كل تفاصيلي؟" ثم أخذ ينشج وهو يتوسل إلى الله:

"اجعلها تسامحني، وسامحني ولا تذكِّرني بها، الإنسان ضعيف وأنت ربُّ المستحيلات، وما أنا إلا ورقة ذابلة أمام الريح"، ثم خفض بصره وهو يذكر أنه تعلمَّ فضيلةً جديدةً كانت تنقصه، فضيلة الصمت، أن يتكلم قليلًا ويسمع كثيرًا، لأن الذي يتكلم أكثر يُـدَان أكثر.

عاد فوجد عم رفعت سارحًا أو نائمًا، لم يدرِ، فقد كان متوكِّئًا على عصاه وفي عينيه حزن وهُيام نابعان من انسجامه في سماع أغنية لمطرب قديم، يغيب ويعاود النظر إليه وهو على تلك الحالة من الهُيام، تنتهي الأغنية فيعيد تشغيلها، وظل يكرر الأمر نفسه قرابة ساعة، وهو لا يزال شاخصًا متكئًا على عصاه ينظر أمامه ويرتسم وجهه بعلامات لا تفهم أهي للحزن أم للفرح.

مرت لحظات من الصمت المكتوم، ضوء المصباح يضفي على المكان رتابة وفتورًا كأن الحياة متوقِّفةٌ محتضنةٌ جسد الرجل المُسَجَّـى على فراشه محملقًا في العدم.

انتابت ناي كآبة حتى شعر بأن أنفاسه تُسرَق منه، إلى أن هبَّ هواء نقي حيّ، فكأن ثمةَ نوافذ فُتِحت من السماء واندفعت عبرها رِيحٌ عاصفة تحمل رائحة الشتاء، بلغه صوت عم رفعت مواسيًا:

"لا تنظر إليَّ هكذا، هذه هي الحياة وهذه حقيقتها، وأنا أحمد الله على ما أنا فيه.
استمتع بأيامك إلى أن يحين دورك"، ثم أكمل وهو يضحك:
"أذاع المِذياعُ أغنية لمطرب شامي لا أعرفه تقول:

نحنا خلقنا حتى نعيش
ما بدنا مخدة من ريش
بدنا من الدني نشبع

فابتسم ناي له ابتسامة صافية من القلب وتحركت أحشاؤه واضطربت فانفتح قلبه إلى ذلك الرجل الذي يشعر بأنه يعرفه منذ قديم الأزل.

يحب ناي هذه النوعية من الناس؛ هؤلاء الذين عانوا كثيرًا وتعلموا أكثر- تجد بداخلهم العربيد الصعلوك الحزين وهو يضحك، خبرات ومواقف، رجال يخرجون من قصص خيري شلبي وهم من ساكني الأرصفة والعشش والدهماء.

طالما أحس أنه بلا صديق حقيقي في الدنيا وأنه وحيد يتعالى على الضعف البشري.

فتح ناي فاه أخيرًا فقال:

"لكل منا حكايته، لك قصتك ولي قصتي".

فسأله الرجل:

"وما قصتك؟".

قصتي خليط من الألم والأمل إلى أبعد حد، شهيدُ حبٍّ ضائعٍ وسجينُ ثورةٍ في طريقها إلى الزوال.

لم ينبس عم رفعت وإنما ضحك ضحكة تدعو ناي إلى أن يحكي.

حكى ناي قصته مع الثورة وما تلاها من أحلام وآمال ثم إحباط ويأس، وكيف أن المنحنى صَعِد بأبناء جيله من الجهل إلى الثورة إلى التخبط، إلى أن صمت الجميع

وخَفَـت النضال، أحلام ثم إحباط ثم لامبالاة! تخلل كل ذلك حبٌّ أعاد خلقه من جديد ثم أماته بسكين بارد، يحكي كل ذلك وعم رفعت لا تفارق وجهَهُ الابتسامة ظل ينصت في هدوء يُحسَد عليه ولم يعلق إلى أن أفرغ ناي كل ما في دواخله.

تنهَّد عم رفعت وأخرج نفسًا عميقًا مشيرًا إلى أحد النزلاء الذين يجلسون على مقربة منه فقال:

"هذا ميدو، شاب مسيحي أحَبَّ فتاة طيبة مثله، ولكنها تنتمي إلى طائفة أخرى، تقدم لزواجها فرفضت الكنيسة إتمام الزواج لاختلاف الملتين، حاول هو وحبيبته محاولات كثيرة لكنها جميعًا باءت بالفشل.

وجد نفسه أمام أمرين، إما أن يخالف دينه وإما أن يَعتزِلَ حُـبَّـه، حزن كثيرًا وفكر أكثر... انتحرت حبيبته فـخَـفَّ عقلُه من هول الصدمة! انبرى يسير حافيًا في الشوارع، يلعن الكنيسة ويضرب أي رجل دين يراه، يهيم في الشوارع ليلًا وينقب عن أعقاب السجائر ليدخنها في شراهة، إلى أن انتهى به الحال هنا، يهُب فزِعًا عند الفجر يلعن أناسًا غير مترائين، أخمدته المهدئات ولكن الحالة تعود إليه بين الحين والآخر فيشتم ويسب لكنه لا يقوى على أن يقوم من مكانه.

صمت عم رفعت بعدما تحشرج الكلام في حلقه واختنق، ثم قال:

"لعنة الله على الحب"، ثم ثاب إلى هدوئه مجددًا...

عاد بعد قليل ليسأله:

"هل تريد أن يكون مصيرك مثله؟" قالها في عصبية ثم أكمل: "الحب حلو والفِراق صعب، لكنك رجل وعلى الرجال أن يحتملوا ولا يئنوا!".

"اسمع ما أقوله لك وتذكره جيدًا؛ فهذا الكلام نقيٌّ مُصَفًّى من عقل رجل أشيب مجرب مثلي"، ثم أخرج سيجارة من سترته ولَقِمَها، أخذ أنفاسًا متتابعة ثم أخرج دُخَانها دفعة واحدة وقال:

"سأتكلم كثيرًا ويجب أن تحتملني، فأنا منذ عام صامت لا أتكلم، تخيلت أن في الصمت علاجي، لكن الحقيقة أن الإنسان كما لا يحتمل الضجيج فهو لا يحتمل الوَحدة"، ثم مضى يتلفظ بكلام منتظم حكيم مُمنطَقٍ وناي ينصت إليه في هدوء كأنه وجد دواءه في صوت عم رفعت وكلامه.

"ساعات الحزن أطول من أيام الفرح، أنت من هذا العالم لا من عالم آخر، تذكر دومًا أن الطريق مهما كانت مظلمة فسوف يحل النور، الحقيقة لها لون واحد هُوَ أنت، لكن الكذب ألوان.

الأغنية يمكن أن تُسمَع فقط عندما نغنيها.. الحياة لغز جميل.. عندما يحلم القلب تقوى الروح..

بعضُنا حُكِم عليه بأن يحب هؤلاء الذين لا يمكنهم أن يبادلوه الحب نفسه، فلو استطعنا العيش دونهم لتمكنَّا من التخلي عن أي شيء ثم التعايش بلا مشقة، وإذا كنا شجعانًا بما فيه الكفاية لاستطعنا أن نفعلها، وأنت شجاع! فمن يأتِ إلى هنا بإردته فليس بإنسان عادي، لأن من يقبل على الخطيئة بإرادته بَطَل.

يجب أن تنظف رأسك لأن غالبية همومنا أوهام، أن تكفه عن التفكير فيما فات، لن تموت بموت الثورة لأن الثورة لا تموت؛ إنما الموت موت الجسد، وأما الروح فأبدية.

لا تدع كثرة المنافقين ولا اشتداد الافتراء يقتل الثائر الذي داخلك، عليك فقط أن تكون واقعيًّـا، لا تُؤلِّه الثورة ولا الحبيب، فكُلٌّ مُتغيِّرٌ وأنت الثابت، الثورة لها عشاقها، ولها مبغضوها الذين يرونها تهدد مصالحهم، فلا تواجه كل مطبٍّ بالحزن، لأن الحياة لا تخلو من ألم، والطريق لا تخلو من صعاب والعاشق لا يتحيَّـر.

سيأتيك بدلًا من الحب الضائع حبٌّ أفضل، وستأتي على الثورة أيام أجمل، فلا تَصغُر في عينَي نفسك؛ ذلك أن استصغار النفس شعور خاطئ يقودك إلى الانطفاء.

يقول عمك صلاح جاهين:

يأسك وصبرك بين إيديك وِانت حر
تيأس ما تيأس الحياة راح تمر
أنا دُقت من دا ومن دا عجبي
لقيت الصبر مر وبرضك اليأس مر
عجبي...

حزنك وفرحك ينبعان من داخلك، كل فكرة سوداء تَرجِعُك إلى الخلف -وهذا ما حدث مع ميدو- فالحياة لا تترك إنسانًا إلا إذا أحجم عنها بإرادته.

لا تنسَ أن الشيطان لن يكف عن التنغيص في لحظات الانكسار، سيجرُّك نحو الهاوية جرًّا، سوف يحملك خطيئة الكون وضياع الحب وضياع الثورة! سيظل يذكرك بكل خطأ ارتكتبه إلى أن تنهار وتكره نفسك وتعيش مهزومًا، وقد يدفعك إلى الانتحار، واعلم أن شيطانَك قد يكون عقلَك فالعقل مصدر كلِّ وَهم!

قد تشعر بأنك غير مرغوب فيك، تبحث عن أسباب الحزن في أعماقك، تقلب الرماد لتعثر على الجمر الذي

يحرقك، تقلب في دفاترك القديمة وتخرج منها سيئاتك إلى أن تشعر بأن لا أحد يحبك، وهذه بُغية الشيطان.

لا تبحث عن حب يعوض كبرياءك الجريح، ولا تحاول أن تملأ فراغك بامرأة أخرى، من يُحبَّـك فسيراك عظيمًا دون جهد، استمتع بألمك ولا تُجهِـد نفسك في التفكيرِ عندما تتوه عن روحك، اجعل رُوحكَ مثل ورقة تعوم على سطح الماء تغدو وتروح كما يشاء الموج، ألقِ عن كاهلك جهد إصلاح الكون، اترك رُوحَك لروحِك في لحظات التشتت، عائمة حرة طائرة، بلا قيود أو ضرورات اجتماعية أو نفسية"، ثم تنفس كي يهدأ ثم أكمل:

لا تجعلنَّ غيرتك سببًا في كراهيتك لمن كانت حبيبتك؛ ذلك أن الله لا يغفر لمن لا يغفر؛ دعها وشأنها واحتفظ لنفسك بالذكرى.

تعلَّم من تجربتك أن تصارح نفسك بمميزاتها وعيوبها، فالألم ينقي الروح ويعلمنا من نحن، تمامًا كما لا ينقي الذهبَ إلا النار، والفشل في الحب يعلمنا مع من يجب أن نكمل حياتنا.

لا تنكرِ صوت الله الذي في قلبك، لا تقاوم عقلك إلا بالصلاة والتقرب إلى الله، لأن كل الطرق الأخرى إلى زوال، حتى قراءة الكتب مجرد مسكنات وقتية ليس غيرُ، فاللهُ الأقدر على أن يعيد نورك إليك.

تستطيع أن تسجل أحزانك فإنك لن تجد من هو أوفى من ورقة وقلم"، ثم فتش أسفل وسادته وأخرج رِزمة مهترئة من الأوراق المختلفة الأحجام ووضعها أمام ناي.

"هذه تأملاتي التي جالت بخاطري خلال عام، لا لأتذكرها، وإنما لأضعها على الورق وأنفضها عني لعلي أرتاح.

أعظم الرسائل تلك التي لم تصل، وأعظم الكتب تلك التي لم يقرأها أبطالها الحقيقيون، فإن للكتابة لسحرًا مُعجِزًا.

تمارين السعادة تبدأ بقطع العلاقة عن مصدرالألم، ثم إن قليلًا من الحزن مسموح به وبعض البكاء جائز، فأنت في النهاية إنسان، لكن إنقاذ نفسك واجب.

ما يحتاج إليه العاشق ليس النصيحة بل ما يؤكد له أنه محق حتى لو كان قرارُه مصيبةً، كتابة أفكارك نفسُها قيمة بَيدَ أنها تهدئ قلبك وتجلب عليك بردًا وسلامًا، لكنك لن تكون صادقًا مع نفسك إلا على الورق، اشغل عقلك بالجمال الذي فيك لتطرد القبح الذي فينا"، ثم أشار إلى صفيحة صغيرة تكللها نِبتة تين صغيرة، ثم أكمل فقال:

"هذه علاقتي الوحيدة بالحياة؛ ففي الطبيعة يكمن الجمال"، ثم أردف:

"مخلفات عَلاقتك سماد ضروريٌّ لنُمُو الشجرة، ضع مكانه جمالًا من الناس والكون من حولك".

واعلم أن كل فكرةٍ سوداءَ تخرج من عقلك أمامها شعاع نور يخرج من قلبك ليُحْـيـيـك، لكنه مدفون تحت أحزانك، فمن دون السعي يتعذر عليك بلوغ الحقيقة، حقيقة رُوحِك وإيمانك، واعلم أن إيمانك أقوى من وَهْم قَـلَـقِك، وحتى إن طال صوت الخوف فسوف يظل صوت الحقيقة أعلى.

هناك حقيقة ثابتة في هذه الحياة، أنك أنت العاشق والمعشوق، إن لم يحبك أحد فالله يحبك، أمك تحبك، لتدرك ذلك حتى لا تعطل حياتك بسبب حب ضائع، لا شيء يستحق الحزن ولكن إن جاءك الحزن فاحزن (لكن لا تَمُت!)

والحق أن كلَّ عاشق.. مُفارِق.

حقيقة الحب تكمن في أن نحب، ثم إذا فشلنا أعطينا مزيدًا من الحب!
أعلَمُ أن ذلك مخالِفٌ لمَنطِقِنا البشري، لكنَّ الحُب قوة، والقوة أن تسامح.. فقد شعرت بالراحة عندما غفرت لأولادي لأني لو كنت مكانهم لكان ممكنًا أن أفعل مثلهم.

نعم، نحن نخلق الأعذار لمن نحب! ذلك أنه يتعذر أن يجتمع متضادَّان: الحُبُّ والكُرْه، فإنك إن كرهت فاعلم أنك لم تحب من الأساس!".

رد ناي: الكلام سهل.

"أعلم أن ما أقوله ليس سهلًا لكنَّ علينا أن نسعى. الوَحدة مريحة لكنها خطر؛ فمن السهل أن تتحول إلى إدمان عندما تدرك كمَّ السلام الذي شملك، حينها لن ترغب في التعامل مع الناس مرة ثانية، لكنك ستحيا بذلك حياة بلا اختبار حقيقي.

تعلم كيف تجعل فِكَرَك نبيلة ومقدسة، فلا تأسَ على امرأة أحبَّتـك نصف حب وأعطتك نصف قلب، وسوف تأتي المرأة التي تعطيك قلبها بلا شريك ولا مقابل.

من تركك فاتركه من دون بَغضاء، ولا تنس أنك ملك زمانك وابن هذه اللحظة لئلا تنظر باستمرار إلى الخلف.

بإمكانك وحدك أن تعدل الخطأ الذي وقع فيه الثوار..."

- وما الخطأ الذي وقع فيه الثوار؟

ربت كتف ناي وهو يضحك ثم قال:

"انشغلوا بالصراعات الصغيرة كالأطفال وتركوا المواطنين لكلاب الإعلام والدولة العميقة فملؤوا عقولهم بأفكار أصحاب المصالح الذين تتعارض مصالحهم مع الثورة والحق والعدل.

بإمكانك أنت أن تستخلص من الداء دواءً، ومن الألم أملًا اقطع صِلاتِك بمن "كانت" حبيبتك، وَلْتحفظْ كبرياءك؛ فأنت أكبر من أن تسيء إلى نفسك بحبك لامرأة لم تحبك.
ابقَ قريبًا من الناس واتخذهم رسالتك في الحياة فأنت بلا قيمة إن كنت بلا رسالة.

ثم إن قصتك لَمِنْ أَعجَبِ ما رأيت، باللهِ كيف ينهزم ثائرٌ أمام الحب؟!".

سأله ناي مبهوتًا بما رأى وسمع وقد غض الطرف عن سؤال عم رفعت:

"من أين لكَ بكل هذا؟!"

ابتسم عم رفعت وفي عينه نظرة عتاب لتجاهل ناي لسؤاله، ثم أجاب:

"قلت لك إني كنت معلمًا ثم ناظرًا، لكن الأيام سرقتني إلى هنا".

سأله ناي:
- وهل كنت تحسب حسابًا للأيام وما تفعله بنا؟

- كنت أحسب يا ولدي، لكني لم أحسب أنها ستجيء بهذه القسوة.
ثم قال كمن تذكر شيئًا مهمًّـا كاد ينساه:

"هل رأيت هذا الشاب النائم بعيدًا؟ هو من شباب الثورة وقد جاء منذ عدة شهور، تتوالى عليه الزيارات الأمنية ويقولون إنه فقد عقله من شدة التعذيب في أحد المعتقلات، وهو من يوم مجيئه نائم كما ترى".

تمدد عم رفعت وأسند ظهره إلى السرير، ابتسم ابتسامة الرضا وأغلق عينيه في هدوء.

تكلم عم رفعت كثيرًا بعد صمت دام عامًا، أعلن لحنًـا من الألحان اللا نهائية للطبيعة، تغريد المتجسد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة، وسرعان ما خَفَـت تغريده حتى انعدم، متراجعًا إلى نوم أبدي خلَّف وراءه صمتًا مريبًا وراحة فاترة مشبعة بالأسى، رقد على ظهره فوق الفراش ونظر إلى اللا شيء، لا يَنشُدُ شيئًا كأنما قد أدى المطلوب منه في الحياة!

حانت من ناي التفاتةٌ إليه فأنكرها كليًّـا، كان ما يراه شيئًا غريبًا يخرج من باطن العدم، فقد تحول الكائن السحري الذي جرَّه إلى الحلم جرًّا إلى شيء أخرس بلا تاريخ ولا مستقبل، فأدرك المأساة بعظمةٍ تناسب المجهول فيما يبدي من لحظات خاطفة عن ذاته اللا نهائية.

أعلن الصمتُ موت الرجل في هدوء...
نظر ناي حوله في محاولة لفهم أو إدراك ما رأى، أمات الرجل هكذا بكل هدوء؟
لم يعثر ناي إلا على ورقة معلقة فوق رأس عم رفعت.. رباعية صوفية حزينة من رباعيات مولانا صلاح جاهين:

خرج ابن آدم م العدم.. قلت: ياه
رجع ابن آدم للعدم.. قلت: ياه
تراب بيحيا.. وحي يصير تراب..
الأصل هو الموت ولا الحياة؟
عجبي...

لم تمر تجرِبة المصحة النفسية مرور الكرام، فقد تركت أثرًا جليًّـا في نفسه وخلَّفت شيئًا من الانكسار، كما أن موت عم رفعت قلب موازين الدنيا في رأسه، ينتهي عمر الإنسان في لحظة، لحظة لا نعلمها ولا ندرك قيمتها، فلماذا إذن ينكر البشر حقيقة الموت؟! هل هذا لجَهلٍ فِيهِم أم لتشبثهم بالحياة؟!

نتيجة لما سبق، تحفَّز ناي على الإفراط في الحياة والإقبال عليها دون خوف، فما هي إلا لحظة قد ينتهي بعدها كل شيء، وجد في قلبه نشاطًا وحماسًا لم يعهدهما منذ أمد بعيد، حتى خُيِّـل إليه أنه سيواصل الثورة دون تردد أو فتور ليلَ نهارَ بعزيمة لا تخور! إلحاح عنيف جعل قلبه يخفق بشدة، لقد ضاعت الحياة والحرية ملاذ الضائع.

ذهب وحيدًا إلى قلب ميدان التحرير، رأسه يغلي من الظلم الذي يتعرض له هو ومن مثله.. "أن تعود البلد إلى ما كانت عليه قبل الثورة ويرضى الناس بذلك وَضعًا!"، شعر بالظلم فراح يصرخ من ملء صوته:

"الثورة مستمرة، الثورة مستمرة..."

يصرخ لا لإنسان، وإنما لنفسه.. نفسِه فحسْب.. نفسِه التي طالما وارى همساتها حتى كاد يضل الطريق، بات في أشد الحاجة إلى تجلية هُوِيّتها المطموسة في صدق وصراحة وقسوة، يصرخ ويدعو الناس مجددًا إلى التمرد، فإنه لا خوف بعد اليوم!

يمر الناس من حوله لا يأبه بهم ولا يأبهون به، لكن الناس يريدون دائمًا من يوقظهم ويذكرهم بالمصيبة، فهَـبّ يصرخ ويبكي ويغني:

يا مصر قومي وشدي الحيل

كل اللي تتمنيه عندي
لا القهر يطويني ولا الليل
أمان أمان بيرم أفندي

ثَمِل بالسعادة المنسوجة بالدموع، تتابعت اللحظات، تساءل: "هل يبتلع الصمت كل شيء؟"؛ لا شيء يحدث والنار المقدسة مشتعلة في صدره...

جاء إليه شرطيٌّ يأمره بالكف عما يفعل، لكن ناي لم يُعِره أي انتباه، يغني ويبكي، إلى أن تجمعوا حوله وأخذوه وهو لا يزال يغني كالممسوس.

زُجَّ به من يده في السجن بعدما وجهت إليه حَفنة من القضايا الملفقة الجاهزة لكل من يقول: "لا" (تكدير السِّلم العامّ، إشاعة الرعب بين المواطنين، التحريض على قلب نظام الحكم).

لم يدرِ كيف يحدد مشاعره المتداخلة في خليط بين النشوة والرهبة، فهو مضطرب اضطرابًا بَيِّنًا، يريد أن يتمخض عن أي شيء لكن الحقيقة أنه داخل زنزانة!

المكان رطب مُشبع برائحةِ عُفُونةٍ ناتجة من نَشَعِ المراحيض على الأرضية والجدران، يتأمل الحجرة العارية ويشم رائحة دُخَان السجائر ويلمح الحشرات، يتخيل الجراثيم المُسْتَكِنَةَ ويتساءل:

"أليس هذا الركن الملعون المشتعل بنار الجحيم جزءًا من مملكة الشيطان؟"

قال إن الحياة ذاتها أعظم من جميع آمالنا، وفي اللحظات الحرجة التي تسبق الإعدام تتعرى تلك الحقيقة فتهزم الموت، لذلك فقد شعر بألفة غريبة من اللحظة الأولى، إنه الآن في قلب التجرِبة، بين الألم واليأس، يستند

إلى أكتاف أناس يعرفهم وآخرين لا يعرفهم، لكنه يعرف الظلم والفقر الساكنَينِ في أعينهم.

اتَّخَذَ مجلسه في ركن بعيد على مقربة من رجل مسن يدخن سيجارته وينفث دخانها في فتور.
لم ينظر إليه أحد؛ يبدو أنهم اعتادوا قدوم مساجين جدد يوميًّا، أو أرهقتهم كثرة الهموم فانحبس كل واحد منهم في ذاته ولم يخرج..
إن الحياة سجن كبير، سجن الذات وسجن الكون الذي يتحكم في أقدارنا رغمًا عنا.

قفز إلى رأسِه فاروق جويدة حيث قال:

السِّجن كبير يا سادة السِّجن كبير
إن فتحوا الباب فلن أخرج فالسِّجن كبير

استند بظهره إلى لحاف مهترئ ثم أغمض عينه في هدوء، وأرهف السمع إلى صمت الموتى الذي قطعه أحد المساجين مُرحِّبًا به فقال:

"أهلًا بيك في المدينة الفاضلة".
...
انقضت مدة لم يعرف مداها، لم يدرِ كم يومًا مر، الظلام دامس واللحظات جميعها تتشابه، ففي السجن لا يهم صباح أو مساء، ظل مفترشًا الأرضَ ذراعُهُ تحت رأسه، يراقب الجالسين حوله صامتًا، يتبادلون السجائر والنكات، الجميع يواسي الجميع، يجمعهم أمل الخروج إلا إيَّاه، فهو منعزل عنهم انعزالًا

اقترب رجل خمسيني وقعد جانبه، رَبَت رأسه ثم قال:

"أعلم أنك مُفتقِدٌ عزيزًا، جميعنا هكذا.

ستكون أيامك الأولى هنا صعبة وموحشة لكن الأيام ستمر وتألف الظلام"، ابتسم ناي ثم اعتدل في جِلسته وسأل الرجل:

"لماذا سمَّيتم هذه الزنزانة "المدينة الفاضلة"؟!

ضحك الرجل ومسح بظهر يده خيطًا من اللعاب انسال من فمه الأثرَم، ثم أجاب:

"كان معنا كاتب مشهور لا أذكر اسمه، لكنه كان من أرباب السجون، أعجبته بُدائية الحياة هنا، كان يقول دومًا:

(في السجن الكل واحد؛ لا وجود للطمع ولا سبيل إلى الكره، هنا لا توجد ملذات نتخاصم لأجلها)

كان من المعتقلين السياسيين، قضى فترة حبسه في هدوء، مات قبل أن ينهي مدته بفترة قصيرة، مات وهو يقرأ".

تعجب ناي من بلاد يجمع فيها القهر بين الناس، تزول الطبقات ويسود العدل بالسجن والظلم، فيتفق الجميع على كره النظام لا حب الوطن!

صمت ناي، فهو لا يستطيع أن يقول إنه استكان لتلك الحياة بلا تململ، فلعله ضاق بها وتطلع إلى حريته، لكنَّ ضيقه هذا تلاشى عندما تأمل الحياة من حوله.

تساءل:

"هل من المحتمل أن أظل أبد الدهر هنا كأنني عضو من أعضاء هذا الجسد؟"

يتطلع حوله فيرى أعينًا قرأ فيها دعوة صامتة اهتزت لها جوانحه، ذكَّرته بأمه التي كانت تحرم عليه نزول الشارع واللعب من الأولاد خوفًا عليه!

مرت الأيام سهلة هادئة، كان يتوقع أنه سيعاني ألمًا وتعذيبًا لكنه لم يجد شيئًا من ذلك، كأنه أُلقِيَ به في الزنزانة مثلما تُلقَى ورقة قديمة في كوم زبالة، يبدو أنه من تفاهته لم يُعتَدَّ به حتى إنهم لم يرهقوا أنفسهم في تعذيب حثالة مثله!

استراح لهذه الفكرة فعزم على أن يستمتع بالأيام التي قد لا تتكرر خصوصًا أنه قد وجد مُتَّسعًا من الوقت يتأمل فيه ما حوله، يتقرب إلى هؤلاء الذين كلما اقترب منهم اكتشف أنه بعيد عنهم، وأنه أضاع كثيرًا من وقته وطاقته وفكره وأحلامه في خواء العالم الافتراضي.

خفة رُوحِه بادية على وجهه، يرتسم ابتسامة حنونة صادقة لا تفارقه مما جذب كثيرًا من الرفاق إليه، ولا سبيل أمامهم إلا الثرثرة؛ فتلك هواية الإنسان الأولى!

ثَمَّ زحامٌ شديد، لكن الحركة انسيابية هادئة بحيث لا صوت يتمخض، لا مِذياع ولا تلفاز، فقط الصمت والخشوع.

يسألهم عن مدى ارتباطهم بالثورة، فهو يملك من حلو الكلمات وتراكم العلاقات والتردد بين الطبقات ما يجعله متوافقًا مع كل الناس، اندفع إلى حلقة الأصدقاء الجدد واتخذ لنفسه مكانًا في سرور لا يوصف، منهم من يغني بصوتٍ لطيفٍ محاكيًا حسن الأسمر، حتى إن ناي نسي في غمرة سعادته همَّه وحُزنَه.

إنها أيام جعلت من حياته الرتيبة حلمًا بهيجًا، لقد ألقى نفسه في خِضَمِّ هذه الحياة بشراهة ونهم، لا يكلُّ ولا يملُّ، حتى حينما يأوي إلى مربعه يأتيه من يبث إليه همومه.

كان عم طه هو أكثر من جذبه من بين الجميع، أحد المساجين القدامى لكنه عكسهم جميعًا؛ فنادرًا ما يتحرك، ينظر إليهم بابتسامة لكنه لا يشارك، هادئ لا يتكلم إلا بأقل القليل، معظم كلماته تحوم حول الدعاء والشكر والاستغفار، لكن ناي قال له ذات مرة وهم يلعبون بزجاجة الصراحة:

"أرى في عينيك حزنًا يختفي وراء هذه الابتسامة"

ألح عليه ناي بأن يتكلم لكنه لم يفعل، مرت أيام حتى جاء الرجل في فجر أحد الأيام وكان ناي مؤرَّقًا، جلس عم طه القرفصاء جِوارَه وعلى وجهه ابتسامته المعهودة لكنه بدا أكثر حماسة من السابق، حتى بدأ يتكلم:

"دعني أخبرْك سبب حزني"

قطب ناي جبينه كأنه لم يصدق، لكنه لم يلبث أن تبسَّم قائلًا:

"كنت أعلم أنك تريد أن تقول، فالإنسان لا يحتمل الصمت إذا كان عنده شيء يقال في الأحشاء".

- عمك طه لا يتكلم كثيرًا يا ولدي لأن القلب منطفئ والعقل يغلي ولا يكف عن التفكير والصراخ، لكني لم أتكلم لأن من احتملك اليوم لن يحتملك غدًا"، ثم صمت وثبَّت ناظريه في الأرض ولم يتكلم، يبدو أنه غاب عن الحياة!
لكن ناي لكزه لكي يكمل فرفع رأسه وأوشكت عيناه أن تدمعا، فكفكف دمعته وعاد إلى الحديث.

"دنيا الله واسعة، وفيها من الهم ما يوازي مياه البحر، لكِنَّ الكلام ما أصعَبَه الكلام بعد طول الصمت!"، فسأله ناي لكي يشده إلى الكلام:

"أيهما أصلح، الصمت أم الكلام؟"

هزَّ الرجل رأسه الأشيب بَرِمًا وقد كان الكلام يَكْرِبُه، لكن عينه تقول إنه رجل حاذق مجرب.

"الصمت فضيلة، لكن الإنسان يهوى الكلام"

لكنه قال في صوت أَسِيفٍ وهو يمصمص شفتيه:

"والله يا بُنَي لا أعرف كيف أبدأ!"؛ قال له ناي ضاحكًا:

"ابدأ من حيث شئت؛ ليس لدينا هنا أكثر من الوقت".

بدأ الرجل يحكي قصته وقد كاد يبكي لكنه حافظ على ابتسامته المريرة.

"كنت أعمل صيادًا على باب الله، أقتات رزقي بالحظ لكني لم أكن أطلب من الله سوى الستر، لكن القدر دائمًا يرفض سكينة الفقراء، إلى أن كانت الكارثة، فقد اختفت ابنتي في ظروف غامضة، لم نعلم عنها شيئًا، فضيحة جعلتنا مضغة الأفواه، شَحَبَ وجه والدتها وخَلَجَت عيناها، جعلت تنظُرُ إليَّ مستنكرة كأنها لا تجد سبيلًا إلى التصديق، ثم غمغمت بصوت كالأنين:

(بنتي لم تهرب؛ إنها مخطوفة! لن أصدق أبدًا أنها هربت فأنا أمٌّ وقلب الأم دليلها).

قلت لها:

"وأنا مثلكِ كدت أجن! إنما هي الحقيقة الواقعة الفضيحة العارية، الضربة القاصمة لكرامتنا"، لم تملك الأم جوابًا كأنما فقدت النطق، تنفست بشيء من الجَهْد ثم قالت كأنها تكلم نفسها:

"أي جنون سلبها رشدها؟"

لَبِس البيت رداء الحزن كأنه في حداد، هصرتنا أيام سوداء حتى كدت أختنق من ذلك الجو القاتم وأنا جالسٌ لا حول لي ولا قوة، صرت أغيب طَوال النهار خارج البيت أبحث عنها فلم أجدها، الحَيرة كادت تقتلني!
إلى أن أشار عليَّ أحد الجيران بأن أحرر محضرًا في قسم الشرطة باختفاء البنت.

كان الهم يقتلني من الفضيحة من ناحية ومن ضياع ابنتي من ناحية أخرى، لكنِّي أسلمت أمري إلى يد الشرطة وحررت بلاغًا.

مرت أيام إلى أن فوجئت بهم يطلبونني، ذهبت وفي ظني أن هناك جديدًا، لكني وجدت بين يدي محضرًا يقول إن ابنتي قد قُتِلَت وإنني أنا من قتلتها لأخبئ فعلتها، ويطلبون مني التوقيع عليه كأنه اعتراف مني!

تحولت من أبٍ مكلوم على ابنته إلى قاتل مدافعٍ عن الشرف.. رفضت أن أوقع على هذا الكلام وأنا أبكي وألطم على ضياع بنتي وضياعي، أخذوني إلى غرفة مظلمة وأبرحوني ضربًا وتعذيبًا بصاعق الكهرباء وما أدراك ما صاعق الكهرباء! إلى أن دخل علينا أحد القادة الكبار تسبقه هيبته، ينفخ دخان سيجارته في شموخ، ثم أطفأ ما تبقى منها في صدري! تكلم في وقارٍ ملحوظ وصوتٍ واثق ونبرةٍ آمرة وقال:

(سوف تقر أنك قتلت البنت، ستقنع نفسك بذلك لتستطيع أن تقنع الآخرين أيضًا، لا سبيل لديك إلى النجاة بحياتك إلا هذا الاعتراف وإلا فسوف تدفن هنا وتضيع مثلما ضاعت بنتك العاهرة)، ثم أكمل كلامه وهو يستدير فقال:

"أتريد أن يقول الناس إن الشرطة لم تتكمن من العثور على فتاة متغيبة؟"

سأله ناي:

"وماذا فعلت؟ لن تقول لي إنك وقَّعْت على ذلك!"

فقال الرجل وهو يبتسم من خلال دموعه التي انسابت رغمًا عنه:

"ما باليد حيلة، خِفت على بيتي وزوجتي وأولادي، قالوا لي إن الدفاع عن الشرف حُكمُه مخفف، كما أنني لم أعد أحتمل التعذيب والإهانة".

فقال ناي الذي ران على وجهه التوتر وطغت على صوته آي الغيظ:

"تعني أنك هنا متهم بقتل ابنتك التي لم تقتلها!"، قاطعه الرجل قائلًا

"لم تنتهِ القصة بعد"

أطرق ناي مقطبًا جبينه متألِّمًا علامةً على عدم استيعابه لما يسمع فقال:

"يا لها قصة! إنها أشبه بالمأساة"

أكمل الرجل من حيث انتهى..

"حُكِم عليَّ بخمسة عشر عامًا بعدما وعدوني بالحكم المخفف.. بقيت هنا يفترسني الهم والوحدة، إلى أن مرت ثلاثة أشهر فإذا بمفاجأة غريبة قلبت الدنيا رأسًا على عقب، فقد ظهرت ابنتي!"؛ قال ناي منشرحًا: "إذن نحمدَ الله على ذلك..."، قاطعه الرجل:

"لقد هربت ابنتي مع شابٍّ زميل لها بالجامعة بعدما أقنعها بالزواج، لكنه غدر بها فعادت، ثم جاءتني الأم فَرِحةً لتخبرني بعودة ابنتنا.

رفعنا دعوى ببطلان الحكم المُوقَّع عَليَّ فتُلوعِب بالأوراق وأفرِج عني دون أي سبب معلوم!

رجعت إلى بيتي شخصًا آخر، لم أعد أخشى شيئًا فقد رأيت كل شيء! الخوف والظلم والضرب والتعذيب... تركت أهلي وحدهم ولكنهم لم يموتوا جوعًا مثلما كنت أتصور، إلى أن كانت الثورة فأشعَلَت بداخلي العزيمة على أن أطلب تعويضًا على الأيام التي قضيتها في السجن ظلمًا؛ فذهبت أنا وأهل الحي للمطالبة بحقي، فقال ناي وهو يضحك:

"أحسنت يا عم طه، فلا بد من أجل معلوم تُردُّ فيه المظالم!"

ضحك الرجل وهو يقول:

"هذا لا يكون إلا في الأفلام؛ فقد قبضوا عليَّ بتهمة إثارة الشغب وألقَوا بي في السجن مجددًا".

ضحك ناي ولعن الظروف لكنه تعزى باشتراكهما التاريخي في وهم مخيف، فعاود الضحك وسكت قليلًا حتى جف ريقه.

نهض الرجل تاركًا وراءه هول الواقع الظالم والحياة السوداء، وما هي إلا لحظات حتى غفا ناي رغمًا عنه، فمنذ خمسة أيام لم تذق عينه طعم النوم لكنه استسلم في اليوم السادس.

جذبه النوم من قدميه إلى أسفل، وظل فوق رأسه يرسل إليه كوابيسه ورُؤاه إلى أن استيقظ فزعًا مرتجفًا، يبدو أنه قد رأى حلمًا أزعجه، ففي بلادنا الواقعُ مزعج والأحلامُ أكثر إزعاجًا، وبمجرد أن فتح عينيه وجد عم طه يقول:

"اصحى يا عمنا، لقد تحدثت كثيرًا وأنت نائم"

نهض متثاقلًا وهو يفرك عينيه ولم يتكلم، جلس إلى جواره عم طه وكان ناي لم يفق بعدُ لكنه سمع الرجل يقول:
- قلبك مكتـظّ. أخبرني، ما الذي يزعجك هكذا؟

- الظلم.

- أزعجتك قصتي إذن.

هز رأسه بالإيجاب ولم يتكلم، صمت الرجل عندما سمع جلبة في نهاية الزنزانة لكنه تكلم بعد أن هدأت فقال:
- الظلم لا نهاية له، ولا يقدر على القدرة إلا ربنا.

فقال ناي كما لو أنه ما زال متوترًا:

"نحن نستطيع يا عم طه"

كان من بين المسجونين أحد السياسيين القدامى، كهلٌ عاش عصورًا كثيرة مضت، فتدخل موجهًا كلامه إلى ناي:
- نعم أنت ومن مثلك من الشباب تستطيعون، ولكن إلى أن تنسوا.

- وكيف ننسى؟

أجاب الرجل وفي صوته انكسارةُ رجُـلٍ مال به الدهر:
- هل تظن أن الثورة حقًّـا مستمرة؟ هل بمقدور الغزال أن يطرد الأسد من عرينه؟

رد ناي غضبانَ:
- الثورة مستمرة لا محالة!

- أرجو ذلك لكني أشك، فإنهم قد أقنعوا الكتلة الحَرِجة، البسطاء الذين هم أحوج إلى لقمة العيش، بأن الثورة فيها سم قاتل، وغدًا سوف يجيء الإخوان المسلمون إلى الحكم، فتلك خطة الدولة العميقة، أن يأتي الإسلاميون فيعمل إعلام الدولة العميقة على تخويف الشعب من إرهاب الإسلاميين، فيدعونهم إلى المطالبة بحاكم عسكري جديد، لا ليحمي الوطن من جراد الإسلاميين الذين هم أولى بأن يعيدوا النظام القديم إلى الكرسي مرفوعًا فوق الأعناق بسبب غبائهم وطمعهم وتكالبهم على السلطة الذي يعميهم، لا، بل هو طُعمٌ تلقيه الدولة العميقة لتجدد نفسها على حسابهم.

فقال ناي:

"أتفهم كل ذلك، فهذا ما فعله السادات عندما ضرب اليسار بالإسلاميين، كلما ثار الناس أتى الإسلاميون، فيَصدُرُ للناس أن اليساريين يشيعون الشغب في الشوارع ويخربون البلد، ويبقى الشعب حيران، فإما اليسار المشاغب وإما الحاكم الذي يخاف عليهم!"

أكمل الرجل كأنه يقرأ من كتاب مفتوحٍ أمامه:

"سيخاف الناس من فتواهم ومن شيوخهم ولِحاهم التي تملأ الشاشاتِ والمساجدَ والشوارع، وعلى الناحية الأخرى ستعمل الدولة العميقة على إغراق البلد في مشاكل مفتعلة، اقتصادية وسياسية واجتماعية، وسوف يلصقونها بالإسلاميين الذين يُفتِّتُون البلد إلى أقليَّات صغيرة وبالطبع جميعُها كافرة بمقاييسهم! أقباط وشباب ونساء، سيشنون حربًا على الجميع.. ومن المؤكَّد أن إعلام النظام القديم يجيد النفخ في النار!

سيترحم الشعب على أيام مبارك، هذه الأصوات التي بدأت تعلو الآن، مبارك الذي قال: "أنا أو الفوضى" لأنه يعرف هو ونظامه أنهم ما إن يتركوا الحكم فستعيده إليهم القوى الأكثر تنظيمًا في الشوارع، فحينما يخاف الناس من الإسلاميين سيقبلون بديكتاتور عسكري على حساب ديكتاتور متأسلم، في هذه اللحظة سوف تقدم الدولة القديمة مُرشَّحَها في صورة مُنقذ مُخلص وحتمًا سيكون أحد قادة القوات المسلحة غير المعروفين، هؤلاءِ الذين يُعرِّفون أنفسهم على أنهم مصدر الأمن والحماية من مخططات الثورة والإخوان.

سيقبل الناس هذه المسرحية بداعي الخوف، ديماغوجية مجربة على مر التاريخ، سيعود الحاكم العسكري مرفوعًا على الأعناق ويحكمنا ثلاثين عامًا أخرى إلى أن تشيخ دولته ونموت نحن".

نهض ناي يجوب الزنزانة شاعرًا بالملل، متأمِّلًا كل هذا الفراغ الذي سيطر عليه، اصطدم بأفكار الرجل التي زعزعت ثقته من الداخل، شعر كأن كلامه مرآة يري فيها نفسه عابثًا، كان الإرهاق طاغيًا على وجهه ولكنه في منطقة ما كان هذا الإرهاق يزيده جاذبية، ابتسم لنفسه ابتسامة غامضة تحوي قدرًا من الاحترام لشخصه وتفكيره ولم يأخذ كلامَ الرجل على محمل الجد، تصور أنه مَحضُ هراءٍ من رجل مسنٍّ فاته الزمان، وكأغلب شباب الثورة

تَعَالَى على كلام الرجل بانتقاداته الموجَّهة اللاذعة التي ظل الرجل يستمع إليها بوجه مُطفَأ، إلى أن نطق:

"لا يملك الحقيقةَ إلا الأيام"

قال ناي وهو يشعر بأنه ينزلق إلى هاوية ما لها من قرار:

"أنت وأمثالك دائمًا تكسرون سواعد الساعين إلى التغيير"

فقال الرجل مترجيًا:

"يا ولدي كلنا أحببنا الثورة مثلكم، لكن الطريق قد حُفَّت بالمشاقّ"

نهره ناي:

"لقد قرأت كثير الكتب، وفهمت السياسة وأدركت الحقيقة"

قال له الرجل في صوت رؤوف:

"أنت على حق، جيد أن تقرأ، فقد كنت أقرأ مثلك، ولكني عملت بالسياسة وعاشرت السجناء السياسين هنا وهُمْ أيضًا يقرؤون، هذه كانت بداية عهدنا بالثقافة، أما أنتم فتنظرون بعين واحدة، عين شاب ثائر متمرد، تنظرون بعين الثورة لكنكم لا تفهمون أن الثورة خطوة تليها خطوات.

الحماس وحده لا يكفي، أنتم ما زلتم بعداء عن الناس ولا تغييرَ من دون كتلة حَرِجة، كما أن عيونكم ترفض إبصار المكايد التي تُحَاكُ لإبطال الثورة ولا تعلمون حتى حجم الإسلاميين في الشارع، فالثورة أعداؤها كُثُر وأنتم ما زلتم شبابًا، وفي كلِّ يوم يمرُّ تخسرون الناس بتكبركم

وتجبركم، فمثلما يوجد مواطنون يستحقون القتل يوجد من يستحقون الطبطبة، فإن الثورة المضادة تقلق الناس في أمنهم وقوت يومهم"؛ فقال ناي محتـدًّا:
- لكنَّ الناس معنا!

- الناس دائمًا مع أو ضد، دائمًا مع من يتوسمون فيه الخير بتغير الحال.
...
كان من بين المحبوسين أيضًا فتًى نُوبِيٌّ يُدعَى عبده، شاب ثوريٌّ لكنه أكثر هدوءًا، لا يشارك في الحوارات كثيرًا لكنه تكلم هذه المرة باستطراد فقال:

"إن كنت تستخدم عقلك في التفكير فلن يرغب الناس في التواصل معك، فإنهم يحبون الكاذبين لا يحبون من ينبئهم الحقيقة، يحبون أن يكونوا دائمًا على حق، لذا فجميعنا يرى أنه يملك الحقيقة، لكن التاريخ فقط ينصف من هم بالفعل على حق، كما أن الحقيقة لا تظهر إلا بعد قرون.

ما زال التاريخ حائرًا بين الشيوعية والرأسمالية، الأرِستُقراطية والبروليتاريا، تشي جيفارا والمزارع الذي أوشى به، نحن -أهلَ النوبة- وعبد الناصر الذي جعلنا نهجر أرضنا.

حتى الآن في مصر تتسع الدائرة، بحيث يظهر من ينادون بالدولة الدينية وتطبيق شرع الله من جهة، ومن جهة أخرى يريدها العلمانيون مدنية، ونحن -الثوار- نقف ضد الفريقين؛ نحن نريدها حرة تشمل الجميع، هذا وإن هناك أقلياتٍ (لا تذكر) لا تفكر إلا في مصالحها.

السياسة لا تعرف الصدق، ومشكلة الثوار أنهم صادقون، السياسة لعبة قذرة أما الثائر فـنَـقِـيٌّ يريد كل شيء حَسَب نقاء قلبه وهذا يتعذر في إطار السياسة".

أومأ ناي على ما قاله عبده النوبي وصمت، إذ ذهب رأسه في مكان آخر، شعر بحنين غامض إلى بيته.. لعله افتقد السلام والهدوء!

سمع كثيرًا بجمال أهل النوبة، وتيقن من ذلك عندما رأى عبدُه يتكلم، فهو أكثر من ناي ثقافةً ومعرفةً وخبرةً لكنه متواضع، يلقي تعليقاته في أدب جم، لا ينخرط في شجار، يتحدث إليك عندما تجلس منفردًا، له دراية واسعة بكل فلسفات الغرب، يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة لكنه لا يظهر ذلك مطلقا!

تعجب ناي ذُهُولًا من أفلامنا التي حصرت النُّوبيَّ في صورة الخادم طَوال الوقت وهو أهل الأدب والأخلاق.

...

إن الزمان الذي تظنه صديقًا حميمًا اليوم سنقلب غدًا إلى عدو، من يعشقُ الحياة يملأُ بها قلبه، فالحياة ممر لا مقر، ستتكفل الحياة بإقناعك بما لا تريد الاقتناع به لأنها خير معلم، وإن أحاسيس الليل قلما تُستَشعَرُ في وضح النهار؛ ذلك أنها في الليل تندمج في لحن غامض ينطلق في جو رُوحانيٍّ يكتنفه ضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نتلمس طريقنا إلى الحياة.

15

لم تكن تخلو لحظات التأمل من لحظات أخرى تتخللها لتكدر صفوها، لكنه كان يرمي تلك المشاعر خلف ظهره ويمضي لا يبالى، فهو على علم بأن الحياة لا تعطينا الراحة كاملة، الأمر أشبه بمن ينام طلبًا للراحة وهو يتغاضى عن ألم الأسنان...

بعدما تغلغل في واقع الحياة آمن بأن الوضاعة هي طريق لا بأس بها للوصول في وطن يقتل الأحلام ويمزق الأهداف الشريفة، لكن الوضاعة تلك ليست من أخلاق الثوار.

لعل ما يَعْجَب منه هو طبيعة مجتمعنا المخبولة، فنحن نرى الحقيقة ونتأملها ونعشقها، لكننا لا نعيشها خوفًا من الواقع، نولد ونموت أسرى لقمة العيش!

لكنَّ المؤسف حقًّـا أننا جميعًا متمسكون بمشروع واحد، الزواج، مع أن الحياة تحفل بملذات أخرى، فكل إنسان بداخله كنز عظيم يحفل بأسباب السعادة، لكن المصري ما زال متمسكًا بأدنى ما في إنسانيته، يعيش ويموت حبيسَ الغريزة.

بعدما قضى مدته في السجن ضاقت دائرة الأصدقاء وانحسرت، الجميع يفرون منه، يراوغونه، لقد قتلهم خوف الالتصاق به، كما أنه ألفَى نفسَه غريبًا كطفل ولد حديثًـا لا يعرف الدنيا، صدمه ضوء الكون فراح يعترض بالبكاء، صارت الوَحدة شَرنَقَةً كاملة الغَزْلِ وصار هو شجرةً يانعةً قابعة في قلب الظلام، تُـثـمِر في موسمها طيب الثمار فتسقط ليأكلها النمل.

وحدة الأمس ووحدة اليوم- عالم بعيد قديم وحاضر غامض، عليه أن يعتاد إذن الحياة الجديدة بلا زخم ثوري وبلا جميلة التي أخذت روحه ووضعتها في حقيبتها الجلدية.

لقد أوحشته الشوارع لكنها صارت مخيفة مثل الموت، وهذا ما دعاه إلى اللجوء إلى المصحة النفسية، تمر به أيام يشعر فيها بثقل روحه فيزفر أنفاسه في غضب لعلها تحمل معها ذلك الوجع.

لذلك سافر إلى الإسكندرية قاصدًا البحر طلبًا للراحة وهربًا من الشوارع والذكريات.

استكان على أحد الاحجار التي تطل على البحر، أدار هاتفه المحمول على قصيدة "لاعب النرد" كعادته فاغرورقت عيناه اغريراقًا، إلى أن راح في غفوة قصيرة رُسِمت فيها لحظات من السعادة العميقة.

رأى جميلة في منامه قد أتت وعلى وجهها ابتسامتها التي يحبها، تسأله: "أين أنت؟ قم واستيقظ، لدينا موعد للتمشي!"؛ نهض.. ثم راحا يتمشيان متأبطًا أحدهما بالآخر كما اعتادا وقد ملأت السعادة قلوبهما.
ثم بدآ يتبادلان الحديث...

- لم أظنَّ يومًا أنه ستأتي لحظة أمسك فيها يَدَي حسناءَ مثلك.

- كم وددت لو وضعتكَ فوق السحاب كي أحفظك لي وحدي. قالتها في غنج ثم أكملت في تحدٍّ مُصطَنَع: "لم أحب أحدًا مثلك حتى عائلتي"؛ ضحك وملأ عينيه من نظراتها ثم قال:

- لكنَّ حبي لكِ أكبر من حُـبِّـكِ لي.

لكزته في كتفه وقالت:
- لا؛ حبي أنا الأقوى! إن النساء عندما يحببن يفنين أنفسهن في من أحببن. فقال لها:

- وإن الرجل إذا أحب أوفى، لأنه يظل طفلًا ضائعًا يبحث عن الدفء، لذلك عندما يجد من تحبه يتمسك بها كأنها أمُّه.
...
أفاقه من غفوته صوتُ الأمواج وهي تصطدم بالصخر، لكنه ظل على سعادته فكأن ما رآه في الحلم هو الحقيقة بذاتها.

لقد ظلَّا على هذه المتعة خلال فترة حبهم الأولى، فعندما يلتقيان تُـردِّد اسمه في شوق وفرح كأنها تراه في عالم غريب! وهي تحتفي به دائمًا في شوق، فـثـَمَّ سر غامض يخصه وحده، أخذت منه وأعطته في أيام حبهما الأول كل ما يؤخذ وكل ما يعطى، يمشيان في شوارع المدينة الكبيرة دون ضوضاء، كان الحب قرارَهما السريَّ بأن يحقق كل منهما للآخر ما أتى الحياة لأجله.

تذكر كلامهما عن الحب والعمر الضائع، حينما قالت له:
- لن أكون سلعة تباع وتشترى.

- لكنكِ امرأة لا يَسَعُكِ قلب رجل واحد.

ردت لإثارته:

-لا رجل جدير بالثقة في هذا الزمان.

- لكن العمر يسرقكِ، والثمرة الغضَّـة سرعان ما تضمر ويأكلها الدود.

- الحب هو العمر الحقيقي يا رفيق..

...

كلما تذكر هذه الأيام ضرب رأسه في حسرة لكنه في الأخير أسلم أمره إلى رحمة الطبيعة فشغل نفسه بتتابع حركة الموج نحو الصخر، ثم انسابت دموعه رغمًا عنه مجددًا.

يعلم أن القاهرة ستتيح له عَالَمًا من الثقافة لا ينتهي، لكنه لا يستطيع أن يعيش في بلد هزمهُ فيهِ الحُبُّ.

تسلل إلى كوبري استانلي؛ فـقليل من العربدة قد يفيد، وهي مسلية منشطة مضحكة أيضًا.

يخوض في بحر متلاطم من الأمواج والبشر والسيارات، كل شيء ينطلق ويعجز عن الانطلاق في الوقت نفسه، سِيَّان في ذلك الإنسان والسيارة، وأما هو فيهوَى الحرية والتشبع بذلك الهواء العليل، لكنه لم يُعنَ برصد النساء الجميلات؛ وذلك أن الحب يملأ جوانحه حتى لو انتهى به إلى الألم والفُرقَة، لكِنَّ نَهْدًا صارخًا كاد يودي بحياته.

كان قد هَمَّ بعبور الطريق على حينَ اقتحمه صدر ناهد سحره واستولى عليه فـقذف به إلى أعماق الفراغ، فاندفع عابرًا دون أن يلتفت إلى الطريق كما ينبغي، فإذا بسيارة تنقَضُّ كالقذيفة، استسلم أمامها استسلامًا لانهائيًّـا، تقوس ظهره منتظرًا تلقي الضربة القاضية، تجلت له فكرة الموت لا كفكرة مُسَلَّمٍ بها إنما كشعور يملأ الوجدان ويثقله بقوة إقناعه.

هكذا تنتهي الحياة في غمضة عين، مرت به صورة والدته التي تركها وحيدة من أجل أهوائه الشخصية، بلغ به الخوف الدرجة التي فقد فيها الشعور بذاته لكنه شعر بالارتياح تلقاء فكرة رقوده مصابًا ليس عليه مسؤوليات، مصونًا بمُناخ من العطف والحنو والاهتمام الذي يفتقده!

مرت دقائق (على الأقل) قبل أن يدرك أن كل من في الطريق يلهبه بنظرات السخط واللعنة، وسِباب السائق يتهاطل على رأسه مطرًا، مضى مترنحًا فزِعًا يفر بنفسه فرارًا وهو يلعن الصدور والنساء، لكن ابتسامة الفتاة المقودة أثلجت صدره وأنْسَتْهُ الواقعة برمتها، فإنما هي لحظة تعانق فيها السرور المتألق والحزن المخيف، فقال لنفسه:

"لعل نظرةً فاتنةً كفيلةٌ بأن تزيح هموم السنين!"

مضى بعيدًا ثم وقف ليسترد أنفاسه بعيدًا عن موقف الحادثة، لكنه حتى في ذلك الركن لم يفلت من عيني عامل النظافة الذي قال له في سخط:

"مسطول، كِدْت تودي بروحك من أجل صدر امرأة!"، سقطت عليه الكلمة مثل جردل ماء بارد؛ أربكته وتضاعف ضيقه ثم قال كالمعتذر:

"إنها الهموم"، فصاح الرجل محتجًّـا:

"هموم؟ وماذا تعرف أنت عن الهموم؟"

كاد ينسحب بعيدًا لكنه تراجع؛ فبداخله شعور بأنه يريد أن يسمع من يوبخه على ما هو فيه، على ما يفعله بنفسه من أجل مجرد أوهام.

مضى نحو الرجل بقرار مرتجل لم تنقصه الجرأة، وقف أمامه حتى انتبه إليه الرجل مجددًا ومضى ينظر إليه بعينين مستطلعتين وقد تجلَّى الغضب في صفحة وجهه، لكنه لم يقف أمامه أكثر من هُنيهة ثم ذهب ليكمل طريقه.

عاد إلى القاهرة ولَمَّا يحسمْ أمره من حيث العودة أو البقاء، لكنه عاد إلى عمله وانتظم فيه وحينما يأتي المساء يأوي إلى غرفته لا يبرحها، لكنه لم يكف عن شرب الخمر التي تحميه من تهاطل الأفكار، أو حتى إطفاء نار غضبه في جسد إحدى فتيات الليل.

كان يكتب ما تمر به حياته من التردي لحظةً بلحظة وينشره على الفيس بوك.

أثار دخولُهُ المصحة تعليقات الأصدقاء، لكنه لم يكن يكتب إلا لتعرف هي ما آلت إليه حياته من خلال رسائل غير صريحة، وكانت تقرؤها في تأثر لكنها لم تعلق.

في تلك الليلة رن جرس الباب؛ ذهب ليفتح فإذا بها أمامه!...

كانت صامتة في أول الأمر، ثم حاولت أن تجذب أطراف الحديث فكان يرد في اختصار مُتعمَّد، حاوَلَت أن تجذبه إلى الضحك فسخرت من نبرته الهادئة، لكنه ظل على وجومه.

- ماذا بك؟ أنت من علمتني أن الحياة جميلة يا صاحب!

وخزته كلمة صاحب مثل نصل سكين، لكنه قال لها:

- كنت مُخطِئًا، والآن أسحب كلمتي، مثلما سحبتِ مني حياتي.

عادت إلى نبرتها الهادئة فقالت:

- أنتَ الحياة ولا شيء غيرك، أنت أعظم من أن تستمد حياتك من غيرك لأنها كامنة فيك.
أغمض عينيه متأملًا وَقْـع كلامها دون أن يرد.

تأملته بقلب منفطر، فهي تعلم أنها سبب ما وصل إليه فكانت تقول في نفسها: "لقد عانينا معًا كثيرًا من الألم بعد الثورة، كنا نستند إلى بعضنا ونحن نرى أحلامنا تتهاوى، حينها كنا نتساءل: (لماذا ينتصر المنافقون دائمًا؟ ولماذا ينسى الناس؟ ولماذا ينزوي كل وجه نبيل وكل قيمة شريفة عندما أصبح كلُّ ثوريٍّ خائنًا وكلُّ منافق وطنيًّا شريفًا؟)، أنا من باع القضية، تركته يواجه الألم وحده في حين أتنعم أنا في حب رجل آخر".

نظرت إليه وقالت مباغتة:

"أنت عندي أعظم من حزنك، أنت بالنسبة إليَّ ذكرَى يستعصي على الذاكرة نسيانها، أنت أجَلُّ من كلمة حبيب".

في ذلك اليوم جاءته بهدية ملفوفة في ورق جرائد قديم، فتحها فوجد بداخلها كتابًا مطبوعًا على ورق أبيض، يجمِّلُه غِلاف يجمل صورة فرانز كافكا.
سألها: "ما هذا؟!".

ضحكت ثم قالت:

"هذا كتابُ (الرسائل إلى ميلينيا)، يحكي حياة كافكا بين الشعر والحب والمرض، والرسائل التي بينه وبين حبيبته.. بحثت عنه لأشتريَه ولم أجده، فطبعته لك على ورق أبيض، وقد قرأته مؤخرًا فأحسست أنك تطل عليَّ من بين السطور ومن فوق الكلمات، يظهر وجهك في أفكار كافكا وشخصيته وحزنه وطباعه، فمثلًا كتب كافكا مرة إلى ميلينيا يقول (ثم أخذت تقرأ له بصوتها وهي تشير بأصابعها على موقع الكلام):

(أنتِ واهمة، لن تستطيعي البقاء إلى جانبي مدة يومين، أنا رَخوٌ أزحف على الأرض، أنا صامت طَوال الوقت، انطوائيٌّ كئيب متذمر، أنانيٌّ سوداويّ، هل ستتحملين حياة الرهبنة كما أحياها؟ أقضي معظم وقتي محتجزًا في غرفتي أو أطوي الأزقة وحدي طيًّا، لا أريد إتعاسكِ؛ اخرجي من هذه الحلقة الملعونة!).

أتعلم كيف ردت ميلينيا على هذا الكلام؟

(حتى لو كنتَ جثة هامدة في هذا العالم، أحبك)".

أمسك يدها فوضعها على قلبه، أغمض عينيه ثم راح في سكرة الحب للحظات.. ثم رفع يدها ليُـقـبِّـلـهـا وأعادها ثانية إلى موضعها من قلبه لتشعر بتناغم الدقات، صمتت لحظتها وأخرجت نفسًا حارًّا من أنفها، فقال لها دون أن يرفع رأسه:

"لقد قلتِ في البداية إن كلَّ صداقةٍ مشروعُ حب وكلَّ حبٍّ مشروعُ جرح، أنا الآن أعيش الجرح وليس في قلبى موضع لطعنة أخرى!"

فقالت في تحدٍّ (بعدما ضربها التردد مرة أخرى فتراجعت عما قالته منذ دقائق):

"ما كان لم يكن حبًّا، إنما كان أكبر من مجرد صداقة"

- وماذا عن "أحبك" التي سمعتها مرارًا؟

- كذبة، وخطأ.

- يبدو أننا كنا نِصفَ جادَّينِ ونصف هازلَينِ، نلهو فوق ثلج عمرنا قبل أن يذوب.

قالها كأنما يخرج من صدره نارًا، ثم صمت...

- تكلَّم! ماذا لو مُتنـا قبل أن نقول كل شيء؟! ماذا لو مات الذين نريد أن نقول لهم أي شيء؟!

- وأعسَرُ منهما أن يموتوا وهم أحياء. قالها ساخرًا ثم أكمل: "من قال إنني على قيد الحياة؟ لو أدخلوني إلى غرفة الأشعة والتقطوا صورة لقلبي لوجدوا داخلي وطنًا يبكي!"، ثم أكمل وهو يخبئ عينيه وقال ذلك القول المأثور مترنمًا:

(جميعهم مروا بجانبي إلا أنتِ؛ عبرتِ من خلالي)

لقد كنا نتنفس الحب، وحين مات مِتنـا.

- كفاك حزنًا! كنت أحبك أمَّا الآن فلا!

- لكني أحببتكِ لأني عرفت معكِ شيئًا غريبًا عني، اسمه المرح.

هب واقفًا وسألها:

"لماذا أنتِ الآن هَهُنـا؟" ثم تركها وذهب نحو السرير ليكمل: "أنا لست مرتاحًا لما تريدينه، لن أقبل بنصف حب، لن أكون صديقًا؛ إما الحب وإما لا شيء، لذلك أنا لست لكِ من الآن، إنما أنتِ ملكٌ لرجل آخر".

لم تجب عن سؤاله، لكنها اقتربت منه في هدوء وسحبت يده فلم يستجب، فضغطت بأصابعها على كتفه وأوقفته ثم ضمَّته إلى حِضنها...

- ما بيننا قد انتهى، أنا لم أعد أنا، وأنتِ لم تعودي لي.

أدرك كم كان مفتقرًا إلى هذا الحِضن الآن! كان شَعرُها يخبئ وجهه، وأحس كذلك حرارة دموعها على كتفه وهي تقول في صوت خافت:

"أعلم أني أضعتك مني، لن أسامح نفسي"

وكانت هذه آخر كلماتها.

...

لم يكن يتوقع أبدًا أن ينتهي الحب بسبب الملل بلا قرار حاسم، لكنه بعدما كاد يُشفَى، رَجَع إلى الفراغ المُحتدم بالعذاب والملل، يتجسد الألم لعينه مثلما تجسد الموت في حادث السيارة، كائنًا محسوسًا يقطر كآبة ورفضًا للحياة، قبضته الخانقة تفشي إليه سر المدمنين والمنتحرين.

لعل الأوفق له والأصلح أن يظل يملأ فراغه بالمخدر، فإما ذلك وإما الانتحار! تعبر رأسَه خواطرُ سادرة، وأخطر القرارت قد تبدأ من خواطر سادرة في لحظة ضعف!

بعدما كان يُحسَد على أمله ورجائه خاب هذا الأمل وذلك الرجاء بالله، والحب والناس، لقد يئس من أنَّ شيئًا سوف يحدث في وقت قريب أو بعيد، ستمضي الحياة فراغًا إلى الأبد، الأيام تمضي في حركة بطيئة.. وذلك أن الحياة تسير بثقل الإحباط.

الثورة تحرك الأحلام، والحب يحرك اليقظة، وتملُّكهما من الخيال بقدر تملُّكهما من الواقع، فلعلَّه ليس الوحيد المظلوم!

خرج إلى الشرفة وكان الفجر يلوح في الأفق، العصفوران الصغيران لا يصدرانِ صوتًا، لعلهما ماتا من الإهمال؛ لا يهم..

إنها الخامسة فجرًا.. ما زالت المدينة نائمة.. ارتدى الجينز وقميصًا طويل الأكمام اتقاءً للبرد ثم نزل إلى الشارع. المشي رياضة روحية، يُهدِي له فِكَرًا تُهدِّئ قلقه، المشي خلوة تقربنا إلى ذاتنا ونحن بين الناس.

تنقَّل من شارع إلى شارع، بالكاد تعتَرِي جسدَه نسماتٌ باردة، والسماء مغطاة بطبقة من الغيوم؛ فهذا الفجر ينبئ عن نهار هادئ، تمتص الغيوم كل صوت يصدر عن الأرض كأنها طبقة عازلة، لكنَّ رنين الأنغام الإلهية يهبط على أذنيه فيطربه.

ما زال يفكر في خيانة راعي الأغنام لتشي جيفارا، هل كان تشي جيفارا مثله يعاني حبًّا؟ فهو يشعر نحو جيفارا بحنين قديم، يعشقه ويعشق الأشخاص الذين يمثلونه، الذين يعبرون عنه بكلمة أو رسمة أو أغنية، بدءًا من تشي جيفارا وصولًا إلى فريق "كايروكي".

ما دام هناك ما يسمى "الزمان"، فكُلٌّ مُنتهٍ لا محالة، حقيقة الحياة المرعبة تبرق أمامه مثل رعد صارخ في مدينة هادئة، الزمان وغد ذميم والحياة قحباء لعوب، إذ يجب على الإنسان أن يكون قوادًا أو محترفًا سياسيًّا يلعب على كل الأوتار.

لكنَّ الشرفاء ليس لهم مكان على الأرض.

أشرق الشمسُ في الأفق، انتابته رغبةٌ مفاجئة في كوب قهوة، فانبرى يبحث إلى أن عثر على لافتةِ مقهًى في زقاق مسدود.

تتسلل الموسيقى من مذياع عتيق موضوع خلف نصبة الشاي، وناي هو الزبون الوحيد، أسند ظهره إلى ظهر المقعد ورَجَع رأسَه إلى الوراء، تلك المرة الأولى التي يشعر فيها بهذا الاسترخاء؛ نام...

كل ما في هذا المكان له أثر مهدئ، اللون البني الذي يشمل المكان، الكراسِيُّ القديمة، الصور المعلقة على الحائط لمستشرقين يصورون أشكال الحياة العادية في القاهرة في العصور الخالية، فمن الطبيعي أن يشعر الإنسان بالراحة في هذا المكان.

كانت القهوة التي قُدِّمَت إليه في كوبٍ كبيرٍ غنيَّةً شهيَّة، أغمض عينيه وتنفس بهدوء... استمع إلى صوت الأوتار والبيانو في مقدمة برنامَجِ "لغتنا الجميلة" الذي يقدمه الشاعر الكبير فاروق شوشة، يعرفه حق المعرفة، فهو الذي خطف أمل دنقل من غرفته في المستشفى وأجرى معه حوارًا قبل وفاته بأيام، صوته الهادئ قد وضعه في حالة تأملية قوية فمضى يتساءل:

"ماذا حدث للدنيا؟ لماذا جرت بهذه السرعة بين الحب والخذلان والثورة واللاثورة؟ لمذا تأتينا الأشياء إذا كان مصيرُها أن تذهب عنَّا؟ ولماذا تبتسم الحياة إذا كان طبعُ وجهِها العبوس؟!"؛ فحسد الجبال على رسوخها والطيور على قدرتها المستمرة على الطيران؛ وذلك أنَّ الإنسان ليس لديه قدرة على الخلود ولا التحليق في الفضاء.

ظل غارقًـا في مقعده مُغمِضًا عينيه مُستغرِقًا في الموسيقى والكلمات، اخترقت رأسَه فِكَـرٌ عديدة تتعلق به، ولكنه عندما يستغرق في التفكير في نفسه يشعر بأنه أقلُّ واقعية، ثم طلب كوبًا آخر من القهوة.

- أعجبتك إذن؟!

- رائعة، ولها نكهة ورائحة لطيفة.

- أُحَمِّص الـبُـنَّ بنفسي؛ أختاره حبة حبة.

انبهر ناي، ثم قال للرجل :لا عجب أنها بهذه الجودة إذن".

- ألا يُزعجُـك المِذياع والموسيقى؟ حسبتك تريد أن تأخذ غفوة!

- لا، إنها رائعة فلا مانع إطلاقًـا من السماع..
أخبرني، من ذا الذي يعزف؟

-لا أعرف من العازف لكني أعرف مقدم البرنامج، كما أن اليوم الثلاثاء، إصبَاحَة بيتهوفن. ثم ابتسم الرجل وهو يكمل: "الأشياء الجميلة لا تموت أبدًا".

قرأ ناي على ظهر القائمة قصةَ المَقهَى مكتوبة بالعربية.

"كان هذا المقهى ملكًا لرجل أرمينيٍّ، علمني الذوق والفن والموسيقى، وعندما تقدمت به السن كتبه باسمي ثم سافَر، وأنا إلى الآن أحافظ على طرازه كما هو، فهذا متحفٌ وليس مقهًى".

شعر ناي بأن الحياة في القاهرة شيء جميل، وليس هو بِنادمٍ على ترك والدته والمكوث في القاهرة، فكل تلك الأحداث المجنونة المتتباعة لم ولن يندم عليها لأنها حين وقعت لم يكن متاحًا سواها.

يشعر بأنه ينتمي إلى هذا المكان، وَدَّ لو كانت جميلةُ معه، فبصحبتها لا تشغله مسألة الكون بالكلية، ربما يبدو ذلك من قبيل المبالغة لكن هذا ما كان يحدث فعليًّا، فمعها يشعر بأنه ينتمي إلى كل شيء، ولكنه يقنع نفسه بأنَّ عليه أن يعتاد الغياب.

إذن لم تعد القاهرة مدينةً مناسبةً ليعيش فيها، ولم تعد جميلة هي المدعوة لإكمال الحياة معها.

الثورة مستمرة، نعم، لكن عهد الحب قد انقضى. الحب والثورة شيئان لا يعرفهما مَقهُـور؛ فالحب ثورة على العقل، والثورة ضياء يشع من القلب. الحب حب الوطن والحرية والناس والذات، والثائر في حقيقته يحمل كل مساعي الثورة في داخله وأولها الثورة على نفسه.

وكما ثار ناي على ذاته القديمة، قرر مجددًا أن يثور ويتمرد على الحياة البائسة التي يحياها الآن، فليس الخنوع خنوعًا لسلطة أو نظام فقط، فقد يكون ركوعًا أمام ضعفنا؛ لذلك قرر أن تكون الثورة التالية على ضعفه، فالحب الذي يميت ليس حبًّـا، ومن أحبَّك حقيقة فسوف يبقى أو يؤوب بعد غياب، ولكنَّ المفيد أنه كان صريحًا مع نفسه في سؤالين، الأول: (لماذا فشل الحب؟) والثاني: (ما الذي جعل الثورة في طريقها إلى الفشل؟).

التَكبُّـرٌ والغُرور.. ارتداء ثوب القدسية الذي لا يُخطئ.. البُعدُ عن الشارع والناس، هذا ما يجب أن يصارح الثوار به أنفسهم.

لم تغادره جميلةُ لأنها وجدت طبيبًا فحسب، لكن ما شجَّعها على هذه الخطوة أكثر فأكثر شعورُها بعدم الأمان، لقد أفرطا في الحب الذي بلغ بهما حد التطرف، لكن الحب كان ينقصه ذلك الشيء الراسخ في العقل المصري، الزواج، أحبها ولكنه لم يفاتحها أبدًا في الزواج (وحتى إن كان لديه رغبة داخلية في ذلك، فهو لم ينفذ، تمامًا عكس ما فعل مالك).

"هي الآن تعيش معه سعيدة، فيجب عليك أيضًا أن تعيش سعيدًا، أعلم أن الحقيقة مؤلمة لكنها حقيقة!"، هكذا قال لنفسه عندما رفض الصورة الهزيلة التي يعيشها الآن، آمن بذلك لينقذ نفسه من دُوَّامة المبررات الكذابة، فإنه إن كان قد أحبها حقًّـا فليتمنَّ لها الخير؛ ليس ضروريًّا أن تبادله ذاك الحب!

الحب الحقيقي دائمًا دون مقابل، وهذه هي صورة المحب الحَقيقي، فالنُّبـل في الحب أنك لا تجبر أحدًا على أن يحبك حتى إن كنت تحبه، فإن كانت هي تحبه حقًّـا فسوف تعود، لأن الحب الحقيقي ينتصر في النهاية.

إن بلوغ الحقيقة لا يتوقف على مدى مطابقتها لتصوراتنا؛ إنما يتوقف على موضوعية البحث عنها.

لقد رحلت جميلة لأنها لم يُشعِرها يومًا بالأمان، لعلها أحبته سابقًا، لكن المؤكّـد أنها لم تعد كذلك.

قبل أن يصارح نفسه بتلك الحقيقة الشافية، سقط فريسة لحرب العقل والقلب، فقد مرت عليه لحظات الفراغ القاتلة، فراغ ما بعد الحب، هبت على عقله فِكَـرٌ لم يسكُن إليها.. أيفعل ما يؤمن به أم يترك نفسه لأهوال الواقع المريض؟ لقد اختار الحب فيما مضى تلبيةً لنداء قلبه، لكنها رغبة متوحشة خنقت الحب دون قصد، فلم يبق الآن إلا أن يُحكِّمَ العقل، لكنه لم يعتد في حياته الجديدة أن يلبِّي نداءاتِه، أوَيتمتَّع العقلُ أصلًا بقدرة على الاختيار؟!

إنه يمقت العقل الذي يؤمن بأنها سبب ضياع الخليقة، العقل الذي ينسج من خيوط الغيرة والأنانية غلالة سوداء من العقلانية تضفي على الكون قتامتها فيعيش الخلق في قلق دائم.

تهفو رُوحُه إلى الاستقرار بعد كل ما عاناه، يود لو عاش في كوخ صغير بعيد خالٍ من أية مسؤوليات، يخلو إلى روحه دون اكتراث لما يجري في الكون من حوله، هذا ما انتاب كثيرًا من شباب الثورة المُحبَطين، الإعراض عن الحياة العامة، تمنى لحظة مثل لحظاته الأولى في القاهرة، لكن العجلة لا تعود إلى الوراء، هنا فقط أدرك ما كان يبتغيه البَــرِيء!

"الهروب من الواقع المتهالك"

يشعر الآن بأنه فارغ من الداخل، أخيرًا تفهَّم ذلك!
صار أشبه بمكتبة لا تحوي إلا كتابًا واحدًا.. رغم أنه تعود أن يكون داخلَه كتبٌ كثيرة وحيــاةٌ أما الآن فهو غير قادرٍ على التذكر.. غير قادرٍ على الحياة.

لقد كان شخصًا عاديًّـا، ثم أدخلته الصدفة في متقلبات الحياة ومتغيراتها إلى أن عاد فارغًا من جديد، يقول لنفسه:

"في الواقع كلنا فوارغ، نأكل ونتغوط ونعمل بوظيفة ثابتة لكي نحصل على راتبنا البائس ونمارس الجنس من حين إلى آخر (إن حالفنا الحظ)، لعل هذه متعة الحياة! هناك أشياءُ شائقةٌ تحدث في الحياة، تلك التي تحدث رغمًا عنَّـا، فالأمور لا تسير دومًا كما توقعنا (وبالمناسبة هذا ما يجعلها شائقة!)، فمنطقيٌّ؛ لو فاز فريق كرة قدم في كل المباريات، لقُتِلَتِ المتعة!".

لِـذا ظل ناي يتذوق الألم في متعة، يعيش حياة مختلفة ممتعة، لم يعد عاديًّـا حتى في حزنه، فقد حاول أن يملأ فراغَـه العاطفيَّ بعد جميلةَ لكنه بالتأكيد لم يستطِع أن يستجيب لأي علاقة دون حب، دون أن يشعر بأنَّ الخَسارة ليست خبيثةً دائمًا، فإنما تبث لنا الحياة أنه لا توجد خسارة مُطلَقة، وبمعنًى أدقَّ فالخسارة مرحلة حتمية في تطور الإنسان، نخسر أفكارنا القديمة لنكتسب أفكارًا جديدة، نهدم نظامًا لنبني جديدًا، إنه "فنُّ الخَسارة".

لعل أبسط الأنشطة البشرية هو التحديق في أخطاء الآخرين دون النظر إلى أخطائنا، فإن الذي يفتش عن أخطائك لن يرى سواها! من ثَمَّ هَبَّ ناي يرسم دُستُورَه في معاملاته الجديدة لا إراديًّـا...

المرأة التي لا تتخذ خطواتها الأولى نحوه لن يَهتمَّ بها، كذلك الحال مع الرجال؛ فقد بات سهلًا أن يدير ظهره ويغادر علاقة -أي علاقة- بمجرد أن يرى فيها ما يرهق، فالصديق المُرهِـق كثير المعاتبة، يريد تفسيرًا لما لا يُفسَّـر، يريد أن يفهم كل شيء حتى إن سامحك على خطأ أشعرَك بأنه صنع فيك معروفًـا!

عندما نختار الحب أو الصداقة فهذا تبرع بالحمق، لأنها أشياء تحدث من تلقاء نفسها عندما تتجانـسُ الأرواح.

كان عليه أن يضاجع جسد الحُلمِ الميت والآمال المُحبطَة، لقد تحولت حواراته إلى سفسطة تقتل نفسها بحثًـا عن الحقيقة بالأسئلة حتى الانتحار.
والسياسة كما الرمال المتحركة تغويك بالسير عليها لكنها سرعان ما تنقلب وتصبح هي من تمشي عليك!

الأمر لم يختلف كثيـرًا عنه في التيارات والائتلافات الثورية التي تتكون وتتكاثر مثل الأميبا؛ كل حزب ينقسم إلى اثنين، وكلاهما يدعوان الجميع إلى الانضمام إليهم.

لطالما قاوم ناي عروضًا واضحة ومبطنة من تلك الأحزاب، دفع أثمانًا متفاوتة لعزوفه عن كل تلك العروض، الطريف في الأمر أنهم يتقربون إليه لأنهم يستشعرون فيه الجدارة والتميز وغيرَهما من الأوصاف التي تسرهم.

يُلمِّحون بحاجتهم إليـه تلميحًا، وهو يشكرهم على حسن ظنهم به ويشرح لهم أنه يفضل أن يتصرف باستقلالية، وأن يظل مخلصًا لما يظنه طبيعتَه، وقد كان يرى أنه بمفرده يستطيع مساعدة الناس بسرعة أكبر، وربما كان يرفض لأن هذا بالنسبة إلى ثوريٍّ مثلِه رذيلةٌ لا فضيلة، بيدَ أنه كان يعرف في داخله أنها أحزاب ليس لها قاعدة جماهيرية ولا تأثير يذكر.

هنا وبشكل فوري يبدأ التعامل معه كأنه عدو لهم تحديدًا، كأنه شخص لا قيمة له ولا يستحق الاهتمام على الإطلاق!
الجميع يزايد على الجميع ويتحول الكلّ سريعًا إلى شراذم يسهُل قتلُها، لكنه كان يرفض فكرة المبايعة إدراكًا بإيمانه بحقه في انتخاب كل شيء بدءًا من حق انتخاب القصيدة التي نقرؤها والأغنية التي نحبها والطريقة التي ندبر بها أمور ثورتنا، بعيدًا عن الشعارات الكاذبة التي اعتدناها في حياتنا اليومية.

"نحن لا نستطيع أن نُقِر ما تقر به القبيلة"

يدرك حاليًّـا أن القوة التي يبتغيها ليست القوة التي تفرق بين النصر والهزيمة، فهو لا يبحث عن جدار يصد القوة الخارجية؛ فهذه العقلانية يمقتها، أما القوة التي يبحث عنها فهي القدرة على امتصاص تلك القوة القادمة من العمق والوقوف نـدًّا لها، القوة التي تحمل الأشياء بهدوء، أشياء مثل الإحساس بالظلم وسوء الحظ وسوء الفهم.

لا ريبَ أنَّ أصعب قوة يمكن اكتسابها تلك التي تمكننا من الانتصار على دواخلنا.

كادت روحه تغيب عنه وبالتبعية كاد ينزلق في ماء واقعنا الآسن، لكنَّ رُوحه استفاقت في اللحظة الحاسمة؛ فقد أدرك أنه في طريقٍ غيرِ طريقه وحياةٍ غير حياته، ومهما كان حجم الضغوطً فـلَـمْ ولـن يضع نفسه في "دُوَّامة الأنسب" بالطرق التقليدية، سواء عاطفيًّـا أو سياسيًّـا، لن يعيش إلا بحقيقة أن الثورة مستمرة (مع تصحيح أخطائها داخليًّـا)، وحقيقة أنه لن يتزوج إلا حبًّـا، فذاك هو الوعد الذي قطعه مع الحياة...

لن أحيـا إلا حُـرًّا!

كل هذه الأفكار السوداء تدور في رأسه؛ سريعة هي الأيام وخبيثة مثل سرطان لا تدري به إلا وهو يفتك بجسدك فتكًا، تأخذ غرضها منك ثم تلقيك في أقرب سلة مهملات وتذهب إلى أحضان رجل آخر، بعدما تصل بك إلى ذروة الرضا عن ذاتك تأتي إليك لتضعك أمام الحقيقة الصاعقة، أنك لا شيء.. لعبة.. مسخ، تؤدي دورك في المسرحية ثم تذهب لكي تنسى.

ظل يحتاج بقوة إلى صوت يدله على الحقيقة، يبحث عن نديمٍ ويتمنى عودة عم جلال عامر إلى الحياة، فقد كان أشدَّ الناس شفافيةً وصدقًا، الوحيد الذي اجتمعت على نقائه القوى المتعاركة طُـرًّا، تُـرَى كيف يكون رأيه؟ هل يجيب عن السؤال السرمدي؟ هل هناك أمل في الثورة؟

يريد أملًا ثابتًا حقيقيًّـا يمسك به ويسير وراءه بعدما صار مختنقًا يعيش على أمل الكلمات لكن هذا الأمل سرعان ما يذوب في بحار الثورة المضادة.

تتوالى الأيام وهو غارق في هذه الصراعات الداخلية، لكنَّ عليه التفتيش والتنقيب عن الحقيقة بمفرده، فقد قالها في القاهرة:

"لقد انتهت جذوري في هذا البلد، لقد فقدت القدرة على الحياة، لم يعد لي غد هنا! أنا بحاجة إلى أرض جديدة ووجوه جديدة وحرب جديدة وذكريات جديدة، أنا بحاجة إلى ناي بلا ندوب".

وعندما اجتاز هذه النقطة الصلدة بسخريتها الموجعة سمح لمشاعره بالعودة إلى حالة الراحة والسكون.

16

قرر أخيرًا العودة إلى مدينته، هذا ما هَفَـتْ إليه رُوحه واستراحت إليه والدته؛ إذ وجب عليه أن يُغيِّـر الأجواء وينفض الغبار عن روحه.
قال في نفسه:

"لماذا يجب أن يكون كل شيء في القاهرة؟ إنَّ بلدي أولى بالتغيير وإن بيتي أولى بي"، غير أن جراحه قد بدأت تندمل رويدًا رويدًا.
...
لاحظت والدته بعين صامتة ما طرأ على مظهره من تبدل في الشكل والمزاج، أمسى ساكنًا لا يبرح غرفته التي طرأت عليها تغيرات تشي بحالته النفسية. ازدادت الكتب التي لم يكن يعرف طريقها في الماضي، أخذت الغرفة تزدان في أيامه الأولى بعد العودة بألوان وَرَقِيَّـة كثيرة من كتب شتى غير مرصوصة مبعثرة، وهو بدوره أرسل لحيته إرسالًا وصار قليلَ الكلامِ والحركةِ كثيرَ التأمل.

أزعج والدتَه ذلك الوضع الجديدد لتبدل حاله عما اعتادته من وحيدها، خشيةً منها أن يكون قد مسه جانٌّ أو أصاب عقلَه عَطبٌ، لكنها ظلت تراقبه في صمت على مضض إلى أن ترى ختامًا لهذه الأوضاع المستجدة، خصوصًا أنها وجدت منه حنـوًّا مبالَغًا فيه عليها وتقربًا منه إليها لم تعتده.

تراه متابعا نهمًا للبرامج السياسية، فبعدما كان لا يبرح مكانه من أمام التلفاز وهو يشاهد مباريات كرة القدم، أصبح متابعًا لِلّقاءات الصحفية التي تَعلَمُ الأم أنها لم تكن من اهتماماته مطلقًـا.

لقد دخلت حياته أسماء جديدة بعيدة عن أهل الكرة والفن، أسماء من الكُتَّاب والصحفيين والفنانين التشكيليين والثوار والإعلاميين والسياسيين، تجلس جواره تتابع تلك الأحاديث التي تتداخل فيها أصوات الضيوف بين الزَّعيق والسِّـبـاب، تجده يستملح الكلمات التي تكيل اللعنات على النظام القديم رغم ندرتها حاليًّـا.

كما أنه اختص نفسه بهواية المشي التي كان يمارسُها اعتياديًّـا في القاهرة، إضافة إلى ارتياد المقاهي التي تشبهه، تلك التي لم تكن متوافرة في مدينته من الأساس.

توالت الأيام وهو حبيس الوحدة، لا يذهب مع والدته إلى الدكان وإنما أقبل على التدخين في شراهة، تَرَى والدته ما يمر به ولدها ، وأما ما شغل عقلها طيلة الأيام التي تلت عودته (لكنها أبت الإفصاح عنه لكي لا تكسر الصمت الذي فرضه ابنها على نفسه) أنها دخلت عليه غرفته فوجدته صامتًا محملقًا في الحائط الذي ترتكز عليه صورة لمحمود درويش وأمل دنقل، قعدت إلى جواره دون أن تتكلم وأخذ وجهها يتبدل بين البسمة الخائبة والنظرات القلقة والقلب المنفطر إلى أن تحدثت...

- اللي واخد عقلك!

-لا شيء، إنه الفراغ لا أكثر... قالها وقد ابتسم ابتسامة باهتة.

- ولماذا لا تتغلب على الملل بالخروج والأصدقاء وخصوصًا العمل؟!
سألته هذا السؤال في أثناء اقترابها منه أكثر.

أجاب مُعيـدًا وجهه للحائط:

لا رغبة لي في أي شىء، الأصدقاء جميعهم مثلي حبيسو أرواحهم بعد أن ضربهم الفراغ من بعد الأمانيِّ العريضة، يبدو أنكِ لا تتابعين ما يجري على الفيس بوك!".

قالت الأم ضاحكةً:

"وكيف لشباب مثلكم ألا يفهموا أن الأمنيات العظيمة تليها خيبات عظيمة؟!"؛
تنفس ناي من منخريه مُعترِضًا في أدب ولم ينبس، لكن أمه لم تمهله إذ أكملت قائلةً:

"لكني أشتَـمُّ رائحة أخرى غير السياسة مستترة خلف ما أنت فيه"

أُسقِط في يدها، لكنه أبى أن يأتي بردة فعل تكشف مكنونه فاستمرَّ على صمته إلى أن جلست الأم تلقاءه وصوبت عينها نحو عينه ثم ابتسمت قائلة:

"أثَمَّ حبٌّ، أم بقايا حب؟"

تظاهر بعدم الاكتراث، لكنَّ ركنًـا خفيًّـا في روحه شعر بالخجل لانفضاح أمره أمام والدته بكل سهولة! هَّم بأن

يجيب بـ"نعم"، كان ينوي كَشْف أوراقه لإزالة الحمل من فوق كتفه لكنه تراجع في النهاية وآثر الصمت.

أفاق من إغفاءته وهي تقول:

"لا يَهزِم الرجلَ هكذا إلا امرأة، لكنَّ الحب مضيعة للوقت مفسدة للمِزاج، الأمر أشبه بالإقبال على القِمار، لذيذٌ في بدايته لكنه سَرعان ما ينقلب إدمانًـا"

ثم هبت واقفـة بعد أن يئست منه لـعـدم اكتراثه بكلامها، انصرفت عنه وبقي هو وحيدًا بين أفكاره يلعن الحب رغم أنه يحبه ويقبله!

ظل على حاله حبيسَ الحيرة والنجوى، ترن أجراس الكون موسيقاها الحزينة وهي تنشد أنغامها فقال في نفسه:

"ما أجمَلَه العبثَ وما أقبَحَها القيود!"

مضى يفرغ مشاعره في كتابة منشورات على الفيس بوك، منشورات شديدة اللهجة ينتقد فيها كل شيء؛ الحب والزواج والإخوان والعسكر والثوار، فـتـهـافَـتَ الأصدقاء عليها إعجابًـا وإشـادة، كما أنه لَقِـيَ احترامًا وتقديرًا من أهل بلدته لأنهم لم يعتادوا ذلك من أبناء مدينتهم، لكنَّ رسالةً جاءتـه من بين الرسائل تحذره من مراقبة أمن الدولة والمخابرات لكل ما ينشر في الفضاء الافتراضي، فإذا به يجهـر بمزيد من المنشورات يلعن فيها أمن الدولة والمخابرات! فقـد جرَّب السجن مرةً وانكسرت له هيبته؛ فأهلًا به ثانيًـا!

لكنه تذكر والدته التي تخاف عليه من الهواء، لكـنَّ رُوحَ الـ"لامكترث" تجلت بين ضلوعه فقال ساخرًا في نفسه: "سُحقًـا!"، لكنه في الأخير قرر الصمت والسكوت، وليس

ذلك خوفًا بل لأنه تَخبَّـطَ في الظلام أيما تخبطٍ، كان عليه أن يبكي من أجل كل شيء، ولكنه كان يجب عليه أن يبكي وحيدًا ليكون بكاؤه جيدًا، أو يتعرَّى من مخاوفه أمام الذين لا يخجل منهم، كانت جميلةُ هي الوحيدة التي يخلع أمامها رداء الطهارة دون خجل.

أدمن الجلوس وحيدًا، يؤثر الصمت على الكلام، أنهكته النقاشات بعدما تحولت حياته إلى نقاشات عالية النبرة، محتقنة ساخنة يلعب فيها دائمًا دور الجاني المخرب الذي يؤمن بأوهام التغيير، لذلك قرر ألا يلقي رأيه على العامة مجددًا؛ المناخ العامُّ وحالة الانقسامات لم تدع مجالًا للكلام لأي إنسان، كما أن التجاوب مع السياسة لم يعد كالسابق، فمن النَّـاس من ارتضى ما يحدث ومنهم من فقد الأمل كُـليًّـا.

بات يفتش عن الأجوبة في الكتب وفي أوجه الناس، في ملابسهم وتعاملاتهم وزحامهم غير الإنساني، في صعودهم وهبوطهم، وذلك بعد أن تهاوت كل الجدران ولم يعد لديه حائط يستند إليه سوى الشعر والأغنيات والتصوف.

لم يعد أحدٌ قادرًا على ملاحظة كَـمِّ وَحدته وانعزاله وبُعـده، لكنها كانت استراحة محارب ليس غيرُ، لذلك قرر ألا يسلم نفسه إلى الهزيمة وأن يحاول معالجة أمره بنفسه، وألا يهتز لكل كلمة سيئة توجه إليه.

تختلِف الأيام عليه وهو غارق في هذه الأفكار، لكنه يحاول أن يتصالح مع أخطائه ونواقصه بعدما شعر بأنه يعيش في عالم آخر غير الذي تربَّـى عليه، يسبَحُ وحيدًا في دنيا الله، يحمل حقيبةً من الأفكار الجليلة التي يكنُّ لها تقديرًا ومهابة وينغمس فيها كما ينغمس الدرويش في حلْـقة الذكر فيغيب عن العالم.

يُخيِّـل إليه عقلُهُ أنه إنسان عظيم ذو شأن، وأن كل ما في الأمر أن المصابين بداء التفاهة لا يفهمون أفكاره، هؤلاء المنتقدون الساخرون الناقمون على توهجه! لكنه يعود يتراجع عن كل تلك الأفكار.

توترت علاقته بأصدقائه القدامى، فهم يشيرون إليه بالغمز واللمز، إلى حياته الجديدة التي تبدو لهم غير مقنعة، فهم يتلمسون أهواءً أخرى باطنة أسفل قناع المثقف الذي يظنونه يرتديـه، يظنون به سـوءًا، يرونه مرائيًـا يفعل عكس ما يقول أو يقول لينال استحسانًا زائفا، رغم أن لا أحد يستطيع أن ينكر براعته في تفسير أمور السياسة والدين والدنيا.

عندما عاد من القاهرة كانت روحه تهفو إلى أصدقائه، يريد أن يسقيهم من النعيم الذي يحياه، لكنهم لم يمنحوه الفرصة، كانوا يسخرون منه بأفكارهم المعادية لفكره، يشعر بأن داخلهم رغبةً خفيةً للاستمتاع بذلك النَّزَق الذي يجهد أعصابه في أمور لا تعنيهم، وهذا واقع آخر اصطدم به عند عودته، أن الثورة لم تصل إلى الصعيد مطلقًـا!

هذه الأفكار كادت تُغيِّـبُـه عن الجو الرُّوحانيِّ الذي عاد لأجله، لقد عاد لأجل الهدوء، لأجل التخفيف عن رُوحه، لكنه اكتشف واقعًـا آخر يطغى على جمال روحه، لكنه مسح عن رأسه أحزانه وقرر أن يستلذ بهذه النسمات الخفية المنعشة دون مجهود، فأعرض عن هؤلاء بالتمشية.

يجلس إلى النهر ويطيل النظر إلى نتف الغيوم التي تضفي غلالة فضية على صفحة النيل الذي يجلس أمامه هادئًـا ساكنًـا فـيـغـدو جميلًا مهيبًـا، لكنَّ ريحًا عتية هبت وهو منهمك في سماع أغنية تطيب لها روحه، حينئذ تمنى لو هبت ريح عاتية نارية تحرق الأرض وما عليها ثم تعيد ترتيب الكون بهدوء.

ودَّ لو خلق الله خلقًا آخر لعل المتشبثين بهذه الحياة يقنعون بأنها زائلة! فإنما هي لحظة، نولد في لحظة ونموت في لحظة، فلماذا الظلم والكره والطغيان والتشبث بالمناصب والكراسيّ؟ لكنَّ ثمة أتربةً اخترقت خياشيمه وعينيه فأحرقتهما؛ نهض يمشي مخلفًا وراءه صراخ الكون وهياج الأتربة وأمواج الأفكار التي تضج في رأسه.

اعتاد أن ينسَـلَّ من بين أترابه المثرثرين في أمور أصبحت لا تعنيه كثيرًا، الأمر الذي جعل جلساتهم موحشة قميئة، يتركهم وفي أذنيه موسيقى هاتفه المحمول التي يدندن معها في هدوء لينفصل عمَّـا حوله من بشر وأصوات.

قرأ مقولة:

"الأقوياء هم من ينزفون في صمت، لا ينتظرون تصفيق أحدهم ولا يلتفتون إلى تعاطف أولئك المرائين، يختلون بجراحهم المهترئة ونفوسهم التَّعِبَـة مُقـدِّسيـن أوجاعهم الصاخبة، ليزهدوا في أعماق صراعاتهم الموحشة ويتوهجوا بصلابة من قلب القلائل والأسى".

قادته قدماه إلى بقعة قصِيَّـة على ضِفة النيل، هبط درجات السلم المؤدِّية إلى الماء ثم خلع حذاءه وأنزل قدميه في الماء وأخذ يعبث بهما في هدوء.
أصبح من أهل الخطوة، يعيش هائمًـا في حب الله ويتخير أماكنَ بعيدةً يختلي فيها بنفسه ليتريض ويجاهد نفسه بكسر أنفها.

كان الماءُ باردًا لكنه لم يأبه لذلك حيث قال في نفسه:

"إن الرُّوح بحاجة إلى أن ترتعش لتستيقظ"

كانت الدنيا ليلًا وكان المكانُ هادئًا بشكل مخيف، فأخذ يغرف من الماء ليغسل به وجهه ورأسه، الأمر الذي جعله ينتفض ويرتعش.

للحظة تأمل هذا الفعل البسيط الذي جلب السعادة إلى قلبه دون مجهود.. فلماذا لا يستوعب البشرُ هذه الحقيقة؟ الحقيقة الساكنة في قلوبنا التي يبعدنا عنها حاجز الأنا الوضيع الذي لن يرضى ولو مَلَك الدنيا!

طفر في رأسه شعور خفيٌّ بالحسرة على الأيام التي أضاعها في الألم ثم مضى يعَضُّ أصابع الندم على الأيام التي غاب فيها عن نفسه فأكله الحزن وصهره الألم، لكنه عاد وشكر الصدفة التي جمعته بأجَلِّ المشاعر مثل الحب والحرية، وهكذا حال كل ما هو جميل في هذه الحياة، يتِمُّ مصادفةً من تدبير القدر.

كتب على صفحته:

"إن المعرفة أنفَسُ العطايا.. لكنها لعنة الحكيم، ولعل هذا الحكيم هو أكثر الناس سعادة. المعرفة الحقيقية هي معرفتك لذاتك، رُوحِك التي خلقها الله لا التي أنتجها المجتمع، افهم نفسك تفهم الحياة وأسرارها.

فالحكيم مَن سَخَّر معرفته لتحقيق أحلامه لا لتغيير الكون، المعرفة هي الطريق غير الممهدة للوصول إلى الأحلام، هي التي تدفعنا إلى مزيد من الاشتياق إلى الحرية، مزيد من الارتباط، مزيد من الحلم الساذَج البسيط المستحيل!

الحلم أن نعيش ويعيش الناس من حولنا واقعًا جميلًا جديدًا، الحلم سنوات وردية يبيتُ كلُّ ما فيها جديدًا جميلًا".

غسل وجهه ثم أسند ظهره إلى الحشائش متعبًـا ممتنًّـا لهذه اللحظة الساحرة التي تجعله يخرج ما في قلبه دون ترتيب، وترسم على وجهه ابتسامته الصافية.

لعل الأشياء البسيطة أكثرُ تميُّـزًا، ولكن ليست كل عين ترى!

لقد ألقت فيه الحياةُ مجددًا بذورَ الكائن الذي لا يستطيع أن يكونه..

أصبحت المتعة حياته، ينتابه انبهار ممتع بكل شجرة أو نخلة أو ناصية شارع ورجل مسن وبائعة خضار، كل معنًى وكل صديق!

شعورٌ بالتناسق والحلم والشِّعر بين المخلوقات والكتب، لقد بدأ في الاستشفاء والعودة إلى إنسانيته، تلك هي المتعة.

بهذه المشاعر والأحاسيس أصبحت لديه طاقة جارفة؛ ود لو ضمَّ الحياة كلها بين أحضانه وتحديدًا مصر، تلك البقعة المضيئة في رحاب الكون، هذه الكلمة الساحرة التي تقع من قلبه نفسَ موقعِ "أحبُّـك".

يجلس على سطح المنزل، يتنفس وحيدًا هذا الشعور بالمتعة الإلهية في هدأة المكان.. يقاوم قبح الواقع بجمال الروح، لكنَّ الواقع والتجربة ما زالا يلقيان بظلالهما على روحه.

عندما تصبح أنت محور الكون تظل هائمًا في بحر الثقة مستمتعًـا بلذة التفكير والاكتشاف والاستماع إلى موسيقى الكون، تصبح أنت ذلك الإله الصغير القادر على فهم كل شيء بلا شكّ، القادر على أن يحلم بأي شيء دون حدود الإله!

حسُنتِ الحياة في عين ناي واستحالت مجموعةَ كلمات مستقرة، عندما أزاح عنه مسؤولية تغيير العالم.

"بالأمس كنت ذكيًّـا فأردت أن أغير العالم، اليوم أنا حكيم ولذلك سأغير نفسي"

جلال الدين الرومي

مثلما يُنَـقَّـى الذهبُ بالنار تمَّت تنقية روحه، نـار الألم والعزلة والفراق والهزيمة أمام الحُب والحُـلم.

بالتجربة أدرك الحقيقة المجردة من الزيف، أن الإنسان دون نعمة الله لا شيء، يجب أن تكون حياتُه انعكاسًا لروحه وليس العكس، فحقيقته كامنة فيه، لذا بعد الألم قرر أن يسلك الطريقة "المسلك"، مثلما يسمِّيها الصوفيون.

اختار أن يخطو خطوة خارج نفسه لِـتـبـلُـغ روحُه اللهَ، وأن يسلك بحبه للحياة طريق الله، لأن الحب في عمقه عَلاقة إلهية نقية مُدعمة بالروح، تقدُّمٌ سريع للوصول إلى أعماقنا التي تنعم بنسمات الخالق في داخلها.

هدفه الآن الارتقاء، الارتقاء فوق الأنا والألم بَدءًا من الخارج المعتم إلى الداخل المنير، ففي الأعماق داخل النفس يجد الباحثُ اللهَ، ولهذا المعنى ازداد عشقًا لروحه وللناس.

حتى جميلة التي خانته، اكتشف أنه يحبُّها حبًّـا حقيقيًّـا، لأن حبه لم يكن مشروطًا؛ إنما هو حب دون أسباب.
الحبُّ أن تحب شخصًـا سواء أحبك هو أو لم يفعل، سواء كان معك أو مع غيرك، حيًّا أو ميْتًـا، لأنك لا تحبه لأنه يحبك؛

أنت تحبه لأنك تحبه.. خارج حدود الشهوة وداخل نطاق الله غير المحدود!

لذا فالثائر عاشق، لأنه يتعذب لأجل أناس لا يعرفهم وقد يكرهونه! ذاك جوهر الحب؛ أن نحب ذواتنا فيفيض هذا الحب على المعشوق، ومن خلال العشق يسير الإنسان نحو سر وجوده وهو معرفة أنفسنا والتصالح معها ومن ثَمَّ معرفة الله في كل شيء، وعلى هذه الطريق، طريق العشق، نحتاج إلى معلم، فكانت التجربة والألم والحب والثورة معلميه ومرشديه.

قيمة الحب أنه يساعدنا على رؤية دواخلنا، إن الحب الحقيقي طريق شائكة غير ممهدة، يشعلُ بداخلنا صراعَ القلب والعقل، يستفز الأنا التي ترغب في السيطرة على أرواحنا وإنسانيتنا بأنانيتها وطمعها، تأخذ ولا تعطي، تنهب كل ما هو جميل في كل ما نراه، بالحب نُلغي هذا الشيطان الساكن في رؤوسنا، ندرك أن الحقيقة تكمن في القلوب التي يعمرها الله بروحه، لا في عقولنا التي تتخزن فيها أفكار المجتمع وأمراض الواقع.

الحب مرآة الروح، ينضج بسيطرتنا على ذواتنا وعقولنا وتقبلنا الآخر كما هو لا كما نريد نحن، نعيش الحياة كما هي بجنونها وعبثها، عندئذٍ نكون قد أحكمنا السيطرة على عقولنا، وهذه حرب الإنسان الوحيدة.

هنا أسبل جَفنيـهِ على القذى، تمامًا كما أغلق الباب على آلامه وفتح دولاب الأفكار وتساءل في صمت:

"أين البشر من الحقيقة؟! لماذا نتردى هكذا من قاع إلى قاع؟! كل الأمم تتقدم نحو الشمس إلا إيانا؛ نغوص في الوحل حتى كدنا نمس باطن الأرض! متى أصبحنا شعبًا مستهترًا سادرًا، تعلو هامَنا علامةُ الصلاة وفي قلوبنا ترقص أزهار الخَشخاش وهي تلاطف أجساد النساء

منتشية بنار الغريزة؟! أصبحنا أبعد ما يكون عن الحقيقة، ننظر إليها ونتلمظها مثل قطعة الأفيون على أعواد الثقاب، وسرعان ما نعزف عنها ونتركها لثقلها! نعم، الحقيقة ثقيلة مرهقة لذا نتركها ونلهو، ومن يقبضون على قبس من نورها يتكلمون فلا يسمع لهم أحد، لا مَفَرَّ إذن سوى الانحدار والانسحاق تحت أقدام الأهواء والحداثة التي لم نظفر منها بغير السطحية والقشور.

كان في غرفته مُغرقًا في التفكير، اعتدل في جِلسته ومال برأسه إلى الوراء وأغمض عينيه كأنه يسلم نفسه إلى النوم، لم يكن بحاجة إلى أن يفتح عينيه ويضيء المصباح لكي يتأمل المكان بتفاصيله ورغم ذلك فعل؛ راح يتطلع الكتب التي تطل من الرفوف، يتطلع إلى الصور والأيقونات التي تبكي أصحابَها الذين أفنوا أرواحهم فِداءً للكلمة، صور أحمد زكي وتشي جيفارا وأمل دنقل ونجيب محفوظ؛ كتب على حسابه:

"في الأزمنة الغابرة كان الناس يعرفون حقوقهم بالفطرة، لكنَّ الفطرة الآن مخلوطة بزيت الحشيش والكيمياء والمخدر حتى استحال الناس وحوشًا لا يشعرون.

كان الرجل يدعو زوجته بالهانم وهي تناديه بـ"أبيه"، أما الآن فقد ضاع الوقار تحت ركام العبث.

نحن بحاجة إلى ثورة الأخلاق وترميم الإنسان".

سأل نفسه:

"ماذا يمكن أن أقدم إلى هؤلاء الناس سوى الكلام؟"

إن التقدم الحقيقي لن يحدث إلا إذا شعر كل مواطن بأنه شريك في الوطن وليس أجيرًا في عِزبةٍ أو عالةً أو عبئًا على المسؤولين، لا بد أن يدرك أنه قوي حتى إنه ليستطيع

أن يحلم بمحاسبة أعلى رأس في الدولة؛ يحتج عليه ويحاسبه إن أخطأ!

لاحظ ناي (مع الأسف) أننا نشبه حكامنا، نميل إلى حكم الفرد عن حريته، نعشق سحق الحرية التي أتت كل الأديان لتكرسها ودعت كل المذاهب الإنسانية النبيلة إلى إعلائها، لذلك يقمع بعضنا بعضًـا، نتخلى عن حريتنا التي جُبِلنا عليها من أجل أن تكون هناك حرية وحيدة لفرد واحد يوهمنا بأنه يرفع عن كواهلنا أعباء الحياة، يتصرف كيفما شاء ونحن نضع أيديَنا على خدودنا منتظرين إحساناته، نغمض أعيننا عما يدور في البلاد زعمًا بأننا مواطنون شرفاء، نخاف مصلحة الوطن مع أن بشرًا بغير حرية ليسوا أكثر من مجرد حيوانات!

أدرك ناي أننا لسنا شعبًا جاهلًا بل مُجَهَّلًا، لسنا شبابًا غائبًا بل مغيبًا، وهذا الدَّور الذي أعد نفسه له؛ أن يفتح عيون الناس على الحقيقة، لا بالوعظ ولا التنظير وإنما بالحب.

تأثر كثيرًا بقصيدة "الدايرة المقطوعة" التي يدعو فيها الأبنوديُّ المثقفينَ إلى النزول إلى الناس وإلا فلن يتم الخلاص، وعلى إثرها استعاد القدرة على التأمل تحت ضوء الحقيقة، فركن إلى رُوحِه وطفِق يكتشف السر رويدًا رويدًا، لكنه لم يتوقف عن الأسئلة لعل الكون يملك إجابة في باطنه.

كان قد اعتاد الجلوس في هذه البقعة النائية من النيل، اعتدل في جِلستـه ثم أخذ يرمق قبة السماء المنتصبة في الأعالى مُرصَّعةً بالنجوم التي تتقارب في ود أليف، خفقت روحه إلى سراديب الأسرار فامتلأت نشوةٌ من القوة الناشعة من قلب الكون، فانتشى لحظةً حلّق فيها القلب وهو يناجي الليل صامتًا متنسمًا شذا النيل الذي يذكرك بأن ثمةَ حياةً أخرى ساكنة مستقرة في عُمقِـه، إلى أن وثبت

روحه عاليًا وحلقت في عَنان سماوات خفية من السعادة فـتَـيَـمَّـنَ بانكشاف السر الحي..
ثم بدأ يناجي السماء...

- ما الحياة؟

يأتيه الجواب هادئًا رائقًـا في قلبه:
- هي الحب والعمل، الحبُّ لأنه غذاء الرُّوح، والعمل لئلَّا يموت الجسد مللًا

- فلماذا لا تخلو الحياة من كدر؟

- لكل شيء ثمن.

- وما ثمن الحب؟

- ثمن الحب في البحث عن اليقين والحقيقة، والحقيقة ساكنة في القلوب.. والقلوب تائهة في زخْم الكون.

- هل الحب هو النهاية؟

- الحب طريق لا نهاية لها.

- فما النهاية إذن بحق الجحيم؟!

- ولماذا تبحث عن النهاية وأنت لا تزال في قلب الطريق؟!
إن من ينظر إلى النهاية لا يصل، فـعـلـى الإنسان ألّا يكف عن السعي إذ لا راحة أبدية إلا بالموت.

- أهذا يعني أن أقصد طريق الموت لأبلغ الراحة؟

- لا، لكنك إن آثرت الهروب فأنت تستحق الموت!

إنما تبتسم الحياة للشجعان، من لا يهابونها ولا يهابون الموت، فإذا تشبثت بأهداب الحياة فاعلم أن عليكَ الكدَّ في البحث عن الهدف الأسمى، أن تعرف سر الوجود وتتنكَّـر للقُشُور التي تشغل العقول الصَّدِئة كي تفسح الطريق لعبور نورالعشق الإلهي.

- إذن يـجـبَ على الإنسان أن يزهد في المسرات!

- كلا.. بل ازهد في الأهواء والشهوات، ارتقِ بروحك وابحث عن الأسئلة ثم نقِّب عن الأجوبة، الحياة سر عميق مفتاحه السؤال، من أنت؟ ما الحياة وما الله؟ لماذا نعبد إلهًـا لا نراه؟ سوف تضيء هذه الأسئلة داخلك عندما تعثر على الإجابة فتبلغ قمة الطريق وأنت تترفع عن الحقارات وترى سر الوجود.

- انبعثت في روحه دفقات من البهجة والضياء وفجأة رقص القلب من فرحة ثَمِلة، واجتاح السرورُ مخاوِفَه وأحزانه وارتفع رأسُـه بقوة تبشر بأنه لن ينحني منذ تلك اللحظة فصاعدًا، وشملته سعادة جنونية غامرة أثيرية، طَرِب ورقصت له الكائنات في أربعة أركان المعمورة وأظلَّـه يقينٌ عجيبٌ ذو ثِقلٍ يقطر منه السلام والطمأنينة، ملأته اللحظة السابقة بثقة لا عهد له بها منذ عودته، وعدته بتحقيق أي شيء يريد، فارتفع فوق أي رغبة وترامت الدنيا تحت قدمية حَفنةً من تُرابٍ.

شكر لهذه اللحظة ورأى أن نفسه لا تستحق منه أن ينبذ أي شيء في سبيل هذه النشوة، أو أن يُعرِض عن الحياة في خارجها وأن تصبح بالنسبة إليه لا شيء، ثم راح يتنفس أنفاس المجهول ويسمع همسات السر وهو يعاود النظر إلى السماء ويتأمل النجوم المنثورة مثل لوحة فنية، يتأملها على أنغام رقرقة الماء السابحة وهي تناجي قلب الليل.

مأساة المثقفين أنهم يرفضون الواقع، أما الواقع فلا يتغير، بل إنه يزداد سوءًا، حتى ناي، فرغم أنه يعيش حالة من التصالح مع الأشياء من حوله، مع الحزن والموت والفِراق والزحام والبشر الذين عرفهم أو لم يعرفهم، يختلق الأعذار للمخطئين لأنه يبصر الأسباب لا النتائج، يجمل الحقيقة قدر المستطاع لأن القذارة دائرتها تتسع بمُضِيِّ الأيام- فهو يظلُّ رافضًا، يتطلع إلى الأفضل.

يحب ناي الجنس البشري لكنه يظل ناقمًا على أفعاله التي تهين طبيعة الجنس بأسره، يحب الوطن لكنه يغضب لتخاذل المواطنين وتهاونهم في مُقدَّراتهم، يراهم رافضين لعب النرد مع الأقدار، يؤثرون الثمار الدانية رغم أنها شائكة مُرَّة! لكنه يعلم أن الحقيقة لا تموت في بحار الجهل، فقد تنهزم لكنها لا تَفنَى.

لقد وضع البَذرة على كل حال، ومن الضروري أن يتابع نُمُوَّها، من حقه أن يموت ويستريح؛ ذلك أن الموت هو الحل الوحيد ليخرس ذلك الطّموح الذي يزلزل كِيانه، لكن طلب الموت هروب.. وهو لا يهرب.

بازدياد الشفافية يشعر بأن الغد يقترب ليحقق فيه كل أحلامه ويسحر الجميع، يُعلِّـم الناس كل ما تعلَّمه من فلسفة وسياسة وحياة، قد تصبح حياته ذات قيمة، فكـمـا يقول دائمًا:

"أنت بلا قيمة إن كنت بلا رسالة"

حياة يتمنى كل من يسمع بها أن يعيشها، إنه يرى بقلبه اللحظة القادمة التي ستنهض به إلى الثراء الأبدي، يخلق لنفسه عالمًـا ورديًّـا، اللون الوردي يمتص روحه ذاتها ويُغنِـيـهـا.

وحيدًا يراقب الكون في ورع، كمن يعدُّ جيشَه ليخوض حربه الأخيرة مع الحياة، وهو (رغم أن الحرب مع الحياة لا تنتهي) أدرك أن تجرِبته غيرت حياته وإقامته إلى الأبد، يشعر بهذا في أثناء مراقبته للنجوم، فالطبيعة وحدها هي التي استطاعت إحداث هذا الإعصارِ في رُوحه.

كاد الخزي يمسه عندما كاد يتخلى عن الكون في أول اختبار حقيقي، لكنه في الواقع عثر على الكنز في داخله، فالشهوات والألم في كفة والكون بأسره في كِفة.

يقول أحمد خالد توفيق:

"مهما كان الكون بلا نهاية فهو سجن، وجودنا الماديُّ يجعل الكون سجنًا، لعل الأرواح هي الشيء الوحيد الذي لايشعر بقيود الكون"

يجب أن يفعل شيئًا يُذكر له في نهاية القصة! أن يأتي الإنسان إلى الحياة ويذهب عنها بِغَير ذكرى- تلك قِمَّة البؤس، لأننا لا نموت إلا حين تموت ذكرانا.

يُدركُ أن الحديث عن البروليتاريا وديكتاتورية الطبقة العامة ونقابات العمال أمرٌ قد مضى عهدُه، فنحن الآن نغوص في الحضيض.

الأخلاق هي وقود حرب الألفية الثالثة، فالغزو الذي في مصر الآن هو الانحلال الأخلاقي، مِنَ المسؤول إلى العامل البسيط، الجميع يتدثر بغِلاف الانحلال الأخلاقى في أمة تزعم أنها أمة متدينة.

من جُملة ما سبق يعلم جيدًا أن ارتياد المقاهي يتيح له الفرصة ليقترب من الناس الذين يرغب في أن يزرع بداخلهم أفكاره الثورية، الكُتلَة الحَرِجة التي تقيم أنظمة وتسقطها، أضف إلى ذلك أن منظَرَه الغريب الجذاب

يضفي حوله هالة من الألق (شاب يجلس على كرسي موليًـا وجهه شَطَر النيل يقرأ في هدوء، ويكتب أيضًا في مقهًى مُعظمُ مرتاديه من الكهول العُجُز المقامرين، لكنه يدرك أنهم سوف يُسدُون إليه طلبًا أو معلومة أو خدمة فيلبيها لهم وبمرور الأيام يصبح واحدًا منهم!).

يبحث الناس عمن يخدمهم، كما أن معظم البشر يشعرون بالوَحدة، والصورة من كَثَبٍ أكثرُ قتامة، فليكن هو مصدر السعادة والأنس ولو بالنذر القليل.

عَرَف من والدته أسماء وعناوين رجالٍ وأراملَ يعيشون وحدهم، فلمَ لا يكون صديقًـا لهم يخدمهم ويـتَـلَـقَّى حكمة الحياة على أيديهم، ويلقنهم أفكاره إن أمكن؟!

وليمنح كُـتُـبَـه لمن شاء من الشبان الذين يأتون إلى المقهى ويجلسون جواره، فإن الكتب بمقدورها أن تنظف ما أتلفه الواقع في العقول.

لتكن هذه هي رسالته، كما أنه على المستوى البعيد قد يخطو خطوة نحو الرُّوح التي ينوي زرعها في الصدور، وبذلك فقد يكون ذا نَفعٍ للوطن.

يتفهم أن السكون مطبق خانق للرقاب في مدينته، يتقافز الناس مثل صغار السمك ليلتقطوا أنفاسهم ثم يعودوا، ثمة مللٌ وكتم أنفاس، الحياة هنا راكدة قاتلة ولا أمل في الرفاهية.

يجره عقله إلى كسر هذا الروتين والبحث عن مَخرَج.

على الرغم من أنه يستملح العَيـشَ في انطلاق، فهو لا تهمه مباهج الحياة إلا أنه ظل مؤرَّقًـا طويلًا بغيبيات المستقبل، فكلما سمع بسقوط أحد معارفه مريضًـا ولو بسعالٍ خفيفٍ انزلق إلى قاع البئر، تضعف معنوياته ويهزل

جسده، فقد ظل يخشى المرض؛ فبالنسبة إليه أن يفقد الإنسان بصره أو أن يرى الطعام ويمنع عنه- تلك قِمَّة المأساة.

كان يعتمد سور الشرفة بساعديه، مُشاهِدًا الغروبَ الهادئَ والنسيمُ يلاطفُ طوق قميصه حاملًا إليه (فيما يحمل) شذا الملذات، ثم فاجأه صوت والدته مباغتًا...

"لقد وقع عمُّك ملاك مغشيًّا عليه بجوار دكانه"؛ رَبد وجهُهُ وتكدر صفو باله، ثم تذكَّر ما هو مُزمع أن يفعله تجاه هؤلاء؛ فنَهَض على الفور دون أن يرتب حاله قاصدًا منزل عمه ملاك الذي لم يكن بعيدًا عن بيته.

مرق إلى بيت الرجل بعدما طرق الباب، استقبله صوتٌ واهنٌ يدعوه إلى الدخول فإذا به يجد نفسه في حضرة الرجل المسن، وكان يجلس إلى جواره رجل آخر يعرفه لكن دون صلة صداقة أو قُربى، كانت رائحة البيت معبقة برائحة الدخان والدهون، فمِمَّا عُرِف عن عمّ ملاك أنه رجل أكول.

البيت صامت هادئ مليء بالأسرار والذكرى، مزدحم بالكراكيب مثل غابة كثيفة لا يمكن اختراقها.

لذلك كانت هذه الزيارة محل تبدُّلٍ يُذكَر في ما بعدُ في واقع حياته.

كان البال رائقًا صافيًا لا تشوبه سوى منغصات الحياة اليومية (على ندرتها)؛ حياة هادئة بسيطة إلى حد يرضيه؛ عملٌ في الدكان وعبادةٌ، وعربدة إن أمكن.

إلى أن كانت تلك الزيارة التي دعته من المجهول إلى المجهول، لقد خطر بباله ما لم يكن ليخطر أبدًا: الشيخوخة.. العُمر.. عندما رأى جاره المسن المريض تذكر

عهد الشَّـبـاب وأيام الصخب والضحك والضجيج والهزل، قالت له أمه يومًـا:

"لقد حَلَّ الضحك في شارعنا بوجود عم ملاك"

أنهى لقاءه بهما ثم عاد مشغول البال، فقد غادرهما بجسمه أما رُوحُه فبقيت هناك عند الجسد المريض؛ تنظر إليه وتتأمله.
مصمصة شفاهٍ على الدنيا وحالها، على ما كان وما سيكون من حال الإنسان، يتساءل في حيرة:

"ما الذي نزل بهذا الوحش الضاري؟ إنه يتحدث والدمعة تفرُّ من عينه!"؛

يتأملُه ناي بابتسامة، يبدو أن وجهه مألوف لديه؛ فهو يذكِّره بوالده المرحوم.
ورغم مكوثه على فراش المرض يأبى أن يخلع عنه عمامته، حتى إنه لَيَحرِصُ بين حين وآخر على إحكام لفِّـها، يقول عم ملاك إنه لم يعد يضحك كثيرًا، فقد أثقلت الدهون قلبه!

لهجته الصعيدية تعيد ناي إلى رائحة البيت القديمة، تعيده إلى أيام الطفولة.

عندما زاره ناي في المرة الثانية انهمر عم ملاك كلامًا، أمسك بـكـفِّ ناي خوفًا من أن يفلت منه كأنه يخاف الوَحدة! فيمازحه ناي قائلًا

"شمِّر عن ساعدك؛ أوشكْتَ على الشفاء وسوف نزوجك ثانية!"؛ لم يبادله المزاح لكنه التقط طرف كلامه ليَصِلَه بخيط طويل من كلام متغلغل في أعماقه، ثم ضحك ضحكة ساخرة وقال:

"أنا مستعدٌّ الآن!"

وفي أثناء حديثهما جاء الشاب نفسه مجددًا ليزور الرجل، يُدعَى إبراهيم، يأتي كل يوم ليعطي علاج السكري لعم ملاك، وكانت هذه بداية صداقة جديدة تجمعه بناي.

"تُوُفِّيَـت زوجتي بعد زواج دام خمسةً وخمسين عامًا، كنت في السابعة عشْرة وكانت هي في الثانية عشرة، كانت مجرد هِرَّة لكنها أحسنت معاملتي إذ لم تهملني يومًا، كنا رغم جهلنا متفاهمَينِ ولم يحدث يومًا أن تخاصمنا، خمسة وخمسون عامًا مثل ليالٍ شتوية ممتعة، يبلغُـنا الحنين والحب، فقد تقاسمنا الفقرَ والفول النابت...

قبل أن أتزوج بها عَمِلت عامًا في شركة سيناء، ادَّخرت مبلغًـا من المال ثم عدت وتزوجتها، كانت قد أنهت دراستها الابتدائية توًّا، ولم يكن في أيامنا إعدادية وثانوية، وإن وجدا فالفقر مانعٌ منهما.

تزوجنا في هدوء وأنجبت عشرة أبناء.. سبعة أولاد تزوجوا وثلاثةٌ ماتوا.

كنت أعمل نهارًا وبعد الظهر في الشركة، أذهب لأتعلم الخياطة عند خيَّاط إفرنجي مسيحي، كنت أكثرَ العمال نشاطًا وصحتي تفوق الجميع، أحـذَقُـهُـم يتولى مسؤولية عمل واحد أما أنا فقد كنت أقوم بأعمال أخرى بجانب عملي من دون مقابل، كان رئيسنا في الشغل إيطالي النشأة، يقول لي:

(أنت صعيدي شَهم يا ملاك).

كنت أقسِّم الماء وأرفع أحجارًا إلى عربات القطار وأنقل الفوسفات والمنجنيز، أكسر الجرانيت... فـلـم أكفَّ لحظة

عن العمل، وكنت أفعل ذلك كله عن طيب خاطر؛ ففي الغربة ليس أمام المرء إلا العمل.

كان يلازمني الـ"منايفة" والفلاحون، خبثاء؛ لا يخطون خطوة إلا كسبوا أمامها أضعافًا!
كان الجميع يـحـبـنـي...".

وجده ناي مثل حراجي القط في جوابات الأبنودي، نفس النبرة، نفس الانبهار وأسلوب الحكاية، فأخرج ناي هاتفه المحمول وأدار جوابات الأسطى حراجي القط بصوت الخال...

أكمل الرجل:

"في ليلة شتاء وأنا أعبئ عربات المياه، كنت أريح ظهري مستندًا إلى قضبان السكة الحديدية، مفترشًا بطانية سودانية قديمة لكنها عهدة، عيني شاخصة إلى السماء، كنت أمسك كشافًا ذا بطارية أعطتني الشركة إياه لكي أستخدمه في ورديات الليل.

ظهر صوت غريب هادر فأشعلت ضوء الكشاف ووجهته صوبه، رأيت شبحًا أبيض.. شبحًا طويلًا يرتفع إلى أمتار لكنَّ ملامحه غير واضحة، فهمت أنه عِفريت ولم أكن أخاف شيئًـا، ناديته وأنا أضحك: (تعالَ يا واد العم) ثم تربعت على الأرض القرفصاء وأنا أوجه نحوه ضوء الكشاف، (تعالَ لا تؤذيني ولا أوذيك، عندنا شاي ومعسل إن أردت! تعالَ نضحك معًا) ثم يعود ويكرر: (لم أكن أخاف شيئًا).

كانت الصحة جيدةً والراتب يكفيني أنا وزوجتي والأولاد، أعيش في هدوء لا أخاصم أحدًا، أؤدي فروضي بتمامها تجاه زوجتي وأولادي وتجاه الله، لم أغضِب أحدًا طَوال

حياتي، عمري الآن ثلاثة وسبعون عامًا قضيتها كلَّها في يسر لا أحمل همًّـا لا أشكو وجعًا.

إلى أن حدث منذ عام أن مرضت زوجتي، أخذت تخبو بالبطيء، ضَعُف بصرها ثم أخذ ألم العظام يتسلل إلى ظهرها، قال الأولاد إن الوالدة تحتاج إلى عملية كبيرة، أعطيتهم عشرين ألفًا من الجنيهات وقلت لهم: "أنفقوا ما شئتم، لا تبخلوا عليها بشيء فهذا كله خيرها لا خَيري، إن والدتكم قد أحسنت معاملتي طَوال حياتي كأنها أمٌّ لا مجرد زوجة.

ذهب الأولاد وعادوا ليس معهم أمهم.. وهنا طفرت دمعة هاربة من محجريها رغمًا، لم أستطع أن أسيطر على دموعي"، ثم أكمل كلامه مهمهمًـا يمسح دموعه:

"ماتت في أثناء إجراء العملية، حذرهم الأطباء من أن قلبها لا يحتمل لكنهم أصرُّوا، أمضى ابني الأكبر إقرار تحمل مسؤولية ما بعد العملية، ووَحْدَها ابنتي الصغرى لم توافق لكن أحدًا لم يسمع.

تَقبُّلُ العزاءِ يستغرق ثلاثةش أيام، ففي اليوم الثالث بينما نأخذ واجب العزاء في ديوان الدار صعِد أولادي يفتشون في غرفة والدتهم، يفتشون عن أي شيء؛ وجدوا سبعة آلاف جنيه يُـقـدَّر بـنَـحـوِ ثمانين ألفًـا.

في جِنازة والدتهم يبحثون عن المال وأنا لم أبخل عليهم يومًا!

لقد قسَّمت بينهم الميراث في حياتي لئلا يختصموا، ونهاية المعروف يفتشون من ورائي دونَما حياء!

ضربني الحزن من فعلتهم مثلما مسني من فراق زوجتى، اكتشفت أني مريض بالقلب وضعف في الكُليتين، لم

أصدق ذلك، ملاك الذي كان يحمل حجرًا وزنه طِـنٌّ يمرض بالقلب! كنت في نصف ساعة أعبئ فِـنـطـاسـيـنِ مياهًـا وكل فنطاس يزن خمسة عشر طنًّـا، لكنها الأيام!

الصحة شمعة تضيء الطريق لكنها تخبو دون أن نشعر.. تنفـدُ فجأة.

قلت لأولادي: (أريد الذَّهاب إلى أفضل مستشفى، أنا لا أريد أموالًا لأنه لا شيء يعوض الصحة!)
بخِـلوا عليَّ، لكني بدعاء الناس وصلت إلى هذه الحالة.

هِيَ الحياةُ تدير ظهرها في آخِـرِ الأيام، دنيا كذابة، لم ترد أن تمنحنا حسن الختام، استعَضْـتُ ربي عن أولادي، اختفت مباهج الحياة برحيل زوجتي ولم يبقَ إلا المرض والوَحدة.

نأتيها فرادى ونتركها فرادى، لم يبق إلا إبراهيم بارك الله لي فيه، يزورني يوميًّـا ويتابع العلاج وقياس الضغط والسكر".
...
مسح ناي دمعة طفرت من عينه وهو يربت كتف الرجل وبداخله غضب لا يوصف وازدراء لذلك المهرجان الكاذب الذي سرعان ما ينفض، لكنَّ ألمًا جعل يضرب قلب ناي وهو يقول في نفسه:

"يومًا ما سأكون هنا، مريضًا أتحرك على سريري بشق الأنفس، هذا واقع لا مفر منه، تلك حقيقة الأيام"، ثم قال للرجل:

"لن تبقى وحيدًا؛ سنظل نزورُك أنا وإبراهيم، لن نتركك".

لم يهدأ لناي بالٌ طَوال الأيام التالية، مرت الأيام على قلبه أبطأ من السُّلَحْفاة ثم عزم على الذهاب إلى سر تعبه طَوال الأيام الماضية، لعله يجد الحكمة في ما يؤرقه.

اتصل بإبراهيم ليذهبا معًـا، فقد كان خجِلًا أن يذهب وحده فاستعان به، وليس لهذا السبب فحسب، وإنما ألقى إبراهيم في قلبه هدوءًا وسَكِينة، أسمعه كلمات الإطراء التي كان يفتقدها وقت الألم، لعلها تعيد إليه بعضًا من ثقته.

إبراهيم (بخلاف ناي) يتكلم دائمًا في أدب جم، ارتاح له ناي أيَّما ارتياحٍ، فقد لَقِيَ اتفاقًـا بينهما في نظرتهما إلى الحياة لكن نايً كان أكثر عمقًـا وتعبيرًا.

ثَــمَّ شيءٌ في وجه إبراهيم يقربك إليه، يسلخ الطبقات التي تغطي قلب المرء واحدة تلو الأخرى، تشعر معه بأنك لست مضغوطًا وتخرج أفضل ما فيك دون عناء، تبتسم شفتاه ببطـءٍ مع كل تعبير، وكان بمقدور ناي أن يرى لمحة عميقة لضوء خافت في عينيه، مثل خفقان متقطع لشمعة صغيرة في حجرة مظلمة.

هكذا فهم ناي أن القدر بعث إليه مجددًا رفيقًا يشبهه، أدرك ذلك عندما قال له إبراهيم:

"أرى فيك عالمًا لا أعرفه ولا يعرفه أحد من حولي، حديقة سرية لا يُسمَـح لشخص عادي بدخولها، أراك تسمو وترتقي بمستوًى آخر من الوجود، أراك مختلفًـا كأغنيات محمد منير".

في البداية حَسِبها ناي مبالغةً مصطنعة أو مبهمة، ومع تكرار الانبهار أدرك تدريجيًّـا أن إبراهيمَ هذا قد وطئ نقطة سرية في أعماقه وهذا ما أسعده جدًّا فـهـكـذا تكون المصادفة.

قضَيا وقتًا في مجلس عم ملاك ثم ذهبا، تركه ناي مذهولًا بعواطفه وهو لا يزال يفكر فيما قال عم ملاك أمام نظرات إبراهيم المُعجَبَة، تملؤه الحيرة والخوف، يمشيان في الشوارع إلى أن يطغى المساء بظلامه على الدنيا فيمضي كلٌّ إلى حاله.

عندما دخل شارعه ومرَّ بالكنيسة رأى رجالًا ونساءً يدخلون إلى الكنيسة ويسيرون في بطء شديد؛ اقترب منهم فوجدهم كلّهم عُجُزًا يتلكعون متكئين على عكاكيز وعلى وجوههم آثار الفرح إثرَ دخولهم؛ تساءل:

"أليس هذا بِرَدٍّ سريع مقنع؟ نقضي شبابَنا في اللهو وعندما يتركنا نترك الملذات ونسلك طريق الله المملوءة بالحكمة في رضًا.

أكمل سيره وهو يردد كلمات عم ملاك التي تطن في رأسه:

"إن الحياة خير معلم".

ذاتَ أصيلٍ جلس ناي في شرفته ممسكًا كوب شاي، ممدِّدًا ساقيه على سور الشرفة تاركًا عقله يهيم في العدم، فلَقَد حرَّر نفسه وعقله ليعيش اللا شيء، أمست الشمس والكواكب كلّها ذرةَ غُبارٍ في شارع الضوء، الحب والمحبوب، لم يدرِ كم مضى من الوقت، فربما كانت مجرد غفوة تحولت بعد فترة وجيزة إلى حالة من

الوجود خارج النفس، درب من حلم موسيقي...

أمسك هاتفه المحمول وكتب على صفحة الفيس بوك:

"إن الحرية لا يصنعها مرسوم يُصدره برلمان؛ إنها تُصنع فى داخلنا، إنها فى الطريقة التى نفكر بها والأسلوب الذي نشعر به والطريقة التى يتفتح بها قلبنا على إحساس جديد ويصحو عقلنا على فكرة مبتدعة، إن أخطر ما يتهدد حريتنا ليس السجن، لكنها مِشنَقَة فى داخلنا اسمها القلق!"

كتاب الأحلام، د. مصطفى محمود.

انتابته حالة من النشوة تلتها موجة ضحك نابعة من شغاف القلب، مما أدَّى إلى تحيُّرِهِ لأن شيئًا لم يحدث جعله يضحك! لكنَّـهـا النشوة، فمن فرط الضحك انشرح قلبه وشعر بروحه خفيفةً طائرةً؛ فآثر ألا يغوص في فَلَواتِ التفكير في طبيعة هذه الفرحة وأسبابها.. إلى أن دخلت والدته باسمةً إثر سَماعِه يقهقه فسألته:

"ما كل هذا الضحك؟"

صمت هُنيهة.. ثم أنزل ساقيه وارتشف آخر رَشفة من كوب الشاي، وقال وهو يهم بالقيام وقد اختلطت كلماته بضحكاته:

"الحمد لله أني لا أعلم لها سببًـا!"

تعجبت والدته واستنكرت قائلةً:

"يا سلام! أتضحك هكذا ضحكًـا شيطانيًّـا أم أنك قد جُنِنْت؟!"؛ ضحك مجددًا ثم أجاب:

"تقريبًا جُنِـنْـت، يبدو أني خُلِقت من جديد؛ فقد عدت مراهقـًا أفرح بلا سبب وأغضب بلا سبب"؛ تأوهت الأم وردَّت:

"فوَّضت أمري إلى الله في الفلسفة التي سوف تأكل عقلك"؛ ضحك ناي مرة أخرى لكنها ضحكة مُلطَّـخةٌ بالغمِّ من هذه الكلمة التي تثير سخطه، أوكلما أبدى رأيًـا لُوقِيَ بهذه الوصمة؟! ما دخلُ الفلسفةِ في ما يقال؟! ما دخل الفلسفة في الجنون؟! ثم إني لست أتفلسف أساسًـا، ربما الغيرُ هم المجانين لأنهم لا يدركون قَـدْرَ ما يعرفه الفيلسوف أصلا!

تلك هي المشكلة التي تواجهك حينما يُكوِّن أحدهم عنك انطباعًـا، فقد كاد ضحكه يتحول إلى غمّ، لكنه بطبيعته التي تميل إلى الرضا أخذ يتجنب هذه الكلمة محاولًا العودة إلى مزاجه، وهو يتقن ذلك وينجح فيه بكل بساطة.

- لن أذهب إلى الدكان اليوم.

- لماذا؟

- ليس لي مزاجٌ ولا رغبة.

...

مر الوقت وهو راقد في فراشه، وجد أنْ ليس لديه رغبة في القراءة، يريد أن يفعل شيئًـا لكنه لا يعلم ما هو، أخذ الهاتف المحمول وسماعةَ الأذن ونزل يتمشى كما اعتاد، لم يعرف ماذا يفعل لكن شيئًـا ما زال ينبض بداخله كمن يطرق بابًـا أُغلِق عليه وقد انحبس في الداخل.

يتمشى في مدينة لا توجد بها أماكن للنزهة، لا مجال للترويح عن النفس أو قضاء وقت الفراغ، فكتب ناي مجددًا على صفحته:

"في مدينتي الميتة إكلينيكيًّـا، مدينة الفراغ والملل والأتربة وثلاث الكنائس، صَبرِي يطرح وَردًا لا يكاد ينضج حتى يذبل، مثلما تذبل النشوة التي تضرب أركان روحي عندما أقرأ كتابًا أو أستمع إلى بيت شعر يلهمني أو إلى غناء يطربني... تذبل الأفكار والأحلام والآلام والفوضى والحب والطرب والغضب، ويومًـا بعد يوم يموت ذلك الحي الرابض في دواخلنا، وإني أرى طاقتي تخبو لأن مدينتي لا تسعني من الأساس.

لا أحب الغربة ولكني أحب الحياة، أما مدينتي فَـبِـلا حياة! بلا صوت ولا روح ولا أحلام، مدينة لا تسع الحلم ولا الذكريات، مدينة بلا ماضٍ تقتل الحاضر المُعبَّـق بفوضى التربة التي تعلو فقط، تعلُو على أصوات الأسمار، يكتفنها الصمت صمتُ القبور لا صمت الخلوات الروحية.

إن مدينةً بلا عربدة سِجن، مدينة يمضي ليلها بلا ألق لا تعرف فرقًـا بين القهوة والخمر ولكن... أين المفر؟

في حياة الكاتب تتناسل الكتب، وفي مدينتي تتناسل الجثث مللًا، وأنا أريدها أن تحبل مني متعة وطربًا، أن أقيم في شوارعها فَرِحًا خشية أن أنتهيَ جثة في كتاب.

كلُّ جميلٍ في نهايته كارثةٌ، فـكيف لا أخشى مدينةً عشقتها من الجمال والفوضى.. التي كان يلزمني عمر من البشاعة لبلوغها؟!

في مدينتي.. احمِلْ سلاحًا ولا تحمل كتابًا، لكني أنا سوف أحمل كتابي سلاحًا لأوقظها من موتها هذا وأجعلها تنبض بالذكرى".

أخذ يتلكَّأ في الشوارع إلى أن قادته قَدَماه إلى النيل، إلى البقعة التي صارت تخصه وحده، هبط السلم وجلب حجرًا ليجلس عليه وهو لا يزال يستمع إلى الموسيقى، حتى إنه

من هدوء المكان وحبه المؤَثّـلِ لمنظر الماء غاب عن المكان.

لم يدرِ كم مر من الوقت إلا أنه فُوجئ بأصابع تلكزه في كتفه، اقشَعـرَّ بدنُه هلعًـا فهـبَّ واقفًـا، نظر وراءه فإذا برجل طويل أسمر، ذي وجه أمرد ورأس مُعمَّـم، يمسك بيده عصًـا غليظة عريضة ملفوفة بجلد الماعز، كان وجه الرجل مختلطًـا بالعبوس، تعلوه ابتسامة خفيفة من تأثير الفزعة على وجه ناي.

"أين أنت يا هذا؟! كل هذه الجلبة التي حدثت وراءك وأنت لا تبالي ولا تلتفت!"

عاد ناي إلى وعيه قليلًا ثم سأله:

"وما الذي حدث؟"

ضحك الرجل وقد كَشَّر عن أسنان مصفرة مثرومة وحنك واسع، ثم جلس إلى جوار ناي وأكمل كلامه:

"منذ لحظات كنت عائدًا بزوجَي بَقَـرٍ بعدما أحممتهما في الماء، وبينما أشعل سيجارة تسربت إحدى البقرتين عني؛ جريت وراءها فوجدتها خلفك وهي تتحفز لتنطحك برأسها في ظهرك، صِحـت عليك فكأنك لست هنا ثم قذفتها بحجارة لتبتعد عنك".

بينما هو يتكلم وضع يده في جيب صديري يرتديه تحت جلبابه وأخرج ورقة ملفوفة أخذ منها لحسة بطرف ظفره ووضعها أسفل لسانه ثم أخذ يتلمظها ويستطعمها، فهم ناي مُباشرةً أنها لحسة أفيون، عاود الرجلُ الكلامَ بعدما أعاد الورقة مكانها متسائلًا:

"ابنُ مَنْ أنت؟" ثم أكمل كلامَه معتذرًا فقال: "اعذِر عمَّك؛ نحن لا نعرف جيل الشباب أمثالك"، فأجاب ناي بعدما أنزل سماعة الأذن وانتبه إلى الرجل:

"ابن المرحوم هلال"

انشرح وجه الرجل الذي بَدَا يعرف الأب معرفة وثيقة كأبناء العم، "أنت من بلدي إذن أنت ابن عمي"، رغم أن هذه العادات بدأت تتسرب من الأجيال الجديدة.

"الله يرحم أبوك، كان ولد، سَبع بمـيـة راجل، الله يجازي الموت اللي بيسرق منا زينة الرجال"، فقال ناي وهو يشحذ شبح ابتسامة باهتة على وجهه:

- الموت علينا حق يا عمي.

- عمك محمود..

- الموت هو الحقيقة الثانية بعد الله يا عم محمود.

مصمص الرجل شفتيه في أسًـى ثم سَرَح قليلًا ناظرًا إلى صغار السمك وهي تتقافز خارج الماء مَرَحًا، ثم قال كمن يحدث نفسه:

"لكنَّ قلوبَـنـا تُنكِرُه في بعض الأوقات!"

فرد ناي مسرعًا في اعتراض:
- لا، إنما هو ضَعفٌ فينا، ليس إنكارًا لوجوده.

سأل الرجل وهو يلوِّح بيده مستنكرًا:
- ولماذا ينسى الله وجودنا دائمًـا؟

ضحك ناي ليلطف من توتر عم محمود ثم قال:

- الله عالِم بكل شيء، فـقُصورُالعِلمِ عندنـا لا عنده.

- عجيب أمر الإنسان الذي يلوم نفسه ليدافع عن الله.

فقال ناي وهو يضحك في ود:
- الله ليس بحاجة إلى مُحامٍ، لكني أقول ما أومن به ليس غيرُ.

سأله الرجل وخيوط اللعاب تتناثر من شدقيه غضبًا:
- إن كان الله يعلمُ كل شيء فلماذا يتركنا في الخراب والآلام؟

تذكَّـر ناي هذه الأسئلة في أيام المحنة فقال وهو يحاول أن يكون هادئًـا:
- إن الله عادل رحيم عليم، أما الظلم والفقر والمرض فهي فلسفة كبيرة، فلسفة البقاء يا عم محمود!

نظر إليـه الرجل نظرة ذاتَ مغزًى ثم قال:
- أفهِمني ماهية هذه الفلسفة.

صمت ناى هُنَيهةً وكاد يضحك... لكنه تماسك كي يستعيد رباطة جأشه وما لبث أن تكلم.

"ليس الظلم والفقر والمرض من صنع الله، إنما نتاج أفعال الإنسان وأطماعه، فالله سخر الأرض وما عليها لراحة الإنسان، لكننا نحن من نريد أن نستأثر بالنعيم لنا وحدنا.

أباح الله لآدم الأكل من جميع شجر الجنة ما عدا هذه، لكن الطمع دفعه إلى أن يأكل من الشجرة ظنًّـا منه أنه قد يبلغ الكمال، لكنه اقترف ذنبًـا، آدم استخدم حريته بطريقة خاطئة فأكل من الشجرة، لذا لم يكن من العقاب بُدّ.

أكرر لك أن المرض والفقر نتاج حريتنا وأفعالنا وأخطائنا، اللهِ لمِ يَكرَه أحدًا لذلك تركنا جميعًا أحرارًا، لأن مَن كَرِهك سَلَـبـكَ حريتك".

أنهى ناي كلامه وكان قد أُنهِـك قليلًا؛ فقد كانت هذه طبيعتَه مؤخرًا إذا تكلم من قلبه كثيرًا، إلى أن سأله العم:
- وماذا اقترفت أنا من ذنب حتى أُعـذَّب هكذا في الحياة التي تقول إن الله خلقها الله لأجلي؟

خفض ناي رأسه ليستريح قليلًا وصمت لحظة ثم قال:
- إنما الحياة ممرٌّ لا مقر، الله يجهز عبيده في الحياة الأولى لنربح الجائزة الكبرى، فهذه الحياة اختبار، والحاذق فيهِ من ينعـم بالرضا.

"طوبى للحزانى لأنهم يتعزون
طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض"

اصبر يا حاجّ محمود؛ إن الله مع الصابرين.

- وإلامَ نصبر؟ إن الحياة تسير بنا من سيئ إلى أسوأ!

- الحياة هي الحياة، منذ بدء الخليقة يفعل خلق الله نفس الأفعال، يخطئون نفس الأخطاء والله يسامح، لكنهم لا يتعظون، إن الله يختبرنا بالرضا والطاعة مثلما اختبر آدم في بداية القصة، فلا تُجدِّف بالنعمة يا حاج محمود.

صمت الرجل... إذ يبدو أنه ندم على ما قال، طغى الصمت للحظات مضى فيها كلٌّ يفكر في أمره، إلى أن عاود الحاج محمود الكلام فقال:
- أنا لا أجدِّف؛ أنا أصطرخ، أعاني في الحياة، فقد رأيت ألما لا يُحتَمَل!

ثم نظر إلى كفيه النحاسيتين وهو يفركهما في غيظ، يبدو أنه لولا الأفيون الذى يمضغه هذا الرجل لألقى نفسه في النهر من شدة الغضب، لكنه ظل متماسكًا بفعل المخدر الذي يسري في أوصاله سريانًـا، وفي اللحظة نفسِها تنطق عيناه شررًا ولا يزال يَعَضُّ على نواجذه، ثم طفِق يحكي فقال:

"كان لي ابنٌ، وُلِـد مُهرًا، طويلًا عريضًا، أكرمني به الله بعد طول انتظار لكنه وُلِـد باللحمية، وكعادتي منذ الصغر لا أحب الطب ولا الطِّبابة، فجعلت أؤجل قضيةَ علاجِـه لعله شفاءه يتم دون علاج، فاللحمية ليست مرضًا ذا أهمية، إنما هو جهل ومُعاندة وعَنَت، فقد كانت تضايقه في أثناء النوم وكان الأولاد يسخرون منه لِخَنْـفِـه.

كان ولدي الوحيد لذلك كان مُرفَّهًـا لم يحتمل معايرة أو كلمة سيئة، ترجَّتني والدته لكي نُجريَ له عمليةً نزيل بها هذه اللحمية، فأخذته وذهبنا إلى المستشفى، أجرينا له العملية ثم أخذته في اليوم التالي وعدنا إلى البيت.

لم يمضِ يومان إلى أن بدأت عيناه في الانتفاخ وأصبح منظره مخيفًـا! عينان جاحظتان، وتنفس غير منتظم، أخذته وذهبت إلى الطبيب الذي أجرى له العملية، فحصه سريعًـا ثم أخبرني أن الولد بصحة فائقة!

لم يسترح قلبي فأخذته إلى طبيب آخر، وما إن دخلنا إلى الطبيب رَبِد وجهُه.. ازرقَّ لونه واخضرَّ واحمرّ فأدركت أن هناك مصيبة، حاول الطبيب أن يغتصب ضحكة باهتة لكن عينيه فضحتاه، فحص الولدَ لمدة طويلة وفي أثنائها ظل يمصمص ويحوقل، إلى أن أنهى فَحْصَه وجلس على كرسيِّه ثم نظر إليّ، ربت كتفي وهو يبتسم فتعجَّلتـه: (هاتِ ما عندك، لا تُخـفِ عني شيئًـا وليكن ما يكون).

حدَّثنا الطبيب ما وقع للولد تفصيلًا، فقد أُجرِيَت العملية بالخطأ مما تسبب في قطع وريد أو شيء مهم في الأنف فبات الولد عندما يأخذ النفس لا يخرج من منخريه بل يدخل على عينه فتنتفخ وتخرج خارج محجريها!

من فرط الذهول لم أفهم كلمة واحدة منه، جلست مُشتتًا كالأبلَه، لاحظ الدكتور تـكـدُّرَ ملامحي فحاول أن يطمئنني لكنَّ نبراتِـه لم تكن مُقتَـنِـعـة بما تقول! سألته: (هل من أمل في العلاج؟)؛ لم يرد.. تجاهل سؤالي.

مرت أيام لا يعلم بها إلا الله، حزنتُ وحزنت الأم، فهو وحيدُها الذي جاء بعد طول صبر، تبدل منظر الولَدِ حتى صار يخيف الأطفال! سألت الطبيب مجددًا فقال كلمته الأخيرة:

(سيفقد الولد بصره عاجلًا أو آجلًا)".

...

صمت عم محمود وبالكاد يبلع ريقه، بحر الذهول تلاطمت أمواجُهُ، يسأل ناي نفسه: "ما كل ذلك البركان الذي انفجر في وجهي؟ أي فلسفة وأي كلام يشفي هذه الآلام؟!" أخذ ينظر إلى عينيـهِ اللتين أصبحتا مثل كأسين مملوءتين بالدم، رفع الرجل العمامة من رأسه فبدت حليقة صغيرة مثل رأس هدهد، بصق بصقتين فبدا كأنه هدأ قليلًا، أو قل إنه كان يأخذ أنفاسه حتى يلقي الجرعة الكُبرى من المأساة، وبالفعل مسح فمه بطرف كمِّـه ثم قال:

"مضى شهران فبدا على الولد أنه مشدوه محطم غائم، لا يستجيب لأي مما يحدث أمامه، وقد صِرت على يقين بأن الولد سيفقد بصره، حتى الأم زهدت في الحياة وانزوت إلى نفسها، مر شهران آخران فظهر صداع شديد يضرب رأسها بقوة لكنها أبت الذهاب إلى الطبيب، اشتدَّ عليها الصُّداع وباتت ليلة في ألم واستيقظت على جلطة دماغية توقف على إثرها نصفها الأيسر!

أظلمت الدنيا وفكرت في الانتحار، لكنني تراجعت إذ لم يكُـن لديهم غيري، انطفأ البيت الذي كان يضيء الشارع كله، لكنَّ الله مثلما يُنزِل بنا البلاء يمنحنا معه القدرة على الاحتمال والصبر، فاتجهت إليه وحاولت أن ألطف روحي بالصلاة والدعاء، فنحن غلابة، وليس لمثلنا إلا الله".

لم يدرِ ناي ماذا يقول بعدما دارت رأسه من سوء ما سمع، وأعجبُ من ذلك أن الرجل بدا قويًّـا متماسكًـا راضيًـا، فورًا تَذكَّـر ناي ما تعوَّدته رُوحُه من بعد الثورة، فقد أخذ في تأديبها وتعلم ألا يطلب كثيرًا، قتل الحيوانية التي بداخله، زهد أحيانًـا في الرفاهية من أجل تحمل تلك المصائب.

نهض الرجل ثم أخذ ينزِع عنه ملابسه.. لم يبقَ على جسده حتى ما يستر عورته! فبدا لناي بجسـده النُّحاسِيِّ القاتم تمثالًا منقوشًا من البرونز؛ قفز إلى الماء وأخذ يرتفع ويهبط، يظهر ويختفي، يمرح مثل طفل صغير...

ثم تكلم بصوت مرتفع بعدما صكت الماء أذنيه:

- هلم إلى الماء، ماء النيل بَرَكـة، يُنعِـش الروح والجسد.

-لا أجيد السباحة.

مطَّ الرجل شفتيه علامة على تعجُّبه ثم قال:

- السباحة سلاح، ويجب على الرجل مِنَّـا أن يملك كل الأسلحة التي تمكنه من الوقوف نـدًّا لتلك الحياة بنت العاهِرة!

ضحك ناي في صمت وخجل...

خرج الرجل من الماء وهو يخبئ عورته بيده ويلتقط أنفاسه، ثم جلس جوار ناي وهو الآن أكثرُ هدوءًا وانتشاءً.

إذن فقد مس الرجلَ الجنونُ من هول ما قاسى، مرض الابن وموته.. مرض الزوجة وموتها، في الواقع لا عتاب عليه، فماذا عساه أن يفعل إلا الجنون؟!

كلنا قصص تعيش في صمت، وما إن تبحث في دواخل أحدنا تجد قصة أقربَ إلى الخيال! ولذلك تختلف الصورة التي نراها من بُعدٍ عن تلك التي نكتشفها عندما نقرر رؤية التفاصيل.

عاد ناي إلى بيته وكان قد حل المساء، عاد حزينًـا مكروبًـا، لقد وقعت عليه قصة عم محمود فمزقته، ودوَّت في رأسه حتى ذهل بها عن كل ما حوله، غابت الطريق عن ناظريه وغابت الحجرة ورأى فراغًا مخيفًـا تمتزج فيه الحُمرة بالسواد، تتراقص فيه أشباح مرعبة من الذكريات والخواطر، فنهض ليذهب إلى القهوة ويختلي إلى نفسه وسْط أصوات الناس.

ألقى نظرة طويلة على أصدقائه الذين أصبح يراهم كل يوم، جيرانه في الشارع.. الذين يجتمعون كل مساء يتسامرون ويلعبون الطاولة والدومينو ليلَ نهارَ في قهوة النيل، يتأمل ضحكهم المتواصل، وعيونهم التي تبرق حياةً، بقايا أسنانهم التي أكل الزمان عليها وشرب، ملابسهم الكالحة وعمائمهم الهائمة الهائجة التي تغطي الصلع والمشيب، شمس المغيب في عيونهم وصوت النرد الذي أصبح لحنًا مألوفًـا.

كل ذلك في القهوة الفقيرة العجوز التي تحتل مكانًا جميلًا عتيقًـا من النيل، حياة بسيطة لكنها قانعة راضية، فالفقراء دائمًا يقابلون الحياة في شجاعة وخشوع ورضًا وحزن أليف، وضعُهُم أشبه بفريق كرة قدم يلعب مباراة ولا يخاف شيئًـا إذ ليس لديه شيءٌ يبكي عليه كما يقولون، فهم لا يهابون الموت لأنهم لا يهابون الغد ولا ينتظرون منه

كثيرًا، ففي بطونهم يستكين يأس رقيق وعدميةٌ شعبيةٌ لم تفقد الأمل في الأمل، أناس يستحقون أن تشتعل لهم أقوى الثورات وتذهب فداءهم ملايين الأرواح.

على ميزان السعادة يضعهم ناي في كـفـة ويضع العقلانيين المنطقيين في الأخرى، فتخرج النتيجة كما يعلم مُسبقًـا، يكسب العقلانيون المنطقيون الأموال ويتصدرون المشهد، أما هؤلاء فيقبضون على الراحة دون وعي منهم، وبينما يأمل ناي أن يعلِّمَهم كيف تكون الثورة وجدهم يعلمونه الحياة والصبر!
يستريح ناي لهذه الأفكار فيزداد حبًّـا للبسطاء وتكريمًـا للأمل.

خرج صوت أحدهم وهو عم عزمي الذي عاد من الإسكندرية توًّا بعد إجازة قضاها في رحاب ابنته المقيمة هناك، وبخلاف جميع الجُلوس، كان عم عزمي أكثرهم ألقًـا ووقارًا، يرتدي دائمًـا جلبابًـا نظيفًـا وعمامة مزهرة، يدخن الشيشة بمعسل فاخر، يجلس عادةً واضعًـا إحدى ساقيه على الأخرى، يرتدي نظارته عندما يريد أن يقرأ شيئًـا، يتباهى كثيرًا بأنه حضر حفلًا لأم كلثوم، يغسل أسنانه بالفرشاة والمعجون على غرار أولاد الذوات، حذاؤه يلمع دائمًـا حتى إن ماسح الأحذية الذي يمر بالقهوة أصبح يقصده هو فقط، يلمع حذاء عم عزمي ثم يلعب معهم الدومنيو على المشاريب، جعل عم عزمي يثرثر بما رآه في الإسكندرية فقال:

"أما إسكندرية دي بلد يا جدعان، سحر! عظمة ربنا تجلت فيها وفـ بَحرَها، تحس إنه قريِّب منك، إنك عايز تاخدُه بالحضن، ولّا الهوا اللي يتعبَّا في أزايز"؛ علق سمير ماسح الأحذية: "طب كنت عبِّـيـت لنا إزازتين وانت جاي!"؛ ضحك عم عزمي، ثم استطرد فقال:

"أكتر حاجة شدتني في إسكندرية وبحرها إنها ملك الغلابة، والفرجة على البحر ببلاش، البحر كله ناس غلابة أصلًا، القاعدين والواقفين والبياعين والشاريين"، فغنى المُقدَّس أشعياء:

يا إسكندرية بحرك عجايب
يا ريت ينوبني م الحب نايب

تذكر جميلة وعم جلال...
كاد ينزلق مجددًا في الذكرى لكنَّ رنين هاتفه المحمول أنقذه، جاءه صوت والدته يسأل:
- هل هذا الأصِيص لك؟

- نعم.

علقت عليه بتهكم:
- فـلِـمَ اشتريتها؟!

رد متلعثمًا ضاحكًـا:
- سوف أزرع فيها نعناعًـا
...
أراد ناي أن يغمر غرفته بالحياة مجددًا؛ اشترى عصفورين وحاليًّـا يزرع النعناع، لأنه مهما بلغ العقل من مقدرة فلا شيء يمسنا بجنون الحياة سوى الطبيعة وكل ما سوته أنامل الخالق.

ضحكت والدته ثم أغلقت الخط، فقلبها الأخضر المفروش بالنعناع تفوح رائحته من عطر الكلام والحب.

في اليوم التالي ذهب إلى الحاج محمود، وجده متربعًـا على حصيرة من الحَلَـف وأمامه الجَـوزة يلقمها حنـكـه ويسحب منها أنفاسًـا متتابعة في شَبَق واشتهاء، وكانت أصابعه تعبث في قطع الفحم ليفتتها إلى قطع صغيرة،

بمجرد أن رآه الحاج محمود نهض مهللًا كأنه رأى مسؤولًا كبيرًا!
سعادة حقيقية تقفز من عينيه اللتين لولاهما لظن ناي أنه يسخر منه، تصافحت الأيدى وسحبه عم محمود وأقعده جواره متربعًا على حصيرته.

شعر ناي بحميمية عظيمة وقد لمس الحياة التي يعشقها، تكلم الحاج محمود كثيرًا كعادته، وبالطبع سمعه ناي في حُـبّ.

حكى عن الماضي وأيامه، كيف كان الناس يعيشون في سهولة مرتاحي البال، القرش الذي كان يشتري فدانًـا من الأرض، أخبره أنه يملك بناية كبيرة لكنه لا يريد أن يترك داره هذه، ففيها رائحة زمان وبركة الناس زمان، الطوب الأخضر يُهدِيـك البرودة في الحر المتلظّي، لا حاجة لك إلى مروحة ولا مكيف ولا ثلاجة...

وبالطبع تحوَّل في حديثه إلى زماننا الحاليّ، خصوصًـا ما بعد الثورة.. فقد أخذ يشكو الغلاء والفوضى وانتشار السلفيين الذين يكرهون كل شيء حتى إنه لا يعلم ماذا يحبون، ثم ضحك وتساءل:

"أويدخل الجنةَ أناسٌ غَضَبُ الله على وجوههم؟"

كل هذا وناي غارق في ضحكِهِ يوافقه في أغلب كلامه.

"لكي تربح رضا الناس لا بد لك أن توافقهم على كل ما يقولون إلى أن يأمنوا جانبك".

قال الحاج محمود متحسرًا:

"الله يرحم أيامك يا أبو علاء، صحيح كان بيسرقنا، بس كنا لاقيين ناكل وعارفين نعيش في أمان".

يهتز قلب ناي عندما يسمع هذا الكلام، ينتفض جَزَعُـه عندما تتلقى آذانه تلك الأكاذيب الراسخة في الأذهان، فابتسم نصف ابتسامة ثم تلاشت من عقله كل سِيماء الأدب والاحترام، لكنه فيما مضى كان يندفع مثل الثور الهائج يدافع ويشتم... أما الآن فهو أكثر اتزانًـا وتجرِبةً، مما دفعه إلى أن يقول:

"مِن قال إننا كنا نعيش في أمان؟ ومن قال إننا نعيش على الكَفاف؟ إنما هي كذبة وليس هذا بجديد على الشعوب بعد الثورات، فإن الشعوب ذاكرتها دائمًـا قصيرة، لذا فأنت تترحم على أيام مضت، ألا ترى أن مِن الناسِ مَن ترحم على الإنجليز وعلى الملك؟!

لكن الحقيقة الراسخة أن الناس كما هم؛ فالفقراء يُولَدُون فقراء، يَلِدون فقراء، يعيشون ويموتون فقراء.

الزمن الجميل أسطورة كاذبة؛ بكلِّ بساطة لم يأتِ هذا الزمن الجميل بعد، وإلى الآن لم يأتِ الحاكم الذي يستحقه هذا الشعب، كل حاكم يأتى يعاملنا على أساس أنه المُـخـلِّـص، يظل يحكمنا بقوة الخوف ووَهمِ أننا إن تمردنا عليه فسوف نموت، وبالأخص مبارك هذا الذي لم يترك للوطن جنبًـا يرقد عليه، لا تعليم ولا صحة ولا عيش ولا عقل ولا روح؛ لم يعلمنا سوى الخوف والخنوع"، هنا انتفض الحاج محمود وقاطعه متسائلًا:

- هل كنت تخاف على بيتك وأهلك مثلما تخاف الآن؟

- في عهد مبارك كنت حِمارًا لا أعي شيئًـا وخصوصًا أن كنا جميعًا عُميانًـا باقتدار، لكنني عندما قرأت وفهمت أدركت أنه كان أمنًـا وهميًّـا، كان خوفًا لا احترامًـا، كان إرهابًـا للمواطنين بالشرطة التي سحقت رقاب المصريين تحت أقدامها.

كل ما في الأمر أنهم تركوا الأمن لكي يخاف الناس فيترحموا على الزمن البائد، والجانب الآخر أنه فيما مضى كانت الجرائم يُتكتَّـمُ عليها لئلّا يشعر الناس فيستكينوا في نعاسهم الأبدي، كان الأمن في عهد مبارك مُحكِمًـا قبضته على الإعلام والصِّحافة حتى احتجبت الحقيقة.

...

حكى له مستشهدًا بفِلم "النوم في العسل":

"الثورة لم تخرب البلد، الثورة رفعت الغطاء عن الحقيقة، فظهر لنا الناس على حقيقتهم، الإخوان والسلفيون والمدمنون وتجار المخدِّرات، فالثورة حرية والحرية تُـثـيـر البراكين الخامدة".

وفي أثناء الحديث أقبل عم نصر، عامل النظافة المسن ذو النظارة الطبية السميكة بإطارها الذهبي والبِـذلة الخضراء المهترئة، وأنزل عمامته وهو ينفخ في اكفهرار، ألقى مِقشته إلى جواره وقعد في صمت، لكزه الحاج محمود بكلمةٍ ذاتِ مغزًى جعلته ينظر إليهما في تجهُّم، أعاد الحاج محمود نفس الكلمة فانبرى عم نصر يلعن ويسب، لم يكن ناي يدري على مَن تُكال هذه اللعنات على حين يبتسم الحاج محمود؛ يبدو أنه يفهم حقيقة الأمر.

"كل يوم أشيل الزبالة من نفس الأماكن وماحدّش بيحس على دمه!"

ضحك الحاج محمود راغبًـا في استفزازه ثم قال:

"إحنا شعب هيعيش معفن ويموت معفن"

نظر إليه عم نصر وما زال مُكفَهِرًّا فقال:

"بس هما بيعايرونا ويعايروا ولادنا على إننا عمال نضافة!"؛ ابتسم الحاج محمود وفي عينيه مسحة خبث خفيفة ثم قال وهو يلكز الرجل بهذه الكلمة:

"هو دا كل اللي مضايقك؟" ثم شخر شِخرة اعتراضية خفيفة كأنه يقول:

"هتلف وتدور على مين يا لئيم؟!"

ابتسم عم نصر عن فم ثَرِم وأدرك بدوره خبث الحاج محمود الذي فهم كنه الموضوع بفطنته الشعبية المصرية القُحَّة، لكن الحاج محمودًا وجه كلامه إلى ناي الذي جلس مستمتعًـا بهذا الحس الشعبي خفيف الظل:

"دا عمك نصر، زبال قراري على باب الله، لكِنُّه راجل معجب، فحل مصري أصيل، بس شكله خسَّع ليلة امبارح فدا كل اللي مزعله"، ضحكوا ثلاثتهم، وتأمل ناي عم نصر بعين مشفقة دامعة من فرط الضحك وقد ظل قلبه منشرحًا.

عم نصر.. المكوم على الحصيرة مثل الفرن البلدي، رث الثياب، لحيته كثة وشاربه خفيف، عيناه الداكنتان تحملان الدنيا بأسرها، في بداية الخمسين إذا رأيته بعين عادية، فقير معدم من الطبقة التي لا يُعرَف لها اسم، لكن ناي رآه بعينِ متأمِّلٍ عاشقٍ للكادحين.

عامل نظافة بسيط يملك الدنيا بين يديه، يضحك من قلبه، يضحك رغم شظف العيش لكنه حزين لأنه لم يستطع أن يؤدي واجباته الزوجية، وهذا هو المواطن المصري بحَقّ؛ يغضب لضياع ليلة حمراء ولا يكترث لضياع عمر الوطن!

اجتذبه الحاج محمود من أفكاره عندما رآه يتغزل في امرأة ممتلئة ضخمة مرتفعة، تسير متبخترة واثقةً بما

أوتيت من إمكانات، فُوجئ بسماع ضحكتها عندما غازلها الحاج محمود:

"كنت فين يا خشب لما كنا نجارين.."

ردت عليه المرأة بعد ضحكة مجلجلة قارحة:

"يبقى افرط مسمارك الأول والخشب تحت طوعك يا راجل يا هفية"؛ ضحك الحاج محمود مكركرًا في النرجيلة، يخرج سحائب الدخان من فمه وهو يقول:

"الله يحظك يا أم عبده"

عاد ناي إلى تأملاته ثانية بعين حاسدة لعم نصر، مضى يردد كلمات حراجي القط للخال الأبنودي:

الجهل مريح يا فاطنة
الجهل مريح، عدم العلم مليح

نهض عم نصر ينفض تراب الأرض من مؤخرته وهو يسب ويلعن مجهولًا لا يراه، وعندما ابتعد قليلًا قال ناي:

"هذه الحياة البائسة لا تليق بالشرفاء، لقد هان المصريُّ أيَّما هَوان؛ صارت أقصى أمانيِّـهِ الموت في هدوء!"، قال الحاج محمود:

"نحن شعبٌ فِرعونٌ، لا يصلح لنا إلا الكُرباج!"

- على العكس؛ إنما نحن شعب عظيم، هم من زرعوا داخلنا هذه الأفكار، هم من قيدونا بالظلم والخوف، وعندما تنفك القيود لا ندري ماذا نفعل! الأمر أشبه بطفل صغير منحته جوهرةً لم يعلم قيمتها من الأساس.

الحرية تراكمات وثقافة، فهي لا تأتي جُملةً واحدة، ما تقوله يا حاج محمود هو نتاج لحكم عسكري دام عقودًا، نظام لا يعرف كيف يحكم لكنه يعرف كيف يستعبد، نحن شعب لنا تاريخ مع الحضارة أما الآن فأصبح لنا تاريخ مع القمع والظلم، يعيبنا جهلنا الذي خلَّفته أنظمة تعليمهم الممنهجة لائتلاف الوعي، كبلونا بالجنس والغريزة والتعصب الديني.

لكنَّ ناي أحس فتورًا في انتباه الرجل الذي رأى أن الحديث في السياسة يتلف الجلسة، فتذكر كيف كان المسيح يعلم الناس بالأمثلة فهي أقرب إلى عقولهم البسيطة؛ فقرر أن يضرب مثالًا

"بالتأكيد رأيت فِلم (الإرهاب والكباب)، في البدء تذمر الناس ضد عادل إمام وعندما قرروا أن يطلبوا طلبوا الكباب لا الحرية، أحبوا عادل إمام ووقفوا بجانبه، وعندما سألهم عما أرادوا لم يجدوا جوابًا، صرخ فيهم أن يطلبوا فلم يفعلوا لأنهم لم يعتادوا ذلك من الأساس، اعتادوا أن يفرحوا بما يُلقَى أمامهم من فتات يكفي بالكاد شظف المعيشة، مثل بقرة تربت في الظلام، فعندما تخرج إلى النور لن تعرف كيف تسير، إنما ستجري وتهيج وتحدث ضجيجًـا، فهل العيب في البقرة أو في من وضعها في الظلام يا حاج محمود؟"

مصمص الحاج محمود من هول الحقيقة ورسمت عينه نظرة امتنان لما يقوله ناي.

لكن ناي كان قد أنهك فأخلد للصمت الذي استمر دقائق إلى أن تنحنح مستأذنًـا بالذهاب فتواعدا على اللقاء في نفس المكان يوميًّـا.

انصرف ناي وفي صدره شعور مختلط بين السعادة والكآبة، فأما السعادة فلأنه نجح في إيصال شيءٍ من

الحقيقة إلى ذهن الحاج محمود، وأما الكآبة فلم يدرِ لها سببًـا، لكنه لم يجهد نفسه في البحث إذ تَرَك رُوحَه على سجيتها إلى أن تبلغه الحقيقة من الداخل في ميعادها دون إفراط في التفكير.

بعد لحظات أضاءت في عقله فكرة مثل لوحة الإعلانات المضيئة مكتوبًا عليها سرُّ كآبته، إحساس داخليٌّ بأن الحاج محمود ينظر إليه نظرة داخلية صامتة ساخرة حتى كاد يقول له:

"تتحدث في السياسة وتريد إصلاح الكون وأبوك قد مات مقامرًا مَدينًا؟!"

استراح ناي لأنه فطن لسبب حزنه لكنَّ كآبة من نوع آخر قد اعترته، "كيف يزيل أثر الماضي الذي ما زال يلاحقه؟!" ثم زفر وقال:

"كم أود لو كنت بلا ماضٍ، ألا أكون أحدًا غيري، أن أبدأ وحدي من الصفر في موطن المجهول!".

عاد إلى بيته وهو يحاول أن يتغلب على كآبته بسماع الأغاني لكنه لم يستطع فكتب على صفحته:

"يجب علينا أن نحزن بصدق، أن نمنح الحزن قيمته، أن نحزن من قلوبنا، أن نحزن بضمير ونتذوق اللحظة"، ثم نام طويلًا..

بعد أيامٍ ضربه شيء من الملل فذهب إلى القهوة لأنه يعلم أن لا حلَّ سوى الناس والزحام فذهب وجلس في مكانه مولِّـيًـا ظهره إلى الناسِ وإلى الشارعِ ناظرًا إلى النيل، وكانت مياه النيل ساكنة يعلوها ضباب كثيف يرتفع ببطء، فكأنه يرى النيل عملاقًا راقدًا لا يتحرك. يحب هذه

التحولات حيث تذوب اللحظة في اللحظة التي تليها بل إنها تعلن عن الانتهاء بصراحة.

مضى يراقب النهر ويغبطه على نعمة الخلود، الأصلُ عظيم والحاضر مؤسفٌ، يلعن الأيام والأشياء التي قُدِّر لها أن تنتهي، لكنه يعلم أن كل شيء إلى زوال، الحب والناس والحياة... حتى الثورة التي يعيش على صداها إلى زوال!

الدنيا كلها تسير عكس الحقيقة، وما أصعبها الحقيقة! وما أصعب قتلها! لكنه لا يملك حيلة سوى السعي وذلك أنه رغم الهزات العنيفة يقف على أرض صلبة ويعرف طريقه، كما أن الحياة خليقة بأن تعاش، فِلمٌ جميل لكنه لا يعاد، وما الحزن سوى رفيق يدفعنا إلى الأمام لنكمل الطريق رغم ما يحيط بنا من ألم.

يرفض أن يستسلم لظلم الحياة، فتسربت نشوة لذيذة إلى روحه التي يحبها ويعرفها، روحه التي تحب الحياة والناس، التواقة دائمًا إلى رسم المتعة، التي دعته مجددًا إلى أن يعطي، يعطي الناس بعضًا من مشاعره وقلبه، يستمد منهم مرحه ورضاه...

كان عليه أن يدرك قيمة البَدَهيات المحيطة كقيمة المال والسلطة والكذب، فلا قيمة للحرية بين شعب لا يأكل، أكبر آماله ليلة حمراء ساخنة، كان عليه أن يكتشف حجم ضآلة قضيته في هذا الكون الفسيح ومدى تفاهته أمام هذه الحياة، ولكنه لكي يدرك قدرة الحرب يجب أن يخوض حروبًا صغيرة ليتمرس، حروبًا بينه وبين نفسه وبين الآخرين وبين الله (دون أن يفقد رجاءه فيه).

كان يفعل ذلك كلَّه ويسير في هذه الطريق دونما دراسة، فقد باتت اللحظة ملهمته.

أدرك أن خطة النظام السابق وأصحاب رؤوس الأموال (وهؤلاء من مصلحتهم أن يظل الجميع جاهلًا) ليست عسيرة على الاستيعاب ولا عصية على الإدراك، لكن الناس مُلهَون في لقمة العيش، بينما الكبار يوجهون ضربات خفية لجميع الجهات الحية، الحلم والروح والحقيقة، لم يتركوا ذراعًا للثورة إلا حاولوا قطعه، التلفاز والشارع والإنترنت... حتى النفوس.

وأكثر الجوانب ألمًا هي الروح المصرية التي لم تعد تعي شيئًا، الذات التي يتسرب إليها إحساس بأنها دُمْيَة يحركها مجهول، فِكَرٌ يائسة تولد عدمية تدعو إلى الزلة والعزوف عن الأحلام، لكن شعور الثورة والتمرد والبحث عن الحقيقة ما زال ينبض ويرفض الخمود إلى الأبد.

لم يفكر كثيرًا، إنما هب واقفًا وعزم على زيارة أحد المسنين يقضي معه بضع دقائق، دقائق يبعد فيها عن شرنقته ويدخل في دائرة أكثر بؤسًا، فذهب إلى عم محسن، عجوز يعيش وحيدًا، يحمل بين ضلوعه قائمة طويلة من أمراض عضال، لكنه دائمًا يضحك ويدخن الشيشة دون انقطاع، يحب ناي ويحبه ناي؛ فما إن تطأ قدماه عتبة بيته تنتابه حالة من الشجن الإنساني الرقيق الذي يتلاشى بسخرية الرجل من الدنيا وأقدارها.

قابله عم محسن بالضحك والمزاح لأنه تأخر عن زيارته فتلعثم ناي خجلًا، ثم دعاه إلى أن يخرجا ليدخنا الشيشة في القهوة ويلعبا "عشرة طاولة".

جلسا إلى المنضدة متجاورين، يحكي عم محسن قصصه التي لا تنضب، وتتخللها مربعات فُلكُلورية، قطع من سيرة أبو زيد الهلالي التي يحبها منه ناي، حتى إنه يطلب منه أن يعيد مربعة بعينها، فهي تضحكه وتشجيه كثيرًا وتروي ظمأ روحه التي تود لو أثبتت للناس ما سِرُّ السعادة.

بيت الكرم محترم ولو بدور واحد
بيت البخيل لو فدان ما يساع ولا واحد

أُعِدَّت الشيشة وأخذ منها العمُّ أنفاسًا عميقة متتالية وهو لا يكف عن الكلام عن نظام حياته الذي عاشه، نظام متماسك معقد يولد راحة واستقرارًا.

"كنت جزءًا من جيل أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات الذي أنجب حركة طلابية عظيمة، كنا أول من صاح بصرخة (لا) المدوية ضد منطق الرأسمالية المعاصرة التي التهمت أي مثاليات متبقية من فترة ما بعد النكسة، كانت مثل انفجار الحمى والبلد يقف في نقطة تحول حاسمة اسمها الانفتاح الاقتصادي.

وهأنذا قد ابتلعتني الموجة وصرت أستمع إلى موسيقى الجاز وأملك سيارة، كنت أعيش حياة شخص آخر لا حياتي التي تمنيتها، كم من هذا الشخص الذي تقمصته يمثلني؟! لكن كم منه لا يمت لي بصلة؟! أمسيت تعيسًا رغم الترف لكني لم أتذمر، وكلما فكرت في حالي وحال البلد أكثر بدا فهمي أقلّ"، ثم صمت فجأة...

أنهى كوب الزنجبيل ثم وضعه فوق المنضدة وحدق بناي طويلًا..
بدا مثارًا، أكثر من مجرد مرتبك، غير أن شيئًا آخر كان في تعبير وجهه حيث نظر إلى أعلى لحظة ثم نظر بعيدًا إلى النهر كأنه يراقب سيلًا دافقًا من مد وجزر، ثم عاود الكلام أخيرًا.

"لا يمكنني تفسير ذلك، أن يبيع شخص رُوحه من أجل المال، لا أريد أن تسألني أكثر؛ ينبغي أن ترى ذلك بأم

عينيك لتفهم، من لم يدرك ذلك حقًّـا لا يمكنه أن يفهم شيئًـا"، ثم أنهى كلامه وقد همَّ واقفًـا:

"لقد كسبت المال وخسرت نفسي، لا تخطئ مثلي"

أجلسه ناي وطلب له حجرًا من المعسل فهدأ الرجل وأكمل في تريث:

"صرت أبحث عن الغربة، لم أعد أكترث، إنما هي حالة من الذهول واللامبالاة نحو الذات والأشياء، شعور ملح بعدمية الأشياء والذات والله، فقدت سلامي الداخلي وإيماني بكل المسلمات، لقد ابيضت الحياة في عيني وأصبحت مثل كوب اللبن الذي لا ترى من خلفه شيئًـا؛ فأنا أفقد الرغبة سريعًا في رؤية أي شيء.

في الظلام عادة ما نبحث عن طاقة نور تأتي من الطريق الممتدة البعيدة، أما أنا فلم أبحث إلا عن الدمار الشامل والسقوط المَهِين والخَسَارة الفادحة التي تعيد الأمور إلى طبيعتها، لأن رجلًا مثلي باع روحه لا بد أن يتألم.

طبيعة الإنسان هي الحياة أما طبيعتي التي تغريني الآن فهي الموت، فلا يستحق الموتَ إلا رجلٌ باع ضميره وحلمه، أرى أن لا سبيل إلى الراحة الأبدية سوى الموت، لأن الحياة لبشر مثلي تعني العذاب، قضيت أيامي أتاجر في كل شيء إنساني، حتى أجساد البنات البكر لم أرحمها! هل تشم رائحة أجسادهن بين ضلوعي؟! فساد وجنس ورذيلة...
الآن أنا أدعو الموت وهو لا يلبي النداء.

أتدري ما الأصعب من هذا كله؟ أني حاولت أن أكذب على نفسي لكن روحي لم تصدق؛ أصعب كذبة هي تلك التي نكذبها على أنفسنا!".
...

انهمرت دموع هذا العجوز الصعيدي الذي يتحدث لهجةً قاهريةً متقنة؛ أخذ ناي يهدئ من روعه ثم دعاه إلى زيارة مريض آخر يسحبه من نفسه ومن أحزانه.

جلسا أمام المريض متوقف الأطراف، بحيث لا يتحرك شيءٌ فيه سوى عينيه، فمرَّت لحظات من الصمت المكتوم، وكان أزيز المِروحة يدوي على الحائط في رتابة وفتور.. الحياة متوقفة مريضة راقدة مثل الرجل المسجى على الفراش يحملق بعينيه في اللا شيء، شعر عم محسن بكآبة حتى إنه أحس أنفاسه تنسحب منه فقرر تَرْك الغرفة مسرعًا وقال إنه لن يعاود هذه الزيارة خوفًا من الخوف!

أما أنا فأحسد ذاك المريض من شغاف قلبي على هذه الراحة وهذا الفناء؛ إنه الآن لم يعد يعبأ بأي شيء حتى الشفاء!

قال ناي:

"أن تحيا بلا أمل هو أن تكف عن الحياة، ونحن لا نستطيع أن نعيش بغير أمل رغم كل ذاك البؤس، فلا تبالغ؛ لقد جمعتني بك الصدفة كي أعيد إليك الحياة التي تؤرقك"، فقال له عم محسن وهو يربت ظهره:

"المحبة هي الشيء الوحيد الذي يزداد عندما نوزعه".

عندما ودع ناي عم محسن مضى إلى الدكان في هدوء، سحبته الحياة العملية شيئًا فشيئًـا لتلهيه عن نفسه وعن أفكاره، لكنه يعود يتذكر أن خدمة الناس صارت من طقوسه اليومية، فعندما يغلق الدكان يذهب إلى أحدهم ولكلٍّ منهم قصته.

كان يأخذ والدته معه أحيانًـا ويأخذ إبراهيم في أحيان أخرى، لكنَّ عم محسن تحديدًا أيقظ بداخله مشاعره

المؤجلة، بَدَا نفيرًا يعلو في رأسه فيلتهم كل تركيز اختزله في عقله.

بـلُـوثَـةٍ ومـلـل مضى يتلفت حوله ويرفع رأسه نحو الشرفات يُحاوِلُ أن يبتسم، فكأنما يود لو حكى شيئًـا ما لأحدهم؛ ثم أحس كم هو وحيد من دون جميلة.. فأوى إلى غرفته وكتب على صفحته:

"لقد بلغت من العمر منتصفه وجربت كل شيء إلا واحدًا، لعله يبدو الأمتع بالنسبة إليَّ لأنني لن أحكي متعته بعد أن أبلُغَـه، فسوف يبقى سره طي النسيان، إنها لحظة النشوة القصوى والخطوة الأولى نحو الأبدية...

الموت.

...

هذه هي لحظات اليأس القليلة التي تعاود وتضرب باطنه فيتمنى لحظتها إنهاء الرحلة سريعًا من شدة الإزعاج، يرى العمر كتابًـا تتكرر صفحاته في رتابة ولا جديد تحت الشمس، فما فحوى الحياة إذن سوى الكبد والمشقة؟! إذا كانت الخليقة كلها تئنُّ فلماذا خلق الله البشر؟! هل ليعذبهم أم أنَّ ثَمَّ مقصدًا آخر أعلى من إدراكاتنا؟! ولماذا لم ندركه إن كان يخصنا نحن؟!

أنا الآن الشخص الذي أرفض أن أكونه، في وَحدةٍ تامَّـة، وحدة في كون مكتظٍّ بملايين الأرواح".

وما إن أراح ظهره على السرير غاب عن نفسه مجددًا، راح يجمع كنوز الكون المطوية في قلبه، يتوق إلى نكران الحياة والإجحاف عنها، يقف على حافة التصوف وتتوق نفسه أيضًا إلى أن تغوص في دنيا الله، ثم قال لنفسه:

"كلَّا! لن أندم على ما مررت به، فقد منحت كل مرحلة نورها، أنا حيٌّ لكي أحيا، ونحن -البشر- جئنـا فرادى وسنرحل عنها فرادى، فعلامَ كل هذا الخوف والتفكير وبين

أيدينا اللحظة التي لن تعود؟! الحياة مليئة بالحزن والبؤس والمصائب، لكن لا سبيل لنا سوى الأمل والثقة بقدرة العبث، والبحث عن سر السعادة"، فهَـبَّ يكتب على صفحته مجددًا:

"أنت في حرب بينك وبين الواقع الذي ينتظر دائمًـا المهامَّ السهلة والمكاسب القريبة حتى إن تم ذلك بطريقة لا تشبهك؛ فهناك حكمة صوفية تقول:

(قلت: لن أموت قبل أن أعرفك..
قال: من يعرفني لا يموت)

قد يكون السبب الوحيد الذي يمنعنا من الاستسلام في هذه الحرب هو أن نعرف أنفسنا، نعرف الطريق والطريقة والحق والحقيقة، نعرف أن كل ما نتمناه سوف يحدث بعد كد وصبر وصلاة، لأن الحقيقة -كما يقول نجيب محفوظ- سعيٌ لا وصول.

واعلم أن هذه الحربَ أبديةٌ، لكن الحاذق من تمسك بروحه وحُلـمِـه"

مرت لحظات من ذاك الهدوء الذي يتخلل روحه.. رنَّ هاتفه المحمول مظهرًا اسم إبراهيم، دعاه إلى التجوُّل فـفـكَّـر أن يلبي دعوة جسده المتراخي في عدم القَبول لكنَّ عقله ودَّ لو فرغ مخزونه من الأفكار والآلام.

بعد بضع دقائق باتا يتمشيان معًـا في هدأة الليل، الجو بارد قليلًا لكنَّ القمر يتلألأ في كنف السماء وهما ينظران إلى المدينة التي تبدو عظيمةً هادئةً مترامية كأنها خالية من الهموم والقذارة والناس.

سأله إبراهيم وهو ممسِك بهاتفه المحمول بعد فترة صمت وهما يسمعان أغنية "دار الفلك" للشيخ إمام فسأله:

- هل من جديد؟

- الوحدة ماثلة أمامي كأنها وحش يتربص بي.

- أنت مؤمن ولا خوف على مؤمن. هكذا قال إبراهيم فأطرق ناي ولم ينبس.

سأله إبراهيم مجددًا ليدفعه إلى الكلام:
- أمازال الحب يؤرِّقك؟

- إني أفتقدها كثيرًا لكن ليس الحب ما يؤرقني بل الحياة بأسرها.

- لكنَّ الحياةَ لا تتوقف عند الحب!

- الحقيقة أن الحب في جوهره لا يتوقف على الحب العاطفي، الحب يشمل كل ما يمكن أن تحب، لكني أشعر كأني طفل ضائع عن حِضن أمه.

- إنما هذه أوهامُ ما بعد الحب، وأنت بطريقتك هذه سوف تموت حيًّـا.

- فليذهب العمر فداءً للحب!

امتعض إبراهيم مما وصل إليه صديقه بعد استقرارٍ فنهره قائلًا:
- محض هراء، وهل تزوج والداك عن حب؟ إن الحياة تسير بحب أو دون حب..

- الحياة تسير لأنها حياة، وليس من شعور أقوى من الحب إلا الألم.

- لكنَّ تَكرار الألم سيدفعك دفعًا إلى الملل، إلى أن تخرُج بروحك وتنتصر على ضعفك.

- أنت مُحِق، لكنها تسير أفضل في وجود الحب، فالله لم يخلق بداخلنا شيئًـا هباءً حتى ضعفنا.

- نعم، لكنَّ الله لم يخلقنا لنكون عبيدًا لغيره، والحب في حالتك عبودية ومذلة لشيءٍ لم يعد هنا، أأنت، من آمنت بالثورة وتعلمني كيف أومن بها وبنفسي، تسقط الآن ذليلًا أمام امرأة لم تعد موجودة؟!
إنَّ الحب إن زاد على حده انقلب إلى ضدِّه.

قال ناي متنهدًا:
- المرأة لم تعد موجودة، نعم فقد تركتني وتخلصت منها في داخلي، لكني لم أتخلص من الحب؛ الحب دليلك على أنك تعيش، ولكنَّ الأهم الآن أن نسأل: "أين أنا من الحب والحلم؟".

أكد إبراهيم قولَه:
- لو أحبَّـتـك ما تركتك، إنها خائنة بلا جدال، والخائن يستباح قتله.

امتعض وجه ناي الذي راح يفكر في عقل صديقه كأنه يقول في نفسه: "إنه ساذج يسيء الظن بالبشر، دأبه التنقيب وراء كل فعل حسن حتى يعثر له على تفسير قبيح!"، وعلى الرغم من أنه كاد يميل إلى تصديقه فقد قال:
- جميلة كانت تفوق الملائكة، لكنها اختارت العقل.

ضحك إبراهيم ضِحكة استهزاء ثم قال:
- لم أعرف في حياتي ملاكًـا خائنًـا سوى إبليس!

- ليست خائنة، لكنها أقبلت على تضحية أليمة، كما أننا لا نعلم ما الذي دفعها إلى ذلك.

- لا قلب لمن يسيرون على هدى العقل.
قالها ثم غاب في لحظة صمت وراح يرهف السمع إلى الأغنية التي تُشـنِّـف آذان الصديقين.

صَمَت ناي الذي نزلت به كآبة قاتمة لكنه استراح إلى قول صديقه الذي أصاب الحقيقة، لقد اهتزت جميلة أمام سلطان العقل.
لكن إبراهيم أراد أن يغير مجرى الكلام فقال:
- لقد أثار كلامُك على الفيس بوك غبار الغَيرة عند كثيرين لكنه كلام في الصميم.

لكن ناي بدا أنه نسي ما كتب فسأله:
- أيَّ كلامٍ تقصد؟

أخرج إبراهيم هاتفه وراح يقرأ:

"يقشعر بدني من أجل الوطن عندما أتذكر أن الله هو العدل وأن عدله لا ينام".

ابتسم ناي أخيرًا، هذه مقولة لتوماس جيفرسون، يقصد فيها أنه إذا سكت الناس على ظلم الحكام فالله لم ولن يسكت، فطمأن إبراهيم علامة على الفهم ثم صمتا وانبرى كلٌّ يفكر في أمره.

قال ناي بعد تفكير:

"أتعلم ما سر تخلفنا؟ الجنس، غريزة الحب تنهش في داخلنا فتشغل تفكيرنا عن أي نشاط إنساني آخر، على عكس المواطن الأوروبي الذي يشبع غريزته منذ الصغر، يفرغ منها وينتبه إلى أمور أخرى مثل الفن والرياضة

والموسيقى، لكننا هنا نصطدم بالحلال والحرام وبصعوبة الحياة التي تؤخر سن الزواج فيعيش المصري على أمل مشروع واحد هو الزواج على الرغم من أن قيمة المرء أعظم من يأتي ليتزوج ثم يغادر، وأن قيمة المرأة أجلُّ من جمالها".

مرَّا بمحل حلاقة عم ناجي، كان صوت الكاسيت يغني عاليًـا في سكون الليل، صوت أم كلثوم الذي ينساب في وقار وهي تقول:

هذه الدنيا كتابٌ أنت فيه الفِكَـرُ
هذه الدنيا ليالٍ أنت فيها العُمُـرُ

آلمته هذه الجملة لكنه راح يدندن معها بعدما ألقى السلام على الجالسين ومضيا لا ينويان شيئًـا.

بلغا القهوة التي بدت فارغة إلا من ثلة قليلة يلعبون الطاولة في هدوء، قعدا في أماكنهما وطلبا كوبين من الشاي وطاولة، أخذا يلعبان في هدوء وانسجام، يلفهما طيفٌ يُضفِيه النرد على المقامرين يغَيِّبـهم عمَّا حولهم إلى أن تساءل إبراهيم:
- هل الإنسان حرٌّ حقًّـا؟

- وهل تعرف أنت ما الحرية؟

- نعم، الحرية أن أفعل ما أشاء وقتما أشاء، أن اقول كلمة حق في وجه سلطان جائر.

- أهذه هي الحرية في رأيك؟!

مَـطَّ إبراهيم شفتيه ممتعضًا ثم قال بدوره:
- إذن أخبرني ما الحرية!

رد ناي مشدوهًا بمشاعرَ تهف من روحه تحمل بين ظهرانيها نسيمًا معبقًا برائحة إلهية فقال متأملاً
-لا أعرف.

ثم أخرج نفسًا عميقًا كعاشق على وشك أن يحكي عن حبه المكتوم، ثم قال:

"إن الحرية والحب والموت حقائق لا يمكن وصفها، جميعنا يعرف الموت لكن أحدًا لا يمكنه أن يصِفَه، إنما هي لحظات تخص كل إنسان وحده، الحرية مفهومٌ يخرج من الداخل، يُطبَخ في القلوب، الحرية هي انطلاق الرُّوح التي لا يمنحها لك أحد ولا تأخذها أنت من أحد، إنما هي منك وإليك، تساعدنا الحرية على التعامل مع حياتنا البائسة بقلب راضٍ متقبل عندما نرى وجه الحياة القبيح يبتسم.

هي نفحة إلهية إلى قلبك الذي ينبض حياة، أن تدرك بمحدودية قلبك أمام لا محدوديةِ الخالق، وتعلم أنك تنعم في إعجاز اسمه مشيئة الخالق المحب.

الحرية ألا تقف على الحياد، أن تعلم أين أنت من الحياة بإرادتك، لكن أن تعبِّر عن رأيك وقتما شئت فليس هذا حرية، إنما هي علامات يستدل منها على القيمة العليا للحرية، مثل القطرات التي تدلل على ظاهرة اسمها المطر، والشعاع الذي يدلل على نجم بعيد اسمه الشمس...

الحرية هي البراح الذي ينفتح في أرواحنا فيجعلها تسع الحياة وما عليها، الحرية تحررك من شهوة الطمع والامتلاك".

وبينما هو يتكلم رمق إبراهيم بنظرة عابرة فرآه فاغرًا فاه، تترقرق عيناه بابتسامة تنم عن معانٍ كثيرة.

- مِن أين لك بكل هذا النور الذي يتدفق من لسانك؟

فأجاب ناي وهو يلقي بحجر النرد ضاحكًا:
-لا أدري، إنما هو نور ينبع من الداخل مثل حبي وحريتى.

لكنَّ مسحة تفكير عبرت رأسه فغام وجهه وغابت ابتسامته خلف سحابة مجهولة عندما تذكر نفسه منذ عام، كيف كان وكيف صار، فقال لنفسه:

"أين أنت من الأيام الخالية؟ عندما غُصـت في بحر الحب وصفوك بالمجنون لكثرة اختلافك عنهم، وحينما عرضت نفسك على طبيب نفسي أخبرك أنك لست متوافقًـا مع المجتمع، وأنك تسير على طريقك الصحيحة فلا تستسلم، فلولا اختلافك لأصحبت متوافقًا عاديًّـا كسائر البشر، تسير مع القطيع موافقًا أو غير موافق .لا تصمت فالصمت في المجتمعات التي تريد التغيير خِيانة".

لكنه ليس إلا مريضًا يتمنى الشفاء، ثم زفر نفسًا قويًّـا وتأوَّه في صمت، شعر بالخجل والخوف من أن يقرأ إبراهيم على وجهه هذه الحقائق المكتومة، إبراهيم الذي يتخذ ناي مثلًا أعلى وملاذًا وحِكمةً، إلى أن سمع إبراهيمَ وهو يصرخ ساخرًا:

"هذا رابع (دش) يأتي إليك على التوالي!"، ثم قهقها معًا واندمجا في اللعب مجددًا.

كان الليل قد أوغل في الظلام وهو راقد على سريره على سطح المنزل مختليًا بروحه، يرهف السمع لصوت الليل والسكون، لحظات تبلغ فيها الروح لذةً مجانية، لذةً مِدادها البساطة والهدوء بحيث لا صخب ولا أضواء، لا شيء سوى الليل والقمر وكتب قديمة على كنبة يغطيها كِلِيم مهترئ.

وهديل الحمام الذي يأتي من العُش علي يسار السرير، والأهم نسمات الخريف الخفيفة المرهفة التي تجعل القلب يخفق براحة عميقة، يزين هذه اللحظة نجيب محفوظ الذي يقفز إلى الأذهان مؤذنًا بالآيات التي تمجد عمقَ الحياة وضياعَها وفتورَها والحربَ بين الألم والأمل وفي الوقت ذاته ينساب صوت البابا شنودة وهو يحاور الله ويتأمل انطلاق الروح.

أرهف السمع لخطوات والدته التي تصعد السلم ببطء، ثم قعدت على سريرها وبعد ذلك قعدت جواره؛ ربتت كتفه وسألته:

ماذا بك؟ أنت غائب عني دائمًا!"، تنهدت بأنفاس متقطعة ثم أشارت بعينها لتحثه على الكلام، ثم ربتت رأسه قائلة:

"ليس كل الأمر متعلقًـا بسجنك، إن هناك جرحًا أعمَق وأنا أرى أثره في عينيك"، انتفض ناي كمن ينثر الكلام على كتفه فقال:
- ليس هناك جرح آخِر ولا أوَّل؛ السياسة طريق محفوفة بالمخاطر وأنا لم أكن أعلم ذلك والآن أتعلم.

- وماذا عن الحب؟

أُسقِط ناي مجددًا في يدها، للمرة الثانية تفاتحه في الموضوع نفسه، تردد كثيرًا قبل أن يرفع عينيه لتلتقي عينَها لكنه لم يجد بدًّا من الصمت فقال في تلعثم جاهَدَ كثيرًا على أن يخفيه:
- أي حب؟

- الحب الذي يشغل بالك ويقلق رأسك.

ثم نظرت في عينيه مليًّـا وقالت:

- ألم تعلمك الكتب أن نظرات الأم تفحص القلب؟ ثم أكملت: "أنا أمُّـك، لا تخجل مني، أنا أدرَى مِنك بعقول النساء".

لم يسكن ناي إلى هذا الكلام وإنما شعر بثقل يجثم على قلبه، لكن الجرأة لم تواتِهِ بأن يفضي إليها بمكنونه فـلَـوَّح ذراعه ممتعضًا.

"في طفولتك عايروني بك، قالوا لن تقوى على تربيته، حاولت أن أعمل بجانب الدكان فكانوا يجرحونني بكلامهم، يقولون: "نحن لا نريد منك شيئًا، لكننا سنشتري لأنكِ أرملة ولديكِ يتيم"، لكنك الآن جئت تعوضني عن كل ذلك، فأنا عندما أسمع كلام الناس عنك يرتاح قلبي وأشعر بأني أدَّيت الرسالة، أرى الناس يلتفون حولك ويأخذون منك المشورة فأفرح لذلك وأسعد".

ثم أخذت الأم تحكي له عما نفع به البلد وما أضافه إليه من بهجة وخدمة وإقبال على القراءة ومن أقوال الناس عنه كذلك.

ندم على الأيام التي قضاها بعيدًا عنها وشعر بأنها كنز كان يجب أن يستمتع به، إلى أن لملمت الأم شملها وهمت بالانصراف وهي تضحك في داخلها من طفلها الذي شب وصار يتخبط في أمواج الغرام العاتية فقالت له وهي تتأهب للنوم:

"كلَّمَتْني، أوصتني بأن أعتني بك"

نظر إليها في غير تصديق لكنه لم يعقب...

"إن أحبتك حقًّـا فسوف تعود، لا تقلق؛ أنت أهل للحب كما أن النساء يحببن من يهملهن"، ثم تركته مع هواجسه ونامت.

وفي اليوم التالي كانت القيلولة موشكة على الغروب، يقترب الأصيل في الأفق، إنها ساعة فتح الدكان، لا يزال مستلقيًا في فراشه محاولًا أن يفيق بعدما أيقظته والدته، ورغم حرارة الجو كان الهواء يعصف قويًّا في عصر ذلك اليوم، كان هواءً رقيقًا في نهار متلظِّي، لم يذهب ناي إلى الدكان وإنما ذهب إلى القهوة ليقرأ في رواية "زهرة الليمون" لعلاء الديب.

جلس وحيدًا ذلك اليوم، بدأ الهواء يهبُّ كثيفًا فتطايرت الأوراق حتى إن كوب القهوة قد برد سريعًا، تساقطت على رأسه بذور شجرة الصفصاف التي يجلس تحتها، ثم نهض وأخذ هاتفه المحمول وأوصله بسماعة كبيرة في داخل القهوة وأدار الموسيقى التي بعثت صوت ياسين التهامي الذي يحثك على الانتشاء حثًّا:

إن كان عمرنا فيه بعض بقية
فاجعلها في طهر وليس عيوب

أخذ سمير (ماسح الأحذية) يتمايل على صوت ياسين التهامي الذي يعد رمزًا للغناء الصوفي في الصعيد، نبرة صعيدية واثقة تغني أشعار الحلّاج وجلال الدين الرومي والإمام الشافعي في وقار يضفي عليها خلودًا قائمًا من عُمق اللحظة وعُمق الشعور بالكلمة وقائلها وسامعها.

حضر جلساتٍ كثيرةً لياسين التهامي، رآه رأي العين ولم يكن يتصور أن في الصعيد هذا العدد من الصوفيين ولا أن هناك مثل هذه الطرق، فقد اكتشفها مصادفةً وهو يتمشى ذات غروب، حيث سمع غناءهم يصدر من مدخل عمارة فشعر كأنه يحثه على الدخول، ولم يستطع أن يمنع نفسه من ذلك رغم عدم معرفته بالطريقة ولا بأهلها، لكنه دلف إلى الداخل وامتزج سريعًا بينهم.

إن الصوفية مثلها مثل الرهبنة، وهو يكنُّ عشقًـا لذلك الاتجاه الذي يعد أنشودة الزهد في ظل حقارة زماننا المادِّيِّ على الرغم من يقينه بأنه لم يعد هناك متصوفة حقيقيون زهاد عاشقون رغم وجود الصوفية.

تساءل:

"هل أدركتُ كل زوايا العشق بمجرد رحلة ألم في الحب؟! أهو العقل أم القلب أم الروح؟"

لا يزال التهامي يصدح والهواء النقي يهب في هدوء، وما زال ماسح الأحذية يتمايل على وقع الأنغام في حين يرشف هو من كوب الزنجبيل الذي طلبه له أحد الجالسين، يرشف في تلذذ ونشوة ويشكر للَّحظة.

أحسَّ روحه خفيفة خفاقة، صار الجوُّ مُفعَمًـا ببرودة خفيفة يحملها نسيم واهن تستلذ به الروح، جعل يقرأ منتشيًـا بصورة غريبة، فتَّـش عن سر المرح فلم يعثر عليه، لعله الجوُّ المحيط وتأثيره الحيوي في الجالسين، أو رائحة المسك التي عطرته بها والدته قبل نزوله، لعلها الرُّوحُ الصوفية التي تضيء من بين السطور التي يقرؤها، وهو يحب علاء الديب؛ يعشق حزنه الهادئ.

ما إن فرغ من كوب الزنجبيل أحضر هاتفه وحمل كتابه وترجَّـل قليلًا حتى وصل إلى منطقة نائية عن الأنظار مطلة على النيل، غسل وجهه وقدميه كعادته ثم قعد وأدار هاتفه المحمول فانساب منه صوت أمل دنقل يغرد بقصيدة "الطيور" حيث يشبه أمل نفسه بالطيور الشاردة في السماوات.

ازدادت سعادته فـوَدَّ لو رقص، يريد أن يقرع طبول السعادة ليشاركه جميع الناس في سعادته، هذا الإحساس الذي كثيرًا ما نغَّـص عليه فرحته من قبل، لأنه في قلب

اللحظة يتمنى لو شاركه الناس تلك السعادة الخفية التي يسرقها خلسة من بين أصابع الحياة، لكن الناس ليسوا في رغدٍ ورفاهيةٍ إلى هذا الحد، وحدها جميلة التي كانت تتذوق معه كل لحظة في نهم طعم النشوة.

رفع رأسه إلى السماء التي لا تزال مضيئة بشمس الغروب، أخذ يراقبها وهي تتلون وردية فاتحة بعيدًا في الأفق، جال بخاطره أمور شتى تخص الحياة وكنوزها، فهو يحسب نفسه أدرك الحقيقة لكن في الأصل لا توجد حقيقة وافية تجاه تعريف ماهية الحياة نفسها، ففي النهاية لن نبلغ جوهر الحقيقة مهما حاولنا إقناع أنفسنا بذلك.

الحياة تسير كيفما تشاء هي لا كما نشاء نحن، أو في أصدق الحالات كيفما تتفق اللحظة مع القدر، فالحياة تسير عشوائية دون تخطيط، تضع لك السؤال ذاته، فتبقى الأسئلة ملقاة في الأذهان.. لكن المهم أن نكتشف الجواب المريح الذي يجعلنا في مجمل الأمر نشعر بالرضا لنستكمل الرحلة، إذ لا جواب بلا سؤال

في النهاية جميعنا سننتهي في نفس المكان، سواء كان هذا المكان في الجنة أو العدم، وإن أصدق وأجمل إجابة لم يجدْها الناس بعد، يجب على الناس أن يتهيؤوا لقبول فكرة أن المُنتهَى لم يحِن بعد، أن البدايات تصنع المعجزات.

الحياة نفسها (دون وضع تصورات عن النهايات) ذاتُ معنًـى وينبغي أن تعاش، لكن في الأخير كل ما يمكن فهمه أن الحياة ستزول والكون سيتلاشى وكل الأعمال العظيمة ستصير بلا معنًى في يوم من الأيام، فالأثر الحقيقي قد تصنعه بعد موتك، ولا يظفر الإنسان بعد مماته بغير السيرة العطرة، فقط حاول بدلًا من الجلوس والتأمل ومخاطبة الله.

إننا نعيش في الخيال لنبتعد قدر الإمكان عن مواجهة طبائع الدنيا، العالم لا يمكن احتماله لكنه سيظل عالمًا مأهولًا بالبشر مهما بلغت قسوته، فمن الأسلم أن نراه ما دامت في قلوبنا حياة تفنى، أن ننسلخ عنه لنلبس ثوب الحب.

اكتملت أوجه السعادة مثلما بدأت، لا يدري من أين وكيف.. لكنَّه رفض أن يفيق من سكرته ويلج بروحه في نار الفكر المتقدة المستعرة ومحاولة تفسير سر الأسرار، محاولة فهم السعادة النابعة من قلب العدم! نحَّى الفلسفة قليلًا ومضى يزيد من موجات السعادة المتدفقة في روحه التواقة دائمًا إلى هذا النوع الإلهيِّ من المشاعر، أغمض عينيه وهو يحاول كبح جماح روحه التي ترغب في الركض والصراخ من فرط السعادة!

بينما هو يفكر ويستنشق شذا العطر القادم مع الريح الهابَّة من النهر، رأى هدهدًا يعارك فأرًا فـسَـكَـن كي لا يزعجهما في أثناء ممارسة هواية البقاء، ابتسم ابتسامة رقيقة رِقَّة ضباب الصباح، ثم دوَّن في مذكرته:

"إن السعادة في الوحدة
وإن الوحدة هي الأمان القويم".

اعتاد الناس جلوسَه في القهوة ساعة العصر سواء صيفًا أو شتاءً، حتى الشبان الذين يستعيرون منه الكتب صاروا يجالسونه هناك، فلم يكن يبخل على أحدهم بكتاب أو جلسة أو كلمة لأنه يرى أن هذا واجبُهُ الوطني، أن يقرأ الجميع ويعي، فنحن شعب لا يقرأ، ولا تغيير من دون عقول تقرأ.

إن أكبر مشكلاتنا نحن -المصريين- أننا في وضعنا الحاليِّ بلا مرجعية فلسفية أو أدبية، فائدة هذه المرجعية الفلسفية أنها ترسم إطارًا يتحرك فيه المجتمع، ماذا نريد؟

ما الذي ينقصنا؟ كيف نحصل عليه؟ نتحرك في أي اتجاه؟ نختار هذا الاتجاه على أي أساس؟ ما قدراتنا؟ من الذي يحكم اختياراتنا نحن البشر؟ كيف تتكون مبادئنا؟ والأهم من ذلك كله.. من نحن؟!

أما نحن -المصريين- فعندما تنظر إلينا وأنت تسير في الشارع، تكتشف أن أغلب الفلسفات التي تحكمنا مضرة إن لم تكن مدمرة، فلسفة البقاء للأصيع والأكثر انحرافًـا وفسادًا! الأنانية والفهلوة وانعدام الأخلاق التي تسود الشارع المصري، القانون الذي ابتدعه الإنسان لتأسيس دولة الحق والعدل أصبح وسيلة نلتف حولها لنكسب مكاسب غير شرعية في صورة قانونية، حتى الأخلاق اصبحت وسيلة للوصول وتصدر المشهد وجني المصالح المادية.

ثَمَّـة شعوب تقدس العمل والأخلاق، أمَّـا نحن فإن فلسفتنا تقديس الفهلوة! لذلك من المؤكد أن تصبح النتيجة تلك المسخرة الحاصلة في الشوارع والبيت والمدرسة والمستشفى والملعب، حتى الكنيسة والجامع، كل هذا نِتَاج الفهلوة!

ذات أصيل جاءه طالب جامعيّ، أحد متابعيه على فيس بوك، دائم الإعجاب بما ينشر وكانا قد تقابلا مرات محدودة، جلس الشاب وأبدى اعجابه بهذا الجو الرُّوحانيِّ الذي يضع ناي نفسه فيه، ويغبطـه على هذا المِزاج في مدينة ليس بها إلا الملل، جاءه يسأل عن حقيقة الله، أهو حقيقة أم مجرد أسطورة من صنع ابن آدم ليلوذ بها جُزافًـا يوم يشعر بأنه مجرد وُريقة شجر يابسة في مهب الريح؟!

يرى ناي النِّيـلَ من مجلسه وقد بدا رماديًّـا في هذا اليوم، تهب على سطحه نسمة خفيفة تحرك الماء الساكن فتلمس وجه ناي لتنعشـه، وعلى المدى يظهر مركب صغير يحركه صياد يضرب الماء بعصاه ليفزع السمك فيفرُّ

هاربًـا ليدخل إلى الشبكة، وعلى مقربة يرى الهدهد نفسه الذي اعتاد رؤيته.

في حقيقة الأمر لا يبدو المكان جميلًا إلا لِـنَـاي، فالنهر يجري بائسًـا، سطحه يعكس حلول النهار وتألق النجوم، كان النهر في المدينة زاهيًا فيما مضى، وكانوا صغارًا يغتسلون في مائه، إذ إنهم يشعرون بلسعة الماء فكأنها لسعة من فِردَوس.

لكنه الآن مهجور، قد لحق به ما لحق بالمدينة كلها، ترقد على حافته القُمامة والفئران والقطط والكلاب النافقة، لكن ناي اختص هذه البقعة التي أمامه ونظفها ورشها بالماء ليرقد ترابها، فهو يرى المنظر جميلًا لأنه يحبه ليس إلا، غير أن ديمومة مجلسه أضفت على المكان جمالًا وسحرًا.

هذا ما شعر به وهو يفكر في سؤال الشاب إلى أن أجاب متأنيـًا وأسبل عينيه كأنه يتبتل، يغزو إيقاعُ صوته أعماقَ الشاب، يتمازج صوته مع انتظام التراتيل وينعقد حوله مزاج رُوحانيٌّ جذاب، أجاب:

"جميل أنك تسأل هذه الأسئلة في مثل سنك، جيد أن تفكر وأن تسأل، نحن هنا في الحياة لنسأل؛ فكل شيء مبهم وكل شيء يحتاج إلى سؤال".

- وماذا عن الأجوبة؟

فردَّ ناي وهو لا يزال على هدوئه:

"تأتينا مصادفةً؛ كلُّ جميلٍ يأتينا مصادفة، كما أن الأجوبة تظل ناقصة لتكتمل في السماء.

لتدع الله يسكنْ قلبك، وسوف تجد الحقيقة دون ذاكرة أو اجتهاد، فالله يعمر القلوب، أما العقول فهي تضجُّ بالأسئلة. لقد حل موعد الحرب!"

- أي حرب؟!

- الحرب على ذاتك القديمة، الحرب على عقلك ليرى محدوديته أمام لامحدودية الله.

ثم نهض ناي وأمسك خرطوم الماء يرشُّ الأرض ليهدأ التراب ويرقد، كما أن رش الماء يرطب الجو.
وعندما انتهى دعاه إلى زيارة أرملة مسنة تعيش وحيدة ولا يزورها أحد غيره، حاول الفتى التملّصَ من الزيارة خجلًا لكنه قبلها على مضض.

وفي طريقهما أكمل ناي كلامه...

"عندما تصير روحك شفافة ترى الله عَبْـرَها، والحقيقة دائمًـا تسكن الأعالي، والظافِرُ من صنع الحقيقة مَعْبَــرًا لا صنمًا يعبده.

يقول المتصوفة إن علينا الاستسلام لإرادة القدر، وليس ذلك ضعفًـا ولا سلبية؛ إنما القوة الرُّوحانية الحقيقية تكمن في الاستسلام والصبر، إنها تنبعث من داخلك بالاستسلام أكثر فأكثر، العالم حولنا فوضويٌّ مضطرب، والعامل الوحيد الذي يضبط أمانه واستقراره هو الاستسلام للجوهر الإلهي في الحياة، لذا فالمؤمنون الحقيقيون يعيشون في سلام دائم وطمأنينة لا تفنى لأنهم يسلمون إرادتهم لإرادة الخالق".

وعندما وصلا إلى بيت المرأة كانت الصاعقة، الخبرالذي أتى على آخر أملٍ للتعلق بالحياة!

إذا بجلبة أمام البيت، يجلس الناس واجمين مُنكَّسـي الرأس، المشهد معتاد عند الموت، بحيث يصطف الرجال في الشارع والنساء يولولن في الداخل، لكن الآن لا يوجد أحد في الداخل، والباب لا يزال مغلقًـا، أدرك ناي موت المرأة لكنه لم يتصور حجم الفاجعة، ماتت المرأة منذ أربعة أيام ولم يدرِ أحد بموتها إلا عند انتشار الرائحة النتنة، لم يجرؤ أحد على الدخول حتى إن المسؤول عن تكفين الموتى ودفنهم لم يحتمل الرائحة!

دلف ناى إلى الداخل بمفرده، وضع على أنفه منديلًا غارقًـا في الكولونيا وحاول أن يقاوم الرائحة.

شَهِـد منظرًا لم يخطر على بال، الجثمان مُسجًّى على السرير وقد تغيرت ملامحه، صارت منتفخةً تغير لونها إلى الأسود والبنفسجي والأزرق الداكن، أرض الغرفة غارقة في سائل خرج من الجسد الذي أوشك أن يتحلل، المنظر لا يُحتمل والرائحة تخترق الأنف وتنفذ إلى الرُّوح، لم يرَ مشهدًا كهذا في حياته ولم يتوقعه، لكنَّ الهول الأكبر بالنسبة إليه أن يرى جسد إنسان ينتهي إلى هذه القذارة!

وقف ناي دقائقَ يتأمل المنظر، أهذا هو الجسد الذي يصارع من أجل الحياة؟ لقد تلخَّـص أمامه الفناء في لحظة، الحياة لا قيمة لها في النهاية! فعلامَ الصراع إذن من أجل الحياةِ إذا كانت النهايةُ جيفةً قذرةً، لماذا الكره والخصام والحياة لحظة؟ لو رأى الإنسان نهايته لأعاد النظر في أفعاله، لكنَّ الإنسان عادةً ما ينسى تلك النهاية وتغلبه فطرة البقاء.

قال لنفسه:

"أنت تاركٌ دنياك صفرًا، فلا تحمل كاهلك بأرقام ليست ذات جدوى، فرِّغ روحك من أعباء الحصر وانطلق إلى

الملكوت، كن خفيفًـا فارغًـا تصل إلى عدمية الوجود، فإن وصلت رأيت الله".

تكفَّـل بغسل الجسد وتكفينه بمساعدة الشاب السائل، وتمت مراسم الدفن في هدوء لكن قلب ناي ظل مضطربًـا لأيام.

وما الدنيا إلا جيـفـة مستحيـلــة
عليها كلاب همها اجتذابـهـــــا
فإن تجتنبها كنت سَلَـمًا لأهلهـا
وإن تجتذبـهـا نازعتـك كلابها

النهاية..

كانت هذه الحادثة هي الفصل الأخير لتذكُّرِهِ الألم، ومن بعدها ترك كل الأحمال تذهب إلى غير رجعة، فكان الشفاء الأخير من قبضة الألم والحب والحياة.
استحال ناي إلى فانٍ يتعلم دروس الأبدية والخلود.

مرت الأيام وهانت الخطوب رويدًا رويدًا، يومًا بعد يومٍ شف طيف الحياة الرَّقراق في عينه، فبعد أن كانً الأسى باتت السكينة، حيث بَقِيَ الحب يزوره لييسر عليه مشاقَّ الحياة ووعر أحداثها، لكنه لم يتعدَّ كونه ذكرَى جميلةً يستعصي على العقل إنكارها.

يجلس كل يوم على كُرسيٍّ من خَيزُران في ركن الشرفة، تُقبِل الروائح القديمة فتعمر جنبات الروح، يتابع الجيران المسنين وهم يضربون على أوتار المتعة في انبساط، يتابعهم وهو يستمع إلى الموسيقى المنصبَّة يوميًّا من دكان أحدهم، يطلُعُ النغم طيِّعًا فيمس شغاف الفؤاد، وهو يُغمِض عينيه ويسلم نفسه إلى النغم الذي يطربه ويربت على خفايا روحه، يتمايل معه ويدندن وهو يرشف من كوب الشاي بالنعناع برَويَّة واستمتاع، والموسيقى في قلب الحي تضرب بشجن أكبر وعزمٍ أصلُه الذوبان في مناحي اللحن ومجاهل السعادة.

ثَمَّ برودة منعشة تسري في الجو..
يتباعد غمُّه ويحتويه هذا النورُ المُدهِش، تختلط أيامه برائحة مسك لا مثيل لها، بَخور يتراقص دخانه في الهواء فرحًا، ملائكة تصفق بأجنحتها في الأفق، الهواء ذاته يبدو له ريح هادئ يحمل نفسه إلى بدايات زمن الصفاء، قبل الألم والغياب...

تجري روحه في السماء بين البساتينَ خضراءَ وبين حقول الوجد، يدور العالم وتتبدى له غياهب عقله المظلم، فعقله الآن بريء من هذه الدنيا، هو الآن مع قلبِه وقلبُه يعيش الحقيقة.

لم يحتَـج من الدنيا إلا إلى هذه اللحظات التي يقضيها مع نفسه، هذه اللحظات القليلة المختلسة، حينما يعلو بروحه فوق كل شيء ويرضى بما قُـدِّر له من هذه الحياة الجميلة، وفي الليل يهدأ القلب وتسكن النفس وتتماثل الأشياء وتذوب التفاصيل فتتشابه المعالم وتهفو رُوحُـه إلى الكتابة.

يدرك الآن أن ليس على الأرض روحٌ مثل روحه وأن كل ما حدث سلفًـا- له تفسير حتمي، نعم، أرَّقـه كثيرًا تفكيرُهُ في ذلك التفسير، لكنَّ سلامًا يأتي في وقت ما، تفرضه منظومة الحياة نفسها، لذا أحب أن يكتب ما انتهت إليه التجربة من سلام نفسي أقرب إلى التصوف.

عندما نعاني التخبط وعدم الاحتمال.. يزورنا سلامٌ في صورة نسيان وعدم اكتراث أو حتى زهد في الحياة نفسها، لأن الرُّوح أهمّ، وهي التي طلبت الإنقاذ العاجل، وهي التي أبقت له براءته في هذا العالم المجنون لذا فلن يعالج الإنسانَ إلا نفسُه.

وببعض التأمل وجد أن عمره كله أحلام مؤجلة، فسأل نفسه:

"هل أحتاج إلى الخروج من هذه الدائرة المرهقة إلى العالم أم أحتاج التقوقع والرضا بالواقع؟"

دعاه كل ما حوله إلى الخروج، فلن يبقى من الإنسان إلا التمرد والإباء، وهو يعلم أن الحب مجنونٌ قد يعود، وأن جميلة عاشقةٌ قد تعود، وأن الثورة حلم قد يتحقق... لكنَّ رُوحه إن بهتت فلن تعود!

كل المسألة أنه اختبار من الحياة، هل يتمسك؟ هل يبقى؟ هل يخون الحلم؟...

أخيـرًا استكانت الفرحة في قلبه بعدما كان قلبه يفتل جدائلَ من الوجع لم يكن يعرفها على الإطلاق، وكل قلاع اللوعة ذابت في صرخة مكتومة بلا مصير.

يقول شمس التبريزي:

"النور والنار حروف إن استُبدِلَـت جنحَ المعنى وتضادَّ، وإنَّمـا كم بينهما! إذا أراد الله أن يكون نورًا كان، وإن أراد نارًا تكُـن، لذا لا يجب أن يَحُـول بيننا وبين الله بشر".

الروح سيدةُ نفسِـها، فإن تحررت رأينا الله، ذا السلطانِ والحسِّ والعِشق.

يرافق ناي طيفُ جميلةَ الشفيف في غيبة الرحلة ويسمع همسها في أذنه، فـلـو أن اللحظات الجميلة تطول!

يستدير نحوها مبتسمًـا وهو يحدق في طيفها، في شوارع النور داخل عينيكِ أطوف، بيننا يا جميلة أسطورة فريدة جعلت الكون بأسره مجرد شارع صغير نجوبه معًـا.
من خاننا في الحقيقة يا حبيبتي؟ هل هي الطريق؟ هل هو الظن؟ الخوف؟ هل هو الله؟!

في غُـبـشَـةِ الفجرِ كلُّ التفاصيلِ سَاجِـيـةٌ، مضى يـتَرتَّـلُ في الشوارع حتى اقتربت قدماه من كنيسة مفتوحة فـدلـف إليـها؛ وَدَّ لو نزع قلبه وطهَّـر ما تبقى فيه من الألم والجُحُود في رحاب الإيمان، انقضت الصلاة فانصرف المصلُّون ولم ينصرف هو.. جاءه القسيس:
- انتهت الصلاة يا بني!

- يستريح قلبي هنا أكثر يا أبي.

تفرس القـسـيــس ملامحه ثم ابتسم في سكون وقال:

- كل القلوب تستريح هنا يا بني، المهم ألا تكون راحةً طارئة، لا بد أن تريح قلبك وتستريح بخلاص تامٍّ ولتتركْ أمرك إلى الله

- كان في قلبي همٌّ لا خلاصَ منه.

- كن صادقًـا مع نفسك وقلبك تسترِح.

كاد ناي يقول له:
-لا يحيرني ولا يبعث فؤادي إلا الله الذي عشقتـه وتخلى عني!
لكنه تذكر الراحة التي يعيشها فصمت.

هم القسيس بالقيام لكنه قال:
- في طريقك سوف تجد الله الذي بداخلك، اصبِـر، لا يعني الصبر أن تتحمل المصاعبَ سلبًـا؛ إنما يعنى أن تكون بعيد النظر، بحيث تثق بالنتيجة النهائية التي ستتمخض عن أي تجربة.

- وما الصبر؟

- الصبر أن تنظر الشوكة وترى الوردة، أن تنظر الليل وترى الفجر.
لقد خلق الله المعاناة حتى تظهَـر السعادة من خلال نقيضها، فالشيء من خلال نقيضه يظهرُ، ولأن الله ليس له نقيض فإنه يبقى مخفيًّـا.

- لكـنَّ العذابَ له ألمٌ لا يُحتمَـل!

- لكي تُولَـد نفس جديدة يجب أن يكون ألم، فكما أن الذهب يُـنـقَّـى بالنار فإن الحـبُّ لا يكتمل إلا بالألم.
...

حان الأصيل وقد أسـنـد ساقيه كعادته إلى أحجار السور المتهالك المطل على النيل شاخصةً عينُه نحو السماء، يراقب أسراب الحمام الهاربة مرحًـا، بعضها يهوِي من السماء وقد أرخى جناحيـه في استسلام، ينقضُّ على الماء ليلتقط سمكة ويعاود الطيران بصيده فَرِحًـا.

يتأمل ناي ويحتوي عناصرَ الاتصال مع الطبيعة أمام عينه، فكلها تصلح للاتصال مع الله، الريح والشجر والجبل والنهر، يمكن أن نُخرِج من ذلك كله حقول اتصالٍ لا نهائية به، هذه الفكرة علينا أن نوجه رُوحنا نحوها.

الصدفة منشأ العشق، والتوحُّـدُ أبو الفضائل، التوحد مرآة الروح، عدسة مكبرة تظهر العيوب والنقائص، وفي الوَحدة نمارس جلد الذات في تأنٍّ.

في المساء تكون الدنيا مغسولة بالسَّكـيـنـة، يمشي خلف ظلال الأشجار القليلة تحت إنارة القمر المتسربلة، تفتحُ عليه شبابيكُ الوجد من السماء فرحةً فيخرج جسده الذي يقيده ويطير، لكنَّه لا يدنو من السحاب أكثر مما يستلزم حتى لا تبتل روحه، يطل على العالم الرتيب ويخرج له لسانه...

"لن أكتفي بك أيها العالم!"

يستمع إلى الموسيقى الهادرة في خشوع من هاتفه المحمول وتستقبل أذنه صوت محمد منير ينادي:

آه يا عشاق الحياة...

انتهت.

9 \ 7 \ 2019